

النَّيْسِيرُ فِي النَّفْسِيرِ

الجزء الثالث

للعمدة - يوسف

تأليف

العالم الرباني الكبير فقيها القرآن

السيد بدر الدين بن أمير الدين الحوئي الحسني

رضوان الله عليه

تحقيق

محمد بدر الدين الحوئي

عبدالله بن محمود الغزي



مؤسسة مصطفى الثقافية

التفسير في التفسير

تأليف العالم الرباني الكبير فقيه القرآن السيد/ بدر الدين بن أمير الدين الحوثي رضوان الله عليه
تحقيق: السيد/ عبد الله بن حمود العزي ، السيد/ محمد بدر الدين الحوثي

الطبعة: الأولى ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م

جميع الحقوق محفوظة ©

قياس القطع: (٢٤×١٦,٥)

عدد المجلدات: (٧)

الصف والإخراج: مؤسسة المصطفى الثقافية

إخراج وتنسيق / علي بن حمود العزي

رقم الإيداع بدار الكتب اليمنية: (٢٠١٣/٣٢٥م)



مؤسسة المصطفى الثقافية

جميع الحقوق محفوظة

مؤسسة المصطفى الثقافية

اليمن — صعدة

جوال: (٠٠٩٦٧١١٣٧٧٧٢) - (٠٠٩٦٧-٧٣٧٩١٢٧٧) - (٠٠٩٦٧-٧١١٦٦٤٧٥٩)

بريد: hbbhd@gmail.com - almostafa.ye@gmail.com



التفسير في التفسير



سورة الفاعل



سُورَةُ الْأَعْرَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَصِّ ۝ كَتَبْنَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ
وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ أَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن

ابتداء تفسير (سورة الأعراف)

قال الشريفي في (المصاييح): «سورة الأعراف مائتان وست آيات مكية غير ثمانى آيات:

﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي...﴾ إلى ﴿وَأَذِّنْ تَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ فإنها مدنية» انتهى.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ تقدم في تفسير (الفاتحة) تفسير

البسمله، وتقدم في أول تفسير (سورة البقرة) في الكلام في الحروف المذكورة في أوائل السور، ولا إشكال أنها عبارة عن معانيها المعروفة المعبر عنها في (ألف، باء، تاء، ثاء.. إلخ) التسعة والعشرين اسماً للحروف التي يتركب منها الكلم، فألف للحرف الأول من (أنا) ومن (أمر) ومن غيرهما، والحرف الثاني من (رأى) ومن (نأى) وغيرهما وما في سائر الكلام منه سواء في أول الكلمة أو أثنائها أو آخرها.

وهكذا (اللام) اسم للحرف الثاني في (لفظ الجلالة) وفي (إله) وفي (علم) وما هو منه في سائر الكلمات، سواء في أولها أو أثنائها أو آخرها، وهكذا الكلام في (ميم) وفي (صاد) فالكل أسماء لحروف تستعمل في تركيب الكلام، فهذا لا إشكال فيه، إنما الإشكال في الغرض المقصود الذي لأجله ذكرت في أوائل السور، فقيل: أعلم به العرب أنه - أي القرآن - مركب من حروف كلامهم في سياق التعجيز بسورة من مثله تأكيداً للتعجيز.

دُونَهُ أُولِيَاءٌ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢﴾ وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٣﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا

قلت: يحتمل أن هذا من جملة الغرض فيها، ويحتمل مع ذلك أنها ذكرت إعلاماً للعرب أنه أوحى إلى رسول الله ﷺ كلاماً مؤلفاً من الحروف المعروفة ليدل بذلك على أنه وحي حقيقة نفس الكلام المؤلف من الحروف لا مجرد المعاني، وهذا يظهر في قوله تعالى: ﴿حَم * عسق * كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ﴾ [الشورى: ١-٣].

وقيل: ذكرت الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها للقسم بها؛ لأنها في بعض السور تقترن بذكر مقسم به مثل: ﴿حَم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الزخرف: ١-٢] فأقسم الله بها كما أقسم بغيرها من ما يجتمع فيه أنه آية ونعمة، مثل: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالتَّوْنِ﴾.

وقيل: ذكرت الحروف المذكورة وفيها سر لمعان يُطلع الله عليها من هداه لها. ﴿كِتَبٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ أي ذلك أو هذا كتاب أوحى إليك أي هذا القرآن أنزله الله كتاباً يكتب ليحفظ وتتناقله الأمم وتتوارثه الأجيال، محفوظاً بالكتابة في المصاحف ﴿أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ بل عليك أن ينشرح لك صدرك، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ [النساء: ٦٥] والخرج: الضيق.

﴿لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالإنذار بالقرآن من أهم مقاصد إنزاله إلى رسول الله ﷺ لشدة حاجة الناس إليه بسبب غلبة الجهل وكثرة الشرك على اختلاف المشركين فيه، وكثرة الباطل في الجاهلية وعند أهل الكتاب ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ من الغفلة للمؤمنين الذين تنفعهم الذكرى.

﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ خطاب للمنذرين وللرسول ﷺ وللمؤمنين وهو أمر باتباع القرآن، أو هو عام له ولسائر الوحي من الله.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ رَّبِّكُمْ﴾ تنبيه على وجوب اتباعه على العباد؛ لأنه من مالكم؛ ولأنه حق وصواب، لأنه من الله، ولأنه رحمة للعالمين من ربهم الرحيم بهم.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ من دونه يحولون بينكم وبينه ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ مَنْ تتولونهم وتحبونهم فلا يحملكم توليهم على اتباعهم وترك ما أنزل الله. وقلت: يحولون بينكم وبينه؛ لأن معنى ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أن تتبعوهم من قبل أن تتبعوا القرآن؛ لأن معنى من دونه بينكم وبينه، فكان المعنى: لا تجعلوا الأولياء أسبق إلى اتباعكم لهم، ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَقَلَّ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [العنكبوت: ٢٥] ومنه إتياع الآباء وترك القرآن من أجل اتباعهم، ومنه إتياع قوانين وضعها البشر برأيهم غير مستندين إلى القرآن.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ فتؤثرون إتياع آيات الله على إتياع من تحبون لتذكركم حق الله عليكم، وأنكم في الآخرة ترجعون إليه فيجزيك بما قدمتم، وأن من خالف أمر الله يتعرض لعذاب عاجل وآجل.

﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ أهلكناها بسبب كفرهم بما أنزل الله ومعصيته وإيثارهم إتياع أولياءهم على إتياع ما أنزل الله ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا﴾ أي بيّتهم في الليل ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ في حال قيلولتهم في النهار.

قال في (الصحيح): «القائلة: الظهيرة، يقال: أتانا عند القائلة، وقد يكون بمعنى القيلولة، وهي: النوم في الظهيرة، يقال: قال، يقل، قيلولة..» انتهى المراد، وفي (مفردات الراغب): «قلت قيلولة: نمت وسط النهار» انتهى المراد.

﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٦﴾ فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٦٧﴾ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ

فمعنى ﴿قَابِلُونَ﴾ نائمون في الظهيرة وسط النهار، وعطف ﴿فَجَاءَهَا﴾ على ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ لجره مجرى التفصيل الذي يعطف بالفاء على الإجمال كما تقول خطب فقال كذا.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ لم يدعوا أن الله لم يرسل إليهم منذراً، أو يدعوا أنه لم يمكنهم القبول من النذير، أو يدعوا أن النذير لم يأت بحجة تدل على صدقه، أو أن النذير كان مجنوناً أو كذاباً مجرباً في الكذب؛ ولذلك أعرضوا ولم ينظروا في دليل صدقه، بل لم يجدوا أي حجة وأي دعوى سوى الاعتراف بأن السبب لهذا العذاب المهلك من عند أنفسهم وهو الظلم بالإعراض عن النذير، وإيثار الهوى، وإيثار اتباع الأولياء على اتباع أمر الله ربهم، وهكذا نجد الناس إذا جاءت المصائب من الجذب أو تسليط الظلمة ليهلكوهم قالوا ذنوب الناس وإعراضهم عن طاعة الله ولم يقف حال المعرضين عن ما أنزل الله إلى اتباع أوليائهم على العذاب العاجل وحده، بل لابد من العقاب الآجل وهو أشد وأبقى.

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ ألم تأتكم رسل؟ ﴿مَلَا أَعْجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [النقص: ٦٥] ﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ هل بلغت الرسالة كما أمرتم؟ و﴿مَلَا أَعْجَبْتُمُ؟﴾ وهذا السؤال سؤال حساب لا سؤال تعرف، فهو سبحانه أعلم بما قدموا كلهم.

﴿فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ نقص عليهم في الآخرة سيرتهم في الدنيا، وما قدموا، وما أخروا، وما أسروا، وما أعلنوا بعلم ما فيه

فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ

تظنن، بل العلم الذي هو شأن الرقيب عليهم الشهيد على كل ما عملوا، وهو مع ذلك ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣] ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩] ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ كما قال عيسى عليه السلام: ﴿أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧] وكما قال تعالى: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوسِسُ يَوْمَ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] وغير ذلك، فلا يقال له: غائب، ويُجتنَب التعبير عنه سبحانه بالغائب.

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ تقدير مقادير الأعمال ليكون الجزاء تابعا في مقداره لمقدار العمل على التحقيق، بلا تساهل ولا مجازفة ولا إهمال لشيء من الأعمال ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧] فهذا العدل هو الحق، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: العدل» انتهى.

﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ كانت له حسنات مقبولة نافعة ثقل بها ميزانه ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون الظافرون بالنجاة والسعادة الدائمة.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ لم يكن له من العمل الصالح ما يثقل به ميزانه؛ لأن أعماله أحبطتها سيئاته، فكانت ﴿كَسْرَابٍ يَقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩] ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ وما أعظمها من مصيبة أن حياتهم الآخرة ليست لهم، ولم يبق لهم من أنفسهم أي فائدة وإنما يبقون ليعذبوا.

﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ فكما خسروا أعمالهم خسروا أنفسهم وسبب ذلك كله أنهم كانوا في الدنيا بآيات الله جل جلاله يظلمون، والظلم بآيات الله يكون التكذيب بها، ويكون الاستهزاء بها، ويكون الاستخفاف بها، لأنه كله ظلم متعلق بآيات الله.

مَكَّنَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾
وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا

وهذه الآيات كما ترى ليس فيها ذكر لموازنة بين الحسنات والسيئات، بل ظاهرها أن الموزون هو الحسنات فقط، وأما قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٨] فهو كذلك لا يفيد الموازنة بين الحسنات والسيئات، إنما يفيد اعتبار السيئة في الجزاء وإن صغرت، ولو لم تكن إلا مثقال ذرة فلن تهمل ولن يغفل عنها، ولن تنسى بل يجدها محضرة في كتابه وفي جزائه، فأما الموازنة بين الحسنات والسيئات فلم تذكر.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿مَكَّنَّاكُمْ﴾ أيها الناس في الأرض لتتفكروا بها وتعيشوا فيها والتمكين للبشر في الأرض تقويتهم على الانتفاع بمنافعها، وجعلها لهم قراراً، وإعدادها لانتفاعهم بها.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً﴾ قال الراغب: «العيش: الحياة المختصة بالحيوان - ثم قال -: ويشق منه المعيشة لما يتعيش منه» انتهى، وقال الشرفي في (المصابيح): «﴿مَعِيشَةً﴾ جمع معيشة ما يعاش به من المطاعم والمشارب أو ما يتصل به إلى ذلك» انتهى. وعبارة (لسان العرب): «معاش: ما يعيشون به، ويحتمل: أن يكون الوصلة إلى ما يعيشون به» انتهى.

قلت: (الباء) للالة في قوله: ما يعيشون به، فقد دخلت الوصلة في جملة الآلة، فالأولى أنه عام لما يعيشون به أساساً ولما يتوصلون به إلى ما يعيشون به، فبين الله نعمته على الناس، ثم بين أن شكرهم قليل وهو حث على الشكر.

إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ أيها الناس أي خلقنا هذا النوع من الحيوانات والمراد ابتدأنا خلقهم بخلق أولهم وهو آدم، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠] وخلق الإنسان إيجاده مقدراً، وتصويره تحصيل صورته مثلاً: جعل عينين، ولساناً وشفتين، وجعل الإنسان متصباً على رجله، يعمل بيديه.. وغير ذلك، فهذه نعمة عظيمة وتكريم للإنسان بما فضله به على سائر الحيوانات.

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ وهذا تكريم عظيم للإنسان والنعمة على الوالد نعمة على الولد، وهذا سجود تكريم ليس سجود عبادة ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ﴿لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ تصريح بمفهوم الاستثناء، لأنه ينبي عليه الكلام الآتي.

﴿قَالَ﴾ ﴿اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ هذا سؤال عن الباعث على المعصية، وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ تحقيق للمعصية بأنه أمره بالسجود، فلم يسجد حين أمره، وقد علم سبحانه ما منعه، ولكن سأل ليجيب بذكر ما منعه، وأمره بالسجود هو في ضمن قوله تعالى للملائكة: ﴿اسْجُدُوا﴾ وهو يدل على: أنه قد كان بعبادته الماضية في السماء صار من الملائكة، وإن كان أصله من النار كسائر الجن؛ ولذلك دخل في عموم أمر الملائكة، ولا مانع أن يكون اسم الملك ليس مفهومه نسب معين بل حالة من العبادة والكرامة بسببها مع الكون في السماء مقر العبادة الخالصة ومقر الملائكة كما يسمى الرسول رسولاً سواء كان رسولاً إلى الناس أو رسولاً إلى النبي من الله، أي أن اسم الملك إنما هو صفة لا اسم جنس مخصوص، وفي الآية دلالة على أن صيغة: افعل تسمى أمراً، وأنها تفيد الوجوب من حيث هي أمر.

فَأَهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾
 قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا

وقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾ قيل فيه: (لا) صلة في الكلام للتأكيد، وقال بعض المفسرين: «والظاهر أن (مَنَعَ) مضمَّن معنى حَمَلَ أودعى، والمعنى: ما حملك أو دعاك على أن لا تسجد مانعاً لك» انتهى.

قلت: ومن هذا قول الراغب، أي ما حملك، وحصلت به الدلالة على أن السؤال ليس سؤالاً عن عذر مانع من السجود، بل هو سؤال عن الباعث على المعصية الذي حمله عليها، وعلى هذا فـ(لا) نافية، وصح ذلك لتضمنين (مَنَعَ) حَمَلَ، ومثل هذا التضمنين مشكل؛ لأنه لا يستقيم إلا مع حذف مفعول منع، وتضمنين الفعل ضد معناه وهو بعيد، وأقرب منه جعل (لا) صلة للكلام يحسنها أن أصلها النفي، وأن المقصود بالسؤال عن المانع من السجود السؤال عن الحامل على تركه، فحَسُنَ جعل الكلام في صورة النفي ملاحظة للمعنى المذكور - والله أعلم.

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ هذا ذكر الباعث على المعصية، وأنه كونه في دعواه خير من آدم التي احتج لتصحيحها بأن ربه خلقه من نار وخلق آدم من طين، وهذا ليس مبرراً للمعصية؛ لأن عليه امثال أمر المالك المنعم، وأن يسلم لحكم الله لأنه الحق، فامتناعه عين الباطل و الإنقياد للكبر، وليس له أن يجادل أحكم الحاكمين الذي لا يظلم أحداً ولا يأمر بالباطل؛ ولهذا ترك الرد عليه؛ لأنه لم يأت بحجة إلا مجرد التعبير عن استكباره؛ لأن أصله من النار ولا يلزم منه أنه خير من آدم؛ لأن آدم شرف بروحه المخصوص، والتسوية التي اختص بها، وإعداد فطرته للعلم الغزير.

﴿قَالَ فَأَهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ كانت عقوبة عاجلة طرده من مكان شريف رفيع أو مكانة شريفة رفيعة،

وقد أبهم هنا، وفي سائر مواقع القصة فلنبهم ما أبهم، ولا نقل هو السماء التي هي محل العبادة، ولا الجنة ولا الرئاسة، فذلك أمر زائد على التفسير؛ لعدم الدليل عليه، وإن كان ذكر الهبوط يوحي بأنه في السماء جملة من دون تعيين لمقر الملائكة، وكان الظن أنه مقر الملائكة؛ لأنه مظنة التنزيه عن إبليس من حيث أنه محل العبادة بمنزلة المسجد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عِلْمِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨] فلا نجزم بذلك جزماً.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ يدل على أنه لا يصلح للبقاء فيها في حال تكبره، وليس من شأنه إلا أن يُطْرَدَ عنها فرتب عليه طرده عنها بقوله - عز وجل - : ﴿فَأَخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ والصاغر: الذي يستحق المنزلة الدنيئة السافلة الحقيرة، فهذا حكم من تكبر عن الحق كما أن من تواضع لأمر الله رفعه الله.

﴿قَالَ أَنْظِرْنِي﴾ في الحياة هذه ﴿إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ﴾ يعني بعث آدم وذريته أو كافة المخلوقين، وذلك يوم القيامة حين ارتفاع التكليف ومجيء وقت الجزاء ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ إلى نهاية وقت التكليف وهو يوم الوقت المعلوم الذي اقتضت حكمة الله إنظاره إليه ابتلاءً للعباد واختباراً يظهر فيه من يطيع الله ومن يطيع عدو الله وعدوه، فأما بعد ارتفاع التكليف فلا وعد له بالإنظار إلى يوم يبعثون.

وفي التعبير بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ إشارة إلى أن إنظاره كان مقدراً من قبل سؤاله، فقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ خبر عن أنه منظر من قبل، لا أنه أحدث له الإنظار إجابة لدعائه، لأنه لو كان إجابة كان إنشاء لا يؤكد بـ(إن) ولكنه أكد بـ(إن) لثلا يتوهم عدو الله أن الإنظار إجابة لدعائه لم يكن مكتوباً له من قبل، ونظيره لو قال رجل: اعطني هذا القلم، فقلت: إنه لك، لأنه إنما نسيه عندك من قبل.

أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ
وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ
﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ

﴿١٦﴾ قَالَ ﴿الشَّيْطَانُ﴾ ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ أي لآدم وذريته
﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لأصدهم عنه، وقوله: ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ يعني بما
سببت لغوايتي؛ لأنك أمرتني بالسجود وأنا لا أسجد له؛ لأنه عليّ أمر ثقيل
كالاستحيل، فقد أغويتني به أي سببت لغوايتي ومعصيتي لك، وعُدولي عن
طريق الرشد، فبسبب ذلك أقسم لأنتقم منهم؛ لأن غوايتي كانت من
أجلهم ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾ لإغوائهم ﴿صِرَاطَكَ﴾ أي اعترضهم في سلوكهم على
دينك لأصدهم عنه، فصراط الله: هو دينه الذي ارتضاه لعباده، شبهه
بالطريق يقعد عليه ليصد المارة عن سلوكه ويحولهم إلى الغواية والمشى في
غير طريق هداية.

﴿١٧﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ
شَمَائِلِهِمْ ﴿لَا تَجِدُنَهُمْ﴾ لمحاولة إغوائهم من كل جهة، فإذا أتيت الإنسان من
جهة فلم يرض أتيته من جهة ثانية وهكذا، بل وإذا كان يوافق حين آتية من
بعض الجهات ومن الجهة أو الجهات الأخرى أتيته منها، فالحاصل أنه يأتيه
من كل جهة من الجهات الأربع سواء أطاعه في بعضها أم عصاه.

وهذا تمثيل لاحتياال الشيطان لإغواء الإنسان من أي جهة يجدها مدخلاً
على الإنسان كالتخويف من الفقر في المستقبل والتخويف من الفقر على من
يخلفه من أولاده والتثقيل للطاعة والتثبيط عنها والدعوة إلى الزيادة والغلو
والدعوة إلى بدعة يزينها له ديناً، والدعوة إلى الفواحش والظلم وتزيينها.

مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَتَذَكَّرُ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا

﴿وَلَا تَحِدْ أَكْثَرَهُمْ شَكْرِينَ﴾ لأنني أستطيع إغواءهم إلا عبادك منهم المخلصين، وفي قوله: ﴿وَلَا تَحِدْ أَكْثَرَهُمْ شَكْرِينَ﴾ احتمالان: أحدهما: أنه يفوت عليهم فضيلة الشكر ويلحق بهم عار الكفر فيوقعهم في مثل ما وقع فيه من الخسة والدناءة وسقوط المنزلة ويفوت عليهم ثواب الشكر وفائدته العاجلة.

واحتسأل: أن عدو الله بجهالته وقلة معرفته بالله أراد أنه يفوت عليه شكر عباده، بمعنى أنه غرض لله تعالى، فوته عليه جهلاً منه أن الله غني عن العالمين، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] وكان هذه المحاورة وقعت قبل خروجه عن مكانه الذي طرده منه بعد أمره بأن يخرج، فلذلك أعيد الأمر بالخروج إهانة له وتأكيداً لطرده.

﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْهُومًا مَذْهُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿مَذْهُومًا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: معيب مرجوم ﴿مَذْهُورًا﴾ فيه معناه: مبعداً» انتهى، وفي (الصحيح): «الذام: العيب يهزم ولا يهزم» انتهى المراد، وفي (الصحيح): «الذحر: الطرد والإبعاد» انتهى.

﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي من آدم وولده ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ﴾ أي من الجن ومن ذرية آدم، دخل الجن في خطاب إبليس لأنه منهم، و(من) في قوله تعالى: ﴿مِنْكُمْ﴾ بيان ما ملئت منه، وقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ..﴾ إلى آخرها جواب القسم ساد مسد جواب الشرط، فهو كقوله تعالى: ﴿قَالَ ادْعَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ..﴾ [الإسراء: ٦٣] وقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [مرد: ١١٩] والمراد من تبعه ولم يتب.

الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾

وقوله تعالى: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تحقيق لعموم الثقلين الجن والإنس إنه يملأها منهم، وفي هذا دلالة على أنه غني عنهم لا يبالي بغوايتهم ولا بمصيرهم في جحيمهم، وأن إبليس ومن تبعه هم الخاسرون ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُمُ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩].

﴿وَيَتَذَكَّرُ أَسْكَنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ هي جنة فيها نعمة لآدم وزوجه لعلها في الأرض وهي معروفة عند آدم، فالتعريف لأنها معهودة عند آدم.

﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ تعبير عن كثرة المأكول وأنه موجود حيث شاء أن يأكلا ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ وهي أيضاً معهودة لآدم فصحت الإشارة إليها كقوله ﷺ: «من أكل من هذه البقلة» يعني الثوم، فيحتمل أن الإشارة إلى جنس كما في الحديث، وقد فسرت بشجرة البر، ويحتمل أن الإشارة إلى عين.

﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ بمعصية ربكما وكل معصية لله فهي ظلم؛ لأن معصية المالك المنعم حيف وجور؛ لأن الطاعة حق على العبد المنعم عليه.

﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ قال الشريفي رحمه الله: «قال في (البرهان: الوسوسة فهو إخفاء الصوت بالدعاء، يقال: وسوس له إذا أوهمه النصيحة ووسوس إليه إذا ألقى إليه المعنى» انتهى المراد.

﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا﴾ وسوس لهما من أجل أن يكشف لهما ما ستر عنهما ﴿مِنْ سَوْءَاتِهِمَا﴾ من عيوبهما التي تسوءهما، أو من عوراتهما.

وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿١٦﴾ فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا مَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٧﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا

﴿وَقَالَ﴾ في وسوسته ﴿مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا﴾ كراهة ﴿أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ إذا أكلتما منها، والملائكة ملوك يتصرفون في العالم تصرف الملك، وهذا ترغيب في أن يكونا ملكين وقد أسجد الله لآدم ملائكته فمرجه إلى الترغيب في الملك، كقوله: ﴿هَلْ أَذُكَّ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠] ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ الذين لا يموتون، ولا يبالي أن يكذب بدعوى أن الملائكة ملوك، وبدعوى أن من المخلوقين خالدين لا يموتون أبداً، فقد أوهمهما أن النهي عن أكلهما من الشجرة ليس لمصلحتهما.

﴿١٦﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿في﴾ (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ معناه: حلف لهما» انتهى، ومثله في الصحاح وغيره.

﴿١٧﴾ فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ ﴿(دلاهما): أوقعهما في الخطر أي في المعصية، وفي شعر معاوية في مولاه حريث:

ودلاه عمرو والحوادث حمة وقد يهلك الإنسان من لا يحاذر

و لعل أصله التذلية في الحبل في البئر أو نحوه، والغرور كلامه الذي غرهما به.

﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا مَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: فجعلوا يخفضان الورق بعضه إلى بعض ينظمانه» انتهى، وخصف الورق عليهما، الأقرب: أنه استعداد للخروج من الجنة، بسبب أن لباسهما نزع عنهما، ليضطرراً إلى

لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٢﴾ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٣﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا

العمل لتحصيل اللباس كما يعملان لتحصيل الأكل والفراش والمسكن، فكان استعمال الورق لباساً أول ضعف الحال.

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ وفي هذا تذكير لهما بأنهما قد زلّا من جهة أنفسهما لا غترارهما بغرور الشيطان، لا من عدم التحذير من الله.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي تابا إلى الله واعترفا بالخطيئة، ويرجح أن هذه هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه أي تلقنها، أي هداه لها فاهتدى لها وقالها فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم، ويظهر: أن هذا كان قبل نبوءة آدم، وأنهما كانا في أول أمرهما لما تشرع لهما شريعة إنما نهيا عن الأكل من الشجرة، وكان ذلك لطفاً لهما، ليستد حذرهما من الشيطان حتى ينجوا من النار، ويدخلا جنة الخلد؛ لأن التحذير من الشيطان لم يكن كافياً لهما وحده حتى جربا كيده وذاقا مرارة الإغترار بغروره، ورُبُّ ضارة نافعة.

فإن قيل: لا يخلو إما أنهما عند نهيهما عن الشجرة قد كانا بلغا حد التكليف أو لم يكونا بلغا حد التكليف، إن لم يكونا بلغا حد التكليف فكيف كانت معصية وتوبة؟ وإن كانا بلغا حد التكليف فكيف لم يكلفا بشريعة؟

وأجواب: أنهما بلغا حداً يصح فيه تكليفهما باجتناّب الشجرة، ولا يلزم منه أنهما بلغا حداً يصح في الحكمة والرحمة تكليفهما فيه بشريعة كاملة، أي أنهما كانا حديثي سن، قد حصل لهما بعض الصلاحية للتكليف، وعلى هذا تكون قصة الشجرة قبل تعليم آدم الأسماء وتعليمه بعد خروجه من الجنة، واصطفاه بعدما وجد له بنون.

تُخْرِجُونَ ﴿١٥﴾ يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكُمُ وَرِدْشًا
وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٦﴾

﴿١٥﴾ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴿١٦﴾ ظاهر الأمر بالهبوط لآدم وزوجه والشیطان والعدواة بین الشیطان وآدم وزوجه، ولعل الشیطان أهبط أولاً من السماء فصار إلى آدم وزوجه لإغوائهما، ولا مانع من أنه كان في الجنة إذا كانت نعمتها لآدم وزوجه وليس فيها لإبليس مثل ما لهما من اللذات، بل ولا مانع أن يكون له فيها متاع؛ لأنه مهمل كما في الأرض، وهذا يستقيم على أن الإهباط الأول من السماء وأنها المراد بقوله تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾.

﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ كأن الخطاب لهم، والحكم لهم ولذرياتهم، مثل ما سبق في قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ والدليل على هذا قوله تعالى:

﴿١٥﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرِجُونَ ﴿١٦﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا تُخْرِجُونَ﴾ يحتمل تخرجون من بطنها، ويحتمل تخرجون منها جملة إلى الجنة والنار وهذا أقرب، وهذا خطاب لآدم وذريته وما بعده خطاب لبنيه والخطاب الأول لآدم شمل ذريته بالتغليب وما بعده لبني آدم الذين وجدوا عند نزوله، ومن بعدهم يدخل في عمومه حين يوجد.

﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكُمُ وَرِدْشًا﴾ خطاب لبني آدم الذين كانوا موجودين في عهد آدم عند نزول هذا الخطاب، ثم من بعدهم حين وجدوا، فقوله: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ﴾ من مقول القول في الآية التي قبلها يذكر نعمة الله عليهم باللباس، ففيه فائدتان:

الأولى: مواراة السوءات أي ستر العورات، وهو تكريم للإنسان وتفضيل له على غيره من الحيوانات، وقد نبه على حاجته إليه بقوله: ﴿وَطَفِقًا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ وبقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم سَرَائِلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١].

الفائدة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَرِدْشًا﴾ فاللباس للإنسان بمنزلة الريش للطائر؛ لأن الإنسان في الغالب ظاهر الجلد لا يغطيه شعر كغيره من الحيوانات الأرضية، ولا ريش كالطيور، فجعل الله له اللباس قائماً مقام الريش للطائر ومقام الشعر لغيره من الحيوانات الأرضية الظاهرة، ولعله خص الريش بالذكر لإغناؤه في الدلالة على حاجة الإنسان إليه ونعمة الله به؛ ولأن الإنسان إن شاء لبس ثوباً واحداً فكان له خفة الريش، وإن شاء ضاعف اللباس فكان له وفرة الريش ونفعه في الدفع - والله أعلم.

﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ وأنزلنا عليكم لباس التقوى بإرسال الرسل وإنزال الكتب وهدايتكم للتقوى إن اهتديتم ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي لباس التقوى ﴿خَيْرٌ﴾ لأنه ستر يستر صاحبه عن معائب الأعمال ورذائل الأخلاق، وهو شرف لصاحبه ووقاية نافعة في الدنيا والآخرة.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فالآية في اللباس الذي أنزله من القطن وغيره وهدى الإنسان لغزله ونسجه والتستر به واللبس له لحاجته إليه لظهور جلده، ومخالفته في ذلك للحيوانات الأرضية الظاهرة والطيور، فهذه دليل على علم الله تعالى وقدرته حيث خلق الإنسان مخالفاً في ذلك، وحيث جعل اللباس له ليقوم مقام الريش والشعر، والآية في الهداية إلى لباس التقوى حيث ميز الإنسان عن سائر الحيوانات بالعقل، وميّزه في قدرة العمل،

يَبْنِيْ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطٰنُ كَمَا اَخْرَجَ اٰبَوَيْكُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَا ۚ اِنَّهُۥ يَرٰرَكُمْ هُوَ وَقَبِيْلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۚ اِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطٰنَ اَوْلِيَّاءَ لِلَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ ﴿٢١﴾ وَاِذَا فَعَلُوْا

وجعل له الهداية والتعليم الذي امتاز به عن السباع والبهائم، والذي لولاه لكان في أسوء حالة من التظالم وسوء الحال في التناسل والتربية وغير ذلك، حيث لا يكون له مع زيادة قدرته وفهمه وازعاً يحمل على العدل والإحسان، وينظم له معاملته فيما بينه على ما تستقيم به معيشتة وتكافله وتعاونه وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي بني آدم ﴿يَذْكُرُونَ﴾ وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة، لظهور إعراض أكثرهم فكفى توجيه الخطاب لمن يستمع وينتفع، أو لأن أكثرهم لم يكن قد وجد، وفي هذه الآية الكريمة ردّ على من يترك اللباس تهاوناً به وكفراً، ومن يتركه في حال الطواف إماً تدبناً لئلاّ يجب عليه التصديق به في اعتقاده لأنه طاف فيه.

﴿يَبْنِيْ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطٰنُ كَمَا اَخْرَجَ اٰبَوَيْكُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَا ۚ اِنَّهُۥ يَرٰرَكُمْ هُوَ وَقَبِيْلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۚ اِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطٰنَ اَوْلِيَّاءَ لِلَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ﴾ في هذه الآية الكريمة تحذير من الشيطان وإشارة إلى وسيلة النجاة من سلطانه، فالتحذير:

أولاً: بالدعوة لهم إلى أن يعتبروا بأبويهم حيث أغواهما الشيطان حتى أخرجهما من الجنة أي سبب بإغوائه لهما لخروجهما من الجنة، تأديباً لهما وكون غوايتهما نهاية للبقاء فيها، لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يٰٓآدَمُ اِنْ هٰذَا عَدُوُّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ [آية: ١١٧] إلى آخر الآيات من (سورة طه).

وقوله تعالى: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ كقوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَ﴾ أي أنه سبب بإغوائهما لإخراجهما في حال نزع اللباس عنهما بسببه أي بسبب إغوائه، ففيه بيان شدة عدوانه حيث أغواهما ليخرجهما ولينزع عنهما لباسهما ﴿لِيُرِيَهُمَا﴾ بإخراجهما ونزع لباسهما ﴿سَوْءَ تَمَامًا﴾ فيعلمنا أنهما ضعيفان في إرادتهما، ضعيفان في حزمهما، ضعيفان في حذرهما من عدوهما بحيث استطاع إخراجهما من الجنة، ونزع لباسهما الذي كان لهما في الجنة، ومغادرتهما محل الرفاهية إلى مسكن الشقاء بتوقف تحصيل حاجاتهم على العمل لتحصيلها، ففي هذا عبرة لئيهما ليحذروا أشد مما أوقعهما فيه أن يدخلهم عذاب السعير، وهي الفتنة العظمى.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ﴾ أي الشيطان ﴿يَرْنُكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ ﴿وَقَبِيلُهُ﴾ سائر شياطين الجن، وفي (مفردات الراغب): «والقبيل: جمع قبيلة، وهي الجماعة المجتمعة التي يقبل بعضها على بعض» انتهى.

ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرْنُكُمْ..﴾ إلى قوله: ﴿..مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوُهُمْ﴾ تنبيه على أنهم يحاولون إغواء الإنسان وهو لا يشعر بهم؛ لأنه لا يراهم، ولذلك فالإنسان يحتاج إلى الحذر منهم في كل حال.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا الجعل هو ترك الشياطين يغوون الذين لا يؤمنون، بلا صارف من لطف الله ولا معونة على دفع إغوائهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ [النحل: ١٠٠] وهو ما نعبر عنه بالخذلان، وهذه الولاية هي أكبر المصائب من حيث أن الله تعالى يقول: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤].

فَحِشَّةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْنَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۖ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَىٰ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۚ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا

وأما الإشارة إلى وسيلة النجاة من سلطانه، ففي قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فافهم أن من يؤمن ينجو من تسلط الشيطان عليه، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ. ﴿الأنعام: ٩٩-١٠٠﴾.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْنَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ عطف هذه الآية إما على الآية التي قبلها، بمعنى أن الله حذر بني آدم من الشيطان ولم يحذر أكثرهم بل ينسبون ما أوقعهم فيه إلى الله انقياداً للشيطان، وإما على ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فهي من صلة الموصول، والأول أظهر؛ لأن المتمردين على الله المكذبين بآياته المجادلين فيها المصيرين على ذلك يخذلون، وإن لم يقولوا: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْنَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾.

﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَىٰ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ رد الله سبحانه قولهم، وبيّن كذبهم عليه بأن الله لا يأمر بالفحشاء، أمر بقول ذلك رسوله، وأن ينكر عليهم قولهم على الله ما لا يعلمون، وفيها دلالة على أنه لا يجوز القول على الله بغير علم لا في القطعيات ولا الظنيات، فينبغي التحرز في الفتوى وفي الحكم بأن يقول الحاكم أو المفتي: «الذي أرى» أو نحو هذا.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ في (الصحيح): «القسط - بالكسر - العدل» انتهى المراد، ومثله في (لسان العرب) قال: «وهو من المصادر الموصوف بها

الشَّيْطَانِ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٠﴾ * يَبْنِي
ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا

كعدل، يقال: ميزان قسط، قال: وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾
[الأنبياء: ٤٧] أي ذوات القسط» انتهى، وفي (المصابيح): ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل.
﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أمر الله رسوله ﷺ أن يقول:
﴿أَمْرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا﴾ وحسن عطف الأمر على الخبر، لأن الخبر يفيد
الأمر، فكانه قيل: أقسطوا وأقيموا وجوهكم، أو أن الأمر في المعنى محكي عن
الله؛ لأن الرسول ﷺ إنما يأمر بذلك لأن الله يأمر به، فكانه قيل: أمر ربي
بالقسط، وبإقامة وجوهكم، وإقامة الوجوه: التوجه بها لله وحده كما أمر.

قال الشريفي رحمه الله في (المصابيح): «قال في (البرهان): يعني توجهوا حيث
كنتم إلى الكعبة في الصلاة، واجعلوا سجودكم خالصاً لله دون ما سواه من
الأصنام والأوثان» انتهى.

فجعل ﴿مَسْجِدٍ﴾ مصدراً، أي عند كل سجود، ويحتمل: أن المراد
توجهوا لعبادة الله وحده عند إتيان كل مسجد، وهذا أقرب لإبقاء معنى
المسجد على معناه المعروف في الشرع، وفيه فائدة: وجوب استحضار النية
عند التوجه إلى المسجد للعبادة، ووجوب الصلاة في المسجد.

﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي ادعوا ربي مخلصين له العبادة كلها
من الدعاء وغيره ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ كما خلقكم أول مرة ﴿تَعُودُونَ﴾
في الآخرة، فأنتم محتاجون إلى إخلاص الدين لله؛ لأنكم تعودون إليه
فيجزيكم بما قدمتم.

﴿٢١﴾ ﴿فَرِيقًا﴾ منكم ﴿هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ ﴿هَدَىٰ﴾
لأنهم لم يستحقوا الخذلان فهداهم، وفريقاً استحقوا الخذلان وأن يتركوا
وشأنهم ضالين عن سبيل الحق.

﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾
 فحق عليهم أن يضلوا؛ لأن ضلالهم نتيجة حتمية لاتخاذهم الشياطين أولياء،
 كما قال تعالى: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلُّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ﴾
 [الحج: ٤] ولاكتفائهم بأن يحسبوا أنهم مهتدون مع نزول القرآن بالحق الواضح
 والدليل القاطع الهادي لمن اتبعه ومجيء الرسل قبله بالبيانات، كما قال تعالى:
 ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: ٣٦].

والراجع في قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا..﴾ ﴿وَفَرِيقًا﴾ أن نصب فريقاً على الحال،
 والثاني معطوف عليه، فالمعنى: تعودون يوم القيامة فريقين: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ
 وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ أي تعودون فريقين، ليجزي كل فريق بما يستحق.

والراجع أن قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ تذكير بالدليل على قدرته تعالى،
 سواء كان المراد ﴿بَدَأَكُمْ﴾ خلقكم أول مرة، وهو أظهر، أم كان المراد: كما
 بدأ خلقكم، فكل ذلك من دلائل قدرته تعالى على إعادتهم، فالإنذار
 بالعودة وإثبات قدرة الله عليها هو من أهم مقاصد القرآن، وذلك يكفي في
 التشبيه بالبدء، ولا دليل على أن المراد به: أنه بدأكم فريقين، فكما بدأكم
 فريقين تعودون فريقين، بل هو ضعيف؛ لأنه يخرج التشبيه عن الاحتجاج
 المؤلف في القرآن في مواضع عديدة إلى ذكر المناظرة بين حالهم في البدء
 وحالهم في الإعادة، وذلك ضعيف؛ لأنهم في حال البدء كانوا غير مكلفين
 فضلاً عن كونهم فريقين ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ ﴿وَفَرِيقًا..﴾ ﴿أَخَذُوا الشَّيَاطِينَ
 أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ وإذا ظهر ضعف هذا عند
 تفسير البدء بمعناه الحقيقي، فلا ملجئ لحمله على المجاز ليتسنى التشبيه
 المذكور كما يريدون.

تُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٢٦﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ

فأما قول من قال بذلك: لو كان المراد إثبات قدرته تعالى على الإعادة لكان المناسب أن يقال: يعيدكم؟!

فالجواب: أننا لا ندعي أن الكلام مسوق لذلك حتى يلزم ما ذكرت، وإنما السياق سياق الحث على الإخلاص، لأننا عائدون إلى الله، وذكر الحجة على العودة بقوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ لتأكيد الحث على الإخلاص، فهو عارض فلا يلزم أن يقال: يعيدكم؛ لأن التحذير من العودة هو الذي سيق له الكلام - والله أعلم.

﴿يَنْبِئُ ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ قد تقدم أن اللباس للإنسان كالريش للطائر، وأنه قائم مقام الريش، فالأقرب أن المراد بالزينة: اللباس، وهو أهم الزينة من حيث أن ستر العورة أهم من غيره من الزينة، ويناسب هذا ذكر المسجد؛ لأنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة، فقريئة الحال تساعد على تعيين اللباس للطواف وللصلاة في أي مسجد، بقريئة التعميم لكل مسجد، وليس خاصاً بالصلاة، بل ظاهره: أخذ اللباس عند إتيان المسجد، وهو ظاهرة حسنة للمسلمين في مجتمعهم؛ ولذا شرع لهم التجميل في الجمعة، والأقرب: أن الأمر للوجوب؛ بقريئة ذكر المسجد، ولو كان للإباحة ما كان خاصاً بالمسجد.

وأما قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ فيمكن أن المراد به: استحلال ما أحله الله واجتناب تحريمه، كما فعلت الجاهلية من تحریم بعضه كما مر في (سورة الأنعام) فيكون الأمر هنا كالأمر في قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا

كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطْنٌ وَالْإِثْمَ وَالْأَلْبَغَىٰ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ

مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ يَآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿آية: ١١٨﴾ وقرن به ذكر الشرب للتنبيه على أنهما سواء، فكما لا يحرم شرب الماء لا يحرم الطعام، وهذا إذا لم يكن مانع كالصيام المشروع.

وختَمَ الكلام بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ كما ختم في (سورة الأنعام) في الإحتجاج على المشركين: ﴿كُلُّوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَلِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿آية: ١٤١﴾ وذلك للنهي عن إنفاق الرزق في الوجه المحرم فيدخل في العموم دخولاً أولاً، ويحتمل: أن الأمر بالأكل والشرب للإباحة، لبيان بطلان تحريم الجاهلية لبعض المأكول.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ نهي عام لكل إسراف، سواء بإتلاف المال ونحوه، أي كل نافع في غير فائدة يصلح إتلافه لها، أو بإنفاقه في محرم كالמעونة على الإثم والعدوان، أو في مضرة راجحة على لذته، فيدخل إكثار الأكل بحيث يضر الأكل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ دليل على تحريم كل عمل ذكر الله أنه لا يحب أهله ﴿لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠] ﴿لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧] ﴿لَا يُحِبُّ كُلُّ مُخْتَلِفٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ وهذا احتجاج على أهل الجاهلية، الذين حرموا بعض ذلك، كما مر في (سورة الأنعام) وهو يؤكد ما فسرته به الآية التي قبل هذه.

وقد روي: أن أهل الجاهلية كانوا يطوفون بالكعبة عراة، فروي: أنهم كانوا يتخرجون من لبس الثياب في الطواف لأجل أنها ثياب يذنبون فيها، وروي: أنهم كانوا يعتقدون أنهم إذا طافوا في الثياب وجب عليهم أن يتصدقوا بها، وكل ذلك تحريم لزينة الله التي أخرجها لعباده.

وسؤالهم ﴿مَنْ حَرَّمَ﴾؟ تنبيه على أن الحرام إنما هو ما حرم الله، أما ما لم يحرمه فليس حراماً، فعليهم أن ينظروا فيما حرّمته الجاهلية، فإذا لم يصح أن الله حرّمه فتحريمه باطل، وهكذا في الطيبات من الرزق من الأنعام والحرث وغيرها مما يتتبع به الإنسان وهو سليم من أسباب الخبث، وما حرّمه الله ففيه سبب خبث.

﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هِيَ﴾ أي الطيبات من الرزق أو الزينة والطيبات من الرزق ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في وقت الإيمان النافع ﴿خَالِصَةٌ﴾ لهم ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ لا كما هي في الدنيا محفوفة بالمكارة، فالله أخرجها في الدنيا لعباده البر والفاجر؛ لأن الدنيا عرض حاضر يأكل فيها البرّ والفاجر، والآخرة وعد الله المؤمنين فيها بالرزق الخالص عن المكدرات والمتاعب وسائر ما حفت به أرزاق الدنيا من المكارة؛ وهذا لأن معنى خلوصها: أنه لا يخالطها مكروه، وليس معناه: أنها خاصة لهم، فمعنى ﴿خَالِصَةٌ﴾ غير معنى خاصة، وفائدة قوله تعالى: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قطع طمع الكفار في نفع إيمانهم يوم القيامة، والمقابلة بين الحياة الدنيا والآخرة، بما يدل على أن الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء.

﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ كذلك التفصيل لهذه الآية أو الآيات ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي نبينها بتفصيلها، حتى يعلمها من هو مستعد للعلم بسلامة قلبه من الخذلان والغفلة والإعراض والإنشغال بالدنيا، ومستعد بالنية الصالحة والتفهم.

بِهِ سُلْطَنًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَبْنِي عَادَمَ إِمَامًا

﴿٣٣﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَنًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمُونَ﴾ ﴿إِنَّمَا﴾ حصر إضافي أي لم يحرم الله طيبات الرزق والزينة، إنما ﴿حَرَّمَ﴾ هذه التي كانت في الجاهلية وهي خبائث، و﴿الْفَوَاحِشَ﴾ الزنا، واللواط، وما أشبههما في القبح والردالة.

وقوله تعالى: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ دفع لتوهم أن المحرم إنما هو ما ظهر منها ﴿وَالْإِثْمَ﴾ كالخمر، والكذب، وكتمان الشهادة، والربا، وسائر الذنوب التي لا تعد في العرف من الفواحش، ولا من التعدي على الناس في ظاهرها ﴿وَالْبَغْيَ﴾ التعدي على الناس والظلم لهم ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قيد واقعي أو لدفع توهم أن التسلط بالحق بغي محرم ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَنًا﴾ وهذا قيد واقعي ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمُونَ﴾ قد مر تفسيره قريباً.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ كهذه الأمة التي بعث فيها الرسول ﷺ فكفروا به ﴿أَجَلٌ﴾ محدود يمتعون بخلاقهم، ويتقلبون في البلاد مُمَهِّلِينَ ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ ذهبوا بذهاب ريجهم وإدبار دنياهم، وبطل اجتماعهم وقوتهم الذي كانوا به أمة، فهؤلاء المشركون المكذبون لرسول الله ﷺ في أم القرى وما حولها لهم أجل يذهب فيه اجتماعهم وقوتهم حتى لا يكونوا أمة، وهذا إنذار لهم إما بهلاكهم أو ذلتهم وتفرقهم أيادي سبأ، وهذا قريب من قوله تعالى في أول السورة: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ الآية، وقد ذهبت تلك الأمة، وذهب ملك بني أمية وبني العباس وغيرهم من الدول.

يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنْ أَتَقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا

﴿لَا يَسْتَخِرُونَ﴾ عن أجلهم ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ولعل أصل المعنى: لا يسبق ذهابهم أجلهم ولا يتأخر عنه، وزيدت (السين) لإفادة: أن حالهم غير قابلة للتقديم ولا للتأخير، فلا يتقدمون ولا يقدمهم غيرهم، ولا يتأخرون ولا يؤخرهم غيرهم - والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ معطوف على جملة ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَخِرُونَ سَاعَةً﴾ والساعة: عبارة عن المدة القصيرة غير محددة، خلاف الساعة في عرف هذا الزمان.

﴿يَبْنِي ۚ آدَمَ﴾ ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنْ أَتَقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يظهر: أنه هذه التوصيات الأربع المبدوءة بقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ وقعت لهم بعد خروج أبيهم وأمه من الجنة في أول زمان بني آدم، فحكاها الله تعالى من قوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ فكلها من مقول القول في ﴿قُلْ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ وما وقع خلالها من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ عارض في خلال الحكاية للتوصيات المتقدمة لبني آدم في أول عهدهم - وبالله التوفيق.

والتوصية في هذه الآية قريبة من التوصية في (سورة البقرة): ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آية ٣٨] وفي (سورة طه): ﴿قُلْ اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [آية ١٢٣].

أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣١﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۖ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوهُمْ قَالُوا أَإِنَّ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ

وجاءت التوصيات الأربع في (سورة الأعراف) محكية للرد على أهل الجاهلية بما قد وصى به بني آدم جملة في أول عهدهم، وهذا الخطاب لبني آدم لا بد أنه وقع بعد وجودهم، فهو غير التوصية المذكورة عند هبوط آدم وزوجه من الجنة، وإن أشبهته في هذا الخطاب الرابع.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ أي إن يأتكم، و(ما) بعد (إن) تقوية وصلة للكلام، وقوله: ﴿يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ لحقته (نون التوكيد) فلم يجزم، وهذه وصية لبني آدم من أول جيل منهم، ليستعدوا للإيمان بالرسل، والعمل بما جاءوا به وهو التقوى والإصلاح؛ لأن التقوى: اجتناب المعاصي، والإصلاح: إصلاح العمل، وإصلاح ما ينبغي إصلاحه، ومنه ما سبق إفساده ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فيها.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ التي تأتي بها الرسل ﴿وَأَسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ أنفوا وترفعوا عن الإيمان بها وعن قبولها لأي سبب من كبر أو حسد أو تعصب لما خلفه الآباء أو غير ذلك ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فهم أهل الخوف والحزن والعذاب والخسران، وهذا إنذار ليؤمنوا بالرسل؛ لأن الإيمان بهم صلاح الفرد من الناس والمجتمع إذا اتبعوهم، فقد أكمل الله الحجة على بني آدم بتوصياته.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ وهو يوصيهم بالتقوى، واجتناب التكذيب من عهد آدم ﷺ، وتأتيهم الرسل

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتَيْنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ وَقَالَتْ أَوْلَاهُمْ لِأُخْرَيْنَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا

بالآيات من ربهم فلا اظلم ﴿مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ لأنه أساء إلى ربه، وأطاع عدو الله الشيطان، وحاول الإفساد في الأرض بالكذب على الله، أو التكذيب بآياته.

﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ ينالهم نصيبهم مما كتب الله لهم من العمر والزرق وغير ذلك في هذه الحياة التي هي دار اختبار، فلا تمنع معصيته من نيل ما كتب له ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوهُمْ﴾ ﴿رُسُلُنَا﴾ ملائكة الموت يتوفونهم بتوفي أنفسهم ﴿قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ هل ينصروكم أو يدفعون عنكم؟!

﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ لِنَعِمَ الله، أو مكذبين لرسول الله، وقولهم: ﴿ضَلُّوا﴾ أي ضاعوا ﴿عَنَّا﴾ فلم يدفعوا عنا، اعتراف مع اعتراف، أي اعتراف بما كانوا عليه من الشرك، واعتراف بأنهم لم ينفعوهم ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ بالإقرار أنهم كانوا في الدنيا كافرين، وقولهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ يحتمل: أنه عند الموت، وهو الظاهر لقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٧] ويحتمل: أنه يوم القيامة. أما قوله تعالى:

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ فهو يوم القيامة، فهنا قد طويت المدة ما بين الموت والبعث، حتى كأن

الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَايَتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي

ساعة الموت مقترنة بالأمر بدخولهم النار، وهذا طي مناسب لأن المدة بينها تمضي، فإذا بعثوا لم تكن في نظرهم إلا قليلاً، وقد مر مثله في (سورة الأنعام). وقوله تعالى: ﴿فِي أُمَمٍ﴾ أي مع أمم، وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ يدل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ..﴾ الكفار المتأخرون، والمراد بقوله: ﴿خَلَتْ﴾ مضت، فالكل في النار.

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ أختها التابعة لها أو المتبوعة ﴿حَتَّى إِذَا آذَرَكُوا﴾ تتابعوا وتلاحقوا واجتمعوا في جنهم ﴿فِيهَا جَمِيعًا﴾ مجتمعين ﴿قَالَتْ أَخْرِجْنَهُمُ﴾ التابعون ﴿لأُولَئِهِمْ﴾ وهم المتبوعون ﴿رَبَّنَا هَاتُوا لَنَا صُفُوفًا مِّنْ عَذَابٍ ذَلَّكَ أَهْلُهَا﴾ فقد اغتاز التابعون من المتبوعين، حين رأوا أنهم سببوا لدخولهم النار، وانقلبوا أعداء يطلبون من الله أن يضاعف عذابهم بالنار، بأن يجعل عليهم عذاباً من النار مع ما هم فيه مثل ما هم فيه.

﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ فقد وفاهم الله ما يستحقون من تضعيف عذابهم، فللمتبوعين ضعف بسبب سعيهم في فساد التابعين، وللتابعين ضعف لإيثارهم طاعة أعداء الله على طاعة ربهم الخالق الرازق، وهو يدعوهم إلى رحمته، ويحذرهم من الشيطان، ومن أسباب الهلاك فعصوه، فعذابهم على المعصية كامل، وتضعيفه بكونه طاعة للمتبعين - والله أعلم.

﴿وَقَالَتْ أُولَئِهِمُ لَأَخْرِجْنَهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ بتخفيف عذابكم وسلامتكم من تضعيفه؛ لأن لكل ضعفاً، فكل فريق يحاول الشر

سَمِ الْخِيَاطُ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿١٠٤﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿١٠٥﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

للفريق الآخر، المتبوعون حاولوا إغاضة التابعين، كما طلب التابعون تضييع عذاب المتبوعين وهذه العداوات والحسرات والغیظ نوع من عذابهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَايَتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ (آياتنا) المعجزات الدالة على صدق الرسول ﷺ وآيات القرآن حيث قالوا: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الملك: ٩] ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ ترفعوا عن الإيمان بها، وطلبوا العلو بذلك ﴿لَا تُفْتُحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ تعبير عن غضب الله تعالى عليهم، فلا تفتح أبواب السماء لقبول أعمالهم، ولا لصعود أرواحهم، وهذا في الدنيا حين السماء باقية بأبوابها.

فأما في الآخرة فقد قال الله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [النبا: ١٩] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] وهذه السماء هي المعهودة التي ينصرف إليها الخطاب، فأما سماوات الآخرة فلو كانت المراد لنكرت، فقل: (لا تفتح لهم أبواب سماء).

﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ دلالة على تعذر دخولهم الجنة، كما يتعذر دخول الجمل - وهو أكبر الدواب المعروفة عند العرب - في سم الإبرة التي يخاط بها، وهي تسمى خياطاً وسمها: ثقبها.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ مجذبهم عن السماء، وحرمانهم الجنة، فهو جزاء لكل مجرم غير خاص بالمكذبين المستكبرين منهم، وفيه تعليل لحرمانهم بإجرامهم، وهذه خسارة عظمى ولعنة دائمة.

الْصَّالِحَاتِ لَا تُكَفُّ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ

﴿١٧﴾ هُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ مِهَادٌ جمر ولهب تحتهم، سمي مهاداً باسم الفراش الذي يمهّد للنائم مثلاً، وهو تهكم بهم ﴿١٩﴾ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴿٢٠﴾ جمع غاشية، مثل: جوار جمع جارية، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ تعليل بظلمهم، من حيث دل على أن النار جزاء كل ظالم؛ وذلك لأنهم كلهم مجرمون، وكلهم ظالمون وإن اختلفت جرائمهم وتفاوت ظلمهم من شرك، أو قتل نفس بغير حق، أو كفر، أو ربا، أو عيب فاجرة، أو شهادة زور، أو غيبة.. أو غير ذلك، فكل جرائمهم ظلم؛ لأنها حيف وعدول عن العدل والإنصاف؛ لأنها إساءة إلى رب العالمين المالك المنعم، فهي ظلم وجور ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر: ١٦-١٧] وقال تعالى في (آية الطلاق): ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا تُكَفُّ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٨﴾ الصَّالِحَاتِ السليمات من المفسدات ومن المحبطات.

وقوله: ﴿لَا تُكَفُّ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ جملة معترضة من فوائدھا: الدلالة على أن المقصود بالصالحات ليس عاماً للواجب وغيره، بل ما كلفوا به وهو الواجب.

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا

ومن قولها: دفع توهم أن الإنسان لا يستطيع العمل للجنة بأن ذلك في وسعه، ولو لم يكن في وسعه ما كلفه الله، فالعمل للجنة في وسع الإنسان.

ومن قولها: الدلالة على بطلان القول بالجبر؛ لأن من معناه: أن الكفار الذي يموتون على الكفر ويصيرون في النار لم يكونوا يستطيعون الإيمان والعمل الصالح، فضلاً عن أن ذلك كان في وسعهم.

وكذلك من معنى (الجبر): أنهم لم يكونوا يستطيعون ترك المعاصي والتكذيب بآيات الله وأسباب الخذلان، فإما أن يقول المجبرة: أنهم لم يكونوا مكلفين، وذلك خلاف المعلوم من الدين ضرورة، ومن المعلوم ضرورة أن الله لا يعذبهم بما لم يكونوا يستطيعون تركه، ولا بترك ما لم يكونوا يستطيعون فعله، ومن المعلوم من الدين أن الكفار معذبون كما في هذه الآيات في هذه السورة وغيرها، فدل ذلك على بطلان الجبر.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ﴾ قال في (المصاييح): «الغل: هو الحقد» انتهى المراد، وفي (مفردات الراغب الأصبهاني): «والغل: العداوة، قال: وغلَّ يَغِلُّ إذا صار ذا غِلٍّ أي ضِغْنٍ» انتهى المراد.

وفي (الصحيح): «والغل: الغش والحقد أيضاً» انتهى المراد، وإزالة ما في صدورهم من غل، هي من صرف كل مؤذ ومؤلم عنهم؛ لأن الحقد يؤذي صاحبه، والسلامة منه راحة له ولجلسائه وخدمته ومجاوريه ومزاوريه.

وهل يدل هذا على أنه كان في صدورهم غل قبل دخول الجنة؟!
الجواب: ظاهر كلمة النزاع أنه كان فيها، ولعل تفسيره بالحقد أولى من تفسيره بالعداوة، وهو الذي في (البرهان) و(الصحيح) فلا يلزم منه إرادة الضرر إن أمكن بخلاف العداوة، وقد وصف خيار المتقين بكظم الغيظ، وهو يستلزم الحقد، ولا يتعين في الآية الكريمة أن الغل بين أصحاب الجنة نُزِعَ من صدورهم بعد أن دخلوها، بل قد يكون مقارناً لدخولهم الجنة.

فإن صح أن يكون بينهم في الدنيا غل فهو داخل في العموم، والأقرب: أنه لا يكون بين المؤمنين الصادقين في إيمانهم؛ لأن الحب في الله يغلب أسباب الحقد؛ ولحديث: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا».

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ وفي ذلك لذة للبصر وسرور للنفس، وجري الأنهار من تحتهم لا يختص بمجال كونهم في القصور؛ لأنها تجري من تحتهم إذا تجولوا في الجنة تحت الأشجار - والله أعلم.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾^ع
 لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴿وَقَالُوا﴾ في الجنة هذا القول لرغبتهم في الشكر ﴿وَهَدُوا إِلَى الطُّيْبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الحج: ٢٤] لم ينشغلوا بهذه النعمة الحاضرة عن ذكر النعمة التي أدت إليها وهي الهدى الذي هو أعظم النعم، ولم ينشغلوا عن ذكر المنعم، وسمى الله أهل الهدى: الذين أنعم عليهم في (سورة الفاتحة).

وقولهم: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ﴾ تحقيق للنعمة بشدة حاجتهم إليها؛ لأن الإنسان يغتر بالعاجلة، ويغفل عن الآخرة، فقالوا: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ﴾ أي لم يكن من شأننا أن نهتدي ولا مناسباً لحالنا، كقول الشيطان: ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدْ﴾ [الحجر: ٣٣] ﴿لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾.

رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا

ثم قالوا: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ أي هذا مصداق ما جاءت به الرسل من الوعد، وذاك مصداق ما جاءت به من الوعيد.

﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكَُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وهذه نعمة من نعم الجنة أن نادهم المنادي بصوت رفيع، بما معناه: ﴿تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهذا تكريم لهم، وبيان: أن عملهم في الدنيا كان يستحق الثواب، وحكايته في القرآن ترغيب للمكلفين في العمل للجنة.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ فأهل الجنة قد هدوا إلى صراط الحميد، فأرادوا أن يعترف أهل النار بصدق وعده؛ لأن أكثرهم كانوا مكذبين، وقد علموا حين صاروا في موقف الحساب بالنار لأهلها، والكرامة لأولياء الله، وعلموا أن أهل الجنة قد صاروا فيها، فبان لهم صدق الوعد والوعد؛ ولذلك سألمهم أهل الجنة: ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟﴾ ولم يقولوا: ما وعدكم؛ لأن المقصود إقرارهم بصدق الوعد للفريقين، بدلاً من تكذيب المكذبين بهما في الدنيا.

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ بين أصحاب الجنة وأصحاب النار، كأنه يريد أن يسمع الفريقين: ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ولعل هذا النداء ترئب على قول أهل النار: ﴿نَعَمْ﴾ لئلا يطمعوا في نفع هذا الإقرار، و﴿لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ الطرد من رحمته، والبقاء في عذابه.

عَوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿١٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَتَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِمَ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا

﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿يَصُدُّونَ﴾ يستعمل بمعنى: يعرضون، ومصدره الصُّدود، ويستعمل تارة بمعنى: صد الغير عن سبيل الله، أي منعه واستعمال المضارع؛ لأنه حكاية الماضي لاستحضاره ﴿وَيَبْتَغُونَهَا﴾ أي سبيل الله ﴿عَوَجًا﴾ بزمها، وادعاء العيوب فيها ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ فحكم الكفر باق لم يخرجهم منه قولهم: ﴿نَعَمْ﴾.

﴿١٦﴾ وَبَيْنَهُمَا﴾ بين أهل الجنة وأهل النار ﴿حِجَابٌ﴾ فهم لا يتراءون إلا إذا اطلع من أهل الجنة مطلع ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ أعراف الحجاب: أي أعاليه، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «هو سور بين الجنة والنار، والأعراف: كل موضع مرتفع مشرف» انتهى.

﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ﴾ كلاً من أهل الجنة وأهل النار من قبل أن يدخلوها يعرفونهم ﴿بِسِيمَتِهِمْ﴾ وسيماهم: علاماتهم، وهي بالنسبة إلى كونهم من أهل الجنة أو أهل النار، بياض الوجوه وسوادها ونحو ذلك.

أما السيماء التي تعرفهم بالأشخاص، فهي ما كان موجوداً في الدنيا وجاء بعضه في الآخرة يتميز به الشخص والرجال هؤلاء من الناس؛ لأنه المعنى الحقيقي، والراجع: أنهم من السابقين أو أنهم السابقون سبقوا إلى دخول الجنة، واطلعوا على السور ينظرون إلى من بقي في المحشر ومن دخل النار.

﴿وَتَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِمَ عَلَيْكُمْ﴾ عرفوا أنهم من أصحاب الجنة، فنادوهم يبشرونهم: ﴿أَنْ سَلِمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي لا خوف عليكم ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ والنداء في حال أن المبشرين الذين ناداهم أصحاب

لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ

الأعراف نادوهم قبل أن يدخلوها ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ في دخولها لم يكن تأخير دخولها إلا لانتظار الإذن لهم.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾ أي أبصار هؤلاء الطامعين في دخول الجنة ﴿تَلْقَاءُ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي إلى جهنمهم ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وهذا يدل على عظم ذلك الموقف، حيث يشاهد أهل النار قبل أن يدخلوها قد تبين عليهم سوء الحال، واسودت وجوههم، وخشعت أبصارهم، وانحلت قواهم من الخوف، فحق لمن رآهم أن يتعوذ بالله من أن يجعله معهم، والدليل على أن الضمير في ﴿قَالُوا رَبَّنَا﴾ لأصحاب الجنة الطامعين، قوله تعالى بعد هذا:

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِمَتِهِمْ﴾ فجدد ذكر ﴿أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ﴾ لما تخلل كلام في غيرهم، وبأن بذلك أن بقية الكلام الماضي في أصحاب الجنة استطراد، وموعظة لنا بعد تمام ذكر نداء أصحاب الأعراف لهم، ثم انتقل أصحاب الأعراف لنداء رجال من أصحاب النار ﴿يَعْرِفُونَهُمْ﴾ بعلامات شخصية تميزهم ويعرفون بها من هم.

﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ ما دفع عنكم جمعكم للمال والرجال في الدنيا، وما استمر منكم في الدنيا من استكباركم عن الحق، واعتقادكم أنكم فوق أن تقبلوه، فقد انكشف غلطكم فيه ولم يدفع عنكم العذاب.

عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿١٩﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمُ الْحَيَاةُ

﴿١٩﴾ ﴿أَهْتُولَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ أي من قول أصحاب الأعراف أنهم يقولون لرجال من أصحاب النار: ﴿أَهْتُولَاءِ﴾ المؤمنون الذين قد ظهرت لهم سيما أهل الجنة ﴿الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ في الدنيا أنهم ﴿لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ وهذا سؤال تقرير يلفتون به أنظار المستكبرين إلى المؤمنين المستضعفين.

ثم يوجه أصحاب الأعراف الخطاب إلى المؤمنين الذين أقسم المستكبرون لا ينالهم الله برحمة، فيقول أصحاب الأعراف لهؤلاء المؤمنين: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ فقد أذن الله بدخولكم الجنة ونجاتكم من النار، فأول الآية خطاب من أصحاب الأعراف لرجال كانوا في الدنيا مستكبرين قد عرفوهم، وآخرها خطاب للمستضعفين المذكورين، والمستكبرون يسمعون قولهم: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ وهذا بيان لخطأ المستكبرين وكرامة المستضعفين فقد رفعهم الله، وأذل وأحزى المستكبرين، والخطابان هنا مثل الخطابين في قوله: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾ [يوسف: ٢٩].

﴿٢٠﴾ ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ بلوغ النداء بينهم بإذن الله، ونحن نجد في الدنيا وسائل الإعلام تبلغ الكلام من بعيد، طلبوا الإفاضة عليهم من الماء؛ لعلمهم بتوفره لأهل الجنة وسهولة إفاضته عليهم من ناحية كثرته، وطلبوا أحد الأمرين لاستبعادهم أن يعطوهم معاً

الدُّنْيَا ۖ فَالْيَوْمَ نَنْسَنَّهُمْ كَمَا نُسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا تَجْحَدُونَ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى

وقالوا: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ﴾ أي من المأكولات مثلاً، توصلاً إلى إعطائهم على أنه منهم يعطونهم كما يعطى السائل في الدنيا.

فأجابوهم بما يناسب حال المؤمنين الذين لا يرضون ما لا يرضي الله ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي فلن نفيض عليكم واحداً منهما، وهذا التحريم معناه: المنع، لا التكليف الشرعي.

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ أصل الدين: معاملة العبد لربه بالطاعة والعبادة، وهؤلاء اتخذوا ما هو في الأصل طاعة أو ما أصله طاعة اتخذوه لهواً ولعباً؛ لأنهم يفعلونه لمجرد أنه عادة يتلهون بها وليلعبوا.

فمثلاً: يطوفون بالبيت لا للتقرب إلى الله ولا لطاعته؛ ولكن لأنه عادة جرى عليها الناس في ذلك البلد، ويصلون عند البيت بالمكاء والتصدية للعب بهما، ولعل كثيراً ممن يصلون اليوم ويصومون لاحقون بهؤلاء لجهلهم بالله وبدينه، فيفعلون ذلك لأنه عادة الناس فيصلون بلا تعلم لشروط الصلاة وفروضها، ولا إحضار ذهن لنية أو خشوع، ولا قصد للتقرب إلى الله، ولا لامثال أمره ولا يَتِمُّونَهَا، فهي مجرد لهو يلهون به ثم ينصرفون إلى دنياهم، وكذلك يصوم مع الناس لينام النهار ويسهر الليل على اللهو واللعب.

ولقد بلغني عن بعض أهل البلدان: أنهم يحيون ليالي شهر رمضان بالرقص والغناء، وبلغني عن بعضهم: أنهم يتخذون الملاحى في الإحتفالات الدينية، وقد جاء في حديث عن النبي ﷺ: «إني أخاف عليكم بيع الحكم، واستخفافاً بالدم، وأن تتخذوا القرآن مزامير»، رواه في (صحيفة الإمام الرضا).

وفي اتخاذ القرآن مزامير رواية أخرى في (أمالي المرشد بالله) وهو من مدلول الآية؛ لأن استماع القرآن في الأصل دين، فإذا اتخذوه لمجرد التلذذ بالصوت دون التفات إلى المعنى فقد اتخذوه مزامير، لأن المزامير صوت بلا معنى، فهذا من اتخاذ الدين هوا ولعباً.

أما قوله تعالى: ﴿وَعَرَّتْهُمْ آَلْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ فإنهم اغتروا بها؛ لأنها عاجلة طال أملهم فيها، فاشتغلوا بها عن الإعداد للآخرة ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَلُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ ﴿نَنْسَلُهُمْ﴾ لا نجيب لهم دعوة، ولا نقضي لهم حاجة، ونتركهم كالمنسين في نار جحهم وعذابها، جزاء ومبادلة لنسيانهم ﴿يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ وهو حين يعذبون في جهنم لم يستعدوا له في الدنيا حتى ينجوا من عذاب ذلك اليوم.

﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي وكما كانوا بآياتنا يمحذون، واعلم: أن هذه الآية إن كانت من الحكاية لجواب أصحاب الجنة على أصحاب النار فيشكل عليه تحويل الكلام، كأنه يقوله الله لقوله: ﴿نَنْسَلُهُمْ﴾ وقوله: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ وإن كانت ابتداء من كلام الله بعد حكاية كلام أهل الجنة، فلم يكن في أولها دلالة على ذلك.

وحل الإشكال نقول: يحتمل أنها حكاية عن أهل الجنة، وصح تحويل الضمير من الغيبة إلى ضمير القائل الحاكي؛ لأن الحاكي له هو الذي ينسأهم، وهو الذي جحدوا بآياته أي كذبوا بها وهم يعلمون أنها حق، فهو من باب قول الشاعر: إني امرؤ صرعي عليك حرام

أو أنها - أعني هذه الآية - ليست حكاية، بل هي من الله جاءت مربوطة بالحكاية عن أهل الجنة وصفاً للكافرين المذكورين في كلام أهل الجنة، وهذا أرجح، فلا هي حكاية ولا هي ابتداء بتقدير (مبتدأ).

وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٤﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ

ونظيرها في (سورة طه): ﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهَادًا..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ [آية: ٥٢-٥٤] وفي (سورة الزخرف): ﴿وَلَقَدْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهَادًا..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَمَا كُنَّا لَهُ مُقَرَّنِينَ﴾ [آية: ١٩-١٣].

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿جِئْنَاهُمْ﴾ جئنا أصحاب النار بكتاب، وهذا يدل على أنها قد جاءتهم الكتب من أول أمة كذبت، كما قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقوله تعالى: ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾ أي بيّنا دلالاته بواسطة تفصيله وسلامته من التعقيد وتداخل الكلام الذي يصعب معه فهم المعنى، وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يفيد تحقيق التفصيل؛ لأن الله فصله وهو يعلم كيف يكون مفهوماً لعلمه بأفهامهم وبطريقة جعل الكلام مفهماً لهم، ويحتمل ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ على علم يستفاد منه ويفيده القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ..﴾ إلى قوله: ﴿..عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] والإحتمال الأول أرجح؛ لأن الثاني يكفي عنه في المقام قوله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ فالكتاب هدى إلى طريق النجاة والسعادة بالجنة، فلو آمنوا به واتبعوه نجوا من النار، وتسمية القرآن ﴿هُدًى﴾ ظاهرة؛ لأنه بيان لطريق الجنة أو لسبيل الله، فلا نحتاج إلى تقدير ذي هدى، وكذلك قوله ﴿رَحْمَةً﴾ لأنه كتسمية الجنة رحمة الله.

فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٤٥﴾ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلُ

﴿٤٥﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ﴿٤٦﴾ تَأْوِيلَهُ ﴿٤٧﴾ مَا يُوَلِّ إِلَيْهِ ﴿٤٨﴾ يَنْظُرُونَ ﴿٤٩﴾ أي ينتظرون، أي ما ينتظرون إلا ما يوَلِّ إِلَيْهِ أمره من وقوع ما وعد به ليؤمنوا به أو تخلفه فيعلموا أنه لم يكن حقاً.

﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ وهو ما وعد به من الحشر والحساب والجزاء وهو تأويله الحق الذي كان لا بد من وقوعه ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي لم يؤمنوا به وتركوه كالمنسي ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا بِالحَقِّ﴾ وذلك يوم جاء ما وعد الله به وهو يوم القيامة، فقد غلطوا على أنفسهم في انتظاره ليؤمنوا؛ لأن الإيمان يوم القيامة لا ينفعهم ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ وهذه حالة سيئة فقد جاء وعد الله وحضر العذاب ولم يجدوا إلا هذا السؤال حين لا يعلمون شفعاء ولا شفعاء ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ إلى الحالة التي كنا عليها في الدنيا ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي نعمل الطاعة ونؤمن وهيهات ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ فما أعيدوا إلا للحساب والجزاء ونحوه لا لمصلحة لهم في الحياة، فحياتهم ليست لهم إنما هي للجزاء ونحوه، ففاتهم كل خير.

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿ضَلَّ عَنْهُمْ﴾ ضاع عنهم ﴿مَا كَانُوا﴾ في الدنيا يفترونه من دعاويهم: أن شركاءهم سينصرونهم، أو أن الملائكة سيشفعون لهم أو أنبياءهم.. أو غير ذلك، وما أشبهه من الأمانى التي انكشفت خداعاً لأنفسهم وغروراً، ولما كان في هذه الآية إشارة إلى المشركين والمكذبين، جاء بعدها الإحتجاج عليهم، فقال تعالى:

الْهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثَا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۚ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۚ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ﴾ إن مالكم الله، فأنتم عباده وحده، فعليكم أن تعبدوه وحده، وتتركوا الشرك، وتتركوا التكذيب بآيات الله، لتؤمنوا بالله ورسوله، وتعبدوا الله، وتؤمنوا بالآخرة لتستعدوا لها، ثم بين قدرته تعالى ليعلموا أنه قادر على كل شيء، فهو الذي يُرجى منه فائدة العبادة، وتخشى منه العقوبة؛ وليعلموا أنه قادر على إحيائهم بعد الموت، وبين لهم أن الملك له وحده، ليعلموا أنهم في الآخرة يرجعون إليه وحده، فقال سبحانه:

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ الظاهر: أنها مقادير هذه الأيام المعهودة، وتأويلها بأيام أطول بكثير يبطل تحديد المدة بأيام ويجعلها إلى التحديد بأعوام وليس بعيداً في قدرة الله، وإن كان العالم من بعد ذلك يتطور شيئاً فشيئاً، فذلك لا يدل على أنه كذلك من ابتداء خلقه، وفيه رد على من يدعي أنه وجد بالتفاعل بين العناصر التي هي: التراب، والهواء، والماء، والنار؛ لأن التفاعل لا يكون منها تلقائياً، بل تحتاج إلى من يجعلها بحيث تتفاعل، ويدبر لها أسباب التحول إلى أرض وسماء، وإلا احتمل أن يطفى الماء النار، أو يبدد الهواء التراب، أو يبقى كل واحد في مكان من الفضاء وحده، وليس إحراق النار الماء بأولى من إطفاء النار بالماء إذا لم يكن فاعل يدبر طريقة ينتج عنها أحد الأمرين دون الآخر.

﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ فله الملك والتصرف والولاية على ما خلق، فهو الذي يتصرف فيه، ويدبر أمره من يوم خلقه، فالملك له وحده لا يشاركه فيه شيء من خلقه؛ ولذلك فله الأمر وحده كما له الخلق وحده.

فمعنى ﴿أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ تولى أمور الخلق، ونفذ ما يشاء من التصرف فيها ولها، ولذلك عقبه بذكر بعض التصرف، فقال سبحانه: ﴿يَغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١] فالليل المفعول الأول كما أصله: غشي الليل النهار، فلما دخلت عليه (همزة التعدية) وصار رباعياً كان مضارعه (يغشي) وصار الليل مفعولاً أولاً، فهذا تصرف عظيم بخلق الشمس، وتحديد النسبة بينها وبين الأرض، وتقدير الدورة الأرضية، فمن يقدر على ذلك إلا الله القادر على كل شيء، الذي يتصرف في العالم كيف يشاء.

وغشيانه: وقوعه عليه، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ﴾ [لقمان: ٣٢] في رأي العين، بدليل قوله تعالى: ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ مسرعاً حريصاً على غشيانه، فهو في رأي العين قد لحق النهار يدفعه إلى جهة المغرب، وقد قيل: إن قوله تعالى: ﴿يَغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ يحتمل: أن الليل يغشي النهار، ويحتمل: أن النهار يغشي الليل، وهو عندي بعيد؛ لأن الليل أولى بأن يجعل غاشياً كما أن النهار كاشف يظهر الشيء فلا يعد غاشياً، قال تعالى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس: ٣-٤].

﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ وخلق ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ﴾ في جريها على نظام محدود، كما سخرها دائبة مستمرة على ذلك بأمره، والأمر الحقيقي ينسب إلى المأمور الذي يفهم ويعقل، أما الجماد فأمره أمر تدبير وتسخير بقدرة الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ..﴾ [يس: ٨٢] وهو تمثيل لسهولة كل شيء في قدرته تعالى، وتسخير الشمس والقمر والنجوم هو من تدبير شؤون العالم والتصرف فيه، وفي هذا دلالة ظاهرة: على أن الشمس والقمر والنجوم غير السموات.

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿أَلَا﴾ حرف تنبيه؛ لأن المشركين كانوا غافلين عن ذلك فأشركوا به ما لا يخلق ولا ينفع ولا يضر وليس له في ملك الله أي مشاركة، وإذا كان الخلق والأمر لله وحده كما يفيدته تقديم الخبر له فهو ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ المستحق أن يعبدوه، فهذه الآية تؤكد في آخرها ما بدأت به، وآخرها بعد ذكر خلق السموات والأرض وتفصيل بعض التصرف في شؤون العالم يشبه ذكر النتيجة بعد تمام الدليل.

فصل في معنى (العرش)

لا إشكال أن معنى ﴿أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ منسوباً إلى الله غير معنى استواء المخلوق على سريره؛ لأن مشابهة الخالق للمخلوق محال، فكذا ما يستلزم المشابهة، واللسان العربي يستعمل الكلام في معنى حقيقي تفهمه العرب ويتبادر إلى أذهانها، أو معنى مجازي إن صرفت قرينة عن إرادة المعنى الحقيقي، ولا إشكال أن تعذر المعنى الحقيقي في كلام الحكيم أكبر قرينة على أنه غير مقصود، فما بقي إلا المجازي؛ لأن القرآن نزل ﴿يَلْسَانَ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥] والمعنى الذي ذكرته، وهو تولي أمور العالم والتصرف فيه تصرف الملك في مملكته هو أوفق للسياق، فقد حصلت القرينة الصارفة والمناسبة، وذلك أن العرب تعبر عن الملك بالعرش، كقول الشاعر:

تداركتما عبساً وقد ثل عرشها وذيان قد زلت بأقدامها النعل

وهو الظاهر في قول الله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ [غافر: ١٥] فقله: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ تعبير عن علو الشأن، ليس معناه: درج مثل درج الدار، وقوله: ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ أي ذو الملك، ووصف ملكه بالعظم، وعظم الملك أعظم من عظم عرش مصنوع كالسرير.

فأما من قال: الاستواء معلوم؟

فيقال له: هل أردت اللفظ؟ فهذا لا نزاع فيه، أم أردت المعنى؟ فما هو إن كان معلوماً؟

فإن قال: معلوم أنه استوى.

قلنا: ما معنى استوى؟

فإن قال: لا نعلم، فقد أقر أنه غير معلوم، وإلا فماله لا يزيد على لفظ استوى، ولا يفسره بكلمة أخرى.

فإن قال: استواء يليق بجلاله.

قلنا: قد ثبت أنه لا يليق بجلاله الإستواء المعروف في العربية، الذي هو مفهوم الإستواء، فمن أين لكم أنه استواء كما زعمتم؟! لأن الكلام ليس فيه إلا المعنى الذي تفهمه العرب، وهي لا تفهم ما ذكرتم ولا تفهمونه أنتم؛ لأنكم لا تريدون بقولكم: «استواء يليق بجلاله» معنى مفهوماً؛ يعبر عنه بالاستواء، إنما تأتون باللفظ لمعنى مجهول جملة وتفصيلاً.

وقولكم: «يليق بجلاله» إنما هو تعبير عن كونه غير المعنى الحقيقي في لغة العرب، وذلك لا يفهم معناه لا جملة ولا تفصيلاً، وأنتم تقولون: «وجه يليق بجلاله» و«يد تليق بجلاله» فقولكم: «يليق بجلاله» لا يميز شيئاً عن شيء من المعاني التي تدعونها، وحمل الكلام على المعنى الذي ذكرناه حمل على معنى مفهوم، وليس لكم أن تعارضوه؛ لأنكم لا تدرون ما هو الإستواء الذي يليق بجلاله، فما يدريكم لعل ما ذكرناه هو الإستواء الذي يليق بجلاله.

فأما دعوكم: أن إثباتكم للمعنى المجهول للإستواء، مثل إثبات علم الله وقدرته، فهي مغالطة؛ لأننا أثبتنا معنى العلم والقدرة في اللغة، وإنما نفينا مشابهته للمخلوق بكون القدرة معنى في جسم، والعلم معنى في جسم،

ودعواكم: أن معناهما في اللغة هو العَرَض القائم في الجسم دعوى باطلة، فإن مفهومهما لا يلتفت فيه إلا إلى إثبات ضد الجهل وإثبات ضد العجز من غير النظر إلى ما هو.

والحاصل: أن العلم والقدرة قد فهم معناهما المعروف عند العرب جملة فأما الإستواء فلم نفهم ما تدعون لا جملة ولا تفصيلاً، فليس معنى عربياً، وقد جعلتم لهذه الكلمة وضعاً جديداً، وكذلك للوجه واليد بلا دليل، وهو تحكم باطل، ولو كان معناه مجهولاً ما صح الاحتجاج لإثبات الربوبية لله في هذه الآية المبدوءة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ..﴾ المختومة بقوله تعالى: ﴿..أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] وكذلك الاحتجاج في (سورة يونس): ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ اللَّهُ رُبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [آية: ٣] فكيف صح الاحتجاج بالمعنى المجهول جملة وتفصيلاً، فهذا احتجاج واضح، ولذا ختمه بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

قال الشرفي في (المصابيح): «عن القاسم بن إبراهيم عليه السلام: أما العرش والكرسي، فإنهما ملك الله وسلطانه، كما أن العرش والكرسي مقعد كل ملك ومكانه، وليس يتوهم من آمن بالله أنما ذكره الله سبحانه من كرسیه وعرشه ككراسي خلقه وعروشهم التي تكون مقاعد لهم في ملكهم» انتهى المراد.

وللقاسم عليه السلام في (مجموعه) (كتاب العرش والكرسي) وهو كتاب مفيد في الموضوع فليطالع، وقد حقق الله في هذه الآية الكريمة ربوبيته وقدرته، وأن له الخلق والأمر، ثم قال كالتفريع على ذلك:

لَا تُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا
وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ

﴿٥٥﴾ اَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ اَمْرُنَا

بالدعاء أن ندعو ربنا الذي خلقنا ورزقنا، ففيه فوائد:

الأولى: أنه عبادة له، وللعبادة خلقنا.

الثانية: أنه سميع الدعاء القادر على إجابته، وقد أنعم علينا ابتداءً قبل
أن ندعوه، فهو بكرمه يجيب الدعاء.

والثالثة: أنه قد وعد بالإجابة، فالدعاء مفتاح خير لنا، ووقاية لنا من الشرور.
وقوله تعالى: ﴿تَضَرُّعًا﴾ بمعنى تذللًا، كقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا
تَضَرَّعُوا﴾ [الأنعام: ٤٣] وقد يكون التضرع برفع الأصوات بالدعاء على وجه
التذلل كما في الاستسقاء والحج.

وقوله: ﴿وَخُفْيَةً﴾ بحيث لا يسمعه الغير؛ لأنه لا يخفى عليه، وقد روي
أن موسى عليه السلام قال: «يا رب أقرب أنت فأناجيك، أم بعيد فأناديك، قال
يا موسى: أنا جليس من ذكرني» أو كما قال، والحديث في (صحيفة الإمام
الرضا) وقال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ [الرعد: ١٠]
الآية.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ وهم الذين يدعون غير الله،
كما يرشد إليه السياق من حيث أن السياق في الرد على المشركين، ولا
إشكال أن الشرك بالدعاء لغير الله اعتداء.

﴿٥٦﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴿٥٧﴾ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ
بمحاربة الدين، ونصرة الباطل، والجدال في آيات الله، وإضلال عباد الله.

الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ تَخْرُجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ

﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بالرسول والكتب وأسباب الهدى والعدل والإحسان في عباد الله، ومن الإفساد في الأرض: السعي في التفريق بين المسلمين، وإلقاء العدواة والبغضاء بينهم، والمدارس التي تحول الطلاب إلى الباطل، وكذلك إفشاء أسباب الفساد بدعوى مشاركة المرأة للرجل، أو غير ذلك.

﴿وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿وَأَدْعُوهُ﴾ وادعوا ربكم ﴿خَوْفًا﴾ بطلب النجاة من عذابه ومن كل شر ﴿وَطَمَعًا﴾ بطلب الجنة وكل حاجة ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ بالإجابة للدعاء والإثابة على العبادة الخالصة بالدعاء وغيره ﴿قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ المؤمنين المخلصين، وقد فسر ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ في أول (سورة لقمان) بما فسر به (المتقين) في أول (سورة البقرة) وفسر به (المؤمنين) في أول (سورة النمل) فكلها تتضمن إقامة الصلاة، والإنفاق، والإيقان بالآخرة، والجهد في سبيل الله.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ وربكم الذي يرسل الرياح مبشرات ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي قبل المطر الذي هو رحمته لعباده وقرئ ﴿نُشْرًا﴾ بالنون أي محيات للأرض بتسيبها للمطر.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ ﴿أَقْلَّتْ﴾ أي الرياح رفعت في الجو ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ بالماء الذي فيها ﴿سُقْنَهُ﴾ من حيث أقلتته حتى يبلغ فوق البلد الميت من الجذب وإبطاء المطر، فقد يست فيه المراعي وانقطع إنبات الزرع ونحوه، فهو في ضعف حاله وانقطاع إنباته كالميت الهامد.

نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا تَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُومِ

﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ لتأكلوا منها، فهذا
التدبير دليل على الله وقدرته ورحمته بعباده ونعمته، وهذا بيان واضح نافع
لمن تدبر ليعرف ربه فهي حركات مدبرة لنهاية مطلوبة للعباد نافعة، إرسال
الرياح بعد سكونها ثم سوق السحاب بمائها تحفظه حتى تصل على البلد
الميت فترسله، فينزل بالبلد الميت فيحييه، ويخرج به من كل الثمرات التي
يحتاجها عباد الله، وذلك دليل على الله الرازق لعباده؛ لأنه تدبير مدبر عليم
قدير كريم رحيم.

﴿كَذَلِكَ تَخْرُجُ الْمَوْتَى﴾ كما أخرجنا بالأرض بعد موتها من كل الثمرات
وكان البلد قبل ذلك كأنه لا يصلح لإخراج الثمرات؛ لاستمرار بياسه وطول
مدة إجدابه، فلما نزل به المطر أحياه وأنبث وأثمر، وذلك التدبير والصنع دليل
على قدرة الله تعالى على إخراج الموتى من قبورهم، وأن استبعاد الكفار له إنما
هو كاستبعاد القانطين لنبات الأرض قبل أن ينزل المطر.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ بهذا التدبير بإرسال الرياح، ثم سوق السحاب
لبلد ميت، ثم إنزال الماء به، ثم إخراج أنواع الثمرات، أي فعلنا ذلك
﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ قدرتنا على إخراج الموتى، فهي آية ونعمة جعلناها
للأميرين.

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ الذي طاب لأهله لصلاح تربته؛ لأنه يتيسر فيه
رزقهم ﴿تَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ ﴿تَخْرُجُ نَبَاتُهُ﴾ صالحاً أو قوياً بإذن ربه
الذي صنع تربته وأعدّها لذلك.

﴿وَالَّذِي حَبِثَ﴾ على أهله بضعف تربته ﴿لَا تَخْرُجُ﴾ نباته ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ قال الراغب: «وناقة نكداء: طفيفة الدر، صعبة الحلب» انتهى، وعلى هذا يكون المعنى: قليل النبات لا يحصل إلا بصعوبة إذا كان صفة للبلد.

وفي (لسان العرب): «ونكد الرجل: قلل العطاء، أو لم يعط البتة» انتهى، وهذا يصلح وصفاً للبلد، وقال في (لسان العرب): «النكد: الشؤم واللؤم، نكد نكدًا فهو نكد...» إلخ، فالبلد القليل النبات مشؤوم؛ لأن أهله يتعبون في خدمة الحرث وفائدته قليلة.

﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ أي كما فصلنا الآيات في هذا السياق من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾ إلى قوله: ﴿..نَكِدًا﴾ سنتنا فصل الآيات في سائر القرآن الكريم وغيره، أو في الكون وما فيه من أثر التدبير والدلالة على ربكم.

والآية في المخالفة بين التربة، يجعل طبع هذه هو الصلاح للإنبات، وطبع هذه قلة الصلاح والحاجة إلى عناء أهلها، هي اختلاف طبع الترتين الذي لا يكون إلا من فاعل أصلح طبع تربة نعمة لأهلها، وأضعف طبع تربة لتبين نعمته في غيرها وابتلاء لأهلها، ولو كانت آثار طبع واحد لاتفقت في الصلاح أو في الضعف؛ لأن ما تنتجه الورشة الواحدة يكون سواء، أما الصانع فيخالف بين مصنوعاته كيف يشاء، كما خالف بين القطع المتجاورات من الأرض، وخالف بين الشجر التي تسقى بماء واحد ويختلف ثمرها في الجودة، وخالف بين ألوان الناس والدواب والأنعام، وإن كان ذلك بسبب طبائع مختلفة، فهو الذي خالف بين الطبائع، ولا بد أن ينتهي اختلافها إلى فاعل مختار.

﴿٥١﴾ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
﴿٥٢﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ يَنْقُومُ لَيْسَ بِي

وقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ دليل على أن الآيات نعم تستوجب شكر الناس؛ لأنها سبب للعلم النافع لمن تفكر.

﴿٥١﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴿٥٢﴾ هذا ابتداء القصص بالحق الذي يبين هداية الله لعباده، وإرساله للرسول إليهم بآياته منذرين لهم ومحذرين من عذاب الآخرة وداعين إلى عبادة الله وحده، واجتناب الشرك والفساد في الأرض، وبين عاقبة المكذبين لهم.

﴿فَقَالَ يَنْقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ بدأ بقوله: ﴿يَنْقُومُ﴾ للدلالة على عطفه عليهم ونصحه لهم فدعاهم إلى عبادة الله التي لها خلقوا، وذكرهم بأن الله لا شريك له، لتركوا الشرك الذي هو الظلم العظيم، ثم خوفهم بعذاب الله لينظروا حتى يعلموا أنه يدعوهم إلى الحق، ويجتنبوا أسباب عذاب الله الذي يكون في ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وبين لهم نصحه بأنه يخافه عليهم.

﴿٥٢﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٣﴾ أي في عدول عن طريق الصواب وغواية عنه ﴿ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ بين واضح لا خفاء فيه و﴿الْمَلَأُ﴾ جماعة اجتمعوا على أمر، ويقال: هم كبار القوم وهو الأقرب هنا، وإن كانت الجماعة تسمى ملأ، وقالوا عناداً: ﴿إِنَّا لَنَرْنَكَ﴾ مؤكدين دعواهم أنهم يرونه في غواية بيّنة، جرأة منهم على الكذب، وحرصاً على إبطال قول نبيهم؛ ولعل الباعث لهم كراهة أن يكون له الرئاسة في قومهم، ولهذا قالوا: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

ضَلَلَةٌ وَلَيْكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أَبْلَغُكُمْ رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِمَّنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ

﴿٦١﴾ قَالَ يَنْقَوْمَ لَيْسَ بِي ضَلَلَةٌ وَلَيْكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٢﴾ لَيْسَ بِي ضَلَلَةٌ ﴿٦٣﴾ واحدة، أي ليس بي أي ضلال، ليس الباعث لي على دعوتكم وإبلاغكم أنني لكم نذير مبين أي ضلالة، ولكني رسول إليكم ﴿مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الذي هو ربكم المالك لكم، والذي هو أولى بكم وهو المالك للعالمين كلهم.

﴿٦٢﴾ أَبْلَغُكُمْ رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ وَأَنْصَحُ لَكُمْ ﴿٦٣﴾ خبر ثانٍ له (لكن) أي أبلغكم ما أرسلني به ربي المالك لي، الذي لا بد لي من طاعته، وهي رسالات متعددة أريد تبليغها كلها ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ كما هو شأن الرسول من رب العالمين الذي أرسله رحمة لهم، أن يتحرى لهم الخير مخلصاً في ذلك ﴿وَأَعْلَمُ مِمَّنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فأنتم محتاجون إلى استماع كلامي واتباعي لأنقذكم من ظلمات الجهل.

﴿٦٣﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴿٦٤﴾ أَوْعَجِبْتُمْ ﴿٦٥﴾ معطوف على تضليلهم له والسؤال لإنكار العجب، كيف عجبوا لذلك وهو خير جاءهم من ربهم ﴿ذِكْرٌ﴾ يذكرهم من غفلتهم، وهم غافلون في أشد الحاجة إلى الذكر، وهذا الذكر ولعله (الكتاب) الذي أنزله على رسوله، أنزله ﴿عَلَى رَجُلٍ﴾ منهم معروف لديهم لا ينكرونه، جاءهم هذا الذكر من ربهم منزلاً على رجل منهم لأمر مهم في أشد الأهمية، وهو إنذارهم عذاباً شديداً دائماً.

فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ
كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُومِرَاعْبُدُوا
اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ﴿٦٥﴾ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٦﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن

﴿وَلَتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ولتتقوا هذا العذاب، ولعلمهم إذا جاءهم ذكر
من ربهم يرحمون، يرحمهم الله بتوفيقه والطفه إذا لم يعاندوا حتى ينجوا من
النار ويفوزوا برحمة الله العظمى في جنات النعيم، فالرحمة الكاملة: هي السلامة
من العذاب والفوز بالجنة، والمراد: الرحمة بالتوفيق المؤدي إلى الرحمة الكاملة،
فعجبهم من الذكر والرسول لهذا الغرض المهم، عجب منكر معيب عليهم.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي كذبوه في كل ما قال لهم: من أنه ما لهم من إله غير
الله، وأن عليهم أن يعبدوا الله وحده، وأنه نذير لهم، وأنه جاءهم بذكر من
ربهم لينذرهم ولتتقوا ولعلمهم يرحمون، واستمروا على تكذيبه حتى جاءهم
العذاب ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ﴾ الذين معه في الدين والإيمان
شاركوه في ذلك وصاحبوه عليه، فهذه هي معيبتهم للرسول، ولا يستحق
هذا الاسم منافق ولا فاسق و﴿الْفُلِّ﴾ السفينة، وهي آية لتدبير نجاتهم في
قوة أخشابها ومساميرها وإتقان صنعها حتى صارت ضامنة لنجاتهم من
الغرق وهي تجري بهم في موج كالجبال.

﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ لا
يبصرون ببصائرهم، وهذا إنذار للمكذبين من بعدهم والتكذيب بالآيات
جحد كونها آيات، مع دعوى أن نسبتها إلى الله كذب.

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم هودًا ﴿قَالَ
يَنْقُومِرَاعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ كما قال نوح لقومه: ﴿أَفَلَا
تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله، وقد اتخذتم من دونه آلهة وتركتم إخلاص العبادة لله.

قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَقُومُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَادْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا

﴿٦٦﴾ قَالَ أَلَمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٦٧﴾ سَفَاهَةٌ ﴿٦٨﴾ خفة عقل وعتاهة، بحيث لا ينبغي لنا أن نصغي لقولك ولا نلتفت لكلامك ﴿٦٩﴾ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٧٠﴾ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴿٧١﴾ وَإِنذَارِكْ لَنَا بِقَوْلِكَ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

﴿٦٦﴾ قَالَ يَقُومُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ يردعه قولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ واكتفى بالجواب المحكم، الذي هو الحق الذي يدل على رجاحة عقله والذي هو مهمته.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ ﴿رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ التي أرسلني بها إليكم وأمرني أن أبلغكم إياها، فإنا أمثل أمر ربي ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ فإنا أدعوكم إلى ما فيه الخير لكم، وأخلص لكم الإرشاد إلى ما فيه الخير لكم، وأنا ﴿أَمِينٌ﴾ في ذلك؛ لأن الله اختارني لذلك.

﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ إنكار لعجبهم من أنهم في أمس الحاجة إلى النذير، وربهم المالك لهم لا يريد أن يهملهم بلا نذير.

بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿٧﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رِّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِيْ أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطٰنٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِيْنَ ﴿٨﴾

﴿وَاذْكُرُوا﴾ نعمة الله عليكم ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾ في الأرض ﴿مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ﴾ على قوم نوح ﴿فِي الْخَلْقِ بَصۜطَةً﴾ زيادة واسعة في كمال أبدانكم وقوتكم. قال في (الصحيح): «البسطة: السعة» انتهى، فبين لهم: أنها نعمة عليهم يجب أن يشكروا الله عليها، ولكنهم جعلوها داعية لهم إلى الكفر، حيث قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

﴿فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ﴾ تذكروا نعم الله لتشكروه ولا تكفروه، أو ﴿فَاذْكُرُوا﴾ كناية عن الأمر بالشكر ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ تظفرون بالخير وتنجون من العذاب إذا شكرتم نعم الله عليكم.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا﴾ حولوا دعوته لهم إلى معنى يتعصبون له، وهو ترك ما كان يعبد آباؤهم، فانشغلوا بالتعصب لآبائهم، بحيث طلبوا تعجيل العذاب إن كان صادقاً، وهي وسيلة شيطانية لرفض الحق، والتعصب للباطل ﴿فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ﴾ فإذا جاءهم العذاب، فقد نال الشيطان مراده منهم ليكونوا من أصحاب السعير، والرسول جاءهم منذراً يدعوهم إلى النجاة من العذاب.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رِّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ عقوبة عاجلة من ربكم؛ لتمرذكم بعد وضوح الحق، وإصراركم على الباطل، فقد خذلتكم وغضب ربكم عليكم، فأرسل عليكم الشياطين تؤزكم أزاً، حتى صرتم إلى حد من الغواية والعمى في مكان بعيد من الحق.

فَأُخِيْنَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا
وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٦﴾ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا

﴿أَتُجَدِّلُونِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَاَبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ
سُلْطَانٍ﴾ ﴿أَتُجَدِّلُونَنِي﴾؟! سؤال إنكار، يعيب عليهم جدالهم في ما يعبدون
من دون الله، وهي مجرد ﴿أَسْمَاءٍ﴾ سموها هم وَاَبَاؤُهُمْ؛ لأنهم يرون
حجراً أو تمثالاً فيسمونه إلهاً، فليس له مزية على سائر الأحجار والتماثيل
المصنوعة إلا مجرد تسميتهم له إلهاً بلا حجة، وإنما هي تسمية اختلقوها من
أنفسهم؛ ولهذا جعلها مجرد أسماء سموها هم وَاَبَاؤُهُمْ، بدون أي حجة من
الله تسلطهم على التسمية ﴿فَانتَظِرُوا﴾ ما استعجلتم به ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ
الْمُنْتَظِرِينَ﴾ له؛ لأنكم قد صرتم بحيث يتوقع نزوله عليكم.

﴿فَأُخِيْنَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ كان المقدم في (قصة نوح)
(وقصة هو) ذكر نجاتهما ومن معهما، وذلك إرشاد إلى النجاة في اتباع ما
أنزل إلينا من ربنا وترك الأولياء من دونه، وقوله تعالى: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي
بوسيلة لنجاتهم دبرها لهم، كما أخرجهم من بلد قومهم قبل نزول العذاب.

﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿قَطَعْنَا
دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا﴾ أي أهلكناهم بسبب تكذيبهم بآياتنا، والدابر: العقب
أي الذرية، فأهلكهم بحيث لم يبق لهم عقب، وذلك لأن العذاب عمهم ولم
يُبق كبيراً ولا صغيراً. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ معطوف على
﴿كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وهو يفيد: أنهم لو كانوا يؤمنون في بقية أعمارهم لما
أهلكهم، ولكنه تعالى علم أنهم لن يؤمنوا لو أبقاهم، فأهلكهم لمجموع
الأمرين: التكذيب، وكونهم لن يؤمنوا.

اللَّهُ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۚ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۚ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ۚ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ۚ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٢﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ

ومثلها في (سورة يونس) قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [آية: ١٣].

قال في (المصاييح): «وأما عاد فهم قوم كانوا باليمن بـ (الأحقاف) قال ابن إسحاق: والأحقاف: الرمل الذي بين عمان إلى حضرموت».

﴿وَالِى ثُمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ أي ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحًا ﴿قَالَ يَنْقُومِ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ أي اعبدوا الله وحده، وهو يفيد: أن عبادتهم لو كانت لله مع شركائهم ما كانت مقبولة فهي كلا عبادة، إنما العبادة لله ما كان له خالصاً.

﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۚ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ بينة تدل على صدق رسولكم، وأن ما جاءكم به حق، وقوله: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ بيان للبيئة أنها هي ناقة الله، وقوله: ﴿لَكُمْ آيَةٌ﴾ أي جعلها الله لكم لتكون لكم آية، فهي لكم من حيث هي آية لا لتركبوها ولا لتأكلوها.

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ اتركوها ترتع ﴿فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ لا تعترضوها ولا تمنعوها؛ لأنها ناقة الله، والأرض لله، وهو المالك للأرض له حكمه فيها، فعليكم أن تتركوها تأكل في أرض الله، وهذا ابتلاء لهم، ولعله بمطالبتهم كانت هذه الآية العظيمة، الناقة التي تشرب ماءهم في يوم ولهم يوم ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾ يعم الضرب والجرح والقتل والضرر كله، وهذا إنذار لهم بالعذاب الأليم إن مسوها بسوء.

وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٦﴾ قَالَ

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ اذكروا نعمة الله عليكم ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ﴾ في الأرض تتفنون بمنافعها من بعد عاد ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ جعل لكم في الأرض مباءة أو مباءات أي مواضع سكنى.

قال في (لسان العرب): «والتبوء: أن يعلم الرجل الرجل على المكان إذا أعجبه لينزله، وقيل: تبوآه أصلحه وهيأه، وقيل: تبوء فلان منزلاً إذا نظر إلى أسهل ما يرى وأشدّه استواء وأمكنه لمبئته فاتخذّه، وتبوأ: نزل وأقام والمعنيان قريبان» انتهى.

﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ من السهول ما تبنى منه القصور بجعله طيناً متيناً، وبناء القصر منه، أو بجعله لبناً ثم يبنى، ومنها ما يجعل آجرأ يوقد عليه في النار فيصير قوياً خفيفاً، وهو أصلح لأعلى القصور، ولذلك اختاره عدو الله، فقال: ﴿فَأَوْقَدْ لِي يَاهْلَمَانُ عَلَى الطِّينِ فَجَعَلَ لِي صَرْحًا﴾ [القصص: ٣٨].

﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ نحت الجبال: تسويتها بآلات تجعل فيها التجاويف الكبيرة التي تصلح للسكنى، وذلك بالضرب بالفؤوس أو نحوها، حتى تأخذ بطون الجبال وتصير الجبال بيوتاً، وقد شاهدنا من هذه البيوت في بلاد (صعدة) حكى الشرفي في (المصاييح): «أن ثموداً عَمَرُوا أعماراً طوالاً، حتى أن الرجل كان يبنى المسكن المحكم، فينهدم في حياته فنحتوا البيوت من الجبال» انتهى.

﴿فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ﴾ نِعَمَ اللَّهِ، والمراد: اشكروا نعم الله ﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ولا تفسدوا فساداً يتشرب في الأرض، و(العشي) الفساد وأخذ انتشاره في الأرض من نسبته إليها، وقوله ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدة.

الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ
 أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَاحِبًا مُرْسَلًا مِّن رَّبِّهِ ؕ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ
 مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ
 كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِّحْ
 بِنَا مَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي

﴿٧٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ
 ءَامَنَ مِنْهُمْ ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل بعض من كل، يفهم منه: أن الذين
 استضعفوا لم يكونوا آمنوا كلهم، ولكن آمن بعضهم، فقال لهم الملأ الذين
 استكبروا: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَاحِبًا مُرْسَلًا مِّن رَّبِّهِ﴾ مجادلة منهم للمؤمنين
 ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ ﴿بِمَا أُرْسِلَ بِهِ﴾ بالآية التي أرسل بها
 تدل على أنه مرسل من ربه ﴿مُؤْمِنُونَ﴾ بأنها آية من الله تدل على صدقه.

﴿٧٦﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ
 وهذا نهاية العناد أن يكفروا بالآية العظمى التي هي الناقة، قال الشرفي في
 (المصابيح): «قال في (البرهان): في الناقة آيتان: أحدهما: أنها خرجت من
 صخرة ملينا [ملساء - ظ] تمخضت بها كما تمخض المرأة، ثم انفلقت على
 الصفة التي طلبوها، والثاني: كان لها شرب يوم تشرب فيه ماء الوادي كله،
 وتسقيهم اللبن بدله، ولهم شرب يوم يخصهم لهم ما فيه» انتهى.

﴿٧٧﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ ﴿كَفَرُوا بِهَا وَمَحَارَبَةُ لَدِينِ اللَّهِ﴾ ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾
 قال في (لسان العرب): «عتا، يعتو، عتوا، وعيتاً: استكبر وجاوز الحد، ثم
 قال - وأظنه حاكياً عن الأزهري - : والعاتي الشديد الدخول في الفساد
 المتمرد الذي لا يقبل موعظة» انتهى.

دَارِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ ﴿٧٩﴾ وَلَوْ طَآءَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ

وهذا المعنى عندي أحسن في تفسير (العتو) أي شدة الامتناع والإصرار فهو يقارب عتو الهرم، وعتو الريح التي أهلكت عاداً، فعتو ثمود: شدة امتناعهم عن أمر ربهم، بحيث أنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٦﴾ [القصص: ٩٦-٩٧].

﴿وَقَالُوا يَنْصَلِحُ النَّبِيُّ بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ كَفَرُوا مِنْهُمْ بقوله: ﴿وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءَ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وكفراً برسالته.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ﴾ ﴿الرَّجْفَةُ﴾ زلزلة الأرض وكانت شديدة فأهلكتهم، وكان سبب الرجفة صيحة لعلها صيحة ملك شديدة رجفت منها الأرض رجفة شديدة، فأهلكتهم الصيحة بواسطة الرجفة، أو كانت الرجفة نفسها صيحة لقوة صوتها، والأول أقرب عندي، إلا أن يكون صوت الرجفة أهلكهم - والله أعلم.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ﴾ تصوير لحالهم في الصباح الذي كان وقت الخروج والحركة والإقبال على الأعمال ﴿جَثِيمِينَ﴾ لسقوطهم هلكى على الأرض كالقاعدين، يقال: جثم الطائر إذا قعد ولطىء بالأرض، وفي (لسان العرب): «الجائم: القاعد مكانه لا يبرح - ثم قال - : وقال أبو العباس: أي أصابهم البلاء فبركوا فيها، والبارك: الجائم على رجليه» انتهى.

وقوله: ﴿فِي دَارِهِمْ﴾ أي في بلدهم، بدليل قوله تعالى في (سورة هود): ﴿فِي دِيَارِهِمْ﴾ [آية: ٦٧] يقال للبلد: دار، ألا ترى أنهم يقولون: دار حرب، ودار هجرة، قال الراغب: «ثم تسمى البلدة داراً...» إلخ.

أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٩﴾

﴿فَتَوَلَّى﴾ نبيهم ﴿عَنَّهُمْ﴾ لعله غاب عنهم في الثلاثة الأيام بعد ما قال لهم: ﴿تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [مود: ٦٥] ثم عاد إليهم بعد هلاكهم لينظر كيف هلكوا فتولى عنهم ﴿وَقَالَ يَتَقَوْمٌ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾ أبلغتكم أني رسول من الله لأنذرکم ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ فلم آل جهدا في طلب صلاحكم ﴿وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ﴾:

فبين بذلك: أنها لم تبق لهم حجة، وأنهم هم الذين ظلموا أنفسهم؛ لأنهم أهملوا عقولهم وجدوا في اتباع أهوائهم إلى حد أنهم لا يحبون الناصحين؛ لأنهم يدعونهم إلى خلاف ما تهواه أنفسهم، وكلامه معهم في صورة الخطاب لهم لأنه أبلغ في موعظة السامع، أو هو كخطاب الرسول ﷺ لأهل القلب الذين قتلوا في بدر.

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَلَوْطًا﴾ أي ولقد أرسلنا لوطاً وأغنى قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ عن قوله إلى قومه ﴿إِذْ قَالَ﴾ أي أذكر إذ قال: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ سؤال توبيخ وإنكار عليهم ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ دلالة على سبقهم في الخبث والفجور حيث ابتدعوا فاحشة لم يسبقوا إليها.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ هذا تفسير للفاحشة المذكورة، ومعنى تأتون الرجل إتيان الرجال في أدبارهم ﴿شَهْوَةً﴾ لزيادة إيضاح المعنى، وقوله: ﴿مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ أي بينكم وبين النساء، أي

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ

تجعلون ذلك أقرب من إتيان النساء، وهو يفيد: أنهم لا يصلون إلى النساء، كقوله: ﴿وَتَلَذُّونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ﴾ [الشعراء: ١٦٦] وذلك مخالفة للفطرة، والنساء زيادة في الحجة عليهم.

﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ قال الراغب: «السرف: تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان، وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر» انتهى، والمعنى ﴿مُسْرِفُونَ﴾ متجاوزون في الباطل الحد المعهود من غيركم، أو متجاوزون الحق إلى الباطل في هذا الأمر وغيره.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ فقولهم: ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾ قام مقام الجواب، ولم يجيبوا كما أجاب قوم نوح، أو قوم هود، أو قوم صالح، فجعل قول قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوهُمْ..﴾ إلى آخره جواباً على طريق المشاكلة، لوضعه موضع الجواب وجعله بدله.

وقولهم: ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾ أي أخرجوا لوطاً وآله، وقولهم: ﴿مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ جعلوها قريتهم كأنها لهم وحدهم، لعدم اعتبارهم مشاركة لوط وآله، استخفافاً بحقهم، وقولهم: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ تعليل لإخراجهم، والمعنى: أنهم يتنزهون عن قذارة اللواط.

قال في (الكشاف): «وقولهم: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ سخرية بهم وبطهرهم من الفواحش، وافتخاراً بما كانوا فيه من القذارة، كما يقول الشُّطَّار من الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم: أبعادوا عنا هذا المتكشف، وأريحونا من هذا المتزهّد» انتهى.

﴿٦٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ۖ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۖ قَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ

﴿٦٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ ۖ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٩﴾ وَأَهْلَاهُ ۖ لَأَنَّهُمْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٠﴾ إِلَّا امْرَأَتُهُ ۖ وَكَانَتْ مُسْلِمَةً، لكنها خانت نبي الله ﴿٧١﴾ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ۖ الماضين الهالكين.

﴿٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ۖ أي مطراً غير المعهود وهو الحجارة ﴿٧٣﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ۖ ففيهم عبرة لمن يعتبر لينجو من الهلاك الذي يسببه الإجمام.

﴿٧٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۖ أي ولقد أرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً ﴿٧٥﴾ قَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ تدل على أن لا إله إلا هو وأني رسول منه، وأن عليكم أن تعبدوه.

﴿٧٦﴾ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ۖ أمرهم أن يوفوا الكيل؛ لأن المطفف قد ينقص في الكيل وإن كان المكيال وافياً، وفي موضع آخر ذكر الله أنه أمرهم أن يوفوا المكيال؛ لأن المطفف ينقص بواسطة نقص المكيال، وذلك يدل على أن شعيباً عليه السلام، أمرهم: أن يوفوا المكيال ويوفوا الكيل، وأمرهم: أن يوفوا الميزان؛ لأن التطفيف في الوزن قد لا يتهياً إلا بالنقص في الميزان، يجعله مائلاً أو بنقص ما يوزن عليه؛ لأن المشتري يراقب استواء الميزان مراقبة تبعد التطفيف بغير نقص الميزان.

تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا
وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَنِيبَةُ
الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَتُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ

وقوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي لا تنقصوهم ما هو لهم، أو
لا تظلموهم شيئاً من أشياءهم وهو يعم الأموال وغير الأموال، قال
الراغب: «البخس: نقص الشيء على سبيل الظلم» انتهى.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بعد إصلاح الأرض بمراقبتها
وأموالها وطرقها ومساكنها ومياهها، ونحو ذلك من إصلاح منافع الأرض،
فالإفساد فيها تغيير صلاحها، بمثل: إغوار الماء، وقطع الطريق، وحرق
المحطب والمرعى والزرع، وقطع الأشجار المثمرة بالفواكه.. ونحو ذلك،
وتخريب الدور، وإفساد الهواء بالدخان أو غيره، ويدخل في ذلك بالأولى
إبطال التربة وإماتها بالقنابل الذرية وغيرها من وسائل الفساد.

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من
قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ إلى ﴿إِصْلَاحِهَا﴾ ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ في دينكم ودنياكم؛
لأن صلاح المجتمع بانتشار العدل، وعدم الغش والخيانة، والإفساد في منافع
الناس، وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي إن قبلتم مني، وذلك يتوقف
على إيمانكم بالله، ورسله، واليوم الآخر.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ الصراط: الطريق الواضح، والقعود به
الجلوس فيه لانتظار من يمر فيه من المؤمنين، أو من يخافون أن يؤمن
بشعيب، وقوله: ﴿تُوعِدُونَ﴾ أي توعدون بالقتل أو غيره مما يخاف للتحذير
من الإيمان أو من الاستمرار عليه.

وَطَايِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ تَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٦٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ

﴿وَتَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ تمنعون عن دين الله ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ بالله ﴿وَتَبْتَغُونَهَا عِوَجًا﴾ تبغون سبيل الله عوجاً، بذكر الشبه والتغريب، لتجعلوا في سبيل الله عوجاً، وتنسبون إلى دين الله أنه غير مستقيم على الصواب، مثل ما يقول المحاولون في إفساد المسلمين: أن الدين يؤخر الناس عن التقدم والحضارة، ويبقيهم في الضعف والجمود والجهل بأسباب القوة، فيجعلون سبب ضعف المسلمين هو الإسلام، وهذا باطل، فإن سبب ضعفهم التفرق والتنازع، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَلْعَبَ رِجْلُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]. وقوله: ﴿وَتَبْتَغُونَهَا عِوَجًا﴾ معطوف على ﴿تُوعِدُونَ﴾ و﴿تَصُدُّونَ﴾ فمعنى ذلك: تقولون لمن آمن، أو تخشون أن يؤمن شياً لتغووهم عن سبيل الله بالقدح في استقامة سبيل الله وكونها صواباً، وذلك كله في حال قعودكم بكل صراط.

﴿وَأَذْكُرُوا﴾ نعمة الله عليكم ﴿إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمُ﴾ فاشكروا هذه النعمة، أو الدعوة إلى ذكرها، كناية عن الدعوة إلى شكرها وهو أقرب، والكثرة نعمة عظيمة؛ لأنها قوة يستطيع بها غلبة العدو، والدفاع عن الأنفس والأموال والدين ودفع المفسدين، ولكن الخلاف والتنازع يفوت هذه الفائدة، والمسؤول عن ذلك المفسدون لذات البين.

﴿وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ فاعتبروا بمن قبلكم من قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط؛ لتنجوا من العذاب الذي سببه الإفساد.

﴿وَإِنْ كَانَ طَايِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ من آيات الله ووحيه ﴿وَطَايِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ تَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾

ءَامَنُوا مَعَكُمْ مِنْ قَرَيْتِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَؤُكُنَّا كَرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفْتَحَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِيَنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا

اصبروا على انتظار حكم الله بيننا، ولا تعجلوا على الشر، فإن الله ﴿خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ وانتظار حكمه يكفيكم؛ لأن الله خير الحاكمين، فحيث كل فريق يدعي أنه على حق، فعليه أن يرضى بحكم الله؛ لأن الله خير الحاكمين، ولن يكون حكمه ضد الحق من الفريقين، فهذا أصلح من عجلة الكفار على التعدي على المؤمنين وعلى الرسول؛ لأن ذلك يؤدي إلى تعجيل عذابهم، وفي الثاني السلامة لكنهم أبوا.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرَيْتِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ لم يقبلوا نصيح نبيهم بأن يصبروا، وهددوه ومن معه بإخراجهم من قريتهم إن لم يعودوا في ملتهم، ولم يكثرث نبيهم بالوعيد بإخراجهم له من قريتهم فلم يجب فيه، وأجاب عن قولهم: ﴿أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾..

﴿قَالَ أُولَؤُكُنَّا كَرِهِينَ﴾؟! أي أنعود في ملتكم ولو كنا كارهين، ثم قال: ﴿قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا﴾ لأننا إن عدنا في ملتكم قلنا على الله ما تقولون من إثبات الشركاء لله، وغير ذلك من كذبكم على الله، وقد علمنا حين هدانا الله ونجانا من ملتكم، أن ما تقولونه على الله كذب، فلو رجعنا في ملتكم كنا قد تعمدا الكذب على الله.

لَخَسِرُونَ ﴿١١﴾ فَأَخَذْنَهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿١٢﴾
 الَّذِينَ كَذَبُوا شُعْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعْبًا كَأَنوَاهُمْ
 الْخَسِرِينَ ﴿١٣﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَلْقَوْمٍ لَقَدْ أَتَلَّغْتُكُمْ رَسُولَتِ رَبِّي

وليس في هذا إثبات: أن شعبيًا كان مشركاً؛ لأن قوله: ﴿إِنْ عُدْنَا﴾ فيه
 حرف الشرط فهو فرض وتقدير، لا يلزم منه أنه كان عليه، بل هو في حقه
 متوقف على فرض أنه كان فيه، وفرض العود فرض لما يتوقف عليه العود،
 أي فرض لما يتوقف عليه كون الدخول في ملتهم عوداً فيها، وكأنه ترك
 الجدال في أنه كان معهم؛ لأن المهم بيان أن ما هم عليه باطل يجب تركه،
 سواء كان معهم أو لم يكن.

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ
 عِلْمًا﴾ ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا﴾ ما يليق بجلالنا ولا يناسب ما نحن فيه من اليقين
 بالحق وكرهه ما أنتم عليه من الباطل، فهو شبه المستحيل منا، ثم قال: ﴿إِلَّا
 أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ لأن الهدى والصلاح ليس ذاتياً لنا، إنما هو بلطف الله
 وعصمته، وهو أعلم بجلالنا في المستقبل، يعلم إن كنا ننتغير ونستحق الخذلان
 في المستقبل، أو أنا نثبت على دينه بعصمته ولطفه.

﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ فلن نترك دينه لو عيذك؛ لأننا في طاعتنا له وكلنا
 أمرنا إليه ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ ربنا
 احكم ﴿بَيْنَنَا﴾ وافصل ﴿بِالْحَقِّ﴾ سواء لنا أو علينا، وأنت خير الحاكمين؛
 لأنك لا تحيف ولا تخطئ، وفي قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ في جوابه على قومه دلالة
 على أنه واثق أنه على الحق، وأن الحكم من الله بالحق هو له لا عليه.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ كبراء الكفار من قوم شعيب:
 ﴿لَيْنِ اتَّبَعْتُمْ شُعْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ يقولون لأصحابهم أو لقومهم تسيطاً

وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ

وصداً عن الحق، فلم يكفهم إصرارهم على الكفر، بل أضافوا إليه إصرارهم على الصد عن سبيل الله، كأنهم لم يسمعوا نصيحة نبيهم.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا﴾ أخذتهم الرجفة كلهم الذين استكبروا، والذين استضعفوا ﴿كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ كان لم يسكنوا في قريتهم، حيث هلكوا كلهم كبيرهم وصغيرهم، قال الراغب: «وغني في مكان كذا، إذا طال مقامه فيه مستغنياً به عن غيره» انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): ﴿كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ معناه: لم ينزلوا فيها ولم يعيشوا ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا هُمُ الْخَسِرِينَ﴾ لا من اتبعه كما زعموا.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَ قَوْمٍ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ ﴿ءَاسَىٰ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: أحزن وأتوجع» انتهى، وقد مر تفسير مثلها، وفي هذه زيادة جمع رسالة رسالات، ولعل السبب: أنه بلغ أكثر؛ لأن بعض قومه قد كانوا آمنوا فكان قد بلغهم كل ما أرسل به.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ ﴿أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أصبناهم بالبأساء والضراء بحيث غلبتهم البأساء والضراء، وسيطرت عليهم، ولم يستطيعوا التخلص من البأساء والضراء، والبأساء مثل: الجذب، والجوع، والفقر الشديد، والضراء مثل: الأمراض.

بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٧٤﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا

﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ تعريضاً لهم على التضرع إلى الله والتذلل له، إذا أذلهم الفقر والضرر وذهبت سكرة النعمة، وهو تأديب لهم كما يؤدب الصبي أبوه ولكن لم يتضرعوا.

﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا﴾ مكان السيئة مكان ما كان يسوؤهم من البأساء والضراء جعلنا بدله الحسنة الرزق والعافية ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ قال في (لسان العرب): «وفي التنزيل: ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ أي كثروا، وعفا النبت والشعر وغيره يعفوا فهو عافٍ: كثر وطال...» إلخ، وفي (الصحيح): «وعفا الشعر والنبت وغيرهما: كثر، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ أي كثروا» انتهى، وفي هذا دلالة على طول مدة الخير.

﴿وَقَالُوا﴾ لطول مدة الخير ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ لم يعتبروا البأساء تأديباً ليتضرعوا، ولا الخير نعمة ليشكروا، بل جعلوا ذلك مجرد عادة من عادات الدهر بزعمهم جاءت فيهم كما مسّت آباءهم ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنه الهلاك حين بغتهم وهذا عذاب عاجل بتكذيبهم لرسولهم وعصيانهم لربهم، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

﴿٧٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿ءَامَنُوا﴾ بآيات الله وآمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر ﴿وَاتَّقَوْا﴾

أسباب العذاب أي أطاعوا الله واجتنبوا العصيان وتابوا إلى الله مما مضى منهم من المعاصي ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

قال بعض المفسرين - ونعم ما قال - : «فيه استعارة بالكناية، فقد شبهت البركات بمجري تجري منها عليهم كل ما يتمتعون به من نعم الله لكنها سُدَّتْ دونهم، فلا يجري عليهم منها شيء، لكنهم لو آمنوا واتقوا لفتحها الله سبحانه، فجرى عليهم منها بركات السماء من الأمطار والثلوج والحر والبرد وغير ذلك، كل في موقعه وبالمقدار النافع منه وبركات الأرض من النبات والفواكه والأمن وغيرها، ففي الكلام استعارة المجاري للبركات، ثم ذكر بعض لوازمه وآثاره، وهو الفتح للمستعار له» انتهى.

قلت: وفيه فائدتان:

الأولى: سهولة ذلك، حتى كأن البركات موجودة إذا فتحت فاضت على العباد؛ لأن إنزالها ليس فيه أي عسر على الله؛ لأنه على كل شيء قدير.

الثانية: أن إفاضة البركات على العباد هي الأصل، ففيض البركات عليهم كالطبيعي، كما أن من طبع الماء أن يفيض إذا فتح، وإنما تسد عليهم لذنوبهم إذا اقتضت الحكمة تأديبهم بالبأساء والضراء، ففي ذلك تنبيه على كرم الله، وإرادة الخير واليسر لعباده لولا أنهم يظلمون أنفسهم.

ويؤكد ما ذكره من الإستعارة قول (صاحب لسان العرب): والفتح: الماء المفتح إلى الأرض ليسقى به، والفتح: الماء الجاري على وجه الأرض عن أبي حنيفة، الأزهري: والفتح: النهر، وجاء في الحديث: «ما سقى فتحاً وما سقى بالفتح ففيه العشر» انتهى المراد.

بَيِّنَاتًا وَهُمْ نَاقِمُونَ ﴿١٧﴾ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿١٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ يَهْدِي لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ

﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَلَنَخْذَنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القم: ٤٢] وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يفيد أن سبب الأخذ معاصيهم كلها التي استمروا يكسبونها.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ بعد أهل القرى الماضين ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنَاتًا وَهُمْ نَاقِمُونَ﴾ ﴿بَيِّنَاتًا﴾ أي أن نبينهم بالعذاب بيئات، والبيات: الهجوم على العدو وقتلهم في الليل، فيأتيهم ﴿بَأْسُنَا﴾ كالرجفة والصيحة ﴿وَهُمْ نَاقِمُونَ﴾ وفي ذلك شدة الفزع إذا أيقظتهم المصيبة النازلة بهم.

﴿أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ ﴿ضُحًى﴾ أول النهار حين تشرق الشمس وتبيض وقت خروجهم من بيوتهم، وأخذهم في أفعالهم من أعمال الدنيا ولهوهم، وسمى ذلك لعباً لانقطاع فائدته كاللعب فائدته وقته، فإذا انتهى ذهبت لذته، وفي التعبير باللعب دلالة على أنهم مستحقون للعذاب القاطع للذات المبطل للأعمال، فاشتغالهم بدنياهم في حال أن قد تعرضوا لعذاب الله اشتغال بما لا فائدة له، وتله بما لا ثمرة له إذا تعقبه الهلاك انكشف أنه كاللعب، لأنه كان ينبغي لهم بدلاً منه أن يتلافوا أنفسهم بالإيمان والتوبة إلى الله، فكان اشتغالهم بدنياهم ولهوهم كالإشتغال باللعب.

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ استدراجه لهم، أي أفامن أهل القرى ﴿مَكْرَ اللَّهِ﴾ وقد تعرضوا لغضبه ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾

أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ^١ وَنَطَبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠﴾ تِلْكَ
الْقُرَى نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا^٢ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا
كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ^٣ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ
الْكَافِرِينَ ﴿١١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ

الذين عاقبتهم الخسران المبين؛ لغفلتهم عن الله وإعراضهم عن هداه حتى
نسوا أو جهلوا أنهم متعرضون لبطشه بالتمرد عليه والإصرار على الباطل.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ
أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ أفلا يجعلهم مهتدين كونهم معرضين
لعذاب الله كالأولين ﴿لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما أصبنا من قبلهم،
والسؤال بمعنى النفي، فالذين ﴿يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ كيف لا
يعتبرون بهم، وقد بين لهم إهلاك من قبلهم، أن لو يشاء الله لأهلكهم كما
أهلك من قبلهم.

﴿وَنَطَبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ معطوف على ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ لأنه بمعنى: قد هدي
لهم، أي بين لهم، ونطبع على قلوبهم ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ بياناً يهديهم
لما فيه نجاتهم، لأنهم قد خذلوا؛ بتمردهم.

﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا^٢ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ﴾ القاطعة للعدر ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾
فما كانوا ليؤمنوا، أي ما كان يناسب حالهم أن يؤمنوا، فهو نفي مؤكد مثل:
﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدْ﴾ [الحجر: ٢٣] لأنهم قد ﴿كَذَّبُوا﴾ بالآيات ﴿مِنْ قَبْلُ﴾
فما كانوا ليؤمنوا بها من بعد؛ لأنهم قد خذلوا من أجل التكذيب بها، فما
كانوا مع خذلانهم ليؤمنوا بما كذبوا من الرسل، والآيات البينات من قبل.

لَفَسِقِينَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
فَظَلَمُوا بِهَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٨﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ

والراجع: أن هنا إيجازاً، وأن المعنى: فكذبوا الرسل بعدما رأوا الآيات
البيّنات، وأصروا على ذلك واستمروا، ولم يتنفعوا بعد ذلك بإنذار ولا
موعظة ولا نصيحة ليؤمنوا؛ لأنهم قد كذبوا الرسل من قبل فخذلوا، فما
كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل.

قلت: هنا إيجاز لأن قوله تعالى: ﴿بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ يدل على
أنهم قد كذبوا من قبل وذلك يستلزم أنهم أصروا على التكذيب حتى
خذلوا فما كانوا ليؤمنوا.. إلخ.

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿كَذَلِكَ﴾ الذي منعهم
من الإيمان وباعدهم عنه ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ فهو أي الطبع
يكون بسبب تكذيبهم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من بعد ما جاءتهم البيّنات فتبين لهم
الحق، فتمردوا وكفروا فاستحقوا الخذلان، وإرسال الشياطين عليهم، حتى
تصير قلوبهم كالمختوم عليها، لا يدخلها الإيمان أبداً.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾
فأكثرهم يكونون قد عاهدوا عند إصابتهم بالضراء وخوفهم الهلاك بذنوبهم
﴿لَئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَٰذَا لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢] ثم نكثوا وأضاعوا
العهد كأن لم يكن ﴿وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ فجأراً خبيثاً، يتركون
الحق تعمداً وتمرداً، ويتعمدون الباطل خبيثاً وفجوراً.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد الرسل المذكورين سابقاً وأمرهم
﴿مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أصحابه الذين هم معه في الباطل
والظلم وزراء ومعينون ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ فاستهزءوا بها وكذبوا بها.

يَنْفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٥﴾

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَنِقَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أنا دمرناهم أجمعين، فصاروا عبرة لمن بعدهم من الأمم، وكانوا مفسدين بالشرك، والظلم لبني إسرائيل، والتكذيب بآيات الله.. وغير ذلك.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَنْفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «أي مرسل إليك من مالك الخلق أجمعين، كان يقال للملوك مصر: الفراعنة، كما يقال للملوك فارس: الأكاسرة، فكأنه قال: يا ملك مصر» انتهى المراد.

وقد تضمن قوله: ﴿مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حجة على فرعون، وهي أنه عبد لمرسل موسى، فعليه أن يمتثل أمره، ويتبع رسوله، وأن بني إسرائيل عباد الله، فعليه أن يرسلهم لموسى، وأن مرسله رب العالمين، فهو مالك الملك وله الحكم فيهم لا لغيره.

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ على قراءة نافع ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ﴾ بإدخال (على) على (ياء المتكلم) أي: واجب علي أن لا أقول على الله إلا الحق، وعلى قراءة غيره: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ بدون (ياء المتكلم) ذكر فيه (صاحب الكشاف) وجوهاً: أحدها: أن ضمَّن (حقيق) معنى حريص فعدي تعديته، وهذا أقرب الوجوه عندي، فمعناه: إني حقيق وجدير بأن لا أقول على الله إلا الحق؛ لأنه أرسلني رب العالمين، وهو لا يرسل من يقول غير الحق، وإني حريص على ذلك.

قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿١٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنّٰظِرِيْنَ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلَمَلَأْ مِنْ قَوْمٍ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿١٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٢٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي

﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ تدل على أنني رسول رب العالمين وأني حقيق أن لا أقول على الله إلا الحق ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ليتخلصوا من ظلمك ويهتدوا باتباع الرسول.

﴿١٦﴾ ﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا﴾ فأظهرها لنا ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ﴾ وهذا دليل على آية عظمى، وهي أن الله صرفه عن قتله فتشاغل بطلب الآية والجدال بالباطل. ﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسى ﴿عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾: وهو الذكر من الحيات» انتهى.

وفي (المصابيح): «والثعبان: الحية الضخم الذكر في قول جمع - كذا - أهل اللغة» انتهى، ومعنى ﴿مُبِينٌ﴾ بين واضح أنه ثعبان ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنّٰظِرِيْنَ﴾ تعجبهم بجمالها، وفي التعبير بالنزع إشارة لضيق الثوب الذي أخرجها منه، كقوله تعالى: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ [الفصص: ٣٢].

﴿١٩﴾ ﴿قَالَ أَلَمَلَأْ مِنْ قَوْمٍ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ بالسحر ماهر فيه، أي قالوا: إن موسى إنما جاء بتخييل لا حقيقة له، فلا ثعبان، ولا بياض ليد، بعد ما تبين لهم الثعبان الذي لا شك فيه، والبياض الذي رآه الناظرون، ولكنهم خافوا أن يتحرر بنو إسرائيل ويكونوا قوة ضدهم، فتأمروا في مدافعة الآية البينة، فقالوا:

الْمَدَّائِينَ حَشِيرِينَ ﴿٣١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحْرِ عِلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ
فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ نَعَمْ
وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٣٤﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ

﴿يُرِيدُ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ يقول ذلك بعضهم، وهذا
ما يحقق الآية العظمى، التي هي صرف الله لهم عن قتله؛ لأنه لو كان ساحرا
كما زعموا يريد ما زعموا لكان قتله أيسر وأنفع من كل رأي للتخلص منه،
ولكن الصارف عن قتله أمر رباني لأجله لجأوا إلى الجدل، وقرروا: أن الرأي
أن يعارضوا الآيات بالسحر، وذلك وإن كان مظنة أن يظهر الفرق بينه وبين
الآية البينة، فهو عندهم يكون مجالا للجدل ومجالا لدعوى أن سحرهم قد
غلب الآية، أو على الأقل دعوى التشابه بينه وبين ما جاء به موسى، ودعوى
أن الكل سحر، جدالا ومدافعة بالباطل تطويلا لمدة المدافعة للحق، وظنوا
أنهم في ذلك قد أصابوا الرأي الآخر فاتجهوا إلى فرعون.

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أخرهما ولا تقتلتهما وهذه للجدال في الآية
العظمى الواضحة الجلية التي هي صرفهم عن قتل موسى، وقد دل عليها
بقوله: ﴿وَإِنِّي عَدْتُ يَرْبِي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان: ٢٠] فلا إرجاء منه، بل
هو ملجأ إلى تأخيرهما وترك قتلهما، وليس تركه لقتلهما من أجل قولهم:
﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ وقد عرفوا ذلك، ولكن أرادوا التغطية على الحق والتغريب
على أتباعهم ﴿وَأَرْسَلْ فِي الْمَدَّائِينَ حَشِيرِينَ﴾ يحشرون إليك السحرة من كل
مدينة ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحْرِ عِلِيمٍ﴾ بالسحر ماهر فيه، ومضى على هذا
الرأي، فأرسل ﴿فِي الْمَدَّائِينَ حَشِيرِينَ﴾ للسحرة.

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾
لموسى وهارون، وهذا عرض عليه ليعدهم الأجر، أو هو استفهام ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ إن
لكم لأجرا ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ تصيرون وزراء، أو نحو الوزراء.

﴿قَالُوا يَمْوَسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ﴾ ما أعددت للمغالبة ﴿وَأِمَّا أَنْ نَكُونَ خَنُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لما أعددنا، وظاهر الحصر: أنهم يظنون أنهم إن ألقوا لم يلقى موسى، ولا ينافي هذا قولهم: ﴿وَأِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ [طه: ٦٥] لأنهم في ظاهر كلامهم يعرضون عليه أن يبدأ أو يبدأوا بالإلقاء، وهنا زيادة أنهم إذا بدأوا عجز موسى عن الإلقاء، تأثراً بسحرهم أو انبهاراً منه.

﴿قَالَ أَلْقُوا﴾ ما أنتم ملقون ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ فخيّل إليهم أن حبالهم وعصيهم تسعى، فالسحر: تأثير في أعين الناس بوسيلة يعرفها السحرة، والتأثير في الأعين هو وسيلة التخيل ﴿وَأَسْتَرَهُبُوهُمْ﴾ قال في (الكشاف) في تفسير ﴿وَأَسْتَرَهُبُوهُمْ﴾: «وأرهبوهم إرهاباً شديداً، كأنهم استدعوا رهبتهم» انتهى.

قلنا: لما كانت الرهبة وقعت بجيلة السحر، جعل السحر استدعاء للرهبة، ففائدة (سين الطلب): أن لا يوهم الكلام أنهم أربوا الناس بمواجهة بنار أو سلاح أو نحو ذلك، وإنما حيلة أوقعت الخوف في القلوب ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ ولعله عظم لكثرتهم مع شدة عنايتهم.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فآلقاها ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (فإذا): هي دليل المفاجأة بسرعة التلقف لما يافكون، فالعصا أخذت ما يافكون كأنها جذبت إليها وأبطلته، و﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ هو السحر الذي سحروا به الأعين؛ لأنه إفاك من حيث هو تخيل خلاف الحقيقة، وتزوير بتخيل قلب حقيقة حالهم وعصيتهم.

هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١٦٦﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٦٩﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُسَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٧١﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٧٢﴾ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ

﴿فَوْقَ الْحَقِّ﴾ ثبت في الأرض واستقر ورسخ وانتصر ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من السحر الذي طالت مدة عنايتهم به والإعداد للمغالبة به ﴿فَغَلَبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾ غلب فرعون وقومه ﴿وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾ ببطلان كيدهم وسقوط حجتهم وافتضاح عنادهم، و(الصغار): الذلة.

﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ لله خرُوا سجداً، كأنهم ألقوا على الأرض لسرعة هويهم إلى الأرض، مبالغة في الخضوع لرب العالمين ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ تصريح بإيمانهم بالله الذي هو مالِكهم ومالك العالمين كلهم، فطاعته واجبة عليهم كلهم، ولا طاعة لمن كفر به، وقولهم: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ لزيادة التحقيق وللإيمان بموسى وهارون، حيث جاء سبب الإيمان على يديهما.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ ﴿ءَامَنْتُمْ؟﴾! إنكار منه عليهم لأنهم آمنوا قبل أن يأذن لهم، بناء على أن الأمر له وقد ضل وتاه عن الحق؛ لأن الأمر لله وحده والحكم له؛ ولهذا ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَلَعْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا﴾ [طه: ٧٢].

ءَامَنَّا بِقَايَتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٦٦﴾
وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ

وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أراد به عدو الله أن
السحرة اتفقوا هم وموسى على أن يغلبهم ليبطل أمر فرعون ويستولي
موسى على المدينة فجعلوا سحرهم ضعيفاً بحيث يغلبه موسى، وكذب عدو
الله لقد ﴿جَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ ولكن غلبه أمر الله الغالب على أمره.

﴿فَسَوْفَ تَعْمُونَ﴾ ما يصيبكم بسبب مكركم، وإيمانكم قبل أن أذن لكم
﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُضِلَّنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ من
خلاف اليد من جانب، والرجل من الجانب الآخر، كاليد اليمنى والرجل
اليسرى، والصُّلب: تعليقهم في النخل، وهذا مما يدل على الآية الأولى التي
هي صرفه عن قتل موسى وهارون، فقد كان إيمان السحرة بهما من أعظم
ما يبعثه على قتلهما قبل وعيده للسحرة ولو بدعواه المكر الذي ادعاه.

﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ فرجوعنا إليه وهو راض عنا هو
الذي نرغب فيه، ولانبالي بفراق الحياة الدنيا؛ لأنه لا بد منه ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ
وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧].

﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا﴾ لا دعوى لك علينا ﴿إِلَّا أَنْتَ ءَامَنَّا بِقَايَتِ رَبِّنَا
لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ هذا منهم تكذيب لفرعون في دعواه المكر، وبيان أن السبب
هو إيمانهم لا غيره ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ لتثبت على الإيمان ﴿وَتَوَفَّنَا
مُسْلِمِينَ﴾ لك وجوهنا وأنفسنا لا نشرك بك أحداً، وهذا الثبات منهم على
الإيمان مع الوعيد دليل على صدق إيمانهم، وكذب فرعون في قوله: ﴿إِنَّ
هَذَا لَمَكْرٌ﴾ وقد كان ينبغي لقومه أن يؤمنوا بموسى وهارون؛ لوضوح
الحجة وتبين الحق، ولكن أهملوا عقولهم.

وَيَذَرُكَ وَءَالِهَتَكَ ۖ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّا الْأَرْضَ

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ فقد بطلت حيلة السحر، ولم يبق وسيلة لإبطال أمره قبل أن يميل الناس معه، إلا أن تبطش به وبقومه، وهذا يؤخذ منه: أن الذين آمنوا بعد السحر قد صاروا من قومه، وانضموا إليه، خلاف ما يروى: أن فرعون فعل ما أوعدهم؛ ولأنه لو كان يفعله لكان الفعل يغني عن التهديد، ولبادر جلاوزته لأخذهم حين سجدوا.

وقولهم: ﴿لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أرادوا أن انتشار الإيمان بموسى فساد في الأرض تبريراً لقتل موسى وقومه ﴿وَيَذَرُكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ ﴿يَذَرُكَ﴾ يترك فلا يطيعك في أمر ولا يتبعك في طريقة ﴿وَأَلِهَتَكَ﴾ ويذر آلهتك يتركها، وهذا منهم إثارة لحميته ليقتل موسى، وهذا يدل على أن قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] ليس عن اعتقاد إنما هو افتراء، ولا حاجة إلى تنزيهه عن المناقضة، على أنه لا يبعد أن قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] إنما قاله على طريق المشكلة لقول موسى: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف: ٤٦] وأراد إلزام قومه طاعته، مقابل دعوة موسى إلى طاعة رب العالمين، فهو مشكلة تقديرية.

قال الشرفي في (المصابيح) في عبادة فرعون لأهته: «وهذا يؤيد قول القاسم عليه السلام: أنه لم يدع أنه ربُّ خلاق ولا إله رزاق، وإنما أراد ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] أي مليككم الأعلى» انتهى.

قلت: أما قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] فهو يعني: أن عليهم أن يعبدوه بطاعته، وأنه مالك لهم، ولا مانع من أن ينقض كلامه

لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أَوْزَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ

حيث يقول ذلك ويتخذ آلهة، أو أنه جعل آلهته فوقه وهو من تحتهم إله قومه في زعمه وطغيانه الجنوني.

﴿قَالَ سَنُقِيلُ أَسْبَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ هذا جوابه على ملائحته، يدل على عجزه عن قتل موسى، وإنما عبر به عن قهره لموسى وقومه دعوى يدعيها، وقد عجز عن إبطال دعوة موسى، وعجز عن قتله فلم يحصل مطلوبهم.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا ۚ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ هذا درس من موسى لقومه، يعلمهم فيه أسباب النصر، فأمرهم أن يستعينوا بالله، أي يسبوا لمعونة الله لهم ويتوصلوا إليها؛ لأنه الغالب على أمره، و﴿الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فإذا أراد نصرهم على أعدائهم وأورثهم الأرض، وهذا ليثبتوا معه على مقاومة فرعون، ولا يتأثروا من وعيده مع قوته.

ثم بين لهم وسيلة الاستعانة، فقال: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فدلهم على تقوى الله؛ لأن ﴿حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦] وقد أمرهم أن يصبروا على مقاومة فرعون بالحجة، وعلى الثبات مع موسى؛ لأنهم لو ضعفوا لوعيد فرعون وإرجافه عليهم فتركوا موسى وتفرقوا عنه، أو رجعوا إلى فرعون لفاتهم النصر، وأيضاً الاستعانة بالله لا تتم إلا مع الصبر؛ لأنه لا بد من الصبر على تقوى الله، وأيضاً الصبر على مقاومة العدو هو من الاستعانة بالله؛ لأن الله ﴿مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] وأيضاً الصبر على مقاومة العدو في الله صبر على نصر دين الله، والله تعالى يقول: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠].

وَيَسْتَخْلِفْكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٧﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ

﴿١٦﴾ ﴿قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ عجلوا على الفرع من شدتهم، وأرادوا أن يكون الفرع على يدي موسى عاجلاً من دون مجاهدة ولا مصابرة، فهم يشكون إلى موسى تأخر الفرع، وكانهم قد أحسوا بخيبة أمل، وقد كانت الحال تستدعي أن يتركوا خائفين راجين، ليلجأوا إلى الله ويصبروا ولا يستغنوا عن ذلك لو أخبرهم أن الفرع قريب، وأن الله يغرق آل فرعون قريباً.

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفْكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿عَسَىٰ﴾ أي يقرب أن يهلك ربكم عدوكم، فهذا تشجيع لهم؛ لأنهم قد علموا أنه رسول من الله غالب بالحجة، وتلك للمؤمن كافية لرجاء النصر، وأكدها بقوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفْكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

ثم قال: ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ليكونوا مستعدين لطاعة الله حين يستخلفهم في الأرض، ولا يظنوا أن نجاتهم من فرعون نهاية المقصود برسالة موسى ﷺ، فلم يجبههم موسى بما يغني عن الاستعانة بالله والصبر وإخبارهم أن العاقبة للمتقين، بل أشار إلى أنه لابد لهم من طاعة الله؛ لأنهم مختبرون عباد من عباد الله ليسوا خيرة منهم، بحيث يأتيهم النصر ولا يحتاجون إلى الصبر، فقال: ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

قال الشريفي رحمه الله في (المصابيح): «قال الهادي عليه السلام: إن قال قائل: كيف يستعان بالله؟ وما يقول المستعين؟

قيل له: الاستعانة بالله: هي العمل لا المقال من كل مستعين من النساء والرجال، وهي العمل بطاعة الله، والأمر بأمره، والنهي عن نهيه، والوقوف عن معاصيه،

فمن عمل ذلك من النساء والرجال] فقد استعان بالواحد الرحمن، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] ومن كان الله معه فقد قهر أمره وقوي، ومن لم يكن الله معه فقد عجز في أموره وغوي.

والله سبحانه فلا يكون إلا مع من ذكر من المتقين والمحسنين، وإذا لم يكن إلا مع المتقين فهو لا شك خاذل للفاسقين، ومن خذله الله فقد هلك وهوى، ومن وفقه الله وأعانه قهر أمره وعلى، ألا ترى كيف يدل آخر الآية التي سألت عن تفسير أولها على جميع ما عنه سألت منها، حين يقول: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فهذا دليل لمن عقل وفهم واستضاء بنور كتاب الله فعمل على ما قلنا به من تفسير الآية وشرحنا» انتهى.

قلت: لو قال: (استعينوا الله) لكان معناه: اسألوا الله الإعانة، لكنه قال: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾ فاختلف المعنى؛ لأن الاستعانة بالله: التوسل لأن يكون الله معيناً، وذلك باستعمال أسباب الإعانة، وقول الإمام الهادي عليه السلام: «ومن كان الله معه فقد قهر أمره» تنبيه منه على أن هذه معية حسن الرعاية بمصالح من هو معهم، وهي واضحة.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا...﴾ [النحل: ١٢٧-١٢٨] وكذلك (قصة في طالوت): ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وفي (سورة طه): ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا...﴾ [آية: ٤٦] وفي (سورة التوبة): ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [آية: ١٢٣] فهذه معية خاصة غير المعية العامة، ومعناها مختلف.

الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُنَا سَيِّئَةٌ يَطَّيِّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ ۖ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا

﴿١٦﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ ففي مدة دعوة موسى لهم وإتيانه بالآيات البينة أصابهم الله ﴿بِالسِّنِينَ﴾ وهي سنين الجذب والجوع، وانقطاع الأمطار وانقطاع الينابيع ونحوها، أو نقصها بسبب انقطاع الأمطار ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ شديد يذكّرهم ليرجعوا إلى الله ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ تعريضاً لهم على التذكّر، لكونهم مجرمين يستحقون التشديد وسوء الحال، وأنهم إذا رجعوا إلى الله أغاثهم، ولكنهم أبوا أن يتذكروا.

﴿١٧﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ ﴿١٨﴾ الخير من الرزق وسعة الحال ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ نحن نستهل هذه الحسنة ونستحقها ﴿وَإِنْ تُصِيبُنَا سَيِّئَةٌ﴾ كالسنين والنقص الشديد من الثمرات، والطوفان والجراد والقمل والضفادع ﴿يَطَّيِّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ ۖ﴾ أي يتشاءمون بموسى ومن معه، يزعمون أن سبب ذلك النحس وجود موسى ومن معه على ما هو عليه هو ومن معه؛ ولعلهم يجعلون ما وقع من الهلاك على الأمم الماضية بنحس أنبيائهم قلباً للحقائق ولبساً للحق بالباطل.

﴿أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿أَلَا﴾ حرف تنبيه لأنهم جاهلون في بُعدٍ عن ذكر الله، إنما شؤمهم عند الله؛ لأنه الذي قضى عليهم بسوء الحال بسبب ذنوبهم ليذكروا، فطائرهم الذي عند الله هو علمه بأعمالهم، وحكمته التي اقتضت إصابتهم لعلهم يذكرون، وصح استعمال ﴿عِنْدَ﴾ هنا كما صح في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الملك: ٢٦] فليس ذلك بشؤم ممن زعموا.

بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَّا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٦﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ
الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا
وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٢٧﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ آدَعُ لَنَا

﴿١٢٦﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَّا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ
بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٧﴾ وَقَالُوا أَيٰ فرعون وقومه: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ﴾
لنؤمن لك وما يكون إيمانهم له لو اتبعوه إلا وهم مسحورون بها بزعمهم
﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فلا تتوقع منا أن نؤمن لك، ولو جئت بكل آية.

﴿١٢٦﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ
مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٢٧﴾ فبعد تمردهم وإعلانهم أنهم
لن يؤمنوا أرسلنا عليهم أشد مما سبق من السنين والنقص من الثمرات.

قال الشرفي في (المصاييح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: الطوفان: فهو
العذاب الذي طاف بهم، والجراد والقمل فهما معروفان، أما الجراد فأرسله
الله عليهم لهلاك ثمارهم، وأما القمل: فهو البرغوث بلغة الحجاز، جعله الله
نقمةً عليهم يُورِّقهم ويذهب بنومهم، والضفادع - أيضاً - فهي معروفة تكون
في المياه، قال الشاعر:

عين مطلجة الأرجاء طامية فيها الضفادع والحيات تصطحب

وإنما أرسل الله الضفادع عليهم لينتقم بها منهم، وتضيق بها صدورهم
ويعذبهم بها ويغمهم، وأما الدم: فهو علة من العلل، ويمكن أن يكون على
ما روي: من أن الله - عز وجل - عذبهم بأن جعل شرابهم وأغذيتهم دماً
عبيطاً. الخ، وفي (تفسير الإمام زيد عليه السلام): «الطوفان، معناه: الموت
الذريع، ويقال: الماء، فأمطرنا عليهم مطراً دائماً ثمانية أيام بلياليها» انتهى.

رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِيِ بْنِ كَشَفْتَنَا عَنَّا الرِّجْزَ لِنُؤْمِنَ لَكَ وَلَتُرْسِلَنَّ
مَعَكَ بَنِيَ إِسْرَءِيلَ ﴿١٧٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ

وقوله تعالى: ﴿ءَايَاتٍ﴾ أي دلائل وعلامات على صدق موسى،
واستحقاقهم العذاب بكفرهم، وهذه الخمس هي من التسع الآيات التي
كانت لموسى عليه السلام حجة عليهم، وقبلها ثلاث: انقلاب العصا ثعباناً مبیناً،
وبياض يد موسى، وضمه جناحه إليه من الرهب، والتاسعة: تلقف العصا
لسحر السحرة.

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ يدل على إباءهم من الإيمان وأنفتحهم منه في
حال الشدة المذكورة، ترفعاً لما في صدورهم من الكبر، وقوله: ﴿وَكَانُوا قَوْمًا
مُجْرِمِينَ﴾ بمنزلة الجملة المعترضة، أي وكانت عاداتهم من قبل ذلك
الإجرام، كقول الشاعر:

فمضى وقدمها وكانت عادة منه إذا هي عرّدت إقدامها

وقول الشاعر:

رأيت رؤيائهم عبرتها وكنت للأحلام عبّارا

وهي كثيرة في القرآن في أواخر الآيات.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ آدُعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ
عِنْدَكَ لِيِ بْنِ كَشَفْتَنَا عَنَّا الرِّجْزَ لِنُؤْمِنَ لَكَ وَلَتُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيَ إِسْرَءِيلَ﴾
﴿الرِّجْزُ﴾ العذاب بهذه الأمور المذكورة في الآية قبل هذا أبوا أن يؤمنوا،
ولكن لشدة الأمر عليهم وعدّوا موسى إن كشف عنهم الرجز أن يؤمنوا
له، وقولهم: ﴿بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ أي ادع بما أوصاك به وعلمك أن تدعو
به، ليجيبك ويعطيك ما سألت.

إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٦٥﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٦٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ

وفي تفسير (الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ﴾ معناه: بما أوصاك به» انتهى، وهذا اعتراف منهم بوحى الله إلى موسى، وكأنهم ظنوا أن الله أوصاه أن يدعو بالفاظ مخصوصة تكون سبباً لإجابة دعائه، وقولهم: ﴿لَيْسَ كَشَفْتَ﴾ ولم يقولوا: (كشف الله) لأنهم أرادوا أن يكشف موسى الرجز بالدعاء، فعلقوا الوعد بالإيمان على دعائه الكاشف للعذاب، ترغيباً له في الدعاء، وهم غافلون عن الله تعالى وعن اللجوء إلى الله.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ عن آل فرعون ﴿الرِّجْزَ﴾ كشفاً مؤجلاً ﴿إِلَى أَجَلٍ﴾ سيبلغونه فيعود عليهم رجز عظيم ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ العهد الذي عاهدوا به موسى: ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ وهذا عهد لأن معناه: نقسم لئن كشفت.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ﴾ دلالة على أنه تعالى عالم أنهم ينكثون وبعد أن ينكثوا يعذبهم، فكان كشفه للعذاب مؤجلاً لعلمه بنكثهم واستحقاقهم فيما بعد عذاباً بعد كشف العذاب.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى أَجَلٍ﴾ متعلق بـ ﴿كَشَفْنَا﴾ وإنما قلت: كشفاً مؤجلاً إلى أجل تحقيقاً للمعنى، ومفاجأة نكثهم هي في حال الكشف المؤجل، ولا يجب تأخيرها عنه، كما أنه لما وقع عليهم الرجز قالوا قبل نهاية الرجز وفي خلاله: ﴿يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾.

﴿فَإِنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ ﴿فَإِنْتَقَمْنَا﴾ عاقبنا، (الفاء) تفيد: أن ما ذكر من جرائمهم سبب لهذا الانتقام.

مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ۖ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٧٧﴾ وَجَنُوزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ

وقوله تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ﴾ كالتفصيل لما أجمله في قوله: ﴿فَأَتَتْقُمْ﴾ كما تقول: «توضأ فغسل وجهه، ويديه...» الخ، وقوله: ﴿فِي الْيَمِّ﴾ أي في البحر العظيم، أو في البحر.

﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ فالتكذيب بالآيات والغفلة عنها سبب إغراقهم، الذي هو عقوبة التكذيب والغفلة وما ترتب عليهما من الجرائم، فلما ترتبت الجرائم عليهما صح جعلهما سبباً للعذاب، من حيث أنهما سبب، ومن حيث أنهما سبب الأسباب الأخرى، كقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ﴾ [الإسراء: ١٨] لما كان حب الدنيا رأس كل خطيئة جعل اختيارها سبباً مستقلاً لجهنم؛ لأنه سبب الأسباب الأخرى.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أي بسبب إغراضهم عنها، واشتغالهم عنها بديناهم ومعاصيهم، وتركهم للنظر فيها والتذكر لها، كراهة منهم لها ونفاراً عنها، ويجوز أن يكون مجازاً، كما يعبر بالنسيان في مثل هذا، وهذا محل العبرة من قصتهم، هلاكهم بسبب تكذيبهم وإغراضهم، كما في الأُمم الأولى.

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ۖ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾

يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ

﴿الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ﴾ موسى ومن معه، قال: ﴿إِنْ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤] وهذا الإيثار سببه الإيمان واتباع الرسول؛ لأنهم لو كانوا مثل فرعون وقومه لأهلكهم ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى﴾ عدة ربك الحسنى إن كان وعدهم، فكانت صدقاً وعدلاً ورحمةً وفضلاً، أو نعمته التي هي في سهولتها كالكلمة وإن كانت أمراً عظيماً، فلق البحر لهم، وجعله لهم في قراره طريقاً ييساً حتى خرجوا من البحر وأهلك عدوهم بإغراقهم أجمعين.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ دليل على أن سبب نعمتهم هي الإيمان، واتباع الرسول في حال الشدة والخوف من فرعون، وذلك كان متوقفاً على الصبر، فجعل الصبر السبب، كما جعل التكذيب بالآيات والغفلة عنها سبب هلاك فرعون وقومه، وفي هذا رد على من توهم من الإسرائيليين أنها خصوصية لعنصر بني إسرائيل سواء صبروا على الدين أم لم يصبروا، بل وحين كفروا بعبسى ومحمد - صلى الله عليهما، وعلى آل محمد - ونكثوا العهد بالإيمان بالرسول ونصره، المذكور في (سورة المائدة).

وقوله تعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ من عمارة الدنيا وزينتها وآثار القوة في ذلك ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ من الجنات كالكرم يجعل له عريش يتشر وينمو عليه، وهذا يدل على أن الله دمر مداينهم وأموالهم بعد هلاكهم في البحر أو معه، وأورث بني إسرائيل حين كانوا مسلمين مشارق الأرض المباركة ومغاربها، وأورثهم بعد ذلك مصر وغيرها.

قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٣٦٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبَرُّ مَا هُمْ فِيهِ وَبَطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٦٩﴾ قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٧٠﴾ وَإِذْ أَخْبَيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ

﴿٣٦٨﴾ وَجَوَزْنَا بَيْنَ إِسْرَاءِ يَلِ الْبَحْرِ ﴿الباء﴾ للتعدية، فقد جاوزوا البحر بتهيئة الله لهم ذلك وتيسيره، وتمكينهم منه وإقذارهم عليه ﴿فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ هُمْ﴾ يعبدون الأصنام بالعكوف عليها وحبس أنفسهم عليها خضوعاً لها ﴿قَالُوا﴾ أي بنو إسرائيل ﴿يَنُمُوسَى أَجْعَلْ لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ إله مثل آلهتهم واحداً نقنع به منك ولا نطلب أكثر منه، كما لهم آلهة عدة ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ جعل طلبهم هذا جهالة ومخالفة للعقول ﴿تَجْهَلُونَ﴾ عادتكم الجهالات، فهي تقع منكم المرة بعد المرة: ﴿قَالُوا أَتُتَّخَذَنَا هُزُؤًا قُلْ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

﴿٣٦٩﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ ﴿مُتَّبَرُّ مَا هُمْ فِيهِ وَبَطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿مُتَّبَرُّ﴾ هالك ذاهب لا يبقى ﴿مَا هُمْ فِيهِ﴾ بل لا بد أن يتركوه بغلبة أهل الحق أو تسلط الله عليهم ما يقطع منكرهم أو بهداية الله لهم إلى الإسلام ﴿وَبَطِلٌ﴾ أي لا فائدة فيه، بل يذهب عملهم الذي استمروا عليه ضائعاً لا ثواب فيه ولا خير، فكيف ترغبون في مثله.

﴿٣٧٠﴾ قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿أَبْغِيَكُمْ﴾ أطلب لكم، والسؤال سؤال إنكار وتوبيخ، فالله الذي هو رب العالمين فضلكم في النعمة عليهم؛ لأنه ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٠٥] فعليكم: أن تشكروا نعمة الله بكم ولا تعصوه وتسيئوا بعبادة غيره وطاعة عدوه، وفيه دلالة: على أن المنكر إذا وقع من المفضلين كان أقبح من الواقع من غيرهم.

الْعَذَابِ يُقْتَلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ * وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مِّقَاتٍ رَبِّمَـَّ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلَحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا

﴿١٤١﴾ ﴿وَقُلْ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ إِذْ أَخْيَيْنَكُمْ مِّنْ ءَالٍ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يكلفونكم سوء العذاب ويتغونه فيكم، قال الشاعر:

إذا ما الملك سام الناس خسفاً أينما أن نقرأ الذلّ فينا

﴿يُقْتَلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ تفسير لـ ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾ يستبقون في الحياة نساءكم لتعذيبهن بالحزن على أبنائهن وزيادة حزنكم بحزنهن ﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ﴿فِي ذَٰلِكُمْ﴾ الإنجاء والخلاص من آل فرعون ﴿بَلَاءٌ﴾ نعمة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وإحسان ﴿عَظِيمٌ﴾ عليكم أن تشكروه.

﴿١٤٢﴾ ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مِّقَاتٍ رَبِّمَـَّ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ﴾ للكلام معه في الطور ﴿ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ وأضفنا إليها عشراً، تماماً لفائدة الثلاثين وكمالاً لمصلحتها، ولعل العشر كانت في الأربعين بمنزلة العشر الأواخر في شهر رمضان، والأقرب أن الأربعين ميقات للمناجاة كلها، والميقات: الموعد الذي هو وقت محدود.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ﴾ حين أراد الذهاب إلى الطور للموعد المذكور ﴿أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ قم فيهم مقامي لهدايتهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ودفع التظالم بينهم والمفاسد منهم أو عليهم ﴿وَأَصْلَحْ﴾ في سياستهم وقيادتهم.

وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ^{٥٦} قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِي^{٥٧} فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٨﴾ قَالَ يَمُوسَى إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي

﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ بسوء السيرة أو بالعنف أو بالإهمال والتهاون بالأمر المهمة أو بالتسوية بين المحسن والمسيء والناصح والغاش أو بالمحاباة والميل لبعضهم بغير موجب.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ ﴿جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ حضر في الطور للموعد المذكور ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ﴾ له ما أراد سبحانه أن يقوله، ولعل منه تعليمه (التوراة).

﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ قيل في تفسيره: سأل ربه علماً ضرورياً خاصاً يعبر عنه بالرؤية في مثل قولك: أراني أريد كذا، وأراني أكره كذا، وأحب كذا وأبغض كذا، أي أجد وأشاهد إرادتي الباطنة التي ليست بمحسوسة ولا فكرية وأجد في باطن ذاتي كراهة، وكأنه أراد بهذا علماً ضرورياً في معنى العلم الوجداني.

ولكن يشكل عليه قوله: ﴿أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ لأنه لا يستعمل في رؤية القلب ووجدانه، والأقرب: أنه وجد قومه مصرين على طلب الرؤية، وأذهانهم بعيدة عن فهم امتناعها من طريق النظر والتفكير، وقد سبق منهم طلب إليه كآلهة المشركين، وبلغ بهم الميول إلى مشاهدة معبودهم، إلى درجة أن قالوا لموسى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

فأراد ﷺ أن يعلموا امتناع رؤيته تعالى بطريقة يذهب بها لجاحهم وهوى أنفسهم في الرؤية، وكان طلبه لنفسه الرؤية أقوى من طلبها لهم في أنها إذا امتنعت إجابته إليها، فبالأولى أن تمتنع إجابة موسى لو سألها لقومه، فسألها لنفسه - وهو يعلم امتناعها واستحالتها - ليرى قومه ما تكون نتيجة هذا السؤال، ليركوا المطالبة بالرؤية، وتنصرف أنفسهم عن هواها فيها، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾.

﴿قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِي﴾ فأجابه أولاً: بأنه لن يراه، وثانياً: بالجواب الذي ينبي عليه الجواب المسكت لقومه.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ تبين له وعرفه معرفة تامة ﴿جَعَلَهُ دَكَّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ ﴿جَعَلَهُ دَكَّا﴾ أي مذكوكاً، قال في (الصحيح): «الدك: الدق، وقد دكت الشيء أدكته دكاً إذا ضربته وسويته بالأرض» انتهى.

فتبين: أن الجبل الذي يرونه على ما به من العظم والشموخ والقسوة لم يتحمل تجلي ربه له، فبالأولى أن لا يتحمل موسى وقومه الرؤية التي هي أعظم من التجلي؛ لأن ذلك التجلي كشفٌ بغير رؤية، فبالأولى الكشف بالرؤية لو كانت ممكنة، ومعنى التجلي: خلق علم ضروري بعظمة الله وجلاله، كالعلم الوجداني أو كعلم أهل الآخرة، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

وأما قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ فلعل ذلك من رجفة الجبل حين اندك، كما أن قومه صعقوا من الرجفة، وقد جاء ذكر موسى هنا وحده وهناك في قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥]

فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ

ذكر قومه، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] ولعله فصل موسى عنهم للفرق بينه وبينهم، لأنه لم يستحق من العقوبة ما استحقوا فذكر هنا وحده، لثلاثيهم مشاركتهم في الذنب والعقوبة.

وصعقة موسى عليه السلام غشية، بدليل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ والإفاقة: الانتباه بعد الغشية ﴿قَالَ سُبْحَنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقوله: ﴿سُبْحَنَكَ﴾ تنزيه بعد طلب الرؤية، يدل به على علمه بتنزه الله عنها.

وقوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ يحتمل: أنه تاب من مساعدة قومه بالسؤال، ولعله لم يكن استأذن من الله في ذلك سهواً - والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لا أقف إيماني على شرط كما فعل قومي حين قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ..﴾ [البقرة: ٥٥] فأنا مؤمن سابق لكل مؤمن من قومي، مع إذعاني بامتناع الرؤية.

﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ هذا التذكير له بنعمة الله عليه مقدمة للأمر بأخذ ما آتاه الله من التوراة وغيرها ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ على نعمة الإصطفاء والرسالة، ونعمة تعليم الدين، وغير ذلك.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ علوماً كثيرة في كل شيء يحتاج إليه ﴿مَّوْعِظَةً﴾ زجراً وتحويفاً من المعاصي ﴿وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ بياناً لكل ما يحتاج إليه من الدين وغيره مما ينفع في الدين،

يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿٦١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا

كأخبار الأولين، والتبشير بنبينا محمد ﷺ، وأخذ الميثاق بالإيمان بالرسول ونصرهم، وذكر القيامة، وما أعد الله للمؤمنين.. وغير ذلك.

﴿فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ﴾ فخذ الألواح ﴿بِقُوَّةٍ﴾ على اتباع ما فيها والتمسك به وإبلاغه ﴿وَأَمَرَ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ وهو المحكم ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ فاحذروا المخالفة، التي توجب لهم تلك الدار، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: ٦].

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ هذه الآية والتي بعدها يترجح أنهما بعد نهاية قصة موسى في الطور، وحكاية الله تعالى لها في القرآن دليل على أنه من الله، وفيها تسلية لرسول الله ﷺ، وإعداد له لمواجهة عنادهم مع وضوح صدقه حتى لا يتعب نفسه بمحاولة إيمانهم، ولا يكبر عليه إصرارهم على الكفر، وفي هذه الآية زجر عظيم عن التكذيب بآيات الله والغفلة عنها، ببيان ما يؤدي إليه ذلك من الخذلان، والميل إلى الباطل، والكرهية للحق.

وقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ﴾ دليل على: أنه غني عنهم لا يبالي بهم، بل يولي لهم ويمدهم بالنعمة الدنيوية، فينشغلوا بها ويطمثوا إليها ويستمروا على طغيانهم، فكان إنعامه عليهم صرفاً لهم عن الآيات، وهم

بِأَيَّتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أُعْمَلُهُمْ ۚ هَلْ تُحْزِنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا

الذين اتخذه صارفاً بإقبالهم عليه وانشغالهم به، فعبّر بأنه يصرفهم للدلالة على أنه لا يبالي بهم، وأنه يفعل ما يؤديهم إلى الانصراف غير مبال بهم؛ لأنهم يستحقون ذلك؛ بتمردهم بتكبرهم في الأرض الذي هو تكبر بغير الحق؛ وبكونهم مصرين على الكفر بحيث لا يؤمنون بأي آية يرونها.

بل إن ﴿يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾ الذي جاء به الرسول ودل عليه ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ لتكبرهم وإصرارهم على الكفر ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَوَايَةِ﴾ اتباعاً لهواهم واستمراراً على الكفر ﴿ذَلِكَ﴾ الغي والإصرار والتكبر والعناد الذي صاروا عليه سببه أنهم ﴿كَذَّبُوا﴾ بآيات الله وأعرضوا عنها واستمروا على ذلك فصاروا ﴿عَنَّا﴾ معرضين باستمرار ﴿غَافِلِينَ﴾ فاستحقوا بذلك عقوبة الخذلان وإرسال الشياطين عليهم، كقوله تعالى: ﴿وَنَقْلُبُ أَفْقِدْتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَٰئِكَ﴾ [الأنعام: ١١٠] وقد تكرر في هذه السورة التحذير من التكذيب بآيات الله والغفلة عنها.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِأَيَّتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أُعْمَلُهُمْ ۚ هَلْ تُحْزِنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿حَبِطَتْ أُعْمَلُهُمْ﴾ التي عملوها في الدنيا وهي ما وقع منهم من إحسان فهو حابط غير مقبول ولا ثواب لهم عليه جزاء لهم بما كانوا يعملون من التكذيب وغيره، وقد تكرر هذا المعنى في القرآن.

ظَلَمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ

﴿١٤٨﴾ وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورًا ﴿١٤٩﴾ عِجْلًا ﴿١٥٠﴾ صورة عجل من الفضة أو الذهب ﴿جَسَدًا﴾ لا روح فيه إنما هو جسد ﴿لَهُ خُورًا﴾ صوت كصوت العجل، لعله بواسطة ضغط الهواء فيكون مثل بعض الآلات التي تصوت عند النفخ فيها، اتخذوا هذا العجل من بعد موسى في غيابه عنهم في سفره إلى الطور وبقائه فيه، والحلي: جمع حَلْيٍ وهو يكون من الفضة ويكون من الذهب، قال تعالى: ﴿يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١] وقال تعالى: ﴿وَحَلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١].

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ فاتخاذهم جهالة لا سبب لها إلا طمعهم في معبود مشاهد واستحسانهم للحلية، ولا وجه لذلك في العقل بل هو مجرد هوى مع أنه لا مطمع فيه لإجابة دعوة؛ لأنه جماد لا يكلمهم، ولا مطمع فيه لهداية إلى سبيل؛ لأنه جماد، فاتخاذهم إلهاً وهم يرونه جماداً مجرد اتباع هوى تركوا فيه عقولهم فتورطوا في أعظم المنكرات.

﴿أَتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ من قبل اتخاذهم؛ لأنهم مصرون على الجهل والطمع في معبود مشاهد، وقد قال لهم موسى من قبل: ﴿إِن كُنتُمْ قَوْمٌ تُجَاهِلُونَ﴾ ولكونهم ظالمين من قبل تورطوا في أكبر الكبائر، ولو كان الإيمان قد دخل قلوبهم ما قفزوا منه إلى أكبر الكبائر.

﴿١٥٠﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴿١٥١﴾ برجوع موسى إليهم وغضبه عليهم وإنكاره عليهم، يقال: سقط في يده أي ندم ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ لتحريقه عجلهم ونسفه في اليم وتبيينه لهم أنهم قد ضلوا ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا

مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضَبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي
أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ
أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا
تَجْعَلَنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٢﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي

وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٠٣﴾ أي طلبوا المغفرة من الله والرحمة،
واعترفوا بالخسران إن لم يغفر لهم ويرحمهم لوقوع سبب الخسران منهم، وقد
جاءت هذه عقيب ذكر العجل؛ لأن أكثرهم قد تابوا منه، فناسب ذلك
تعجيل ذكر توبتهم، وإن كانت تأخرت حتى رجع موسى، واشتد عليهم
وغضب غضباً شديداً، وبين لهم بطلان ما صنعوا.

﴿١٠٤﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴿١٠٤﴾ من الطور ﴿١٠٤﴾ غَضَبَٰنَ أَسِفًا ﴿١٠٤﴾ لأن الله
أخبره بضلالهم، فغضب وأسف عليهم؛ لأنهم أصحابه وكان مؤملاً فيهم
اتباعه والعمل بما في (التوراة) وقد جاء بالألواح التي كتبت فيها، والإنسان
يأسف لفساد صاحبه الذي كان يظن فيه الخير ولم يكن يتوقع منه الفساد، وقد
قال لهم من قبل: ﴿أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْنِيَكُمْ إِلَهَا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

﴿١٠٥﴾ قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ﴿١٠٥﴾ فقد كان ينبغي لهم أن يخلفوه
بإثبات على ما علمهم والتمسك بدينه؛ لأنه لهم ﴿نَاصِيحٌ أَمِينٌ﴾ وقد أتعب
نفسه من أجل إصلاحهم، فخلفوه شر الخلافة بعبادة العجل ﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ
رَبِّكُمْ﴾ لعله من التضمنين، ضمن عجلتم استبطاتم فعدي بنفسه.

قال في (الصحيح): «وقوله تعالى: ﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي أسبقتم» انتهى،
وقال في (لسان العرب): «وَعَجَلَهُ سَبَقَهُ...» ثم قال -: وفي التنزيل: ﴿أَعَجَلْتُمْ
أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي أسبقتم، قال الفراء: تقول عَجَلْتُ الشَّيْءَ أَي سَبَقْتُهُ» انتهى.

والسؤال سؤال إنكار وتوبيخ على تضمين استبطاتم، والتوبيخ على ترك انتظار أمر الله الذي يبينه موسى حين يرجع، فلو انتظروا بالعجل مجيء موسى ما عبدوه، ولكن سارعوا إلى عبادته بلا ترو ولا نظر لأنفسهم ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه: ٩١] وهذا إذا لم يقتنعوا بقول هارون، فكان عليهم أن ينتظروا أمر الله فيه؛ لأن الحكم لله وليس لهم أن يحكموا بما شاءوا، ويمكن تفسير (أسبقتم) بمثل هذا؛ لأنهم عجلوا على عبادة العجل وسبقوا بها بيان أمر الله في العجل وحكمه فيه على لسان موسى الذي يقتنعون ببيانه.

ويحتمل ﴿أَمَرَّ رَيْكُمُ﴾ عذابه، كقوله تعالى: ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤] فيكون المعنى: أنكم قد تعرضتم لعذاب الله بعبادة العجل، فهل عجلتم على العذاب بمسارعتكم إلى عبادة العجل؟! وهذا على تضمين (عجلتم) معنى (استبطاتم).

﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاَحَ﴾ عن ظهور الحاملات لها للتخفيف عنها؛ ولتفرغ لمهاجمة قومه بالكلام والإنكار عليهم وتحريق العجل ونسفه، وما يقال: إنه كسر بعضها قول باطل، وأعتقده من أباطيل اليهود؛ لأنه لا يرجع غضبه على الألواح وفيها كتاب الله وهداه، وهو أعظم من يصونها ويحفظها، وإنما الإلقاء لازم للأحمال الثقيلة إذا طرحت عن ظهور الإبل.

﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ أخذ برأس هارون، وقوله: ﴿أَخِيهِ﴾ تنبيه على شدة موسى في تلك الحال، وأنه لم تمنعه عاطفة الأخوة؛ لأنه في حال الغضب لله، ولم يتهم أخاه بالشرك، لكنه لم يعلم عذره في بقائه عندهم وهم يعبدون العجل.

﴿قَالَ﴾ أخوه يا ﴿ابْنَ أُمِّ﴾ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعْفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿ابْنَ أُمِّ﴾ يا ابن أُمِّي، وهذا نداء استعطاف، وقوله: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعْفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ بيان لعذره في تركهم يعبدون العجل، أنه لم يتركهم وهو يتمكن من التغير عليهم، بل كان مغلوباً.

وقوله: ﴿اسْتَضَعْفُونِي﴾ أي تظاهروا عليّ حتى ضعفتُ عن مقاومتهم، أو اعتقدوني ضعيفاً لانفرادي بينهم، فتجروا على مقاومتي وكادوا يقتلونني، قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): «كان هارون أخا موسى لأبيه وأمه، وإنما قال ذلك على عادة العرب استعطافاً بالرحم، قال الشاعر:

يا ابن أُمِّي ويا شقيقَ نفسي أنت خلفتي لدهر شديد»

انتهى، يعني عليه السلام: أن هارون عليه السلام استعمل الاستعطاف الذي يعبر عنه العرب بقولهم: يا ابن أُمِّ.

وقوله: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ قال الراغب: «الشماتة: الفرح ببلية من تعاديه ويعاديك» انتهى، فحاصل المعنى: ولا تجعلني سبباً لشماتة الأعداء.

وقوله: ﴿وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ تعبير عن كونه مغلوباً مقهوراً، وأنهم في إصرارهم على عبادة العجل لم يلتفتوا إلى نهْي هارون وبيانه ضلالتهم، بل أشرفوا على قتله من شدة إصرارهم وعنادهم.

وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا تجعلني شريكاً لهم في الظلم الذي فعلوه أي عبادة العجل؛ لأنني لم أرض به ولم أقصر في نهْيهم، ولم أقعد معهم إلا مضطراً لانتظارك والالتزام بوصيتك.

رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَاهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾

وفي توقف هارون مع وجود المنكر للضرورة عبرة وحجة للزيدية المقدمين للإمام علي عليه السلام، على الثلاثة، فقد قالوا: إن أمير المؤمنين اضطر إلى ترك المقاومة حفاظاً على قوة المسلمين ضد المرتدين والمشرفين على الردة؛ لأن أهل عاصمة الإسلام وهي (المدينة المنورة) يومئذ لو قاموا للقتال بينهم واشتغلوا به عن حماية الإسلام كانت قوة لأعداء الإسلام، وصارت شوكة الإسلام على خطر، فقول المخالفين: إن الزيدية قد نسبوا الإمام علي عليه السلام إلى الضعف والعجز وهو البطل الكرار مجرد مغالطة، وفي قصة هارون عليه السلام عبرة لهم، فقد قعد وترك قومه يعبدون العجل لما ألجأته الضرورة، ولم يكن ذلك ضعفاً من هارون عن القتال ولا جبناً، بل عملاً بالرأي الصائب - وبالله التوفيق.

﴿قَالَ﴾ ﴿مُوسَى﴾ ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ وهذا يفيد: أنه قد قُبِلَ عذره ورضي عنه، وقوله: ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ جعلها شاملة لهما أو ظرفاً لهما، ولعله أراد بها الجنة أو أراد أنها عامة وسعت كل شيء، وقوله: ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ لأنه لا رحمة تعادل رحمة الله؛ لأن رحمة الله فيها النجاة من النار والفوز بالجنة، وتلك السعادة الدائمة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَاهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ سمي العذاب غَضَباً كما سميت الجنة رحمة، ومعنى (يناهم) يُصِيبُهُمْ، إلا أن الغضب جعل طالباً لهم، فجعل إدراكه لهم نيلاً كما لو سمي إدراكاً، والذلة: ضد العزة وسببها الضعف والخذلان من الله وقوة الأعداء.

وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَءَامَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا
لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَا حَ وَفِي
نُسخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٠٤﴾ وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ ينالهم غضب ﴿وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾
عقوبة عاجلة على الإفتراء وهو تعمد الكذب وظاهره: الإطلاق في الإفتراء
على الله، والإفتراء الراجع إلى الإفتراء على الله، كدعوى النبوة أو الإمامة،
أو الإفتراء في فتوى أو إثبات مسألة دينية.

قال الشريفي رحمه الله في (المصابيح): «المعنى: أن كل مفتر في دين الله فجزاؤه
غضب الله والذلة في الدنيا» انتهى، ولا شك أنه يدخل فيه الإفتراء بإثبات
إله غير الله ولو لم يحكه عن الله فلا وجه لتخصيص الآية بالإفتراء على الله؛
لأن العام لا يقصر على سببه.

ولما ذكر الوعيد للذين اتخذوا العجل خصص من العموم مَنْ تَابَ، فقال تعالى:
﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَءَامَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ
بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تابوا من السيئات وآمنوا بالله ورسله وملائكته وكتبه
واليوم الآخر إيماناً يأمرهم بالطاعة وينهاهم عن المعصية، فهم الذين يقبل
الله توبتهم، فلا تكفي التوبة من الشرك مع عدم الإيمان لحصول المغفرة
والرحمة من الله، وإن كفت في الخروج من الشرك وانقطاع حكم المعصية.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ هداً غضبه وسكن، وعبر عن
ذلك بالسكوت؛ لأن الغضب كالمطالب بالبطش، فسكت برجوع قومه عن
عبادة العجل وإظهارهم التوبة، بقولهم: ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾
ونسف العجل وإظهار عقوبة السامري، ونحو ذلك ﴿أَخَذَ الْأَلْوَا حَ﴾ التي
جاء بها من الطور لتعليم قومه دينهم وإبلاغ ما في الألواح.

سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَتِنَا ۖ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ۖ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٠٥﴾ * وَآكُتِبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدَّنَا

﴿وَفِي نُسخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ ﴿فِي نُسخَتِهَا﴾ المكتوبة فيها الميث من كلام الله لموسى وتعليمه إياه ﴿هُدًى﴾ إلى طريق الحق ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ سبب للسلامة من شرور عاجله وآجله، وإنقاذ من مشاق في الدنيا ﴿لِلَّذِينَ هُمْ﴾ يرهبون ربهم، أي يخافونه فهم الذين يتفجعون بما في نسختها، وأما (اللام) في ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ فقيل: هي (لام التقوية) مثل: ﴿لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣] وقيل هي بمعنى: لأجل ربهم، ولعل الأحسن: أنها جعلت لتفيد أن هذه الرهبة مطلوبة لهم للتقرب إلى الله، فهي الله كقولك: صلى الله.

﴿وَأَخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَتِنَا﴾ ﴿لِّمِيقَتِنَا﴾ موعد المناجاة لموسى عليه السلام في الطور، فانتخب ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ ليكونوا معه في الطور عند المناجاة.

قالوا: الأصل (اختار موسى من قومه) فحذف (من) ونصب ﴿قَوْمَهُ﴾ بنزع الخافض وإيصال العامل إليه بنفسه، وهذا سماعي لا يقاس عليه، ويحتمل: أنهم جعلوا أي السبعين قومه؛ لأنهم نخبته وخيارهم - والله أعلم.

﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي﴾ أي أنت مالكننا تحيينا وتميتنا متى شئت، فلو شئت أهلكتنا قبل ما وقع من سؤال الرؤية وتعليقهم إيمانهم عليها، ولا يتوقف إهلاكنا على كونه عقوبة.

إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ^ط وَرَحْمَتِي وَسَّعَتْ كُلَّ شَيْءٍ^ج فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ

﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ أي حاشاك أن تهلكنا عقوبة على ما فعله السفهاء منا؛ لأنها ﴿لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤] فالسؤال بمعنى النفي والدلالة على أن صعقة موسى لم تكون عقوبة، وإنما العقوبة للذين قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ أي التعميم بالمصيبة التي أدت إلى أن خر موسى صعقاً، فمن هداه الله يعلم أن الله لم يعاقب مَنْ هو بريء من سبب الرجفة، وإنما هي بلوى له فيها عوض والله فيها حكمة، وَمَنْ استحق الإضلال والخذلان يدعي أن الله أصابهم كلهم من غير فرق بين بريء ومذنب، أو يدعي أن الرجفة حادث طبيعي غير مقصود فيه عقاب ولا ابتلاء.

﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ ﴿وَلِيُّنَا﴾ تحسن رعايتنا وتدير أمورنا فما كتبته لنا فهو خير لنا ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ ولعل هذا الاستغفار بعد إحياء الذين ماتوا وتوبتهم، فاستغفر لنفسه ولهم وطلب الرحمة، وأما استغفاره لنفسه فهو كقوله: ﴿تُبَّتْ إِلَيْكَ﴾.

﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ لأنها مغفرة تؤدي إلى خير عظيم، ومغفرة من ذنوب قد توجب على أهلها - لولا المغفرة - العذاب الأليم، فموقع مغفرتك عظيم، حيث تنجي من النار وتبلغ الجنة، فهي خير مغفرة، وأنت خير الغافرين.

﴿٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥٧﴾ قُلْ يَتَّيَّبُهَا

﴿٥٦﴾ وَأَكْتُبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴿٥٧﴾ حَسَنَةً ﴿٥٦﴾ صفة لمخدوف، ولعله في تقدير عيشة حسنة ﴿٥٧﴾ وَفِي الْآخِرَةِ ﴿٥٦﴾ حالة حسنة ﴿٥٦﴾ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴿٥٦﴾ أي رجعنا وتبنا، وهذا حكاية عنه وعن السبعين، فدل على أنهم قد تابوا ﴿٥٦﴾ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ﴿٥٦﴾ لا راد لأمرى، ولذلك أصاب قومك ولم يدفع عنهم كونك فيهم ﴿٥٦﴾ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴿٥٦﴾ فلا تضيق عن شيء، وما عقاب العصاة لضيقها، ولكن للحكمة والعزة ﴿٥٦﴾ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴿٥٦﴾ فإن اتقى قومك كتبها لهم ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِعَاقِبَتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾ لا يكذبون بشيء، وهذا دليل على أنها لا تكتب لمن كفر بعيسى - صلى الله عليه - ولا لمن كفر بعيسى ومحمد ﷺ فهو سبحانه في إجابته لموسى يذكر الشرط، كما أخذ على بني إسرائيل الميثاق: ﴿٥٦﴾ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ﴿٥٦﴾ [آل عمران: ٨١] لأنه سبحانه عالم ما سيكون من بعض بني إسرائيل.

﴿٥٧﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴿٥٧﴾ أي يتبعونه حين يبعث ومعه الآيات الدالة على أنه رسول مصدق لما معهم ﴿٥٧﴾ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴿٥٧﴾ هذه من صفاته ﷺ ذكرت لموسى في الجواب على دعائه، ومعنى ﴿٥٧﴾ يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا ﴿٥٧﴾ سواء باسمه، أم بصفاته المعينة له.

وفي وصفه بأنه: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ دلالة على وجه وجوب اتباعه، ووصفه بأنه: ﴿حُلٌّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَحُرْمٌ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثِ﴾ كذلك ترغيب في اتباعه ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ وهذا ترغيب عظيم في اتباعه، و(الإصر): الثقل الذي يحبس صاحبه مكانه لا يستطيع أن يمشي به لثقله، وفي إضافة الإصر إليهم وهو التكليف الثقيل؛ لأنهم استحقوا بعض التشديد في دينهم، أو أنهم ابتدعوه ولم يكلفهم الله إياه، ويحتمل: أنه أضيف إليهم؛ لأن ثقله عليهم تحقيقاً لنعمة وضعه عنهم.

وقوله: ﴿وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ وهي قيود، أي تكاليف كانوا يتقيدون بها فيها تضيق عليهم، فإسقاط تلك القيود التي كانت عليهم نعمة من الله عظيمة، وتسميتها أغلالاً مجازاً؛ لأن الغل - بضم الغين - : قيد، قال الشرفي رحمه الله في (المصاييح): «وفي (البرهان) أراد بالأغلال: الموائيق التي اتخذت عليهم فيما حرمه عليهم» انتهى، وعلى هذا فوضع الأغلال بوضع التحريم المذكور، وفي هذا دلالة على نجاة المتبعين لرسول الله ﷺ من بني إسرائيل.

﴿قَالِذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿عَزَّرُوهُ﴾ قووه وعضدوه، وفي (لسان العرب): «وعزَّره: أعانه وقواه ونصره» انتهى.

﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ﴾ القرآن الذي أنزل معه، والفلاح: الظفر، وفي هذا حصر الفلاح عليهم، ويلزم منه هلاك المخالفين له من أهل الكتاب وغيرهم، وبهذا تمت (قصة الطور).

النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ
الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِنْ

﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّد ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا
الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فله الحكم؛ لأن له ملك السموات
والأرض، فهو يحكم ما يشاء، ومن حكمه إرساله إليكم جميعاً أهل الكتابين
وغيرهم من العرب والعجم ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ وهذا إعلان
التوحيد في الدعوة لأهميته وانتشار الشرك حتى في أهل الكتابين كما في
(سورة التوبة) وغيرها.

وقوله تعالى: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ تنبيه على أن الملك لله في الإحياء،
ودلالة على قدرته على كل شيء من الحياة بعد الموت وغيرها، فهو الذي
تحق له العبادة لا المخلوق العاجز، فعلى الناس أن يطيعوه عبادة له، وأن
يعبدوه وحده ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ﴾ الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا
هو يحيي ويميت.

﴿وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ أي وآمنوا
برسوله النبي الأمي، قال الراغب: «والأُمِّيُّ: الذي لا يكتب ولا يقرأ من
كتاب» انتهى، وفي (تفسير الإمام زيد عليه السلام): «﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ﴾»
[الجمعة: ٢] معناه: في الذين لا يكتبون» انتهى.

وقوله: ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ من تمام صفات النبي ﷺ
ولعلها مذكورة في (التوراة) ودليل إيمانه بالله طاعته له وإخلاصه وكثرة
ذكره له، وإيمانه بكلمات الله يعم ما أنزل الله من كتاب.

قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٦﴾ وَقَطَّعْنَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَلَهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ

﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فأمر بالإيمان به واتباعه وهذا ما أمره أن يأمر به فهو الحق وغيره الضلال، فلا يقبل تدين بغير اتباعه، وهو مخصص لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَلَدُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] فهذا في المؤمنين العاملين بالشرائع المذكورة قبل نسخها؛ لأن من الإيمان الإيمان بالرسول كلهم، ومنهم محمد ﷺ فلم يؤمن من كفر به .

ومن الإيمان: الإيمان بكتب الله كلها ومنها القرآن فلم يؤمن من كفر به، ولو آمن بالله ورسله وكتبه ولم يتبع محمداً ﷺ لم ينفعه عمل ولم يصلح عمله؛ لأنه غير مقبول، وذلك لأنه عاص بترك اتباع محمد ﷺ، وقد أمر الله به في القرآن، فليس من لم يتبعه من المتقين ﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] وقد أخذ الله الميثاق على أهل الكتاب بما ذكر في (سورة المائدة) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَمَتُّمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ [آية: ١٢].

ثم دعاهم الله في (سورة البقرة) إلى الوفاء بالعهد، فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [آية: ٤٠] وكذلك أخذ الميثاق على النبییین وأعمهم تابعون لهم وهو ما حكاه الله في (سورة آل عمران) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَلِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آية: ٨١].

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿أُمَّةٌ﴾ جماعة كقوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ الآية [آل عمران: ١١٣] وهم جماعة آمنوا بالله ورسوله ﷺ.

بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ أَسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا

وقوله: ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أي وبالحق يعدلون، والعدل: ضد الجور يكون في الحكم، ويكون في المعاملة كالعدل في الوزن والكيل والقسم، ويكون في الشهادة وغيرها، وذلك كله بالحق، والحق في القرآن قال تعالى: ﴿وَيَا لِحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَيَا لِحَقِّ نَزَلْ﴾ [الإسراء: ١٠٥] وقال تعالى: ﴿فَمَلَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢] والهدى بالحق يكون ببيان الحق، ويحتمل: أن المراد بـ ﴿قَوْمِ مُوسَى﴾ الذين كانوا معه في حياته.

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَى عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ وقطعنا قوم موسى: أي قسّمناهم ﴿اثْنَتَى عَشْرَةَ﴾ أمة؛ لأن آباءهم اثنا عشر (أبناء يعقوب).

قال الشرفي رحمه الله: «وكانوا اثنتي عشرة قبيلة اثني [كتب في الأم من (المصاييح): اثنا عشر، ولعله غلط من الناسخ - تمت] عشر ولدًا من ولد يعقوب عليه السلام» انتهى.

ولعلمهم في أول الأمر كانوا قبائل، ثم كثروا حتى صاروا شعوباً كل شعب سبط، واختصوا بهذا الاسم، والظاهر: أن سببه انتسابهم إلى الأسباط أولاد يعقوب؛ لأن القبيلة تسمى باسم جدها، كما قال الشاعر:

كانت حنيفة أثلاثاً فثلثهم من العبيد وثلث من موالها

وقال بعض الشعراء:

وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة عشية لاقينا جذاماً وحميراً

وأحسن من هذا القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَالِىٰ عَلَيْهِمْ هُودًا﴾ وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَاكِنِهِمْ آيَةٌ﴾ [سبأ: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ (بدل بيان) لا (بدل إلغاء) وقد ذكر (بدل البيان) صاحب البرهان، وأثبت الرضي في (شرح الكافية) حيث جعل بعض البدل من عطف البيان.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ رَبَّ آبٍ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ط فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ ﴿اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ رَبَّ﴾ طلبوه السقيا، ولعلمهم أرادوا أن يدعو الله لهم ليسقيهم الماء، أو هو كقولهم: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾ أي من جهالاتهم ﴿فَانْبَجَسَتْ﴾ أي حين ضرب الحجر بعصاه خرج من الحجر ﴿اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ انفجرت منه، ولعل الله جعلها اثنتي عشرة عيناً من الماء لتكون لكل سبط عين ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ﴾ من قبل انفجار الماء من الحجر ﴿وَوَضَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ﴾ جعلنا الغمام ظلاً عليهم يظلمهم من الشمس، وذلك حين كانوا في التيه ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَرُّ وَالْأَسْلُوى﴾ وهذا - أيضاً - حين كانوا في التيه طعاماً لهم، كما مر ذكره في (سورة البقرة). ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ إما قيل لهم زيادة في النعمة: كلوا من هذا المنّ والسلوى، وهما من أطيب الطعام لذة ونفعا وسلامة من مكاره بعض المأكولات كالرائحة غير المرغوبة في الثوم، وإما كان بذها لهم وتيسيرها أمراً بلسان الحال كأنه قيل: كلوا.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بكفرهم لهذه النعم، أي لم يضرنا ظلمهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لأن عقوبة الظلم كانت بسبب المعاصي التي كانت منهم، فكانوا هم جرّوا على أنفسهم العذاب، فظلموا أنفسهم بالمعاصي؛ لأنها سببت للعذاب، وقوله: ﴿كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يدل على تكرار المعاصي منهم الموجبة للعذاب.

حِطَّةً وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ ۖ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٦﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةً وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ ۖ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ واذكر ﴿وَإِذْ قِيلَ﴾ لبني إسرائيل، والظاهر: أن هذه القرية هي التي حرمت عليهم أربعين سنة، فبعد انقضاء الأربعين أمروا أن يدخلوها، ويظهر أن موسى كان قد توفى في مدة التيه بعد ما عصوا ودعا الله أن يفرق بينه وبين القوم الفاسقين، ف قيل لهم: ﴿اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ خروجاً من التيه، الذي لم يكن لكم فيه مساكن من البيوت، ﴿وَكُلُوا﴾ من هذه القرية ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ تجددوا المأكول، ولعله لخصبها في نفسها ولما يجلب إليها من حولها ﴿وَقُولُوا حِطَّةً﴾ أي حط عنا الذنوب.

ومعنى ﴿وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي ادخلوا الباب خشعاً لله - عز وجل - وسيروا عند ذلك بالسكينة والوقار والخشية لله الواحد الجبار، ولم يُرد في هذا الموضع سجوداً على الوجوه، وإنما أراد ما ذكرنا، وكذلك رُوينا عن أئمتنا وسلفنا (عليهم السلام) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾ أي إن فعلتم ذلك، وقوله تعالى: ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي سنزيدهم خيراً إلى هذه النعم وإلى مغفرة خطاياهم زيادة على ذلك.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ لم يقولوا: ﴿حِطَّةً﴾ كما أمروا، وقالوا مكانها قولاً مخالفاً لما أمروا به و﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ لعلمهم بقايا العصاة الذين عصوا موسى، وقالوا: ﴿فَلَاذْعَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ [المائدة: ٢٤] فقد خذلوا واستمروا على كفر النعم.

وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١١٢﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعْطُونَ

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ ﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ من قبل دخول القرية وفي حال دخولها، كان ظلمهم السابق كله سبباً لهذا الرجز، قال الشريفي رحمته في (المصابيح): «فقال الحسين بن القاسم رحمته: معنى ﴿رِجْزًا﴾ يريد: أنه أرسل عليهم عذاباً من السماء، والرجز: هو العذاب» انتهى.

﴿وَسَأَلَهُمْ﴾ وأسال بني إسرائيل سؤال توقيف وتذكير ليعتبروا ﴿عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ ﴿كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ فهي تصطاد الحيتان، وتعتمد عليها في معيشتها.

وقوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ إما بدل من ﴿الْقَرْيَةِ﴾ وإما بمعنى: اذكر ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ أي يعتدون في السبت، واعتداؤهم فعلهم ما لا يجوز لهم في السبت أن يفعلوه، والسبت محرم عليهم فيه الصيد، ولكنهم ابتلوا بمنعه عليهم في سائر الأيام وإظهار الحوت قريباً منهم.

﴿شُرْعًا﴾ في (تفسير الإمام زيد عليه السلام): «﴿شُرْعًا﴾ معناه: ظاهراً» انتهى، أي السمك ظاهر في أعلى البحر، قريباً من أصحاب القرية، وهذا يوم يسبتون، ويوم لا يسبتون لا تأتاهم الحيتان فيتعسر صيدها.

﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ﴿كَذَلِكَ﴾ البلاء الشديد نبلو أهل هذه القرية بما تكرر منهم من الفسق أي بسبب ما ﴿كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

قَوْمًا ۖ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعَذَرَةَ إِلَىٰ رَبِّكُمْ
وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٧٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ۖ أَجْنَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ

وكان تكرر تعسير صيد الحوت عليهم في أيام جوازه، وإظهار الحوت وتقریبها يوم سبتهم، أعنى تكرر البلاء المذكور، ولكنه ابتلاء شاق وقع في حال قسوة قلوبهم وغفلتهم عن الله وعن تذكر عقابه، فاعتدوا في السبت بصيد الحوت فيه.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۚ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعَذَرَةَ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ واذكر ﴿إِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْ أَهْلِ الْقَرِيَةِ لِلنَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ الْوَاعِظِينَ مِنْهُمْ لِلْمُعْتَدِينَ: لَأَيَّ غَرَضٍ تَعْظُونَ قَوْمًا قَدْ تَمَرَّدُوا عَلَى اللَّهِ، وَاسْتَحَقُّوا الْعَذَابَ الشَّدِيدَ، وَصَارَ مَتَوَقَّعًا إِهْلَاكُهُمْ أَوْ تَعْذِيبُهُمْ لِعَظْمِ جَرَائِمِهِمْ فَلَا يَفِيدُ فِيهِمُ الْوَعْظُ، قَالَ الْوَاعِظُونَ: وَعَظْنَا لَهُمْ مَعَذَرَةً لَّنَا عِنْدَ اللَّهِ نَنْجُو بِهَا مِنْ عَذَابِهِ، أَوْ وَعَظْنَاهُمْ ﴿مَعَذَرَةَ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾.

قال بعض المفسرين: «وفي قولهم: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ حيث أضافوا الرب إلى اللائمين، ولم يقولوا: (إلى ربنا) إشارة إلى أن التكليف بالعظة ليس مختصاً بنا، بل أنتم أيضاً مثلنا يجب عليكم أن تعظوهم» انتهى.

قلت: هذه عادة المقصرين في دفع الفساد أن يلوموا من دافع، وذلك لغرض تبرير ما هم عليه من التقصير، وقد يكون منهم حسداً للعامل الذي يحصل له الشرف والصيت، يريدون لثلاً يحصل له الشرف.

وقولهم: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي وتعريضاً لهم على التقوى، أو ورجاء أن يتقوا؛ لأنهم لو تابوا قبل نزول العذاب لقبلت توبتهم ونجوا من العذاب.

السُّوءَ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾
فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ اشتد إعراضهم عما ذكروا من آيات الله وتخويفه في (التوراة) وصار عندهم كالمُنسي، فلا يتذكرون لوعظ الواعظين، لا تلتفت إليه أذهانهم كأن لم يكن، بل كأنهم قد نسوه حقيقة.

﴿أَخْيَيْنَا الَّذِينَ يَهْوُونَ عَنِ السُّوءِ﴾ الذين وعظوا المعتدين في السبت ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالتعدي في السبت وبالحضور عليه وترك النهي وترك الهجرة وبالرضى ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ عذاب ﴿بَئِيسٍ﴾ موصوف بالبأس أو بالبؤس، وفي (تفسير الإمام زيد عليه السلام): «معناه: شديد، ويقال: وجيع أليم» انتهى ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بما تكرر منهم من الفسق.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ ﴿عَتَوْا﴾ لم يؤثر فيهم النهي، بل تمردوا وأصروا بسبب ما نهوا عنه من المنكرات التي فعلوها، فازدادوا إصراراً وقسوة حتى لم يؤثر فيهم العذاب البئيس، كما لم تؤثر في آل فرعون السنين والرَّجْز الذي وقع عليهم، فلما عتوا ﴿قُلْنَا لَهُمْ﴾ أي للذين ظلموا: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي بسببه، كقوله تعالى: ﴿فَازْلُجْهَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦] أي عن الشجرة، وقوله تعالى: ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً﴾ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ﴾ [يس: ٨٢] فالمعنى مسخناهم ﴿قِرَدَةً﴾ جمع قرد، وهو الحيوان المعروف الذي هو قريب من مشابهة الإنسان، فجعلت صورهم مثل صور القردة، ومعنى ﴿خَاسِئِينَ﴾ مطرودين مبعدين من رحمة الله، لا تقبل لهم توبة ولا تسمع لهم شكوى.

تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي

قال الشريفي في (المصاييح): «قال ابن عباس: أصبح القوم وهم قردة صاغرون، فمكثوا كذلك ثلاثاً يراهم الناس ثم هلكوا» انتهى.

وذكر الشريفي في (المصاييح): «عن ابن عباس رضي الله عنه رواية قصتهم، وفيها: ثم قال - أي ابن عباس - : والله ما سمعت الله يقول نجاً إلا الفرقة التي نهت واعتزلت، ولقد أهلك الله الفرقتين جميعاً التي عصت والتي نهت وأقامت معهم.. ثم تلى ابن عباس: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِقَابٍ رِجْسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾» انتهى المراد.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾ واذكر إذ تأذن، قال الشريفي رضي الله عنه في (المصاييح): «قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾ أجري مجرى فعل القسم: كَعَلِمَ اللهُ، وشهد الله، ولذلك أجيب بما يجاب به القسم، وهو قوله: ﴿لِيَبْعَثَنَّ﴾ والمعنى: وإذ حتم ربك، وكتب على نفسه ليعتث على اليهود ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾» انتهى.

وقال في (لسان العرب): «وتأذن ليفعلن: أي أقسم - ثم قال -: وقوله - عز وجل - : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ قيل: تأذن تألي، وقيل: تأذن: أعلم، هذا قول الزجاج، الليث [أي قال الليث]: تأذنت لأفعلن كذا وكذا، يراد به إيجاب الفعل، وقد أذن وتأذن بمعنى كما يقال: أيقن وتيقن، ويقال: تأذن الأمير في الناس: إذا نادى فيهم، يكون في التهديد والنهي أي تقدّم وأعلم» انتهى.

قوله: قيل: ﴿تَأَذَّنَ﴾ تألى أي أقسم يمكن الجمع بينه وبين القول أن تأذن بمعنى أعلم بأن أصل معنى تأذن: أعلم وتوعد، وضمّن معنى أقسم فأجيب بجواب القسم - والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ وعدّ صادق وقد كانوا يسلمون الجزية، وفي هذا الزمان قويت شوكتهم في (فلسطين) بجبل من (أمريكا) ودول الغرب، ومع ذلك لم يسلموا من يسومهم سوء العذاب من الفلسطينيين وغيرهم، فلا يزالون في توقع للعذاب والقتل فيهم يأتي حيناً بعد حين وهم خائفون من (إيران) ومن حزب الله الموجود في (لبنان) ولا بد لهم مما وعد الله به إلى يوم القيامة، وهذا الوعد كما يدل على ما ذكر يدل على أنهم باقون إلى يوم القيامة يمضى من مضى ويخلفه منهم خلف مصحوبين في كل قرن بمن يسومهم سوء العذاب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ كالتعليل لما توعدهم به، وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بيان: أن العالم كلهم يعيشون في مغفرته ورحمته وإن عاقب من عاقب، فالعقاب ضربان: ضرب بعد الإمهال والنعمة ففي الإمهال المغفرة والرحمة؛ لأنه يستحق التعجيل، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ [الكهف: ٥٨] وضرب من المغفرة والرحمة يكون في حال البلاء الذي يأتي عقوبة؛ لأنه ليس موفياً لهم بما يستحقون في العاجلة.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ فهم في حال بلاء السنين الواقع بسبب ذنوبهم هم باعتبار آخر في ظل مغفرة ورحمة؛ لأنهم يستحقون أكثر من ذلك البلاء، ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٢١﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهَا يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِّيثَقُ الْكِتَابِ أَنَّ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۚ وَالْدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ قسمناهم في الأرض فبعضهم في بلاد الإتحاد السوفيتي، وبعضهم في بلاد الغرب، وبعضهم في أقطار من الأرض متفرقة، ففي تلك النواحي أمم منهم، وفي هذا الزمان صار منهم في (فلسطين) أمم، وفي (أمريكا) أمم.

﴿مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ﴾ في الزمان الأول حين قطعهم في الأرض أُمَمًا فجملة ﴿مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ﴾ في معنى الحال، أي قطعناهم حال كونهم منهم الصالحون ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ أي دون الصالحين أو دون الصلاح، أي في محل من الدين دون الصلاح.

قال في (الكشاف): «فإن قلت: ما محل ﴿دُونَ ذَلِكَ﴾؟»

قلت: الرفع، وهو صفة لموصوف محذوف، معناه: ومنهم ناس منحطون عن الصلاح ونحوه ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] بمعنى: وما منا أحد إلا له مقام، انتهى.

يعني أن ﴿دُونَ﴾ مع كونه منصوباً على الظرفية، هو في محل الرفع كما قالوا في قوله تعالى: ﴿وَالرُّكْبُ اسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٢] أن أسفل الذي هو منصوب على الظرفية خبر المبتدأ في محل الرفع.

تَعْقِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ * وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ

﴿١٢١﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴿١٢٢﴾ من بعد الفريقين الصالحين والذين دونهم ﴿١٢٣﴾ خَلَفَ وَرِثُوا الْكِتَابَ أي التوراة ﴿١٢٤﴾ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى ﴿١٢٥﴾ هذا العاجل الدنيء البالغ في الدناءة لتحريمه الشديد وكونه عاراً عليهم، فإذا عرض لهم أخذوه ولم يتورعوا منه، مع أنهم قد ورثوا (التوراة) وعرفوا الحلال والحرام، ومن أمثله ذلك الرشوة على الباطل، قال تعالى: ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْمَالُونَ لِلسُّخْتِ﴾ [المائدة: ٤٢] وقال تعالى: ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ١٦١].

﴿١٢٦﴾ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴿١٢٧﴾ لَأَنَا أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴿١٢٨﴾ وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴿١٢٩﴾ فهم لم يقولوا: سيغفر لنا لتوبة سارعوا إليها، بل هم مصرون مستعدون لأخذ مثله متى عرض لهم، فحين يأتهم يأخذونه طمعاً في هذا الأدنى الذي هو عار على آكله ونار.

﴿١٣٠﴾ أَلَمْ يُوْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ ﴿١٣١﴾ الذي هو التوراة ﴿١٣٢﴾ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ﴿١٣٣﴾ أي قد أخذ عليهم الميثاق في التوراة ﴿١٣٤﴾ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا ﴿١٣٥﴾ ما في الكتاب، فقد درسوا الميثاق وعلموه، فهم قد تجرؤا على نقض الميثاق، وقالوا على الله الباطل حين قالوا: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ ﴿١٣٦﴾ فجمعوا جريمة أخذ الحرام، وجريمة قول الباطل على الله، وجريمة نقض الميثاق.

﴿١٣٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الدُّنْيَا سَيَكُونُ لَهَا أَمْثَلُ ﴿١٣٨﴾ فلو اتقوا ربهم لكان خيراً لهم، ثم وجه الخطاب إليهم لوجودهم حين نزل القرآن، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟! وهو توبيخ لهم على إثارة ما تهواه أنفسهم على تقوى الله التي

عاقبتها الجنة، وما تهواه أنفسهم قليل لا يبقى ولا يقون له وعاقبته النار وفوات الجنة فكانهم لا يعقلون؛ لأنهم لو استعملوا عقولهم ما أصرروا على تلك الجرائم الموبقة.

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ وهذا لكل عصر، ففي الزمان الأول كان المصلح من يتمسك بـ(التوراة) من أهل الكتاب والمفسد من يخالفها، وبعد مجيء عيسى عليه السلام كان المصلح من يتمسك بـ(التوراة) و(الإنجيل) وبعد ما بعث الله محمداً ﷺ كان المصلح من يتمسك بـ(القرآن).

وقوله تعالى: ﴿يُمَسِّكُونَ﴾ يفيد معنى: يتمسكون، أي يعتصمون به ويتبعونه، قال في (الصحيح): «أمسكت الشيء وتمسكت به واستمسكت به وامسكت به، كله بمعنى: اعتصمت به، وكذلك مسكت به تمسكاً انتهى. ومعنى اعتصمت به: جعلته عاصماً لي من الهلكة، أي منجياً وحافظاً، ومنه (حديث الثقلين): «إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي» فالتمسك بهما الإعتصام بهما من الضلال، فالذين ورثوا الكتاب ودرسوا ما فيه وخالفوه هالكون.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ﴾ الآية وعد لمن تمسك بالكتاب على عادة القرآن في العطف بين الوعد والوعيد، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ خبر ﴿الَّذِينَ﴾ والرباط العموم الذي دخلوا فيه دخولاً أولياً، وأفاد: أن الإصلاح يكون باتباع الكتاب، خلاف ما يدعى الكفار من أن التمسك به حَجَرُ عَثْرَةٍ في طريق التقدم، إنما العثرة في طريق التقدم هي بالترقق، وعدول الجماهير من المتيمين إلى الإسلام عن التمسك به، إنهم لو لم يترققوا ويشغلوا بالشقاق فيما بينهم لسادوا الأمم.

يِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ

وقد أكد القرآن نهيمهم عن التفرق، وفيه: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦] وفيه: ﴿وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣] ﴿فَإِنْ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦] ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠] وفيه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] فالقرآن يدعو إلى إعداد القوة بأي شكل كانت، في مجال الصناعة والعلم الحديث عموماً مما فيه خدمة للإنسانية وقوة للأمة وتقدم، وليس يدعو إلى التخلي عن ذلك والإشتغال بالرهبانية، فتبين: أن الإصلاح إنما هو باتباع القرآن.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ في (لسان العرب): «نَتَقَ الشيءَ يَنْتَقِيهِ وَيَنْتَقِيهِ [بالضم] جَذَبَهُ وَأَقْتَلَعَهُ، وَفِي (التنزيل): ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ أي زعزعناه ورفعناه - ثم قال -: وَنَتَقْتُ الْغَرْبَ مِنَ الْبُشْرِ، أي جذبته بمرة» انتهى المراد.

فالراجح في معناه: أنه تعالى قلَّعه ورفعَه بسرعة وجعله فوق قوم موسى، وقوله: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ كالتفسير لرفع الجبل فوقهم بمعنى أنه أمرٌ لهم أن يأخذوا ما آتاهم ربهم ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجِدٍّ وصبرٍ وعزمٍ صادق، ومعنى ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ أنه تعالى رفعه فوقهم كما ترفع الظلة فوق المستظل بها بقدرته تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ تأكيد للأمر بأخذ (التوراة) بقوة بالأمر بتذكر ما فيها من البواعث على الصبر والطاعة والتمسك بالكتاب، وذلك كالوعيد والوعد والعبر والأمثال والحكم النافعة المقوية للعزم على الطاعة.

بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٦﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي تتقون الله فتنجوا من عذابه، رفعه والتخويف به لمصلحتكم لتتقوا، وقوله تعالى: ﴿وَضُنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ ظاهره: أن هذا غاية المراد به، ولم يذكر أنه قيل لهم: إن أخذتموه بجِدِّ واجتهاد وإلا ألقى عليكم، فالرواية ضعيفة؛ لأنه لو كان كذلك لكانوا ملجأين إلهاء، أما إذا لم يعلموا أنه يلقي عليهم يقيناً فهو تخويف كالتخويف بالرجفة، ومعناه: الموعظة التي يفهم منها بمعونة الحال أن التزام التمسك بالتوراة ينجيهم؛ لأنه تقوى الله التي تنجي من غضبه.

فصح تفسير التخويف بنتق الجبل فوقهم، بقوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ..﴾ إلى آخر الآية، وهذا مبني على أن الجبل استقر في الجو وشاهدوه مستقراً مكانه، وعلموا أن الله ممسك له، كما علموا أن الله ممسك للبحر حين مروا وهو فوقهم كالطود العظيم، فلذلك لم يكونوا ملجئين.

نعم لو ألجأهم تعالى إلى قبوله، والتزام العمل به، ثم لم يكن ذلك الالتزام عهداً يسألون عن نكثه، ولا كانوا معاقبين على إخلاف ذلك القبول والوعد، لصح ذلك إن كانت فيه حكمة - والله أعلم.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ واذكر يا محمد إذ ﴿أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ من الدرجة الأولى من بني آدم ومن بعدهم من بني آدم أخذ منهم ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ حين أخرجهم من بطون أمهاتهم وكثرهم و ناسلهم بهذه الطريقة طريقة ذرية من آباء، ولو شاء لخلق كل فرد

لا من أب كما خلق آدم ﷺ، ولكن اقتضت حكمته خلقهم بطريقة التناسل، وهي آية من آياته حيث خلقهم ﴿مِنْ مَلَأَ مِهْنٍ﴾ [السجدة: ٨] وصورهم وأكمل خلقهم، فهم يشاهدون ذلك ويعلمونه بعقولهم، دليلاً على خالقهم.

﴿وَأَشْهَدُهُمْ﴾ بما غرز فيهم وفطرهم عليه من توحيدِهِ وبما جعل لهم من العقول وأراهم من الآيات الدالة على أنه خالقهم ومربيهم المالك لهم، حتى كأنه سألهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟﴾! وحتى كأنهم قالوا: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ أنك ربنا.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «ويؤيد هذا المعنى من قول أئمتنا (عليهم السلام): قول القاسم بن إبراهيم ﷺ، فإنه قال: وأخذ الله على بني آدم: فهو أخذه على أولهم ما أخذ من الإقرار به وبوحدانيته، والإقرار بفرائضه وكتبه ورسله، لا يزيله عنهم شيء إلى أن تقوم الساعة، فرضاً لازماً في الأولين والآخرين، فهذا معنى أخذ الله من بني آدم، ومعنى ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ فهو أخذه على نسلهم نسلأ بعد نسل، والظهور ما يخرج من الظهور من النسول وعلى ما يخرج منها كان الأخذ عليها، ألا تسمع كيف يقول ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؟! فأخبر بذلك أنه على الذرية التي تخرج من الظهور.

ومعنى ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ فهو بما جعل من حجج العقل الشاهد لهم وفيهم بحقائق ما أخذ الله من الإقرار بربوبيته ووحدانيته عليهم» انتهى.

﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ أشهدناكم على أنفسكم، لئلا ﴿تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿عَنْ هَذَا﴾ الذي في القيامة من العقاب والثواب ﴿غَافِلِينَ﴾ لم نكن نعلم أنا نصير إلى الآخرة وإلى ما فيها من الجنة والنار؛ وذلك لأن أصل العلم من فطرة العقل وبه تعرف الكتب والرسل، وبذلك تعرف القيامة والجنة والنار، فلولا العقول لم تعلم القيامة وما فيها.

أَفْتَلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٢٨﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٢٩﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ

﴿١٢٧﴾ ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ ءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أشهدناكم على أنفسكم، لثلاثا تقولوا: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ أو تقولوا: ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ ءَابَاؤُنَا﴾ فقللناهم في الشرك؛ لأننا كنا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ ﴿ومن طبع الذرية الميل إلى اتباع الآباء﴾ ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ الذين اتبعوا أهواءهم فأشرك بعضهم وتبعهم ذريتهم في الشرك.

فهذه الآيات تبين أهمية الفطرة في إثبات الحجة على كل جيل، كما أن آيات (سورة الأنعام) تبين أهمية الكتاب كذلك في إثبات الحجة عليهم، انظر قوله: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْلَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَلْئِى وَرَحْمَةٌ﴾ [آية: ١٥٤-١٥٧].

﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٢٩﴾ وَكَذَلِكَ التفصيل في هذه الآيات المبين لفطرة الإنسان التي تدله على ربه الخالق له ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ نبينها بياناً مفصلاً ليفهمها المخاطبون بها ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى الله، أو ليفهمها المشركون؛ ولعلهم يرجعون عن الشرك أي وتعريضاً لهم على الرجوع.

﴿١٢٩﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ ﴿واقراً على أهل الكتاب مما نوحى إليك﴾ ﴿نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا﴾ علمناه آياتنا، فقرأ (التوراة) مثلاً وعلم ما فيها ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ تخلى عنها وتركها كأنه كان مشتملاً عليها حين كانت في صدره، فلما

إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكْهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧١﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِنَا

تركها صار كأنه انسلخ منها كما ينسلخ الجلد من الذبيحة ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ لثقته بأنه يغويه أكثر مما قد غوي ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ لم يرجع عن غوايته بل استمر عليها حتى مات؛ لأنه سلط عليه الشيطان بسبب تركه لآيات الله وإعراضه عنها.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ ﴿لَرَفَعْنَاهُ﴾ بأن شرفناه وفضلناه على غيره وذلك بأن يكون له شرف العلم والعمل فلو شاء الله لجعلها سبباً لرفعه بهداية الله وتوفيقه ﴿وَلَنِكَفِّرُهُ﴾ لم يكن أهلاً لأن يرفعه بها؛ لأنه ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ﴾ ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ ركن إليها واطمأن إليها لا اعتباره لها مالاً باقياً تغل مزارعها وبساتينها من الحبوب والفواكه ما يستغني به وبأثمانه فاطمأن إليها، وانشغل بها كما اطمأن صاحب الجنتين المذكور في (سورة الكهف) إلى جنتيه.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ﴾ يدل على ضلاله عن الحق، ولذلك سلب التوفيق، وفي هذا تحذير زائد للعلماء.

قال الشريفي رحمه الله في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: يريد أن يتلو عليهم خبر الذي آتاه الله معرفته إياه وعلمه ما يحتاج إليه من بيناته فانسلخ من تلك الآيات وخرج من أوامر الله البينات وأتبعه الشيطان ليضله ويزيده عمى إلى عماه وبعداً عن الله سيده ومولاه، لمَّا خرج من طاعة الله واتباع هواه، وجانب سبيل نجاته وتقواه، وإنما قص الله خبره على العباد،

ليحذروا من التجاهل بعد البيئات، ولا ينسلخوا مما آتاهم الله من البيئات، فهم لم يقبلوا هذه الموعظة، ولم يفلحوا وأفسدوا بعد علمهم ولم يصلحوا، فصار هذا القول حجة من الله عليهم» انتهى.

قوله: «فهم لم يقبلوا...» الخ أظنه يعني به علماء السوء وهو صحيح، وإن كان السبب علماء السوء من بني إسرائيل الموجودين حين نزل القرآن. ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ مثل هذا الذي كان من الغاوين ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ المشغول بدلع لسانه ومتابعة أنفاسه في كلتا الحالتين إن حمل عليه لضربه أو لرجمه أو ترك، فقد انشغل باللهث: الذي هو دلع لسانه ومتابعة أنفاسه.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: يريد أنك إن وعظته لم ينتفع، وإن تركته لم ينتفع، فهو بمنزلة الكلب الذي يلهث إن تركته، ويلهث إن زجرته، فالزجر والترك عنده سواء لا فرق بينهما، ولا يترك طبيعته لواحد منهما.

واللهث في اللغة: هو دلع الكلب لسانه ومتابعة نسمة، ويحتمل وجهاً آخر أن يكون شُبَّه بالكلب لدنائه وخسته واتباعه لهوى نفسه وبغاضته والله أعز وأكرم وأجلّ من أن يعتب على الكلب وإنما عتب على من.... [هكذا في المصابيح، ولم أعرف ما هي، ولعلها تصحيف من عصا ربّه أو معناها] ولم يستعمل ما ركب الله فيه من حجة عقله» انتهى المراد.

وقوله: ويحتمل وجهاً آخر، الفرق بين الوجه الأول والوجه الآخر أن الأول جعل التشبيه في حالة مذمومة هي استواء الحالتين عند الكلب حالة زجره وحالة تركه.

وأما الوجه الآخر، فمعناه: أن التشبيه بالكلب لبشاعة حالته وكرهتها عند من ينظر إليه وهو لا يزال دالماً للسانه حتى لو زجر؛ لأنه في صورة شويهة لاستمراره على إخراج لسانه وعند ذلك يسيل لعابه.

فالكلب في تلك الحالة قد شبه به هذا العبد العاصي لله الذي لم يستعمل عقله فأشبهه البهيمة وزادت خسته باختياره طريقة الجهل والهوى مع ما قد رزقه الله من علم قد كان ينال به شرف الدنيا والآخرة، فقبحت معصيته بزيادة نعمة الله عليه وزيادة حجة الله عليه، فكان حقيقياً بأن يُشَبَّه بالكلب في حالة الكلب الضعيفة التي منظرها مكروه.

وقوله: ويحتمل وجهاً آخر، هذا الوجه الآخر هو أرجح؛ لأنه يعبر عن خسة ذلك الرجل وحقارته ودناءته وسقوط همته، فحَسُنَ مقابلته لحالة الشرف التي فاتته، وصار المعنى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ فصار حقيراً دنيئاً ذميماً، فهذا الوجه انصب للسياق - والله اعلم.

﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ۖ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فمثلهم كمثل الكلب المذكور؛ لأنهم أهملوا عقولهم ودفَعُوا هدى الله ففسدوا فاستحقوا ذلك المثل، وعلى الوجه الأول في تفسير الحسين بن القاسم: أنهم أهملوا عقولهم حين جاءتهم الآيات، وأعرضوا عنها، فاستوت حالتهم في الجهل والضلال قبل أن تأتيهم الآيات وبعد ما جاءتهم الآيات، فكانوا كالكلب في استواء حالته إذا زُجِرَ وإذا تُرِكَ مستمراً على لهته.

وقوله تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ ۚ الظاهر: أنه قصص (بلعام) لأنه عبرة لهم وتذكرة لكل من آتاه الله آياته فانسلك منها.

وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي ينظرون بأفكارهم وعقولهم كيف كانت عاقبته، وكيف خسر الشرف الحقيقي واستبدل به الحقارة واللؤم واستحوذ عليه الشيطان، فهو عبرة لمن يعتبر.

﴿سَاءَ مَثَلًا لِّلْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بَعَايَتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ أي حاله القبيحة الجارية مجرى المثل كحال الكلب، فالمثل عبارة عن الحالة، فقوله تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلًا لِّلْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا﴾ أي ما أسوأ مثلهم الذي هو كمثل الكلب.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ لأنهم هم أوقعوا أنفسهم في تلك الحالة القبيحة التي كانت سبباً لخسرانهم وحقارتهم، واستحواذ الشيطان عليهم، الذي يؤديهم إلى الشقاوة الدائمة والخسران المبين، فهم الذين ظلموا أنفسهم.

وهذا من أوضح الأدلة على بطلان القول بالجبر؛ لأنه لو كان الفعل ناتجاً عن فعل الله حتماً ما كان لهذا الكلام فائدة سواء نتج الفعل عن القدرة الموجبة أم عن مجموع القدرة الموجبة بشرط الإرادة، والإرادة التي هي عندهم فعل الله تعالى، فالمعنى واحد، فكيف لو كان الأمر كذلك ينسب إليهم ظلم أنفسهم، وأبلغ من هذا أنه قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦] وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾

وَالْإِنْسِ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ
ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ
الْغَافِلُونَ ﴿١٧٦﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ

﴿١٧٦﴾ مَنِ يَدِّ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٧﴾ هذا
ترغيب في طلب هداية الله والتعرض لها بالإيمان واجتناب أسباب الخذلان.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ تحذير من التعرض
للإضلال بالتكذيب بآيات الله بعد وضوح الحق؛ لأن الإضلال بأي معنى
كان إنما يكون عقوبة، قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] وقال
تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وقال تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ
الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ يبين سوء عاقبتهم مع خسرانهم
العاجل بسلب التوفيق، فهو خسران عاقبته الخسران يوم القيامة.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ هُمْ قُلُوبٌ لَا
يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ في
تفسيرها أقوال:

الأول: أن معنى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أنه تعالى يذرؤهم بالبعث بعد الموت،
ولتحقيق ذلك عبّر عنه بعبارة الماضي، كقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ
فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩] وقوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾
[النحل: ١] وهذا مبني على أن الآية من المتشابه، فصح تأويلها بالمعنى المجازي.

القول الثاني: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ أي لقد خلقنا من عاقبته لجهنم
كقوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] وهذا

لأن الله خلق الجن والإنس كلهم ليعبدوه، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٩] على تفسير الإشارة، أي وللرحمة خلقهم، فجعل خلقهم لجهنم مع خلقهم للعبادة، معناه: أنه خلقهم لعبادته وعاقبتهم لجهنم بسوء اختيارهم.

القول الثالث: ليس معنى ﴿ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ خلقناهم ليكونوا لجهنم، وإنما معناه: خلقناهم ونحن نعلم أنهم لجهنم، لعلمنا بما سيكون منهم من التكذيب بآيات الله، وإهمال عقولهم وأسماعهم وأبصارهم، وغفلتهم عن آيات الله بالإعراض عنها، بحيث صاروا كالناسين لها باختيارهم لسبب ذلك، وذلك أنك تقول: خيَّطت لفلان ثوباً، وليس المعنى ليكون لفلان بل المعنى أنه له، وكذلك غسلت له ثوباً، ومن هذا القليل بنيت له بيتاً وصغت له خاتماً، فالمعنى: أن البيت والخاتم والثوب له، وليس المعنى ليكون له وذلك واضح.

وفائدة الإخبار بخلقهم لجهنم: بيان أنه تعالى خلقهم وهو يعلم أنهم لجهنم، فلم يخلقهم غلطاً بل خلقهم وهو يعلم أنهم يكذبون بآياته ويستحقون بذلك جهنم، وفي ذلك تنبيه على أنه غني عن طاعتهم، وأنها لا تنقصه معصيتهم، وأنه لا ييالي بتكذيبهم وبمصيرهم إلى جهنم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ [الزمر: ٧] وقال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقوله تعالى: ﴿هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ دلالة على أن الله قد أكمل حجته عليهم بعقولهم، وكذلك بأسماعهم وأبصارهم، ولكنهم أهملوها فلم يستعملوها في طلب الهدى، فكانهم لا يعقلون بألبابهم التي ركبها في قلوبهم

فِي أَسْمَائِهِ^١ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ
بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ

وفطرتهم التي فطرهم عليها، حين أشهدهم على أنفسهم، وكانهم لا
يبدرون ولا يسمعون، كل ذلك لإعراضهم عن الهدى العقلي والآفاقي
والسمعي، كما قال الشاعر:

أصم عن الأمر الذي لا أريده وأسمع خلق الله حين أريد

فكانوا ياهملهم لطرق المعرفة ﴿كَأَلَّا تَعْمَرَ﴾ في جهلها بما يعرف بالعقول،
ثم قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لأن الأنعام لم تجهز بالعقول، فهي غير
معاينة على غفلتها، بخلاف من جعل الله له قلباً وركب فيه لباً وأضاف إلى
ذلك السمع والبصر، وجاءته آيات الله ورسله، فأعرض عن آيات الله
وتغافل عنها، وأعرض عما سمع ورأى، كأنه لا عقل له ولا سمع ولا
بصر، فهو معاقب على غفلته، خاسر بتكذيبه بآيات الله وإجرامه، فهو
لذلك أضل من الأنعام.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ تسجيل عليهم بالغفلة المذمومة
والجهالة الممقوتة؛ لأن سببها إعراضهم وتمردهم على الله ورسله وآياته.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ الأسماء التي هي أحسن الأسماء؛ ليدلائها
على الله، وعلى تسيححه وتقديسه وتعظيمه وتحميده ﴿فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا
الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ أي فادعوه بها، قولوا: يا الله، يا الرحمن، يا
الرحيم، أو يا من هو الرحمن الرحيم، أي ادعوه بكل اسم من أسمائه، لا
تركوا اسماً عن أن تدعوا الله به كما تركت الجاهلية اسم الرحمن، وليس
المراد جمع الأسماء في الدعوة الواحدة.

وقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ اتركوا الذين يلحدون ﴿فِي أَسْمَائِهِ﴾ يميلون بأن يجعلوها لغيره كفراً بها، كالذين قالوا: ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيُّمَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠] والإسم الأحسن: هو الذي يفيد مدحاً عظيماً ولا يستلزم إثبات نقص، بل يفيد مدحاً عظيماً خالصاً، فهي لله سبحانه كلها بلا حصر، وهو يختص بها سبحانه لا يشاركه فيها غيره، ووصف غيره بلفظ بعض أسمائه ليس معناه إثبات ما أثبت لله مثل: ﴿يَا مُؤْمِنِينَ رَعَوْا رَحِيمَ﴾ [التوبة: ١٢٨] بل الأسماء الحسنى على معانيها خاصة بالله وجعل شيء منها لغير الله هو من الإلحاد في أسمائه.

قال في (لسان العرب): «ومعنى الإلحاد في اللغة: الميل عن القصد» وفيه أيضاً: «وأصل الإلحاد الميل والعدول عن الشيء» وفيه أيضاً: «وَالْحَدَّ فِي الْحَرَمِ: تَرَكَ الْقَصْدَ فِيمَا أُمِرَ بِهِ وَمَالَ إِلَى الظُّلْمِ» انتهى.

وفي (مفردات الراغب): «وَالْحَدُّ: مَالٌ عَنِ الْحَقِّ» انتهى المراد، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣] فجعل عدولهم إلى غير الله إلحاداً إلى ذلك الرجل الأعجمي.

﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ سيجزون أعمالهم كلها التي كانوا يعملونها، أي استمروا على عملها، والأصل يجزون جزاءها المناسب لها الذي يستحقونه من أجلها، فكأنه هي لما كان جزاء لها، كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ دُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٥] وذلك تحقيق لكونه جزاء العمل.

حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٦﴾ وَأُمْلِيَ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٨٨﴾ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ

﴿١٨٦﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨٧﴾ فاذروا الذين يلحدون في أسمائهم واقتدوا بالأمة الهادية بالحق العادلة به فهي القدوة الصالحة، وهؤلاء هم السابقون بالخيرات، كقوله تعالى في (سورة الأنعام): ﴿فَلَنْ يَكْفُرَ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَكْفُرُنَّ﴾ [آية: ٨٩] فراجع تفسيرها.

﴿١٨٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴿١٨٨﴾ مِنْهُمْ مَنْ كَذَّبَ بِالْقُرْآنِ ﴿١٨٩﴾ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ ﴿١٩٠﴾ يَجْعَلُهُمْ يَقْرِبُونَ إِلَى الْهَلَاكِ دَرَجَةً ﴿١٩١﴾ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٩٢﴾ أَنَّهُمْ يَتَقَدَّمُونَ إِلَى الْهَلَاكِ؛ وَلَعَلَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مِنْ جِهَةِ الْإِنْعَامِ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ يَتَلَهَوْنَ بِهِ حَتَّى يَحْضُرَهُمُ الْمَوْتُ فَيُغْلَقَ عَنْهُمْ بَابُ التَّوْبَةِ، وَيَصِيرُونَ إِلَى الْعَذَابِ مِنْ حِينَ تَحْضُرُهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى عَذَابِ النَّارِ.

﴿١٨٦﴾ وَأُمْلِيَ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٧﴾ أُمْلِيَ لَهُمْ ﴿١٨٨﴾ أَمْهَلُهُمْ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَدَّةً طَوِيلَةً بِالنِّسْبَةِ إِلَى اسْتِحْقَاقِهِمُ الْعَذَابَ الْعَاجِلَ فَلَا أَعَاجِلُهُمْ بِعَذَابٍ وَهُمْ يَغْتَرُونَ بِالْإِمْلَاءِ وَيَسْتَزِيدُونَ مِنَ الْمَعَاصِي؛ فَلِذَلِكَ جَعَلَهُ تَعَالَى كَيْدًا مَتِينًا أَيْ قَوِيًّا، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا نُعَلِّمُهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] فَمِنْ حَيْثُ أَنَّ الْإِمْلَاءَ قَدْ جَعَلُوهُ سَبَبًا لَزِيَادَةِ الْمَعَاصِي، فَصَارَ سَبَبًا لَزِيَادَةِ الْعَذَابِ، فَمِنْ هُنَا صَارَ كَيْدًا بِاخْتِيَارِهِمْ وَكَانَ قَوِيًّا؛ لِأَنَّهُ مُصْحُوبٌ بِالنِّعَمِ وَمُنْتَهَى بِهِمْ إِلَى الْعَذَابِ الشَّدِيدِ الدَّائِمِ.

﴿١٨٦﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ﴿١٨٧﴾ أَيِ الْمَكْذُوبِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴿١٨٨﴾ مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ ﴿١٨٩﴾ مَا بِصَاحِبِهِمْ ﴿١٩٠﴾ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ جَنُونٍ فَيَعْرِضُوا عَنْهُ، وَلَا يَلْتَفِتُوا إِلَى إِنْذَارِهِ،

الْسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٣٥﴾ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ۚ

بل هو في غاية راحة العقل، فكيف لم تدعهم عقولهم إلى التفكير فيما جاء به من الآيات، وما أنذرهم حتى لا يقعوا في التكذيب بآيات الله ويستحقوا العذاب في الآخرة والخذلان في الدنيا والإستدراج والإملاء.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ومن شأن العاقل أن يحذر ما أنذر، فكيف وقد أنذرهم عذاباً شديداً وصارحهم بالإنذار والتحذير، وجاءهم بالآيات الدالة على صدقه، فهو ﴿نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ بَيِّنٌ واضح أنه نذير يستدعي إنذاره النظر، والتفكير في إنذاره وفيما جاء به من الآيات، وأن لا يعرضوا عن إنذاره كما يُعَرِّضُ عن كلام المجنون وهم يعلمون أنه عاقل، فكان من حقهم أن يخافوا أن يكون صادقاً في إنذاره فيصيروا إلى ما أنذرهم من العذاب الشديد، فإذا خافوا فمن حقهم إذا استعملوا عقولهم أن ينظروا في الآيات التي جاء بها دليلاً على صدقه حتى يبنوا على حقيقة فيؤمنوا إن صح الدليل أو يعلموا أنه لا حجة له إن لم يكن له آية صحيحة فيؤمنوا ما أنذرهم، فأما استعجالهم على تكذيبه بلا نظر بل انقياداً للحسد والكبر والعصبية فهو جهالة وإهمال للعقول وتورط في المهالك، ولكن قلوبهم قاسية وهم مقبلون على دنياهم وأهوائهم فأعرضوا وغفلوا.

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ حتى يعرفوا أن الله هو مالك السموات والأرض والمخلوقات كلها ومالكهم، فهو رب كل شيء، فيلتفتوا بأفكارهم إلى رسوله وآياته ويحذروا عاقبة عصيانه والإعراض عنه، ويحذروا الشرك به.

﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ أي وينظروا أن ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ أي أن من المتوقع الذي لا يبعد لأن كثيراً من الناس قد ماتوا وهم مثلهم في السن وأصغر منهم ﴿أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ أي الموت.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ لأن هذا الحديث الذي هو القرآن قد دل على صدق الرسول بإعجازه، ومع ذلك أنذرهم القرآن وحذرهم ووعظهم وخوفهم بضروب من المواعظ، ليؤمنوا به فلم يؤمنوا، فتبين أنهم لا يؤمنون بأي حديث بعد هذا القرآن؛ لأنه لا يبلغ مبلغه حديث.

ولو نظرنا ما في هذه السورة وحدها لوجدنا شيئاً عجيباً:

من ذلك: ذكر نعم الله ودعوته إلى الشكر.

ومن ذلك: ذكر قصة إبليس ووعيده بإغواء بني آدم وتحذيرهم من أن يفتنهم كما أخرج أبويهم من الجنة.

ومن ذلك: قصص الأمم الذين كذبوا الرسل فأخذهم الله بذنوبهم، وتفصيل قصص أنبيائهم.

ومن ذلك: قصة القرية التي كانت حاضرة البحر، وقصة الذي آتاه الله آياته فانسلك منها.

ومن ذلك: التحذير من الخذلان المتتابع في السورة في مواضع متعددة.

ومن ذلك: التذكير بالآخرة والتذكير بجهنم وكثرة أهلها.

ومن ذلك: الإحتجاج على المشركين في مواضع من السورة، وعلى

الجملة كل السورة هدى ونور ﴿وَشِفَاءَ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧].

وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٣٩﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا تُجَلِّيها لَوْ قَتَلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٤٠﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا

﴿١٣٩﴾ مَن يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٣٩﴾ كما أن من لم يهتد بالقرآن للإيمان لا يؤمن لأجل حديث بعد القرآن أي بعد أن ترك القرآن وأعرض كذلك من فاتته هداية الله وتوفيقه وأرسل عليه الشياطين حتى ضلّ فلا هادي له بعد الله ولن تكون هداية من غير الله بدلاً من هدايته ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ نتركهم أو ﴿يَذَرُهُمْ﴾ - بالياء - أي يتركهم الله ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ الذي اختاروه وفعلوه، والطغيان: مجاوزة الحد ومنه التكذيب بآيات الله والإصرار على معاصي الله ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتكرر منهم عمى البصيرة ويسترسلون فيه، وهذا من التحذير عن أسباب الضلال، كالتكذيب بآيات الله بعد وضوحها للناس فيها.

﴿١٤٠﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا ﴿١٤٠﴾ هذا من الناس الذين سمعوا رسول الله ﷺ ينذرهم ﴿السَّاعَةِ﴾ أي القيامة، وكأنها سميت بهذا لسرعتها عند مجيئها، قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] فقالوا لرسول الله ﷺ ﴿أَيَّانَ﴾ أي متى ﴿مُرْسَلُهَا﴾ أي وصولها وحضورها، كأنها في إقبال، فإذا جاءت أرست مكانها وثبتت فلا ترجع أبداً.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ ﴿عِلْمُهَا﴾ المحيط بها وبما يكون فيها وبوقتها إنما هو ﴿عِنْدَ رَبِّي﴾ وحده فهو الذي يعلم متى تأتي ﴿لَا تُجَلِّيها لَوْ قَتَلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا يظهرها ويبينها حتى تتجلى للناس وتتضح عن إتيان وقتها وحلول

أجلها ﴿إِلَّا هُوَ﴾ أي ربي الذي أرسلني نذيراً لكم من مجيئها، وإذا جلاها لم يكن أوان تصديقكم بها ولم يكن مجيء أمر تفرحون به أو تفرجون عليه، إنما هو أمر ثقيل شديد.

﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ عند الملائكة لإيمانهم بها ﴿وَالْأَرْضِ﴾ لهُولها على أهل الأرض وإشفاق المؤمنين منها ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ كما قضت حكمة الله ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥] كما قضت بإخفاء أجل الموت، فالقيامة لا تأتاكم إلا إتياناً بغتة حين لا تتوقعونها وعلى غفلتكم عن إتيانها، قال الراغب: «البغت: مفاجأة الشيء من حيث لا يُحتسب» انتهى.

﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا﴾ قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معناه: حتى كأنك حريص مستقصٍ عن السؤال عنها وأنت غير حريص في البحث عن وقتها؛ إذ أنت موقن بها خائف منها. والحفي على وجوه، أحدها: الحريص المستقصي، قال الشاعر:
فإن تسألني عني فيارب سائل حفي عن الأعشى به حيث أصعدا»

انتهى، وقد ذكر في (الصحيح) هذا في معاني الحفي، فقال: «والحفي - أيضاً - المستقصي في السؤال، قال الشاعر:
فإن تسألني عني فيارب سائل حفي عن الأعشى به حيث أصعدا»

انتهى.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ لا يعلمها أحد غيره لما أعاد ذكر السؤال ليرتب عليه قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أعاد ذكر الجواب لأن السؤال يستدعيه؛ ولعلمهم أكثروا السؤال، فاقتضى الحال التأكيد في الجواب ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم لا يعلمون أنها ستقوم فلا يعلمون أن علمها عند الله.

وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتَ مِنَ الْخَيْرِ
وَمَا مَسْنَى السُّوءِ ۚ إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٤١﴾ هُوَ الَّذِي

﴿١٤١﴾ ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ النفس —
كالرزق، والضر كالمرض وملكهما اقتداره عليهما جلباً ودفعاً، فقوله: ﴿إِلَّا
مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ إما بمعنى إلا ما شاء الله من الملك وهو ما أقدرني على سببه
وعلمي طريق تحصيله ومكني من تحصيله وتركه كبعض الرزق، وإما
استثناء منقطع، وهذا أقرب؛ لأن الملك أبلغ من الإقتدار المحدود.

﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتَ مِنَ الْخَيْرِ﴾ فأننا لا أعلم الغيب
وليس إخباري بالساعة إلا لأن الله أعلمني أنها ستقوم؛ ولذلك لا أدري
متى هي؟ ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتَ مِنَ الْخَيْرِ﴾ الذي يتوصل
إليه بالأسباب المقدورة للبشر، وفي هذا رد على من زعم أن بعض المخلوقين
يعلم الغيب، ولا يصح تأويله بعلم الغيب الذاتي؛ لأن الاستكثار من الخير
لا يتوقف على الذاتي فلو أعطاه الله قوة علم الغيب لاستكثر من الخير.

﴿وَمَا مَسْنَى السُّوءِ﴾ يحتمل أنه من جواب ﴿لَوْ﴾ على أن السوء مطلق
في السوء من أي ضرر كان مما يتوصل إلى دفعه بالأسباب المقدورة، ويحتمل
أن الجملة معطوفة على جملة ﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ فهي مما أمر
في أول الآية أن يقوله، وعلى هذا فالمراد بالسوء الجنون بقرينة دعوى الكفار
أنه مجنون.

وعلى الإحتمال الأول يكون المعنى: لو كنت أعلم الغيب ما مسني
السوء، والأرجح الثاني لأنه لو كان من جواب الأول لما نفى نفياً مطلقاً كما
لم يثبت الخير إثباتاً مطلقاً ولكان الظاهر أن يقال: لاستكثر من الخير ومن

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨١﴾ فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ

دفع السوء، وذلك يتوجه إلى الممكن في قدرة البشر لو علموه؛ ولأن النفي لم يقترن بـ (لام الجواب) وكان أبلغ في الدلالة على أنه معطوف على جواب (لو) أن يقال: ولما مسني السوء أو لاستكثر من دفع السوء، فلاجل القريبتين ترجح أن الجملة النافية ليست من جواب (لو) بل هي مستقلة.

﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَكَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿نَذِيرٌ وَكَشِيرٌ﴾ قد عرف متعلقه من غير هذه الآية أنه نذير بالنار لأعداء الله وبشير بالجنة للمتقين، فقوله: ﴿لِّقَوْمٍ﴾ إن أريد به يؤمنون بالفعل فهم المتقون، وهو قيد لـ (بشير) متعلق به، وإن أريد لقوم شأنهم أن يؤمنوا حين تأتيتهم الآيات لأنهم يريدون الحق لا يصرفهم كبر ولا تعصب ولا غيرهما فقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ راجع إلى جملة ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَكَشِيرٌ﴾ والمراد: أنهم هم الذين يتفعلون بالإنذار والتبشير؛ لأنهم يتفكرون إذا جاءتهم البينة فيؤمنون بالفعل، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِن فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩] وهذا أرجح عندي - والله أعلم.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ إن كان الخطاب به للناس فالنفس الواحدة آدم، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا﴾ أي وجعل لها زوجها منها أنشأها، وقوله: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ تعليل لجعل الزوج لآدم ليسكن، ويحتمل وجعل منها أن زوجها منه بمعنى قوة التشابه في الصورة والقوى والطباع، كقوله ﷺ لعلني

شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا ۖ فَتَعَلَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٤٣﴾ أَيْشُرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ هُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٤٥﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَىٰ آهْدِي لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ

وهذا حمل على المجاز، ولكن كونه أنسب للتعليل بقوله: ﴿لَيْسَ كُنْ إِلَّا﴾ لا ينافي إثبات الحقيقة وجعل التشابه في الصورة والقوى والطباع نتيجة لإنشاء زوجه منه كما يكون من التشابه بين الوالد وولده ﴿فَلَمَّا تَغَشَّيْهَا﴾ الرجل الذي خلق منه المخاطبون ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ﴾ علقته بالولد وصار حملاً في بطنها خفيفاً في أول الأمر ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ مشته به تذهب ونحيء لا يثقلها ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ عالين مؤمنين أنه هو الذي يصور الولد في رحم أمه كيف يشاء إن شاء جعله صالحاً وإن شاء جعله ناقصاً أو ضعيفاً فلذلك دعوا الله ربنا ﴿لَيْنِ ءَاتَيْنَا صَاحِبًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ فالخلق خلق الله أصله ونسله، فهو الحقيق بأن يعبد لا ما يشرك المشركون من الأصنام وغيرها مما لا يخلق شيئاً لا خلق المشركين ولا غيرهم.

﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَاحِبًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا﴾ فالمشركون كانوا يعتبرون شركاءهم شركاء الله في أنفسهم هم فيعبدونهم ويؤلهونهم لذلك ﴿فَتَعَلَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿أَيْشُرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ هذا إنكار وتوبيخ للمشركين، وبيان لبطلان الشرك؛ لأنهم يجعلون لشركائهم نصيباً في أنفسهم مع أنهم لم يخلقوهم، والمشركون يخلقون خلق آبائهم الذين أشركوا قبلهم وخلقوا من بعد خلق آبائهم فهم عباد لخالقهم رب العالمين.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي شركائهم ﴿هُم﴾ أي للمشركين ﴿نَصْرًا﴾ وهذا دفع لتوهمهم، قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يَنْصُرُونَ﴾

أَنْتُمْ صَمِتُونَ ﴿١١٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظِرُونَ ﴿١١٥﴾

﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ أي هؤلاء المعبودون لا ينصرون أنفسهم لو حطمهم أحد كما فعل إبراهيم عليه السلام؛ ولذلك يجند المشركون أنفسهم لحماية شركائهم، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٥].

﴿وَأَنْتُمْ صَمِتُونَ﴾ هذا بيان لكون أصنامهم جمادات عاجزة، فكما أنهم لا ينصرون أنفسهم فهم أيضاً عاجزون أن يفعلوا لأنفسهم خيراً وصلاحاً، فإن تدعوهم إلى ما هو هدى ورشاد في حقهم ليتبعوكم إلى ما دعوتهم إليه كالإنتقال إلى مكان أفضل من مكانهم أو كالإنتقال معكم حيث تنتقلون إلى مكان في طلب المرعى والماء لأنعامكم لا يتبعوكم.

أو تدعوهم إلى النزول من فوق بيت الله الذي ليس لهم فيه حق؛ لأن الله وحده هو رب البيت وهو الذي جعله نعمة لقريش أمناً في بلدهم وفي رحلتهم، وبقاء الشركاء على بيت الله باطل، فإن تدعوهم لينزلوا ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ لعجزهم سواء عليكم دعاؤهم إلى ذلك والسكوت عنه؛ ولكون السكوت عن هذا الدعاء هو الأصل ليس حادثاً بعد الدعاء المذكور قال: ﴿أَمْ أَنْتُمْ صَمِتُونَ﴾ لأنه استمرار على الحالة الأصلية.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ

إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١١٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ

يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ ﴿١﴾ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ ۖ عباد الله الذي خلقهم ﴿أَمْثَالِكُمْ﴾ في أنكم عباد الله ﴿فَادْعُوهُمْ﴾ لطلب شيء من حوائجكم منهم ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ بتحصيل ما طلبتم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في جعلهم شركاء فيكم.

وهذا بيان آخر لعجزهم وتذكير لهم بما هم به عالمون في الأصل؛ لأنها جمادات كسائر الجمادات لا تمتاز عنها بشيء، وإنما سموها آلهة هم وآبائهم وهي ما زالت على حالتها الأصلية لم يحدث لها من التسمية قدرة ولا علم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا﴾ إهانة للمشركون وتنزيل لهم منزلة من لا يفهم؛ لأنهم يعلمون أنها أحجار أو تماثيل لا تمشي ولا تبطش ولا تبصر ولا تسمع فلم يسموها آلهة لشيء من ذلك، وهم يعلمون أنه لا أرجل لها تمشي بها، ولا أيدٍ تبطش بها، ولا أعين تبصر بها، ولا آذان تسمع بها، فهم يعلمون أنهم وآبائهم سموها آلهة في حال أنها لا تتميز عن سائر الجمادات بشيء من قدرة أو بصر أو سمع، فلا حجة لهم فيها ولا شبه حجة.

﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظَرُونَ﴾ وهذا بيان لعجزها بدعوتها لتكيد رسول الله ﷺ وتعجيز أهلها ليدعوها تكيده معهم في أسرع وقت تهلكه وهذا مع كونه بياناً لعجزهم بيان لعلمهم بذلك، ودليل على ثقة الرسول ﷺ بعجزها وأنها لا تستطيع شيئاً من ذلك.

﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ ﴿وَلِيََّ﴾ الذي يرعاني ويحسن رعايتي ﴿اللَّهُ الَّذِي﴾ هو القادر على كل شيء والعالم

﴿وَأَن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ۖ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿١٢٨﴾ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٢٩﴾ وَإِمَامًا

بكل شيء فهو يهديني ويحفظني ويرزقني وإذا أرادني بخير لا يمسه غيره وإن أرادني بضر لا يكشفه غيره، ومن حسن رعايته ﴿نَزَلَ الْكِتَابُ﴾ رحمة وهدى ودليلاً على توحيده وعلى بطلان الشرك وفيه الهدى والنور، فمن الله الهدى والخير كله ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ فلو صلحتم لتولاكم كما تولاني.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾ والنصر من أهم الحاجات، فبالأولى غيره من حاجاتكم لا يقضون لكم منها شيئاً ﴿وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ وكفى بذلك دليلاً على أنهم لا ينفعون فيعبدوا لطلب نفعهم ولا يضرون فيعبدوا لدفع ضررهم.

﴿وَأَن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا﴾ دعاءكم لأنهم جمادات ولو كانوا يسمعون لسمعوا إن تدعوهم إلى الهدى؛ لأهمية السمع لمن يدعو إلى الهدى، فهو حقيق أن يصغى له فيسمع.

﴿وَتَرَاهُمْ﴾ أي الأصنام ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ موجهون إليك إما أنهم تماثيل لأحياء ينظرون فإذا جتتهم كانوا أمامك كأنهم ينظرون إليك، ومعلوم أنهم ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ وإما لأنهم أحجار موجهة إلى من أتاها كأنها تنظر إليه، ومن المعلوم أنها لا تبصر فقد ذكرهم الله عجزاً أصنامهم وتعجيزهم بما يكشف عن علمهم بعجزها فهم يعبدون ما لا ينفعهم شيئاً ولا يضرهم وكفى بذلك جهلاً وغباءً وانقياداً للباطل.

وبعد تمام الاحتجاج على المشركين والكفار، والإنذار الكامل في هذه السورة التي في أولها الأمرُ باتِّباع ما أنزل إلينا من ربنا، واجتناب ما يصرفنا عنه، وإكمال الحجة لرسول الله ﷺ على المشركين والمكذِّبين بالقرآن، وصَّى الله رسوله في خاتمة هذه السورة، فقال تعالى:

﴿حُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿الْعَفْوَ﴾ الميسور من أخلاق الناس وأدبهم لرسول ﷺ ولا تستقص عليهم في حقوقك ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ وهو ما تعرفه العقول من توحيد الله، والإحسان إلى الوالدين والأقارب والجار واليتيم والمسكين، وغير ذلك ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ السفهاء الذين يجهلون عليك بالكلام المؤذي فلا ترد عليهم بمثل كلامهم مما يؤذيهم من السب، بل أعرض عنهم واشتغل بما كُلفتَه من الدعوة والإبلاغ والإنذار والتبشير والهداية.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معنى ﴿حُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ هو أدب من الله لنبية ﷺ فجمعت هذه الأحرف اليسيرة من الآداب الكثيرة ما فيه حكمة عظيمة لمن عقلها وأقبل عليها بفكره وقبلها؛ لأن قوله: ﴿حُذِ الْعَفْوَ﴾ يدل على احمال [احتمال] الشرور وستر كثير من قبائح الأمور لما في الأناة الحلم وحسن التدبير من المعونة والسلامة والبركة والخير الكثير.

ثم قال: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ فدل على الأمر بالخيرات والزجر عن جميع القبائح المنكرات، ثم قال: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ فدل بذلك على اللطف المواعظ كلها، وهي الهجرة الجميلة لسفهاء البرية وسفلها عند الإعراض والترك لجداها ومكالبها والتشاغل بها ومجالستها، فانظروا ما في هذه الكلمات من الحكمة وحسن التدبير والبركات، والسلامة من القبائح والشنع المهلكات، نحمد الله على ما علمنا من كتابه، ونشكره على هدايته وآدابه» انتهى.

قال في (المصابيح): «وعن جعفر الصادق عليه السلام: أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها» انتهى.

يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَافٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ

﴿٢٠﴾ وَإِمَّا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَإِمَّا أَصْلَهُ (وإن ما) وهي (أن) الشرطية اتصلت بها (ما) صلة للكلام فأدغمت (النون) في (الميم) والنزع من الشيطان: تحريك الشر، أو محاولة تحريكه قال: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف: ١٠٠].

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿وَإِمَّا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾ معناه: يستخفّنك منه خفة عجلة، ونزع الشيطان الإفساد بين الناس» انتهى، ونحوه في (الصحيح).

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أي توصل إلى إعادته لك كما مر في: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾ ومن الاستعانة بالله طلب الإعادة، ومن التوصل إلى إعادة الله الإيمان والتوكل، لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩].

ومعنى طلب الإعادة: طلب الإنجاء للعائد بالله، والعائد: اللاجئ، فمعنى: أعوذ بالله: ألقأ إلى الله، لينجيني من الشيطان إن الله ﴿سَمِيعٌ﴾ الدعاء ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستعيد به.

﴿٢١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَافٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ طاف به جاءه فمعنى ﴿مَسَّهُمْ طَافٌ﴾ أصابهم طائف أي آت ووارد؛ لأن الشيطان غير ملازم للمتقين، وإنما هو عارض يعرض لهم.

قَالُوا لَوْلَا آجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا

وقوله: ﴿مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ لعلَّ ﴿مِّنَ﴾ للإبتداء فهو بمعنى وسوسة من الشيطان ونزع منه، وقوله: ﴿تَذَكَّرُوا﴾ أي ذكروا الله في أنفسهم فخافوا عذابه.

وقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (إذا) هي للمفاجأة، لسرعة انتباههم لوسوسة الشيطان وغروره وسرعة حذرهم منه، أبصروا بعقولهم طريق الصواب، وقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ جملة إسمية تفيد ثباتهم على إبصار الصواب والحذر من الشيطان، وهذا لا ينافي وقوع اللُّمَم منهم؛ ولعل التعبير بمسهم من أجل أنهم ربما وقعوا في المعصية إلا أنهم لا يصرون، كما في (سورة آل عمران): ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذُكِّرُوا اللَّهُ..﴾ إلى قوله: ﴿.. وَلَمْ يُصِرُّوا﴾ [آية: ١٣٥].

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوْنَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ وإخوان الشياطين رَجَعَ الضمير على الشيطان ضمير الجمع؛ لأنه اسم جنس عام، فكان في معنى الجمع من حيث التعدد في مفهومه ﴿يَمُدُّوْنَهُمْ﴾ بمدهم الشياطين ﴿فِي الْغَيِّ﴾ في الغواية عن طريق الرشد والصواب.

ومعنى (يَمُدُّوْنَهُمْ) - بضم الياء، وكسر الميم - : أن الشياطين مع إغوائهم يزيدونهم من الغواية فيسترسلون في الغواية ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ عنها بل يستمرون في الغواية، أما المتقون فهم بخلاف ذلك كله كما مر.

قال الراغب: «وأقصر عنه كَفَّ مع القدرة عليه» انتهى.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا آجْتَبَيْتَهَا﴾ هذا عائد إلى بعض إخوان الشياطين إذا تأخر نزول آية من الله قالوا في خلال مدة التأخر:

﴿لَوْلَا أَجْتَبَيْتَهَا﴾ أي هلاً اجتلبت آية وجئت بها، أو إذا لم تأتهم بآية كما يطلبون لتكذيبهم بآيات الله وزعمهم أنها ليست آيات، ويريدون آية كما يقترحون كآية ثمود ﴿قَالُوا لَوْلَا أَجْتَبَيْتَهَا﴾ لتأتينا بها.

قال في (لسان العرب): واجتباها: أي اصطفاها وفي الحديث: «أنه اجتباها لنفسه» أي اختاره واصطفاها. ابن سيدة: واجتبي الشيء اختاره، وقوله - عز وجل -: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا أَجْتَبَيْتَهَا﴾ قال معناه عند ثعلب: جئت بها من نفسك.

وقال الفراء: معناه: هلاً اجتبيتها، هلاً اختلقتها وافتعلتها من قبل نفسك، وهو في كلام العرب جائز أن يقول: لقد اختار لك الشيء واجتباها وارتجله، وقوله [عز وجل]: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف: ٦٠] قال الزجاج: معناه وكذلك يختارك ويصطفيك، وهو مشتق من جَبَّيْتُ الشيء، إذا أخلصته لنفسك، ومنه: جبيت الماء في الحوض، قال الأزهري: وجباية الخراج: جمعه وتحصيله مأخوذ من هذا» انتهى.

وقال في (الصحيح): «واجتباها: أي اصطفاها» انتهى.

قلت: الراجح: أنهم يقولون: ﴿لَوْلَا أَجْتَبَيْتَهَا﴾ أي لولا اصطنعتها، وهذا يناسبه الجواب: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لا اصطنع الآيات من تلقاء نفسي ﴿إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ فأبلغكم ما أمرت بإبلاغه، هذا القرآن ﴿بَصَائِرُ﴾ آيات ودلائل تبصر بها القلوب، فهي للقلوب بصائر إلى بصائرها إما على طريق التشبيه بالبصائر لقوة البصائر بالقرآن وتنورها به، أو البصائر الأصلية هي العلوم العشرة والعلوم الحاصلة من القرآن زيادة في البصائر أي في

لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٤١﴾ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً
وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿١٤٢﴾ إِنَّ

العلوم، فهي بصائر كالأصلية، فيكفيكم هذا القرآن آية تدل على صدق
الرسول، فهذا كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

وقوله تعالى: ﴿وَهُدَى﴾ أي دلالة على طريق الخير ﴿وَرَحْمَةً﴾ لأنه سبب
للنجاة من العذاب ومخرج من الظلمات إلى النور، وقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم الذي يهتدون به وينالون الرحمة بسببه.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وهذا
مؤكد، لكونه آية بيّنة من حيث أن مستمعه المنصت له متعرض لرحمة الله
بأن يوفقه للإيمان، ويهديه به للتقوى التي يبلغ بها الجنة.

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ أي للقرآن، وهو الصوت المتلو فلا حاجة
لتقدير، فاستمعوا لقراءته، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْصِتُوا﴾ أي اسكتوا مع قراءته،
لا تعارضوها بكلام.

﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ هذا الذكر بالقلب لله
ولمعاني أسمائه الحسنى ﴿تَضَرُّعًا﴾ تذللًا لله تعالى ﴿وَخِيفَةً﴾ منه، أي مخافة
تبعث على الذكر تقرباً إلى الله جلّ جلاله.

﴿وَ﴾ واذكر ربك ﴿دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وهذا الذكر باللسان أمر الله
به، وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً
وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢].

الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ
يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾

قال في (الصحيح): «جَهَرَ بالقول: رفع به صوته» انتهى.

قلت: الصوت قد يكون جهراً يُعْلَن لا يُخْفَى عن أحد، وقد يكون سراً لا يسمعه من مجنبه، وقد يكون متوسطاً بين الجهر والإسرار، فدون الجهر: يعم السر والمتوسط.

﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ قال في (الصحيح): «والغدو نقيض الرواح - ثم قال: وقوله تعالى: ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي بالغدوات، فعبر بالفعل عن الوقت كما يقال: أتيتك طلوع الشمس، وقال: والغدوة ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس» انتهى، وفي هذا الوقت وفضل الذكر فيه أحاديث صحيحة مشهورة.

وقال في (الصحيح) أيضاً: «والأصيل: الوقت بعد العصر إلى المغرب» انتهى، وفي (لسان العرب): «والأصيل العشي» انتهى، وعلى هذا فهو من بعد الظهر.

وفي (مصابيح الشرفي) عن (البرهان): «﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي بالبوكر والعشيات، وذكر هذين الوقتين لفضلهما» انتهى المراد.

﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ الذي لا يذكرون الله إلا قليلاً، والغفلة: ضد التذكر والانتباه، فرجوعه إلى قوله: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ ظاهر، أما إلى قوله تعالى: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ﴾ فيؤخذ منه إحضار الذهن عند الذكر باللسان؛ لأن الذكر باللسان قد يكون مع الغفلة عنه وعن معناه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي إن الملائكة المقربين ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح)

في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾: «قال في (البرهان): أي عن التسبيح له، والصلاة، والخضوع، ولا يغفلون عن طاعته في أوامره ونواهيه، ويستصغرون حالهم في طاعته وعبادته، ثم قال: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ أي ينزهونه عما لا يليق به ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ أي يخضعون بالعبادة لا يشركون به غيره، وهو تعريض بمن سواهم من المكلفين» انتهى.

قلت: وهو تذكير للبشر بمن هو في الدين فوق المعهود من الناس؛ لأن من الحكمة أن ينظر الإنسان إلى من فوقه في الدين ليستصغر عمله ويستقله، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ حصر، فدل على أن السجود هنا هو الخضوع بالعبادة، فهم يعبدون الله وحده لا يشركون به - وبالله التوفيق.



التَّيْسِيرُ فِي التَّفْسِيرِ



سُورَةُ الْاِنْفِقَالِ



سُورَةُ الْأَنْفَالِ

آيَاتُهَا
٧٥

سُورَتُهَا
٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا
ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ

تفسير (سورة الأنفال) وهي (مدنية)

﴿١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴿١﴾ ﴿الْأَنْفَالِ﴾
هنا: هي الغنائم، والسائلون فيما يفيد السياق: هم من الذين مع رسول الله
ﷺ، أي ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يا محمد عن حكم الغنائم لمن هي، ولعل سبب
السؤال اختلافهم فيها.

﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ فالغنائم يجب تسليمها إلى رسول الله ﷺ لأنها
لله وله، وحبسها عنه غلول، وهذا لا ينافي أنهم يملكون أربعة أخماس الغنيمة حين
يقسمها الرسول ﷺ فيهم كما أن أهل الخمس يملكونه حين يعطيهم ﷺ.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ﴾ فاتقوا الله أي اتقوا الله بطاعته في شأن الأنفال وغيرها، وهو - أيضاً -
توطئة لبقية الآية ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ باستعمال أسباب صلاح ذات
البين من التزام العدل والإحسان، واجتناب الإساءة بينكم، وتلافي ما فرط من
إساءة باستحلال المظلوم والتخلص من ظلامته وتطبيب نفسه.

وذاً البين: هي العلاقة والحالة التي بين المؤمنين، وإصلاحها يكون كما
ذكرت بالعدل والإحسان، ومن ذلك: الكلمة الطيبة، وترك الإنقباض
والحمل على السلامة، ومن أعظم فساد ذات البين: ظن السوء، والأوهام
المنفرة، والغيبة، والنميمة، والإحتقار، والسخرية، وغير ذلك مما نهى الله عنه
في (سورة الحجرات).

الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٦٦﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي في شأن الغنائم وغيرها، وهو قائم مقام جواب الشرط في قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم مؤمنين أطعتم الله ورسوله؛ لأن طاعة الله ورسوله من صفات المؤمنين المميزة لهم عن غيرهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: ٧١].

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي خافت، لتذكرها عند ذكره ما يوقع الخوف فيها؛ لأن الإيمان بالله واليوم الآخر راسخ في القلوب، والإيمان بالرجوع إليه يوم القيامة والسؤال والحساب والجزاء على الأعمال، والإيمان بعلم الله تعالى بكل ما يفعل العبد، وأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فذكر الله يسبب خوفاً لأسبابه في النفس إنما يذهب عند الغفلة فإذا ارتفعت الغفلة وقع الخوف.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ أي إذا تليت عليهم آيات الله التي هي آيات القرآن زادتهم إيماناً؛ لأن القرآن وما فيه من الآيات أعظم أسباب الإيمان لدلالته على رسالة الرسول ﷺ وعلى اليوم الآخر وما فيه من الثواب والعقاب فسماعه عند تلاوته عليهم يزيدهم إيماناً إلى إيمانهم السابق.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي على ربهم وخذ يتكلمون في إصلاح أمرهم؛ لأنهم يعلمون أن ما كتبه الله لهم نالهم أو نالوه وأنهم لا يعدوهم ما كتب لهم ولا يعدون ما كتب لهم، والإتكال على الله هو في طاعته فيمتثلون أمر الله لا يمنعهم خوف من عدو أو خوف من فقر أو نحو ذلك، ويحْتَنِبُونَ ما نهى عنه لا يعصونه لخوف فقر أو غيره مما يخوفهم الشيطان.

يُنْفِقُونَ ﴿٢﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ
وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٣﴾ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ

وليس معنى هذا: أن الأعذار الشرعية لا تسقط التكليف إنما المراد ما ليس
عذراً شرعياً لا يمنعهم من طاعة الله؛ لأنهم يطيعون الله ويكلمون إليه أمرهم
فيما يحتمل وقوعه في المستقبل؛ ولهذا يجاهدون في سبيل الله من دون أن
يضمن للواحد منهم السلامة من القتل ومن دون أن يضمن لهم أن يغلبوا
العدو على كل حال.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ وإقامة الصلوة من مميزات المؤمنين
عن غيره، وإقامتها إحيائها بفعلها كاملة بفروضها، جامعة لشروطها كما
أمر الله، والمحافظة عليها في أوقاتها، ولا يبعد أن من إقامتها الأذان لها
والإقامة والجماعة حيث لا عذر، وذلك في حق الرجال، وقد تكرر في
القرآن الدلالة على أن إقامة الصلاة من صفات المؤمنين.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ مما أعطيناهم ينفقون فيما أمروا
بأن ينفقوا فيه، كالجهاد في سبيل الله، والزكاة، وسائر وجوه الإنفاق الواجب.

﴿أُولَئِكَ﴾ أي أهل الصفات المذكورة ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أما
غيرهم فليس بمؤمن وإن ادعى الإيمان، كالمنافقين، والذين في قلوبهم مرض،
والأعراب الذين ادعوا الإيمان ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، وكل من لم
تحصل فيه هذه الصفات؛ لأنها جاءت لبيان المؤمنين حقاً بعد قوله تعالى:
﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ كما جاءت آية (التوبة) في صفات
المؤمنين، وهي قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾
[آية: ٧١] للتمييز بينهم وبين المنافقين، وجاءت آية (الحجرات) في صفة المؤمنين
في الرد على الأعراب لدعواهم الإيمان.

الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٦٥﴾ مُجْدِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ

وجاءت في (سورة النساء): ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ..﴾ الآية [آية: ٦٥] في الرد على الذين يزعمون أنهم آمنوا وهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، فكل ذلك يدل على: أن هذا حكم الله في الفرق بين المؤمن حقاً والمدعي للإيمان دعوى، كما لا يخفى على من تفهم القرآن.

﴿هُم دَرَجَتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿دَرَجَتٌ﴾ رفع قدرهم وتشريف وكان ذلك قدماً؛ لأنه من أعظم المرغبات عند أهل الهمم العالية والنفوس الرفيعة، ومغفرة: فهم ناجون من العقاب وهذه الفائدة المهمة فذكرها من الترقى من مرغب إلى أعظم منه في الترغيب.

وقوله تعالى: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يفيد: رزقهم في الدنيا وفي الجنة، ووصف بالكرم لسلامته عما قد يقتزن به الرزق في الدنيا من الهوان بسبب الحاجة إلى الرزق؛ ولاقترانه في الآخرة بالتكريم للمؤمن، وإعلامه أنه جزاء بما صبر في الدنيا وبما عمل، وعلى هذا فوصفه بالكرم لأنه يتجلى فيه كرم الرازق ويعبر عن كرم المرزوق ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَأَكُمُ﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ جعل الله الأنفال لله والرسول، وصادف ذلك كراهة فريق من المؤمنين لنزعها منهم وجعلها لله والرسول، وذلك يشبه إخراج الله لك يا محمد ﴿مِنْ بَيْتِكَ﴾ للقتال خارج المدينة المنورة في (أحد) إخراجك لك ﴿بِالْحَقِّ﴾ فهذا بالحق وذاك بالحق المشبه والمشبه به، وإن كان كل منهما مع كراهة فريق من المؤمنين.

قال الشرفي في (المصاييح: قال الهادي عليه السلام هذا إخبار من الله تبارك وتعالى بما كان من خيرته لنبيه عليه السلام في خروجه إلى (أحد) وتبرّزه عن المدينة حتى كانت الحرب بـ(أحد) ولم يكن على أبواب المدينة ، فكان ذلك خيرة من الله لنبيه.

فأما قوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُوا﴾ فقد كان رسول الله عليه السلام شاورهم أين يكون قتالهم، أيرون أن ثبت حتى يأتون المدينة فنقاتلهم على دروبها أو نخرج فنقاتلهم ناحية منها، فأشاروا عليه بالقتال في المدينة فأطاعهم، ثم بدا لهم فأشاروا بالخروج فأطاعهم، فدخل منزله ولبس لأمته ثم ركب وخرج، فلما خرج قالوا: يا رسول الله ارجع على الرأي الأول إلى القتال على أبواب المدينة ثبت لهم حتى يأتونا إلى أهلنا، فقال عليه السلام: «ما كان للنبي إذا لبس لأمته - يعني درعه - أن يفسخها حتى يقاتل» ومضى عليه السلام نحو أحد فكرهوا ذلك وجادلوه فيه وثقل عليهم الخروج إلى قريش ورجع من الطريق عبد الله ابن أبي الأنصاري في ثلاث مائة، ومضى رسول الله عليه السلام وباقي الناس وفيهم من الهيبة والفرق ما قال الله - عز وجل - : ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ من لقاء القوم وحاربوهم وكان من الأمر ما كان، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا﴾ قال في (لسان العرب): «والفريق: الطائفة من الشيء المتفرق» انتهى. قلت: هي طائفة مفارقة مثل: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] ومثل: ﴿فَرِيقًا هَلَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠].

﴿مُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿مُجَادِلُونَكَ﴾ أي الفريق المذكور يجادلونك ﴿فِي الْحَقِّ﴾ في الخروج للقاء العدو لِيَفْتَلُوكَ عنه إلى البقاء في المدينة ليكون القتال على أبوابها ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ لهم الحق أنه الخروج بأمر رسول الله عليه السلام حيث أفاد

وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ

أنه لا بد منه فهم في جدالهم ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ مع أنهم قد وعدوا بالنصر إن أطاعوا الله ورسوله فلا موجب للجدال، وقوله: ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أي ينظرون محل الموت وما أعد فيه لإماتهم.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ﴾ قبل القتال في بدر ﴿إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ من العدو إما العير وإما النفير، والعير كانوا راجعين من الشام بمال تجارة كثير على العير أي الإبل، والنفير عسكر قريش الذين نفروا من مكة للدفاع عن العير.

قال الشريفي رحمه الله في (المصابيح): «قال الهادي عليه السلام: ﴿إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ فهم عسكر قريش الذي لقي النبي ﷺ بـ (بدر) والطائفة الأخرى فهي العير التي أقبلت من الشام إلى مكة تحمل الطعام، فلما أن وعدهم أن يظفروا بأحدهما أحب المسلمون وودوا أن تكون طائفة العير والطعام الذي ليس فيها إلا الحاملين الذين لا يحاربون ولا يدافعون عنها ولا شوكة فيها، وأشفقوا من طائفة العسكر الجيش الذي فيه السلاح والخيل فأحبوا أن يلقوا غير هذه الطائفة فيكون أهون عليهم في المعاناة وأسلم لهم، وكان الله يريد غير ذلك من إذلال العسكر ومن فيه، وقتل أعداء نبيه، وإظهار النصر على عدوه، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل» انتهى.

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ﴾ غير ذات السلاح والخيل وهي العير، قال الشريفي رحمه الله: «وعبارة (البرهان) في معنى ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ أي غير ذات الحرب وهي العير،

لأن نفوسهم في لقائها أسكن، وهم إلى ما فيها من الأموال أحوج، وفي الشوكة التي كُنِيَ بها عن الحرب وجهان:

أحدهما: السدد (الشدة) ويكنى بها عن الحرب لما فيها من الشدة.

الثاني: أنها السلاح وشاك السلاح، فكنى بها عن الحرب لما فيها من السلاح، انتهى المراد.

وظاهر كلام الإمام الهادي عليه السلام: أن الشوكة: السلاح، وقد حكى الشرفي عن الحسين بن القاسم عليه السلام: «أن الشوكة: هي الحد» وهذا مأخوذ من الشوكة وحدها، وهو موافق لكلام الإمام الهادي عليه السلام.

وفي تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام: «معناه: غير ذات الحِدَّة» انتهى هكذا في (المطبوعة) والذي في (المخطوطة) بدون هاء أي تاء التانيث؛ فلعل الأصل: غير ذات الحد.

وفي (لسان العرب): «والشوكة: شدة البأس، والحد في السلاح، ثم قال: وفي التنزيل: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ قيل: معناه: حدة السلاح، وقيل: شدة الكفاح» انتهى.

ولم يذكر في (الصحيح) إلا المعنى الحقيقي، فقال: «الشوكة واحد الشوك، وشجر شائك أي ذو شوك..» إلى قوله: «..وشوكة العقرب: إبرتها». فالراجح: أن الشوكة هي السلاح، وتستعمل بمعنى القوة بالسلاح، ولازم خوف السلاح خوف الحرب بالسلاح، فصح تفسير خوف الشوكة بخوف الحرب على هذا المعنى.

وقوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ تَحِقَّ الْحَقُّ﴾ أي يثبت الحق ويقره في الأرض ﴿بِكَلِمَتِهِ﴾ وهي آيات الكتاب وما أوحاه إلى نبيه عليه السلام ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ بكلماته المحاولين لإبطالها بالقوة والشوكة، وقطع الدبر

الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ
مِّنَ الْمَلَكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ

كناية عن الهلاك الذي لا يبقى منهم كافراً وذلك بإذلال ذات الشوكة،
وقتل بعضهم أولاً، ثم بفتح مكة آخرأ، وبما بينهما من قتل الكفار، والمراد:
ويقطع دابرهم أي الطائفتين لكفرهم، فأقيم الظاهر مقام المضمَر.

﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿لِيُحِقَّ
الْحَقَّ﴾ ليثبت الحق في الأرض، أي يقطع دابر الكافرين ليحق الحق
﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ أي يزهره ويذهبه، ويحتمل يحق الحق: يقضى فيه بما يليق
به؛ لأنه الحق ﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ يقضي فيه بما يليق به من حيث أنه الباطل
أي قضى قضاء جعل به الحق حقاً وجعل الباطل باطلاً، وهو جعل الحكم
التكويني بنصر الحق وإذلال الباطل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي أنه أمر غالب قاهر للمجرمين
لا يستطيعون رده لأجل كراحتهم له، والمجرمون المذنبون والمراد به هنا أعداء
رسول الله ﷺ ونصره عليهم يوم بدر وبعده.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ اذكر إذ تستغيثون أي بيدد تطلبون ربكم أن
يغيثكم يدفع العدو وينقذكم من بأسه بنصركم عليه ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي
مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ ﴿مُمِدُّكُمْ بِالْفِ﴾ جاعل لكم مدداً
أي زيارة في الجند من الملائكة ﴿مُرْدِفِينَ﴾ بآخرين من الملائكة فعلى
قراءة (فتح الدال): متبعين بلا تراخ، وعلى قراءة (كسر الدال): مردفين
لآخرين، أي جاعلين لهم رادفين لهم من غير الألف المذكور، ولو كان المراد
ترادف الألف بعضه لبعض لقليل: مترادفين.

وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿٢﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى

﴿١﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى ﴿٢﴾ أي الإمداد بالملائكة ما جعله الله إلا بشرى لكم تستبشرون به، وينكشف عنكم الغم من كثرة الأعداء وقوتهم مع قتلهم وقلة عدتكم ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾: يذهب عن قلوبكم القلق والاضطراب بهذا الإمداد.

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿١﴾ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿٢﴾ لا من وجود الملائكة فيكم أولاً من الملائكة؛ لأن الله تعالى هو الذي يلقي في قلوب الذين كفروا الرعب، ويربط على قلوب المؤمنين، ويهيئ أسباب انتصار المؤمنين بعلمه وقدرته وبِعِزَّتِهِ وَحُكْمَتِهِ؛ لأن من العِزَّة نصر دينه، ومن الحِكمة - أيضاً - نصر دينه مع ابتلاء المؤمنين بالجهاد وصبرهم عليه.

﴿١﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴿٢﴾ في هذه الآية ذكر بعض أسباب النصر فمنها: أن الله تعالى أغشاهم النعاس أي أرسله عليهم، والنعاس نوم قليل متقطع؛ لأنه يتخلله انتباه ﴿أَمَنَةً﴾ أماناً من الله، فجعل النعاس أماناً لهم، وانتصاب ﴿أَمَنَةً﴾ على الحال، أي حال كون النعاس أمانة كائنة من الله، أي سبباً منه لأمان في قلوبكم.

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ مطراً لأربع فوائد:

الأولى: أفادها قوله تعالى: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ من النجاسات ومن الجنابة إن كانت وبالوضوء، وينظفكم به من أثر السفر لما يكون فيه من العرق والغبار.

الْمَلَيْكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلِقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ

﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ وهذه الفائدة الثانية: إذهاب وسواس الشيطان القدر؛ لما فيه من التخويف من العدو وسبقهم إلى الماء، والتذكير بقوة العدو وقتلكم مع أنه كان العدو سبق إلى الماء قبل نزول المطر.

﴿وَلَيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ يشجعكم ويمنع قلوبكم من أن تضطرب، وذلك لثقتكم بالماء للشرب وغيره، واستغنائكم عن الماء الذي كان الكفار قد سبقوا إليه، وهذه الفائدة الثالثة؛ ولعل في برد المطر سبباً للإحساس بالقوة والنشاط وزوال التعب فيكون بذلك من التشجيع.

﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ أي يثبت بالماء النازل عليكم أقدامكم، وثبات الأقدام يحتاجه المقاتلون؛ لأن من زلّت قدمه ضعف وكان ذلك فرصة للعدو فاما إذا سقط فذلك أشد عليه، وانظر الدعاء بثبات الأقدام في (سورة البقرة) و(سورة آل عمران) وهذه الفائدة الرابعة من فوائد ذلك المطر.

وفي (مصاييح الشرفي) رحمه الله: «عن الحسين بن القاسم رحمه الله: أنه قال في تثبيت الأقدام: وذلك أن المطر إذا وقع بالأرض اللينة اشتدت والتأم بعضها إلى بعض وقويت واستمسكت بها الحوافر والأقدام» انتهى المراد.

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ في إعانة المؤمنين ليعلم الملائكة فضل ذلك العمل، وأنه يقربهم إلى الله ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ للتثبيت طريقتان:

الأولى: تثبيتهم بالتشجيع، ليثبتوا في مواقعهم ولا يرجعوا عن القتال.

الثانية: إمساك المقاتل ليقى قائماً لا يسقط مع مصاولة العدو، وهذا تثبيته بتثبيت قدمه وإمساكه قائماً.

﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ بشرى للملائكة بنصر المؤمنين، و﴿الرُّعْبَ﴾ قال في (لسان العرب): «الرُّعْب، والرُّعْب: الفزع والخوف» انتهى المراد.

وقال تعالى: ﴿سَأَلْتِي﴾ وفي (سورة الحشر): ﴿وَقَلَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ [آية: ٢] وذلك تصوير للرعب، كأنه جسم يلقي ويقذف في القلب، وذلك لإفادة سهولته على الله، أو لإفادة شغل قلوبهم به.

﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي قد أمكن الله منهم بثبيت المؤمنين وإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا، فهيأ لكم أن تضربوا ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ وفوق العنق: هو المفصل بينه وبين الجمجمة، وفي هذا تعليم للمجاهد ليتحرى ذلك المفصل فهو أيسر لقطع الرأس، وهيأ لكم أن تضربوا من الكفار ﴿كُلَّ بَنَانٍ﴾ وهذا يتفق مع فشلهم واتقائهم للسيوف بأيديهم بغير روية فقطع بنانهم.

والأمر هنا ﴿فَاضْرِبُوا﴾ واضربوا عبارة عن تسليط المؤمنين على الكفار وإغرائهم بضربهم بالسيوف؛ وذلك لأن هذا الأمر واقع في حكاية قصة المعركة، والخطاب هنا راجع إلى النبي ﷺ لذكره في أول الآية أي أنت ومن معك، وهذا هو المناسب لتفريع (فاضربوا) على تثبيت الذين آمنوا وإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا، ولو كان الأمر للملائكة ما تفرع على ذلك.

وقد قالوا في تفسير قول الله تعالى: ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾ [آل عمران: ١٦٥] قتل المؤمنين للكفار في بدر سبعين منهم، ولو كان الملائكة أمروا بضرب فوق الأعناق ما أبقوا أحداً إلا ضربوا فوق عنقه؛ لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم وذلك يستلزم أن المؤمنين لم يقتلوا السبعين من الكفار، فظهر: أن الخطاب بقوله تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا﴾ للنبي ﷺ ومن معه.

بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ^٤ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ ﴿١٢﴾ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٣﴾ يَتَأْتِيهَا

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ^٤ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ

اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ذلك المذكور في الآية قبل هذه بأنهم أي الكفار شاقوا
الله ورسوله: عادوا الله ورسوله وباينوه، وقد دل على أن محاربة دين الله
محاربة لله، كما أن نصر دين الله نصر لله، وذكر الرسول هنا في الموضعين
لتأكيد الزجر عن معاداته والدلالة على أنها سبب للعقاب، وفي (سورة
الحشر): ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [آية: ٤] للدلالة على أن
العقاب على مشاقة الرسول ﷺ بسبب أنها مشاقة لله تعالى.

فقام قوله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٤] مقام قوله:
﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ...﴾ إلخ، وقام قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ مقام قوله: يعاقبه عقاباً شديداً، وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ
اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ تأكيد شديد من حيث دل على أن ذلك صفة له، وأن
﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ اسم من أسمائه الحسنى؛ وذلك لأنه من شأنه لعزته
وحكمته، بدليل قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا
لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦] وعلى هذا فقد أعد
للمشاقين عذاب النار مع ما أصابهم بيدر، وفي ذلك قوله تعالى:

﴿ذَلِكُمْ﴾ الخطاب للكفار ﴿فَذُوقُوهُ﴾ الأمر ذلكم ﴿فَذُوقُوهُ﴾
فأنتم مستحقون له بما أجرمتم، وهذا تعبير غضب من الله عليهم، ودلالة
على أنه يريد ذلك فيهم لاستحقاقهم له، وهو تصوير لحالهم في المعركة من
حيث هم في حالها في غضب الله وعذابه بأيدي المؤمنين، والأمر هنا كالأمر
في قوله تعالى: ﴿فَاغْرِبُوا﴾.

الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ

﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ عطف على ذلكم، أي أمركم ذلكم
﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ كلهم وأنتم منهم، فكانه قيل: أمركم
ذلكم وأن لكم عذاب النار.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾
قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «والزحف: الدنو قليلاً قليلاً، وهو الجيش يرى
لكثرته، كأنه يزحف أي يدب من زحف الصبي على إسته دب» انتهى.

وكانه حكاية عن الزجّاج، ونحوه في (لسان العرب) بعضه عن الزجّاج
وبعضه عن الأزهري، فالمعنى: إذا لقيتم الذين كفروا حال كونهم جيشاً
زاحفاً إليكم متقدماً إليكم لقتالكم فلا تفروا.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ ﴿الْأَدْبَارَ﴾ كناية عن النهي عن
الفرار ﴿فَلَا تُولُوهُمْ﴾ فلا تجعلوا أدباركم متجهة إليهم، مثل: ﴿قَوْلٌ وَجْهَكَ
شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤] والأدبار: جمع دبر، وهو القفا أي الخلف،
قال الراغب: «دبر الشيء: خلاف القبل وكُنِيَ بهما عن العضوين
المخصوصين» انتهى.

﴿وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم لقاء الكفار زحفاً، يولهم ﴿دُبُرُهُ إِلَّا
مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ
وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿مُتَحَرِّفًا﴾ عن المكان الذي لقي الكفار فيه إلى مكان
آخر ﴿لِّقِتَالٍ﴾ أي ليقاتل في طرف آخر، وذلك لأن المكان الآخر أنسب له
للقتال ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا﴾ منظماً إلى فئة ليقاتل معهم.

وَلَيْكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَيْكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ

قال الراغب: «والفئة: الجماعة المتظاهرة التي يرجع بعضهم إلى بعض في التعاضد، قال: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾» انتهى المراد.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): لقوله الله تعالى: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ﴾ الآية [البقرة: ٢٤٩] «الفئة: الجماعة» انتهى المراد.

وفي (الكشاف): «﴿إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ إلى جماعة أخرى من المسلمين» انتهى المراد، وكذلك قال في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾: «إذا حاربتم جماعة من الكفار» انتهى.

﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ﴾ رجع متحملاً غضباً ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ عليه، باء مغضوباً عليه ﴿وَمَا أَوْهَ﴾ ومصيره الذي ينضم إليه ﴿جَهَنَّمَ وَيَبْسُرَ الْأَصِيرُ﴾ وتعريف المأوى يفيد: أن لا مأوى له غيره، فهو يفيد: الخلود في جهنم، وهذا وعيد للمسلم إذا فر من الزحف.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ — (بدر) ﴿وَلَيْكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ أي لم تقتلوهم بقوتكم؛ لأنكم كنتم قليلاً، وعدتكم دون عدتهم، فلولا الله هيا لكم أسباب القتل لهم لما قتلتموهم، فالله قتلهم بأيديكم، كقوله تعالى: ﴿يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤] فالنفي في قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ مجاز، كقول الشاعر:

ليس من مات فاستراح يميت إنما الميت ميت الأحياء

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَيْكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ الحصباء إلى وجوه العدو فكان لها الأثر العظيم في هزيمتهم، فالرمية كلا رمية بالنسبة إلى العادة، ولكن الله جعلها سبباً لما حصل منها من الأثر في الكفار، فكانت رمية

شديدة بصنع الله فيها، فالنفي مجاز كما في ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ وهو هنا أوضح؛ لأن الله قد قال: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ فأثبتها ولا تناقض لاختلاف معنى النفي والإثبات، كقول الشاعر:

ليس من مات فاستراح بِمَيِّت ...

ولعل ما ذكرت في تفسير ﴿مَا رَمَيْتَ﴾ هو مراد القاسم عليه السلام، حيث قال - كما حكاه الشرفي في (المصابيح) -: «معناه: ما رميت في قلوبهم بالرعب، ولكن الله رمى به في قلوبهم، أي أن الرعب الذي كان عندما رميت الحصباء لم يكن أثراً عادياً، وإنما هو صنع الله في الرمية جعلها سبباً، فالنفي والإثبات اختلف معناهما».

قال الشرفي: وقال ولده محمد بن القاسم عليه السلام: أن رسول الله ﷺ رمى في وجوههم بكفٍّ من حصى، ففرق الله ذلك التراب حتى أصاب أعيانهم، وكان ذلك من الله - عز وجل - انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: أن الله هو الذي أيّدك ونصرَك» انتهى، وهذا مثل تفسير الإمام القاسم ذكر فيه حاصل المعنى.

وقال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: فكان هذا إخبار من الله عز وجل لنبيه ﷺ [و] للمؤمنين بما كان من نعمته عليهم في تكثير قبضة الحصى التي رمى بها رسول الله ﷺ حتى انتشرت تلك القبضة وكثرت فوقعت في أعين جميع أهل الكفر، فعمّتهم على كثرتهم، وتباعد بعضهم من بعض، فلم يبق منهم رجل بعد ولا قرُب حتى ملّت تلك القبضة عينيه، فوقع الرعب عند وقوعها بهم في قلوبهم فظفر المؤمنون عند ذلك بأعداء الله فكانت هذه الرمية من محمد ﷺ والتكثير لها مع إيقاعها في أعينهم سبباً كان

من الله سبحانه أذلّ به الكفر والطغيان، وأعزّ به أهل الفضل والإيمان، ولم يكن لينال محمد ﷺ بالقبضة التي رمى بها ما نال إلا بفضل الله وتأيدته الذي جعله في قبضته التراب حتى بلغت من النكاية لأعداء الله ما كان سبباً لهلاكهم فالحمد لله المعزّ لأوليائه أهل الحمد والتحميد والتوحيد حمد من آمن به واتقاه وآثر في الأمور كلها رضاه» انتهى.

﴿وَلْيَبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾ في (لسان العرب): «ويقال: أبلاه الله يبلّيه إبلاءً حسناً، إذا صنع به صنْعاً جميلاً، وبلاه الله وابتلاه اختبره، ثم قال: قال القتيبي: يقال: من الخير أبليته إبلاءً، ومن الشر بلوته أبْلوه بلاءً، قال: [أي القتيبي] والمعروف أن الابتلاء يكون في الخير والشر معاً من غير فرق بين فعليهما، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] انتهى.

قلت: الراجح: أن المتعدي بالهمزة خاص بالخير بمعنى الإنعام، وغير المتعدي بها مشترك بين الخير والشر بمعنى الإختبار، قال في (لسان العرب): قال ابن بري: والبلاء: الإنعام، قال الله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُمُ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ﴾ [الدخان: ٣٣] أي إنعام بيّن، وفي الحديث: «من أبلي فذكر فقد شكر» الإبلاء: الإنعام والإحسان، يقال: بلوت الرجل وأبليت عنده بلاءً حسناً، وفي حديث كعب بن مالك: «ما علمت أحداً أبلاه الله أحسن مما أبلاني» والبلاء الاسم ممدود، يقال: أبلاه الله بلاءً حسناً وأبليته معروفاً.

قال زهير:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم وأبلاهما خير البلاء الذي يئلو

أي صنع بهما خير الصنع الذي ييلو به عباده» انتهى المراد، فالمعنى: وليعطي المؤمنين عطاءً حسناً، أو نحو ذلك.

اللَّهُ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿٨﴾ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٩﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فقد سمع استغاثتهم وعلم صبرهم وصدق نياتهم وأنهم أهل للإبلاء الحسن.

﴿ذَلِكَمُ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ أمركم ذلكم البلاء الحسن والنصر على أعدائكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿مُوهِنٌ﴾ الوهن: ضد الصلابة و ﴿كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ ما يعملونه ضد الإسلام والمسلمين من الاحتيال لقهر المسلمين وإبطال الإسلام فأمر المسلمين البلاء الحسن بنصرهم، وأمرهم أيضاً توهين كيد الكافرين، ويحتمل الأمر نصر أولياء الله وإيهان أعداء الله بإيهان أعداء الله الكفار مقصود مستقل، وهذا أظهر، فقوله تعالى: ﴿ذَلِكَمُ﴾ أي الأمر والشأن ذلكم البلاء الحسن أن الله بقدرته وحكمته موهن كيد الكافرين لكفرهم؛ ليظهر الأرض من فسادهم.

﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ خطاب للكفار يروى أنهم دعوا الله أن يحكم بينهم وبين المؤمنين. إن تطلبوا الفتح فقد جاءكم ﴿الْفَتْحُ﴾ القضاء الذي هو إعزاز المؤمنين وإدلالكم.

﴿وَإِنْ تَنْهَوْا﴾ عن محاربة الرسول والمؤمنين ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لأنهم منصورون وأنتم مخذولون ﴿وَإِنْ تَعُودُوا﴾ لقتالهم ﴿نَعُدْ﴾ لنصرهم وخذلانكم. ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ ﴿فِئَتُكُمْ﴾: جماعتكم ﴿ولو كثرت﴾، لن تغني عنكم شيئاً: لن تكفيكم بأس المؤمنين المنصورين أي لن تدفع عنكم شيئاً ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولأن الله مع المؤمنين فهو ناصرهم ومذل من حاربهم.

وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ

﴿٢٠﴾ يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴿٢٢﴾ عن الرسول ﷺ ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أمر الله بطاعته واتباعه، وتسمعون القرآن الذي أنزله الله عليه مصداقاً له وتسمعون ما وعظكم الله به في كتابه، وهذا تأكيد لوجوب اتباع الرسول ﷺ ليأتمروا بأمره في كل شيء من الجهاد وغيره، والتأكيد لأن بعض التكاليف شاقة يحتاجون لطيعوا ويصبروا عليها إلى تأكيد في الحث عليها ومبالغة، وكان كثير ممن قد أسلم مظنة المخالفة بمثل ما وقع منهم يوم أحد، وما وقع من بعضهم من التخلف عن الجهاد.

﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ لا تكونوا كالمنافقين الذين زعموا أنهم يطيعون الله ورسوله ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ لا يقبلون كلام الرسول ﷺ وإنما هم مرءون، فهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩].

﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وهم المخدولون الذين لا تنفع فيهم الآيات والنذر فكانهم صم لكرهتهم سماع الحق وإعراضهم بقلوبهم عنه، والبكم تشبيه بالذين لا يستطيعون النطق، فقد شبه المنافقين بهم في (سورة البقرة) وذلك لكرهتهم النطق بالحق كأنهم لا يستطيعون الكلام وإنما أظهروا الإسلام، فقالوا: سمعنا خوفاً من الرسول ﷺ ثم قال: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ لأنهم أهملوا عقولهم، وتركوا النظر والتفكير والتدبر لآيات الله فكانهم لا يعقلون، فهم شر الدواب ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

مُعْرَضُونَ ﴿١٢﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٣﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا

﴿١٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴿١﴾ بِأَن لطف بهم وهداهم لاستماع أمر الله ورسوله، والخير هنا حسن النية ولكنهم لا ينوون الخير ولا يريدونه ﴿و﴾ لذلك ﴿لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾: وهذا يدل على أنهم قد بلغوا في البعد عن امتثال أمر الله ورسوله إلى حد لا يطيعون ولو سمعوا ما يقول لإعراض قلوبهم عنه وكراهتهم له.

﴿١٣﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴿١﴾ أجبوا دعوة الرسول ﷺ إجابة امتثال وطاعة وقبول لدعوته بالعمل لا مجرد القول، وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ لأن الإجابة للرسول ﷺ إستجابة لله ﷻ ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وقوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ ﴿إِذَا﴾ هي ظرفية بمعنى حين يدعوكم، أي أنه يدعوكم لما يحييكم فسارعوا إلى إجابته ولا تتأخروا، فحين يدعوكم أجبوا فوراً، وحياة الأفراد حياة القلوب التي تحصل بالإيمان والطاعة والزهد في الدنيا والرغبة في طاعة الله، وحياة المجتمع عزه ونصره وانتظام أمره بالتوحد، وطاعة القائد في طاعة الله وجعل أمر الله فوق كل أمر وحكمه فوق كل حكم، وذلك يتوقف على حياة القلوب.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ هذا تحذير من الخذلان الذي يكون بسبب العصيان، فهو كقوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩] وقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور: ٦٣]

أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَزَرَقَكُمْ

فالخذلان يؤدي إلى فوات الانتفاع بالقلب في طريق الخير والهدى لإصراره على الباطل وتوجهه إليه وكرهته للحق، كما مر في قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] فهذه من المتشابهة، وقد تكرر نظيرها في (سورة الأنعام).

وقد بينا أن ذلك راجع إلى الخذلان وترك الشياطين يزينون له الباطل ويكرهون إليه طريق الخير بوسواسهم ومع ذلك بسط النعمة والإملاء، وذلك حق من الله لاستحقاق العاصي المتمرد المصر بعد وضوح الحق له، وفائدة نسبة ذلك إلى الله تعالى الدلالة على أنه غني مع التحذير من معصيته التي تؤدي إلى الخذلان، الذي يترتب عليه فساد القلب وبعده عن الحق، وقد مرّ نحو هذا في (سورة الأنعام) فراجع إن شئت.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّهُ﴾ أن الله ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ إليه وحده تحشرون ليجزيكم بما أسلفتم فاحذروا ترك الاستجابة لرسوله ﷺ.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾ تصيب بعضكم بسبب تركهم الاستجابة لرسول الله ﷺ كقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور: ٦٣]. ﴿لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾: لهم من بين المؤمنين ﴿لَا تُصِيبَنَّ﴾ نهي لهم، كقوله تعالى: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: ٢٧] أي لا تتعرضوا لها فتصيب من سبب لها وحده دون سائر المؤمنين، والفتنة: ابتلاء كابتلاء أصحاب السبت بالحوت، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣] فهي أمر يصعب على العاصي أمثاله، وقد لا يصعب على المؤمن كما يصعب على العاصي؛ لأن المؤمن يستسهل الصعب

مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٦﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحُونُوا اللَّهَ
وَالرَّسُولَ وَتَحُونُوا اٰمَنَتِكُمْ وَاَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ وَاَعْلَمُوا اَنْمَآ اَمْوَالُكُمْ

في طاعة الله؛ لأنه يرى الطاعة أهون من العذاب وأهون من فوات الجنة،
يرى الطاعة أهون من غضب الله وفوات رحمته ورضوانه، فقد استلان ما
استوعره المترفون؛ لأنه عود نفسه الطاعة وسيطر على نفسه، والفاجر عود
نفسه اتباع هوى نفسه وسيطرة نفسه عليه، فكان بعض التكاليف فتنة له
﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ اِذْذَنْ لِّي وَلَا تَفْتِنِّي اَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩].

﴿وَاَعْلَمُوا اَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فطاعته فيما شق على النفس
وكرهته أهون من عقاب الله بكثير؛ لأن عقاب الله جهنم التي ليس لله فيها
رحمة نعوذ بالله منها.

﴿وَاذْكُرُوا اِذْ اَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْاَرْضِ تَخَافُونَ اَنْ
يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَجَاوِلْكُمْ وَاَيَّدْكُمْ بِنَصْرِهِ﴾ أي ﴿اذْكُرُوا﴾ نعمة الله
عليكم فلا تقابلوها بالعصيان، فاذكروا حين كنتم قليلاً يراكم أعداؤكم
ضعفاء، فهم جريثون على قتالكم لأنهم يستضعفونكم لقلتكم، ولما أنتم
عليه من الفقر وقلة العدة من الخيل وغيرها، فأنتم في تلك الحال
﴿تَخَافُونَ اَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ﴾ الكفار من كل جانب لكثرتهم، فهناك مشركوا
قريش ومن حولهم، وهناك كفار أهل الكتابين، وهناك الدولتان العظيمتان
كسرى وقيصر، فأنتم تخافون أن يأخذوكم بسرعة لاقتدارهم وضعفكم
فجعل أخذ الناس لهم من كل جانب تحطفاً لسرعته لو وقع وذلك لسرعته
مع كثرة الأعداء وقوتهم وقلتكم وضعفكم.

وذلك يدل على توكل رسول الله ﷺ والمؤمنين الصادقين في إيمانهم،
ويدل على أنهم كانوا في شدة ففرجها الله عنهم بأن آواهم: جعل لهم
مأوى ودار إيمان هي المدينة المنورة التي كانت إليها الهجرة.

و(أيدهم): أي قواهم بنصره، فعزوا بعد الذلة التي هي الضعف، والقلّة في حال كثرة الأعداء وقوتهم وجراتهم على المؤمنين.

﴿وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ فأغناكم عن العيش في دياركم وأموالكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تعريضاً لكم على شكر هذه النعم العظيمة، فكيف تقابلون أنعمه عليكم بمعصية رسوله، وهذا تأكيد لحثهم على طاعة الرسول في كل شيء؛ ولعل ذلك لأنهم يستقبلون مشاق الجهاد وحالات، رغبة تدعو إلى معصية الرسول ورهبة كذلك فقبلهم يوم (الحنديق) ويوم (الأحزاب) ويوم (مؤتة) ويوم (خيبر) ويوم (حنين) فيظهر: أن هذه التأكيدات المتظاهرة من أجل ما يستقبلون لا لمجرد الخلاف على الغنيمة يوم بدر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخيانة لله ورسوله: مخالفة ما يظهرونه من الالتزام بطاعة الله ورسوله والنصح لله ورسوله إلى خلافه، وذلك يكون بصور:

ومنها: موادة الكفار سرّاً.

ومنها: وعدهم بالكون معهم سرّاً أو بتخذيل المؤمنين أو بخذلان المؤمنين.

ومنها: التناجي بمعصية الرسول في الخفاء.

ومنها: الإرجاف بهجوم الكفار وكثرتهم وقوتهم.

ومنها: التخلف عن الجهاد عقيب إظهار العزم والوعد به كما رجع بعضهم يوم أحد من الطريق.

ومنها: كتمان ما يجب إبلاغ الرسول ﷺ ومن معه ليحذروه.

ومنها: الغلول.

وَأُولَدُكُمْ فِتْنَةً وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ تَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو

وكلُّ خيانة للرسول ﷺ فهي خيانة لله تعالى؛ ولعل ذلك سبب قوله تعالى: ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ﴾ أي لا تخونوه بخيانة الرسول ﷺ وذلك لأن السر والعلانية سواء عند الله، فمن أخفى منه كمن جاهر، ومن وعد ثم أخلف كمن أعلن بالخلاف من قبل، ولا تكاد تتصور خيانة الله حقيقة، فظهر أن المعنى لا تخونوا الله بخيانة الرسول ﷺ.

ويمكن أن يدخل في خيانة الله ما صورته الخيانة له، لكنه مجاز كإفطار الصائم خفية، والصلاة بعد انتقاض الوضوء بما يخفى، وترك غسل النجاسة التي لم يعلم بها الناس، وترك الغسل من الإحتلام، والرثاء في العبادة.

وقوله تعالى: ﴿وَتَخُونُوا أَمْسَنَتَكُمْ﴾ أي لا تخونوا فيما ائتمنتم عليه من وديعة أو جوار أو صحبة في طريق أو قرض أو وصية أو رسالة أو مشورة أو مجلس قيل فيه سر ائتماناً للحاضر وغير ذلك ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك معصية لله تعالى، وتعلمون وعده ووعيده وما يوجب اجتناب الخيانة من فوائد الطاعة ومضار المعصية.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿فِتْنَةٌ﴾ ابتلاء أي اختبار، فالؤمن يطيع الله ولا يعصيه ولا يخون الله ورسوله من أجل مال ولا ولد، لأنه يعلم أنهم فتنة له ويعلم أن الله عنده أجر عظيم خير من الأموال والأولاد، ويخشى الله ويتقيه فلا يخونه لحماية مال أو ولد، بل يطيع الله وينصح له ويتوكل عليه في شأن المال والولد، والفاجر بخلاف ذلك يغلبه حب المال أو الولد؛ ولذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا يعسوب المؤمنين، والمال يعسوب الفجار».

الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٨٠﴾ وَإِذْ يَمَكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿١٨١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ

ولعل بعض العامة قد فتنوا بالمال ففسدت نياتهم في معاونة أهل الدين في حال إظهارهم أنهم مازالوا معهم، وذلك من خيانة الله ورسوله، وصدق أمير المؤمنين عليه السلام: «المال يعسوب الفجار» وحقيقة العسوب: أمير النحل الذي تتبعه أينما كان أي ما يسمى (أبو الثوب) والثوب اسم عربي.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ هذا من جملة الحث على طاعة الله ورسوله ﷺ والترغيب في تقوى الله ليستعد المؤمنون لها تمام الاستعداد، إن تتقوا الله كما أمرتم في الآيات الماضية، فتتقوا الفرار من الزحف، وتستجيبوا لله ورسوله إذا دعاكم لما يحييكم، وتجتنبوا الخيانة لله ورسوله، وتطيعوا الله كما أمرتم، فإنه سبحانه ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ يفرق بين حالكم اليوم وحالكم في المستقبل حين تقومون بواجبكم في طاعة الله ورسوله ﷺ، كما وعد في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

فمن الفرقان: إظهار دينهم على الدين كله، وأمنهم بعد الخوف وتمكينهم في الأرض، ورزقهم، وكشف الشدة عنهم، ومن الفرقان: زيادتهم هدى إلى هداهم وعلماً إلى علمهم بما ينزل من القرآن وسائر الوحي على رسول الله ﷺ، ومن الفرقان: تنوير قلوبهم وتقوية بصائرهم بحيث يتبين الفرق بسبب صبرهم وجهادهم، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [المنكوت: ٦٩] فيزدادون فهماً لكلام الله ورسوله.

ومن الفرقان: جودة الرأي والتدبير بما يحصل لهم من ممارسة الحرب ومقاومة أعداء الله، ومن الفرقان: القوة على تحمل الشدائد بسبب تعود ذلك والتمرن عليه، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

فبذلك كله يحصل لهم الفرقان بين حالتهم يوم نزول هذه الآية، وحالتهم يوم يعطيهم الله ما وعدهم من الفرقان، وليس يتوقف كله على التقوى والاستمرار عليها طول حياة الرسول ﷺ بل كلما ازدادوا ثباتاً على التقوى حصل لهم فرقان، أي نوع فرقان، وعلى هذا فقد كان عصيانهم للرسول ﷺ عن إنفاذ جيش أسامة ممن تحتم عليهم الوجوب كانت المعصية سبباً لفوات بعض الفرقان.

وقوله تعالى: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ فذلك فيما تقدم قبل التقوى، وفي الصغائر التي لا تنافي التقوى، وهي عندنا الخطأ والنسيان والمكره عليه فيما قد أمكن التحفظ منه، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ زيادة ترغيب في التقوى؛ لأنها سبب لفضل الله وفي الآخرة بمضاعفة الحسنات والتفضل العظيم.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ﴾ واذكر إذ يمكر، ففيه عبرة لك؛ لأن الله حفظك وسلمك من مكرهم، ومكرهم هذا تأمرهم على رسول الله ﷺ ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: ليقيدوك» انتهى.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): وذلك أن قريشاً تأمروا في دار الندوة على رسول الله ﷺ فقال هشام بن عمر [و]: قيدوه واحبسوه في

عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا
 أَصْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالُوا اأَللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ
 فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَمَا كَانَتْ

بيت تتربصون به ريب المنون، وقال أبو البخترى: أخرجوه عنكم على بعير
 مطروداً تستريحون من أذاه لكم، وقال أبو جهل: ما هذا برأي، و لكن اقتلوه
 بأن يجتمع عليه من كل قبيلة رجل فيضربوه بأسيا فهم ضربة رجل واحد
 فيرضى حينئذ بنو هاشم بالدية، فأوحى الله - عز وجل - إلى نبيه بذلك،
 فخرج إلى الغار ثم خرج مهاجراً إلى المدينة» انتهى.

﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ أي مكرأ غير ذلك، فلم ينالوا ما أملوا بل ﴿يَمْكُرُ اللَّهُ﴾
 بهم حين يمكرون، فهو يملئ لهم ويهيئ لهم أسباب الهلكة والكبت حتى
 قُتِلُوا ببدر وغيرها وأذلهم الله ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ لأن مكره عدل
 وإحسان مع الإعذار والإنذار وإيضاح الحجة.

﴿وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾
 إِنْ هَذَا إِلَّا أَصْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٦﴾ قَوْلُهُمْ: ﴿قَدْ سَمِعْنَا﴾ تقدمت لقولهم: ﴿لَوْ
 نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ أي أنهم قالوا: لو نشاء لقلنا مثل هذا بعد سماعهم
 له ومعرفتهم له، وهم كاذبون فإنهم لا يأتون بمثله ولو استطاعوا لكان
 ذلك أيسر من محاولة حبسه أو طرده أو قتله وأيسر من قتاله ببدر وأحد
 وحنين، وتحمل المشقة يوم الأحزاب.

وقولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَصْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ كذب وتكذيب وإعجازه لهم
 يكذبهم، والأساطير: جمع أسطورة وهي ما سطر من القصص.

﴿وَإِذْ قَالُوا اأَللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا
 حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿وَإِذْ﴾ أي واذكر إذ ﴿قَالُوا﴾ أي

اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا

الذين كفروا: ﴿اللَّهُمَّ﴾ أي يا الله ﴿إِنْ كَانَ هَذَا﴾ أي القرآن، أو إرسال محمد ﷺ ﴿هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً..﴾ يريدون بذلك الصّد عنه ودعوى أنهم يعلمون أنه باطل؛ لأنهم لا يدعون على أنفسهم بزعمهم إلا وقد علموا أنه ليس الحق، وهذا لشدة حرصهم على إبطال أمره وتكذيب ما جاء به من الآيات.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ لأن الرسول ﷺ أرسله الله نذيراً لهم، ومعاجلتهم بالعذاب تبطل فائدة بقاء الرسول فيهم ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فمن علم الله أنه يتوب لا يعاجله بالعذاب، وهذا يشير إلى أن فيهم من يتوب.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فهم مستحقون للعذاب، إنما يؤخره الله عن وقت طلبهم له لحكمة في التأخير، وصدّهم عن المسجد الحرام منعهم لرسول الله ﷺ حيث اضطرّوه إلى الخروج من مكة وأخافوه في الحرم.

﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَمَا كَانُوا﴾ أي وما كان الكفار أولياء المسجد الحرام، إن أولياء المسجد الحرام أي ما أولياء المسجد الحرام ﴿إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ وفي هذا دلالة على أن الظلمة لا ولاية لهم على الأمة الإسلامية؛ لأنهم لا يصلحون لولاية المسجد الحرام، فكيف يصلحون لولاية المساجد كلها، والمدارس والمصالح الدينية كلها ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أكثر الكفار ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ قد غلب عليهم الجهل والبعد عن فهم الحق.

كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ مُحْشَرُونَ ﴿٢٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ

﴿٢٥﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٦﴾ فكيف يكونون أولياء البيت وما دينهم إلا لعب ﴿مُكَاءً﴾ أي صفيراً ونحوه.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «فالمكاء: الصوت والصفير، والصوت يصفر كما يصفر المكاء وهو طائر، والتصدية: التصفيق بالأكف» انتهى.

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ بيدر ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وهذا بعد خروج الرسول ﷺ من مكة وهجرته، فبطل أمانهم بقوله: ﴿وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ وهو - أيضاً - في كفار لا يستغفرون؛ لأنهم قد خذلوا فما كانوا ليؤمنوا، ففاتهم الأمان الثاني، وقد كان ما نزل بهم في بدر عذاباً؛ لأنه جمع القتل والإهانة مع الكبر المتأصل في صدورهم والإغاظة لشدة عدواتهم لرسول الله ﷺ فغاضهم القتل والأسر والهزيمة والإذلال، وهذا عذاب عاجل ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٢٧].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ كما أنفقوا يوم بدر ليقاتلوا النبي ﷺ محاربة لدين الله ليصدوا الناس عن اتباعه. ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا﴾ في المستقبل كما أنفقوها يوم بدر ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ لحبهم المال

بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ
الْخَسِرُونَ ﴿٧٧﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ
وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ

مع ظنهم خيبة الأمل حين يرون النبي ﷺ يزداد قوة وأنصاراً ﴿٧٨﴾ يُغْلَبُونَ ﴿٧٩﴾ وذلك يوم فتح مكة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ تُخْشَرُونَ﴾
فعاقبتهم الخسران المبين والشقوة الدائمة.

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ هذه حجة لإثبات الحشر إلى
جهنم، وهي أن الله بحكمته يميز بين المسلم والمجرم، بين المؤمن والفاسق، قال
تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القم: ٣٥-٣٦].
﴿وَنَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾

وهذا إشارة إلى كثرة أهل النار، فالله بعزته وحكمته يجعل بعضهم على بعض
﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين ﴿فَيَرْكُمُهُ﴾ لكثرتهم وتزاحمهم حتى يكون ركاماً مجموعين
بلا تخلل بل بعضهم مضموم إلى بعض، كما تركم الأدوات في المكان الضيق؛
ولعل هذا بعد سوقهم إلى جهنم يحشرون حولها بهذا الشكل إهانة لهم وتنزيلاً
لهم منزلة الجمادات المركومة، فأولاً ميزهم من بين المؤمنين بسوقهم من محل
الجمع، فجمعهم حول جهنم، فجعلهم في جهنم؛ لأنهم جنس خبيث.
﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَسِرُونَ﴾ الخاسرون الخسارة العظمى، فاتهم كل
خير وصاروا في عذاب دائم.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ هذا دفع
لتوهم الكفار من قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ﴾ أنها لا تقبل لهم
توبة في الدنيا، فإنهم إن ينتهوا عما نهى الله عنه مما هم عليه من الباطل بأن
يسلموا ويؤمنوا يغفر لهم ما قد سلف منهم من الشرك وغيره.

ويحتمل: إن يتتهوا عن محاربة الرسول ﷺ يغفر لهم في الدنيا ما قد سلف، أي لا يُعاجلون فيها بهلاك أو عذاب من أجل ما قد سلف منهم إمهالاً لهم لينظروا حين يرون إظهار الله لدينه، وهذا مغفرة كقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ..﴾ الآية [الكهف: ٥٨] وهذا أقرب.

﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ لإصرارهم على باطلهم إلى قتال الرسول ﷺ ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ بإهلاك الكفار المقاتلين لأنبيائهم، فلن تجد لسنة الله تبديلاً، قال تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَآخَذْنَاهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥] فلا بد من هلاكهم إن لم يتوبوا وإن اختلفت مدتهم، فبعضهم بيدر وبعضهم في أحد، وبعضهم في الخندق، وبعضهم في حنين، وبعضهم يوم الفتح، وبعضهم فيما بين ذلك، أو ما بعده عقاباً عاجلاً في الدنيا لكل بما يستحق من التعجيل.

وفي هذه الآية على ما ترجح من تفسير ﴿إِنْ يَتَتَّهُوا﴾ دلالة على أن الحرب في أول الإسلام كانت دفاعية حتى نزلت (براءة) ولم يبق من المشركين إلا متمردة عدو للإسلام، وقد عرف الحق أو معرض عن النظر متمرد في إعراضه عدو للإسلام أيضاً، فنزل الأمر بالقتال بقوله: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَلِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ..﴾ الآية [التوبة: ٣-٥] فهي ثلاث مراحل:

مرحلة الكف عن القتال وهي بمكة وأول الهجرة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ..﴾ الآية [النساء: ٧٧] ومرحلة القتال للدفاع بـ (بدر) و (أحد) و (الخندق) ونحوها، ومرحلة القتال بحكم الله رب العالمين من بعد (براءة).

فِتْنَةً وَيَكُونُ الَّذِينَ كُفُّوا لِلَّهِ فَإِذَا أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿١٨﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ نَعَمْ أَلَمْؤَلَىٰ وَنَعَمْ أَلَنْصِيرُ

ولا موجب لجعلها كلها دفاعية؛ لأن الله يحكم ما يريد، ويحدث من أمره ما يشاء، وقد أحدث الأمر بقتال المشركين مطلقاً في (براءة) فإن أريد بكونها دفاعية أن قتال المشركين لم يشرع إلا لعداوتهم للإسلام والمسلمين، وأنهم كلما تمكنوا قاتلوا المسلمين وليس المراد بكونها دفاعية أن المسلمين لا يُقاتلون إلا إذا قوتلوا فيقاتلون لمجرد الدفاع لمن قاتلهم، فإذا لم يكن هذا هو المراد بكون الحرب كلها دفاعية، فالخلاف لفظي أو قريب من الخلاف اللفظي.

فإن قيل: فالمشرك القوي السليم من العوائق كالعمى ونحوه لو أعلن أنه لن يقاتل المسلمين ودعا إلى السلم هل يقبل منه ذلك؟

فالجواب: أنه إن كان ممن استثنى وهم الرهبان المتخلون للعبادة فنعم يترك وإلا لم يصدق في دعواه ودعوته إلى السلم؛ لأنه مع شركه وإصراره على الشرك لا بد أن يكون عدواً للمسلمين، وإنما يدعو إلى السلم لعجزه، نعم من دعا إلى السلم، وهو يستطيع الحرب، فمن الرأي مصالحته صلحاً مؤقتاً إلا أن يظهر منه إرادة الخيانة، وذلك جائز لمصلحة الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِنْ جَنَحُوا لِلْسَلْمِ فَلَجَنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ كما يأتي في هذه السورة، ولعله يأتي مزيد تحقيق إن شاء الله في تفسير (براءة).

﴿وَقَتِّلُوهُمْ﴾ إن لم يتتهوا ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ حتى لا يفتن مسلم ليرجع عن الإسلام كما كان الكفار يصنعون بالمسلمين في مكة ﴿و﴾ حتى ﴿يَكُونُ الَّذِينَ كُفُّوا لِلَّهِ﴾ بأن تغلبوهم فيسلموا أو يقتلوا، وهذا فيمن بدأ بالقتال إذا لم يتته بعد نزول قوله تعالى: ﴿إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ

﴿فَإِذَا أَنْتَهُوَ﴾ بعد الحرب الأولى ولم يعودوا لقتال المسلمين ﴿فَإِذَا﴾
 اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فهو يحاسبهم ويجازيهم بما أسلفوا وما يكون
 منهم في المستقبل وأمرهم إليه.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عما دعوا إليه من الكف عن قتال المسلمين ﴿فَاعْلَمُوا﴾
 أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ﴾ أي فاعلموا لتقاتلوهم كما أمرتم،
 حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، وارجوا النصر من الله الذي هو
 ﴿مَوْلَانَكُمْ﴾ متولي أموركم ومحسن رعايتكم ﴿نِعَمَ الْمَوْلَىٰ﴾ لأنه رحيم
 بالمؤمنين وعلى نصرهم قدير ﴿وَنِعَمَ النَّصِيرِ﴾ لأنه الغالب على أمره.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ أمرهم
 بالعلم؛ لأنهم إذا علموا سهل عليهم الانقياد لحكم الله ولئلا يتهموا
 الرسول ﷺ بظلم إذا أخذه ولم يقسمه عليهم مع الغنائم.

﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ﴾ فليس سبيله أن
 يقسمه بين الغانمين كما يفعل بالأربعة الأخماس، بل عليه أن يخص الأربعة
 الأصناف فيعطيه من الخمس، أما الأربعة الأخماس فهي وإن كانت له،
 لكنه يقسمها أو يضعها في مصلحة عامة، أما الخمس فهو له، وعليه أن
 يعطي الأربعة الأصناف، الأول ذو القربى وهو قريبه من النسب وهم بنو
 هاشم، وقالوا: أعطى معهم بني المطلب لاتصاهم ببني هاشم، وهذا يناسب
 أنه له، وإنما يعطي الأربعة بعد ملكه له.

﴿وَالْيَتَامَى﴾ الذين قتل آباؤهم أو ماتوا وهم لم يبلغوا الحلم، فهو تأنيس لهم وجبر ليتهم؛ ولعل سببه أن أكثرهم قتل آباؤهم في سبيل الله، ولكن العام لا يقصر على سببه ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ أضعف حالاً من الفقراء، فحاجتهم شديدة ﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ المسافر فيعطى بقدر حاجته.

هذا والغنيمة ما يستفاد من أموال العدو بالقتال كما في هذه الآية، فهي في سياق القتال، وقال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ أي مما أخذتم من أموال العدو بالجهاد، وفي الحديث: «وأحل لي المغنم ولم يحل لأحد قبلي، قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ الآية» انتهى.

رواه في (مجموع الإمام زيد بن علي عليه السلام): عن أبيه، عن جده، عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ.. الحديث، وخرجه في (شرحه) عن علي عليه السلام وعن ابن عمر، وعن جابر، وعن أبي هريرة.

وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ فذلك كله يفيد: أن المغنم هو المستفاد من مال العدو بالجهاد، أما سائر المستفادات بالتجارة أو الإجارة أو الزراعة، فلم يكن في حلها إشكال ولم تكن محرمة على الأولين، وفي (معلقة عنتره):

يخبرك من شهد الواقعة أنني أغشى الوغى وأعف عند المغنم

وفي (لسان العرب): «وقد تكرر في الحديث ذكر الغنيمة والمغنم والغنائم وهو: ما أصيب من أموال أهل الحرب، وأوجف عليه المسلمون الخيل والركاب» انتهى.

ولا إشكال أنه قد يستعمل (الغنم) - بضم الغين، وسكون النون - في الفائدة ضد (الغرْم) لكن الراجح: أن المعنى الأصلي للغنيمة والمغنم هو ما ذكرت.

واستعمال (الغنم) في الفائدة توسع إما مجازاً وهو الراجح كما قيل:
الصوم في الشتاء غنيمة باردة، ولو كان مجرد الاستعمال ولو مع القرينة
يصير اللفظ حقيقة لما بقي في اللغة مجاز، وإما حقيقة في لفظ (الغنم) -
بضم الغين - خاصة لا في الغنيمة والمغنم وغنم، ولا ينافي هذا وجوب
الخمس في غير ما أخذ من مال العدو المقاتلين كالركاز؛ لأنه لا تلازم بين
وجوب الخمس واسم الغنيمة ووجوب الخمس في غير الغنيمة بدليل آخر.

وأما قول الراغب: «الغنم معروف.. إلى قوله: والغنم إصابته والظفر به،
ثم استعمل في كل مظفور به من جهة العدى وغيرهم» انتهى، فقد خلط
الحقيقة بالمجاز، كقوله في تفسير الأب: «الأب الوالد، ويسمى كل من كان
سبباً في إيجاد شيء أو إصلاحه أو ظهوره أباً، وكذا قال في تفسير الإبن،
ويقال: لكل ما يحصل من جهة شيء أو من تربيته أو بتفقدته أو كثرة خدمته
له أو قيامه بأمره هو ابنه» انتهى المراد.

فلا حجة في كلامه لإثبات أن الغنم حقيقة في كل مستفاد، ولا نكره
ثبوت ذلك لو ثبت فإن أكثر الهاشميين من الزيدية في آيين الحاجة إلى خمس
الأرباح؛ لأنهم قد منعوا الزكاة فصاروا لا ينالون زكاة ولا خمساً إلا نادراً لا
يخلصهم من الفقر، لكن الحق عندنا أن خمس الأرباح ليس من خمس الغنائم،
والحق أحق أن يتبع، ويمكن أن يحتج عليهم بما في (الكافي) بسنده عن العبد
الصالح قال: «الخمس من خمسة أشياء: من الغنائم، والغوص، ومن الكنوز،
ومن المعادن، والملاحاة» انتهى، فجعل الغنائم غير المستفادة من الأربعة
المذكورة، فظهر: أنه المأخوذ بالقتال من مال العدو.

وفي (مجمع البيان) للطبرسي في تفسير هذه الآية: «الغنيمة ما أخذ من
أموال أهل الحرب من الكفار بقتال، وهي هبة من الله تعالى للمسلمين،

والفيء: ما أخذ بغير قتال، وهو قول عطاء ومذهب الشافعي وسفيان، وهو المروي عن أئمتنا (عليهم السلام) انتهى المراد.

ثم قال الطبرسي: «وقال أصحابنا أن الخمس واجب في كل فائدة تحصل للإنسان...» إلى قوله: «...ويمكن أن يستدل على ذلك بهذه الآية، فإن في عرف اللغة يطلق على ذلك اسم الغنم والغنيمة» انتهى.

قلنا: قد أقر بالمعنى الحقيقي، ولم يثبت المعنى العرفي؛ لأن الإستعمال مع القرينة لا يدل على أنه حقيقة، هذا والطبرسي من الإمامية فلا يحتاج بدعواه العرف.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ فذوا القربى: مَنْ بينه وبين رسول الله ﷺ قربى النسب؛ لأنه ذكر عقيب ذكر الرسول ﷺ، فكأنه قيل ولذي قرباه، مع أن المفروض أن الرسول ﷺ هو الذي يعطي ذا القربى، فإذا شرع له أن يعطي ذا القربى كان الظاهر أنه ذو القربى من رسول الله ﷺ وهو يعم كل واحد منهم؛ لأنه اسم جنس مضاف، ولو كان خاصاً بالإمام لما كان لفاطمة منه شيء، والرواية تدل على أن رسول الله ﷺ كان يعطي سهم ذوي القرابة قرابته - أي كلهم - فدعوى أن ذا القربى هو الإمام خلاف الظاهر، وإفراده كإفراد ابن السبيل.

وأما اليتامى والمساكين وابن السبيل فظاهر ما روي عن زين العابدين (عليه السلام): «هم يتامانا، ومساكيننا، وابن سبيلنا» محمول على إشارتهم عند الحاجة لتحريم الزكاة عليهم، فيدل ذلك على أن المراد جنس اليتامى والمساكين وابن السبيل على حسب ما يراه الرسول ﷺ من تعميم للصنف الواحد أو تخصيص لبعضه كما في الزكاة.

فأما السبب في إفراد ذي القربى وابن السبيل، وجمع اليتامى والمساكين فلعل - والله أعلم - كلمة (ذي) للصنف جعل كالشيء الواحد؛ لأن ذا تصلح للفرد وللجماعة إذا أضيفت إلى ما هو للفرد والجماعة إذا جعلت الجماعة شيئاً واحداً مثل فريق وصنف وطائفة؛ ولذلك أطلق (ذات) على الجماعة في قوله تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ﴾ فكأنه على هذا قيل: وللفريق ذي القربى، أو أفرد لإثبات أن الواحد مع القربى أهل للعطف عليه بسبب القربى، أو ليلفت السامع إلى القربى الباعثة على العطف، ولا يتجه ذهنه إلى قلة أو كثرة.

وقد أفرد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل: ٩٠] وفي (سورة سبحان): ﴿وَأَتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [آية: ٢٦] والظاهر أنها معطوفة على الأمر في الوالدين، وفي الوالدين: ﴿إِنَّمَا يَنْتَعِنُ عِنْدَكَ الْكَبِيرَ أَحَدُهُمَا﴾ [آية: ٢٣] فليست في الرسول ﷺ، فأما (آية الروم): ﴿فَاتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ [آية: ٣٨] فروى في (شواهد التنزيل) بسنده عن ابن عباس: «أنها لما نزلت دعا رسول الله ﷺ فاطمة وأعطاهما فذكاً، وذلك بصلة القرابة» انتهى.

وأما ابن السبيل فقد أفرد في القرآن في كل موضع، ولعله لقلته يوم نزولها أو لأن المنفرد هو مظنة الانقطاع بخلاف من له أصحاب في السفر. ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ هذا حث عظيم على العلم بفريضة الخمس يفيد أن من لم يعلم بها بعدما حكم الله بها فليس مؤمناً بالله؛ لأن من شأن المؤمن أن يعلم أن حكم الله هو الحق.

﴿وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ أي وآمتم بما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم بدر، والفرقان هو نصر الله للمؤمنين فرّق به بين حالهم قبل

أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٦﴾ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ

المعركة وحالهم بعدها، وفرق به بين المجاهدين في سبيله والذين كفروا الصادين عن سبيله، وبين الحق والباطل ﴿وَمَا أَنْزَلْنَاهُ﴾ من الوحي ومن الملائكة، وفائدة ذكر الإيمان بالملائكة المنزلين بيد تذكر تلك النعمة العظمى ليشكروا الله ويسلموا لحكمه في الغنائم، فلولا نصره ما غنموا.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ اتَّخَذَ الْجَمْعَانِ﴾ أي جمع المؤمنين وجمع الكافرين للقتال بيد وهو تفسير ليوم الفرقان ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فتوكلوا عليه وارجوا منه النصر والغنائم في المستقبل.

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ اذكروا إذا أنتم أيها المؤمنون بعدوة الوادي ﴿الدُّنْيَا﴾ القريبة إلى طريق المدينة.

قال في (الصحيح): «والعدوة والعدوة: جانب الوادي وحافته، قال الله تعالى: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾» انتهى المراد، وأعتقد أن المراد بجانب الوادي وحافته وشاطئه هو المرتفع عن يمين الوادي والمرتفع عن يساره كل واحد عدوة.

﴿وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ ﴿وَهُم﴾ أي الذين كفروا في العدو القصوى بالنسبة إلى المدينة أي البعيدة، فقد قربوا إليكم وقربتم إليهم وتراءيتهم ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ ﴿الرَّكْبُ﴾ العير الذين هم إحدى الطائفتين غير ذات الشوكة، سارعتهم لأخذها وسارع الكفار لحمايتها.

﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ للقتال من دون هذا السبب ﴿لَا خَتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَدِ﴾ والاختلاف يكون في الزمان أو في المكان أو فيهما معاً؛ لأن كلاً من الفريقين يراعي ظروفه وينظر لما يناسبه من الزمان والمكان، فمثلاً المسلمون يريدون تأخير الميعاد حتى يكثروا وتتوفر لهم العدة من الخيل والنفقة، والكفار يريدون التعجيل قبل أن يتقوى المسلمون.

﴿وَلَكِنْ﴾ هياً الله لقاءكم بلا مواعدة بل على الحال التي وقع عليها بسبب الركب الذين أسفل منكم ﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ ﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا﴾ يوقعه ويتمه وهو الأمر واحد الأمور وهو إظهار دينه ونصر نبيه وإعزاز أوليائه ﴿كَانَ مَفْعُولًا﴾ كان واقعاً لا بد من وقوعه. ﴿لَيَهْلِكَنَّ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ ليصير للعذاب من هلك بالكفر وصار مستحقاً للعذاب ﴿عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ للحق قاطعة لعذره فلا يبقى له يوم القيامة دعوى أنه كان غافلاً لم يأت من الله بيان.

﴿وَيَحْيَى مَنْ حَيَّى عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ توجب له صحة العقيدة وتهيم له الثبات على الحق، وهذه الحياة حياة القلب بالإيمان الصادق، كقوله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَلَحْيَيْنَتُهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا﴾ الآية [الأنعام: ١٢٢].

وفي (المصابيح) للشرقي رحمه الله: «عن الحسين بن القاسم رحمه الله: وذلك أن ما كان من وقعة بدر من الآيات الغرّ التي من كفر بعدها كان مكابراً لنفسه ففيه أوضح دليل لكلّ من الفريقين على أمر دينه وذلك أنه لا شك أن عسكر الرسول ﷺ في أول الأمر كانوا في غاية من الضعف والخوف بسبب القلة وعدم الأهبة ونزلوا بعيداً من الماء، وكانت الأرض التي نزلوا فيها أرضاً رملية تغوص فيه أرجلهم.

أَرْزَنَكُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٩﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا

وأما الكفار فكانوا في غاية القوة بسبب الكثرة في العدد وحصول الآلات والأدوات وأنهم كانوا قريباً من الماء؛ ولأن الأرض التي كانوا عليها كانت صالحة للمشي؛ ولأن العير كانوا خلف ظهورهم وكانوا يتوقعون مجيء العدو ساعة فساعة، ثم إنه تعالى قلب القصة وعكس القضية وجعل الغلبة للمسلمين والدمار على الكافرين، فصار ذلك من أعظم المعجزات وأقوى البينات على صدق محمد ﷺ فيما أخبر عن ربه من وعد النصر والفتح والظفر» انتهى المراد.

قلت: وقد كان من أسباب الضعف لولا النصر من الله غلبة العدو على الماء ومشاهدة المسلمين لكثرة العدو وخيلهم ونحرهم للإبل ليأكلوا، فهذا لولا النصر كان من أسباب الضعف النفسي، والآيات القرآنية توضح الآيات الكونية في بدر ومن أجل بدر ما مر من الآيات في هذه السورة وما يأتي.

﴿١٩﴾ إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرْزَنَكُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ﴿٢٠﴾ هذه الرؤيا كان تأويلها قلة الكفار وضعفهم في جنب ما يجعل الله للمسلمين من الإمداد والنصر، فلم تكن خبراً بظاهرها؛ لأن هذا شأن الرؤيا أن يكون لها تأويل هو مصداقها، ولكن من طبيعة البشر توهم ظاهرها وتوقعه أو ما يقرب من ظاهرها لسبقه إلى الخيال قبل تأويلها الصحيح، فلذلك صح أن يري الله رسوله ﷺ في المنام قلة المشركين.

وَيُقِلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۖ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١١﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا

﴿وَلَوْ أَرَنَاهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ لغلبكم الخوف من كثرتهم مع قلتكم وقلة عدتكم ﴿وَلَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ بسبب شدة الحال وفرط الإهتمام، فمثلاً يقول قائل: لا نلاقهم بل نقف حتى يأتونا أو يرجعوا، ويقول آخر: لا بد من لقائهم لئلا يروا أنا قد جبنا فيتجرءوا علينا أشد، ويقول آخر: إن لي عذراً في التخلف، ويقول آخر: إما أن نلقى كلنا وإما أن نقعد كلنا، والتنازع سبب للفشل فيضاف فشل إلى فشل.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۖ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ سَلَّمَ المؤمنين من هذا الفشل وهذا التنازع ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بالخفية مما في الصدور، فهو يعلم أسباب قوة القلوب وأسباب ضعفها.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ إذا التقيتم على العدوتين فتراءيتم وذلك قبل اختلاط الفريقين ليتشجع المؤمنون برويتهم للكفار قليلاً، ويتجرأ الكفار ويطمعوا في قتل المؤمنين وأسرهم ﴿لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا﴾ إذا اختلط الفريقان ينصر دينه ويحق الحق ويبطل الباطل.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ﴾ هي إراءة جملة الكفار مصغرة وليست إراءة تفصيلية تحقق كل فرد منهم بعينه، ومثل هذا يغلط فيه البصر، يرى الكبير صغيراً أو الصغير كبيراً؛ لنوع من البعد مع الشمس والسراب أو الغبار، وكما يرى في المرأة المصغرة للشيء والمرأة المكبرة لسبب في المرأة فلا تفيد الجزم والقطع بقتلهم، ولكنها تشجع المؤمنين بتخيلهم قليلاً.

اللَّهُ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٦﴾ وَلَا

﴿وَالِىَ اللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ لأنه القادر على كل شيء والعالم بكل شيء، فشان المؤمن أن يرجع أموره إليه ويتوكل عليه إذا كان مجاهداً في سبيله أو كان في طاعة لربه فلا يتحول عنها لوسواس الشيطان وتخويفه، بل يتوكل على الله، فهو الذي ينبغي أن يتوكل عليه المتوكلون، وهذا من إعداد المؤمنين للجهاد في المستقبل.

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿إِذَا لَقِيتُمْ﴾ للقتال ﴿فِئَةً﴾ جماعة تريد قتالكم فاثبتوا في محل القتال، لا تفروا ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ حال اللقاء ذكراً ﴿كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تظفرون بالخير، فذكر الله يعين على القتال: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فذلك من أسباب النصر، والمعاصي تضعف المجاهد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: ١٥٥].

﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ وكفى بهذا تحذيراً من التنازع، وإنما ينبغي للمجاهدين إذا عرض الخلاف أن يحكموا قائدهم فيما يتعلق بالقتال ويرجعوا إلى رأيه ولا يصروا أحدهم على الخلاف، فأما التنازع في أمر آخر فيؤخر لما بعد القتال إن أمكن تأخيره وإلا قطع النزاع بحكم من صلح للحكم فيهم أو صلح من يصلح بينهم وإلا فقد عصوا ربهم، والمسؤولية على من أصر على النزاع.

تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ

وقوله تعالى: ﴿فَتَفَشَّلُوا﴾ قال الراغب: الفشل ضعف مع جبن، وقوله تعالى: ﴿وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ﴾ نشاطكم للقتال وتهيئة النصر لكم؛ ولعله تشبيه بالريح المبشرة بالمطر، فيكون معنى الريح العلامات المبشرة بالنصر من نشاط المجاهدين وتأخيرهم وتوحيدهم وقوتهم وثباتهم، وظهور خلاف ذلك من أعدائهم - والله أعلم.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: تنقطع دولتكم» انتهى، ولعله يعني بالدولة إقبال النصر والغلبة - والله أعلم.

﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ وهذا من التعليم لأسباب النصر، فلا بد من الصبر وتحمل مشقة الجهاد، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ دليل على أن الله يعينهم ويهيئ لهم القوة ويقويهم، وهذا وعد مؤكد وقد مر في (قصة طالوت): ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وفي (آل عمران): ﴿وَلَنْ تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آية: ١٢] وفيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آية: ٢٠٠] وفيها: ﴿بَلَى إِنْ تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ﴾ [آية: ١٢٥] وفيها: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آية: ١٤٦] وفي (سورة الأعراف): ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ [آية: ١٢٨] وفيها: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [آية: ١٣٧].

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ قال في (الصحيح): «البطر: الأشر، وهو شدة المرح، وقال في تفسير المرح: شدة الفرح والنشاط» انتهى، وهذا يناسب ما روي: أن قريشاً خرجوا إلى بدر معهم القيان والمعازف يشربون الخمر وتعزف عليهم القيان.

وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٩﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ

وقال الشرفي في (المصاييح): البطر: «وهو الطغيان في النعمة» انتهى المراد، وذكر (صاحب لسان العرب) خلافاً في معنى البطر - ثم قال -: وقال الزجاج: البطر الطغيان عند النعمة - ثم قال -: وبطر النعمة بطراً فهو بَطِرٌ لم يشكرها» انتهى المراد، وهذا يناسب طغيان قريش عند خروجهم إلى بدر في ثروتهم وقوتهم، فالبطر قد كان منهم على المعنيين ﴿وَرِثَاءَ النَّاسِ﴾ أي ليراهم الناس فيعتزوا بذلك عند الناس، فلا تكونوا مثلهم في خروجكم للجهاد، بل أخلصوا النية لله، واذكروا الله كثيراً.

﴿وَيَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فهم يقاتلون في سبيل الشيطان، فلا تكونوا مثلهم، وكل من قاتل في نصرة الباطل فهو يصد عن سبيل الله، أي يمنع عن دين الله ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فلا يفيدهم ما يعملون عزة ولا غلبة للحق وأهله، لأنه محاط بقدرة الله وعلمه وعزته وقهره.

قال بعض المفسرين - ونعم ما قال -: «وقد اشتملت هذه الآيات الثلاث على أمور ستة أوجب الله سبحانه على المؤمنين رعايتها في الحروب الإسلامية عند اللقاء: وهي الثبات، وذكر الله كثيراً، وطاعة الله ورسوله، وعدم التنازع، وأن لا يخرجوا بطراً ورثاء الناس، ويصدون عن سبيل الله، ومجموع الأمور الستة دستور حربي جامع لا يفقد من مهام الدساتير الحربية شيئاً... إلخ.

﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَّكُمْ﴾ ﴿وَإِذْ﴾ هذه وما قبلها كلها بمعنى يوم خروجهم ومصيرهم للقتال الذي كان يبدر أو متعلقة به، وتزيين الشيطان إن كان من

شياطين الجن فهو بوسوسته لهم، وإن كان من شياطين الإنس فبقوله لهم: إنهم قد أصابوا الرأي بما عملوا من جمع الناس، وترغيبهم باللهو، وتوجههم لقتال المسلمين ونحو ذلك.

ومما زين لهم قوله: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ﴾ لكثرتكم وقوتكم، قوة القلوب وقوة الأبدان وقوة السلاح، وقوله: ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ أي أنكم أقوى من كل من حولكم من الناس من المسلمين وكنانة، وقوله: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ يفيد: أنه من شياطين الإنس، وأنه يجيرهم من أصحابه، فلا يقاتلونهم ليفرغوا لقتال المسلمين، ولعل هذا الشيطان هو سراقه بن خثعم، الشاعر الكناني الذي زعم بعض المفسرين أن إبليس تصوّر بصورته، لقي قريشاً وشجعهم وصحبهم.

﴿فَلَمَّا تَرَأَتْ أَلْفِئَتَانِ﴾ فئة المسلمين وفئة المشركين، رأى فئة المشركين فئة المسلمين، ورأى فئة المسلمين فئة المشركين ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقَبَيْهِ﴾ تأخر عن قريش ورجع القهقري؛ لأنه لا يريد القتال إنما أراد أن يشجع غيره ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ﴾ برئ من جواركم، فلا أصحابكم لأجل الجوار بل أرجع ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ يعني فأنتم ترون محمداً وأصحابه قليلاً ضعفاء وأنا أراهم أقوياء بالله، ولا طاقة لي بحرب الله.

﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهََ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وقوله: ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ أبهمه عنهم؛ لأنه لا يريد أن يرجف عليهم، إنما أراد أن يذكر لنفسه مبرراً لتركهم ونكوصه عن القتال بأنه رأى رجال إيمان بالرسول ﷺ صادق وعقيدة راسخة؛ لأنهم ملازمون له صابرون على الجوع والأذى والخوف والعناء، وآهم مستميتين لا يستسلمون ولا يفرون، فليس قتالهم مما يطلب.

وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَتُؤُلَاءِ دِينُهُمْ ۖ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ

﴿٦١﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَتُؤُلَاءِ دِينُهُمْ ۖ ﴿الْمُنَافِقُونَ﴾ الَّذِينَ أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ وَتَوَلَّوْا الْكُفَّارَ سِرًّا ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ شَكَّ فِي صَدَقِ الرَّسُولِ ﷺ وَسُوءَ نِيَّةٍ فِي نَصْرِهِ، فَكِلَا الْفَرِيقَيْنِ لَمْ يُؤْمِنُوا، وَإِنَّمَا نَظَرُوا إِلَى ظَاهِرِ قُوَّةِ قُرَيْشٍ وَقِلَّةِ الْمُؤْمِنِينَ وَقِلَّةِ عِتَادِهِمْ، فَقَالُوا: ﴿غَرَّ هَتُؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ لَظَنُّهُمْ أَنَّ الْغَلْبَةَ لِقُرَيْشٍ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ اغْتَرَوْا فِي مُوَاجَهَتِهِمْ بِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُمْ إِمَّا أَنْ يَنْصُرَهُمُ اللَّهُ؛ لِأَنَّهُمْ فِي سَبِيلِهِ، وَإِمَّا أَنْ يَنْالُوا الشَّهَادَةَ فَهِيَ إِحْدَى الْحُسْنَيْنِ، وَهَذَا لَا مَعْنَى لَهُ عِنْدَ الْمُنَافِقِينَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، فَزَعَمُوا أَنَّهُ اغْتَرَّارٌ وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ تَوَرَّطُوا فِي مَهْلَكَةٍ.

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ هَذَا رَدٌّ عَلَى الْمُنَافِقِينَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَكُونُوا مُغْرَوْرِينَ وَلَمْ يَتَوَرَّطُوا؛ لِأَنَّهُمْ تَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ، فَكَيْفَ يَخْذِلُهُمْ مَعَ عِزَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى نَصْرِ أَوْلِيَائِهِ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ وَحُكْمَتِهِ الَّتِي تَقْتَضِي إِظْهَارَ دِينِهِ وَنَصْرَ نَبِيِّهِ ﷺ وَتَكْرِيمَ أَوْلِيَائِهِ؟! وَقَالَ فِي الْمُؤْمِنِينَ: ﴿أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١] فَجَعَلَ رَحْمَتَهُ لَهُمْ مِنْ شَأْنِ عِزَّتِهِ وَحُكْمَتِهِ.

وَلَوْ اخْتَارَ لَهُمُ الشَّهَادَةُ مَا كَانَتْ وَرْطَةً كَمَا يَظُنُّ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، بَلْ كَانَ قَدْ أَعَدَّ لَهُمُ السَّعَادَةَ وَالشَّرَفَ الْعَظِيمَ الدَّائِمَ الَّذِي لَا تَدَانِيهِ حَيَاةُ الْمُنَافِقِينَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ..

بَلْ حَيَاتُهُمْ تَزِيدُهُمْ إِثْمًا ثُمَّ يَمُوتُونَ أَوْ يَقْتُلُونَ، فَمَا نَالَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ إِحْدَى الْحُسْنَيْنِ، فَهُوَ مِنْ شَأْنِ عِزَّةِ اللَّهِ وَحُكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ لِأَوْلِيَائِهِ، وَإِنْ ظَنَّ الْمُنَافِقُونَ

يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَ هُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥٢﴾ كَذَّابٍ ءَالٍ

والذين في قلوبهم مرض الذين نسوا الله أنه لا قوة للمؤمنين ولا ناصر، وكفروا لما قالوا: ﴿غَرَّهَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ فقد كفروا بدين الله ورسوله ﷺ وجعلوه اغتراراً.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَ هُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ هذه عامة للذين كفروا بالله ورسوله ﷺ من قريش وغيرهم، تدل على سوء عاقبتهم من حين تتوفاهم الملائكة أي تعالج قبض أرواحهم ونزعها من أجسادهم، فتعذبهم عند ذلك وتهينهم بضرب وجوههم وأدبارهم، وتلك الورطة العظمى التي تصيرهم إلى عذاب الحريق، وهم المغترون الذين غرتهم الحياة الدنيا، فلو تراهم في تلك الحال لرأيت شيئاً عظيماً.

وقوله تعالى: ﴿وَذُوقُوا﴾ أي نعذبكم بهذا ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ والراجع: أنه طوي ما بين موتهم ومصيرهم في عذاب الحريق، فكان عذاب الحريق عقيب ضربهم؛ لأنهم إذا صاروا في عذاب الحريق كانت المدة الماضية كأن لم تكن، وهذا تصوير عظيم لسوء عاقبتهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ﴾ بما قدمتم من الجرائم كلها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي وبأن الله ليس بظلام للعبيد، أي وبعدل الله وتقديسه عن الظلم للعبيد، فعدله سبحانه كان لأجله تعذيبهم، لإنصاف المؤمنين خصومهم المظلومين الذين حاربوهم في الدنيا، واعتدوا عليهم وآذوهم، واتخذوهم سخرياً، وكذبوهم وسبوهم وكذبوا عليهم.

فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا

﴿كَذَّابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ تعذيب الذين كفروا بمحمد ﷺ ﴿كَذَّابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ في تعذيبهم عذاباً عاجلاً، فقله تعالى: ﴿كَذَّابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ﴾ كعادة آل فرعون، كقله تعالى: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ وهذا كقله تعالى في (سورة فاطر): ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [آية: ٤٣].

فقال: ﴿سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ والمعنى سنة الله في الأولين - أي العذاب العاجل - فقله تعالى: ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ تفسير لدأبهم؛ لأن الكفر بآيات الله وأخذهم بسبب التكذيب جزاءً على ذنوبهم كلها تتابع في الأمم، كما مر في (سورة الأعراف) أي تتابع التكذيب والأخذ بتتابع الأمم. وقله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ كالتعليل لدأبه في الأولين واتباع الآخرين بهم، والراجع: أن هذه الآية وما بعدها في قتل بدر؛ لأن أكثر الآيات الماضية في هذه السورة في وقعة بدر، فأغنى وقوع المعركة ومشاهدة ما حل بالكفار عن ذكره في تلك الحال، مع أنه قد أفاده قوله تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا قَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ شَاقُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * ذَلِكَمْ فَذُوقُوا...﴾ ولم يبعد العهد لسوق الآيات بعدها في وقعة (بدر).

وقد قال تعالى في الفريقين: ﴿هَٰذَا خِصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] فأغنى حضور المعركة في الأذهان عن أن يقول: هذان المقتتلان ببدر خصمان، فالمعنى: أن الله تعالى عذب هؤلاء المشركين بأيديكم، كما عذب من قبلهم من الأمم الذين كذبوا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم.

عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ^١ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٢﴾ كَذَّابِ
 ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ^٢ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ
 بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ شَرَّ

﴿ذَلِكَ﴾ الأخذ ﴿بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ
 حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ فقد أنعم على قريش بتمكين الحرم الآمن الذي
 تجبى إليه ثمرات كل شيء، وأنعم عليهم بثيلافهم رحلة الشتاء والصيف،
 فلما جاءهم الرسول ﷺ كذبه أكثرهم وحاربوه وهموا بقتله تكديماً بآيات
 الله، فسلبهم الله تلك النعمة، فبيّن الله تعالى أنه لم يكن مغيراً نعمة أنعمها
 على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فلو لم يفعلوا ما فعلوا من الجرائم لدامت
 لهم النعمة بفضل الله، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا...﴾
 الآية [الأعراف: ٩٦] فكما أنعم عليهم لم يكن ليغير نعمته لو آمنوا واتقوا.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فقد سمع تكذيبهم للرسول ﷺ وأباطيلهم
 وعلم ما كان منهم من تغيير ما بأنفسهم من الحال التي كانوا عليها حين
 أنعم عليهم من صلاح أو قلة فساد أو حسن نية أو نحو ذلك.

﴿كَذَّابِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مكناهم في الأرض
 ولم نسلبهم النعمة حتى ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ المالك لهم المنعم عليهم
 ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ لعله خصهم بذكر الغرق
 بعد ما كانوا فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم آية لأهل الكتاب، بما
 في هذا من بيان موقع آل فرعون من الأمم المهلكة بالكذب.

﴿وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ مشركوا قريش الماخوذون وآل فرعون ومن
 قبلهم، فقد اشتركوا في سبب سلب النعمة كما اشتركوا في الأخذ.

الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ
ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مِرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفْنَهُمْ
فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ

﴿٥٥﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦] والدواب أخص من البرية وهو عام للناس
وغيرهم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ معناه: أنهم ييقنون على كفرهم حتى
يموتوا، لا تنفعهم الآيات، ولا يؤثر فيهم الإنذار والتخويف.

﴿٥٦﴾ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ﴿٥٧﴾ أَي مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، أَي مِنَ الَّذِينَ
عَاهَدْتَهُمْ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٥٨﴾ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ ﴿٥٩﴾ يَنْكُثُونَ ﴿٦٠﴾ فِي كُلِّ
مِرَّةٍ ﴿٦١﴾ عَاهَدْتَهُمْ فِيهَا، أَي كُلَّمَا عَاهَدْتَهُمْ نَكَثُوا عَهْدَهُمْ ﴿٦٢﴾ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾
اللَّهُ فِيمَا يَعْلَمُونَ مِمَّا بِهِ يَنْكُثُونَ، وَمِنْ نَفْسِ النِّكَثِ وَمِنْ غَيْرِهِمَا، فَهُمْ فِي
جَرَاةٍ عَلَى الْمَعَاصِي، فَكَانَ قِيلَ: يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مِرَّةٍ فِي حَالِ أَنَّهُمْ
يَتَجَرَّءُونَ عَلَى عَصْيَانِهِمْ لِلَّهِ بِذَلِكَ وَبِغَيْرِهِ، فَهَؤُلَاءِ شَرُّ الدَّوَابِّ.

﴿٥٧﴾ فَإِمَّا تَثْقَفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ
يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴿فَإِمَّا﴾ أَي (فَإِنْ مَا) أَدْغَمْتَ النُّونَ فِي الْمِيمِ، فَكُتِبَتْ كَمَا
يَنْطِقُ بِهَا، أَي فَإِنْ تَثْقَفْنَهُمْ، وَ(مَا) هِيَ صِلَةٌ لِلْكَلامِ ﴿٥٩﴾ تَثْقَفْنَهُمْ فِي
الْحَرْبِ ﴿٦٠﴾ أَي تَظْفِرْ بِهِمْ فِي الْحَرْبِ وَتَتِمَّكِنَ مِنْ قَتْلِهِمْ، فَاقْتُلْتَهُمْ وَشَرَّدَ
بِقَتْلِهِمْ ﴿٦١﴾ مَنْ خَلَفَهُمْ ﴿٦٢﴾ مِنَ الْكُفَّارِ، وَتَشْرِيدُهُمْ: إِبْعَادُهُمْ عَنْ مُحَارَبَةِ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِرَارِهِمْ لاعتبارهم بمن قتلهم، وخوفهم من أن يقتلهم
مثل أولئك الذين نكثوا فقتلهم و﴿٦٣﴾ مَنْ خَلَفَهُمْ ﴿٦٤﴾ مِنَ الْكُفَّارِ، مِنْ حَوْلِهِمْ

مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَأَنْذِرْهُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبْقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ ۚ عَدُوُّ اللَّهِ وَعَدُوُّكُمْ

من الكفار ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي من حولهم ﴿يَذْكُرُونَ﴾ أن حرب رسول الله ﷺ ليس مثل حرب غيره، وأن له نصراً من الله، فكما نصره على الناكثين المذكورين، ينصره على غيرهم أو نحو هذا، المهم يذكرون ما به يرتدعون، وهذا فيمن تحقق منه النكث، فاما من يتوقع منه ولما يقع فقال تعالى فيهم.

﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ﴾ ﴿فَأَنْذِرْهُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ﴾ ﴿فَأَنْذِرْهُمْ﴾ أي فالتق إليهم عهدهم، أي فأبلغهم إلغاء عهدهم وأنه ما بقي بينك وبينهم عهد، فاعتبر هذا الإعلان نبذاً لعهدهم، كأنه إرجاع له إليهم؛ لأنه لم يبق مقبولا.

وقوله: ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي فيما بينهم يستون في الإبلاغ، أي يعمهم كلهم ولا تبدأهم بقتال قبل النبذ المذكور، لأن ﴿اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ﴾ أو لا يحب الخائنين، فلا يجب تمكينهم من الخيانة بالبقاء على عهدهم وترك النبذ له إليهم.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبْقُوا﴾ السبق: بمعنى فواتهم ونجاتهم من أخذ الله لهم في العاجل ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ لا يعجزون الله، فمتى شاء سلطكم عليهم فعذبهم بأيديكم، والمناسب لقوله: ﴿سَبْقُوا﴾ أن يقدر أنهم لا يعجزون الله، أي هرباً.

وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ

﴿٢٠٧﴾ وَأَعِدُّوا لَهُمْ ۚ أَي لِقَاتِهِمْ ﴿مَا أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ وهذا يعم قوّة القلوب، وقوّة الأبدان، ويدخل في ذلك القوّة التي تحصل بالتدريب، وتعلّم الإصابة في الرمي، ونحو ذلك، وقوّة آلات الحرب ونحوها من المال الذي ينفق في سبيل الجهاد وحاله وبعده، وفي هذا العصر يعم القوات التي تستعمل في الحرب في هذا الزمان ونحوها.

﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ لم يقل: ومن اقتناء الخيل، فهو لا يكفي لإرهاب العدو، بل من رباط، فالظاهر أنه مرابطة الخيل أي إعدادها للقتال بأن تربط استعداداً للقتال وانتظاراً له، فتعلم حيث يتوقع لقاء العدو، ولا ترسل لتتبع المراعي حيث كانت، أو بأن تربط حيث المرعى في جبل طويل، وذلك إذا كان المرعى في موضع المرابطة.

﴿تُرْهِبُونَ بِهِ﴾ أي بما استطعتم ﴿عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ ﴿تُرْهِبُونَ﴾ أي تخيفون، وعدو الله يصلح للفرد والجماعة، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي﴾ [الشعراء: ٧٧] وقال تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ﴾ [النساء: ٩٢].

وقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَيْنَ﴾ أي وترهبون آخرين من دون الذين قد ظهرت عداوتهم من الذين كفروا، ولعلمهم المنافقون؛ لأنهم أدنى إلى المسلمين من الكفار المحاربين، وفائدة الإرهاب: إما أن يتركوا قتالكم لخوفهم من قوتكم وخيلكم، وإما أن يقاتلوكم على رعب منكم فيضعفوا في قتالكم.

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في سبيل نصر دين الله وحماية دين الله ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ فهو بمنزلة القرض يرجع

فَاجْتَنَحْهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ
تَخَذَ عُولَكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ
﴿٦٢﴾ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ

للمقرض وافيأ لم ينقص منه شيء، وهذا تمثيل للشواب في الآخرة على ما
أنفق في الدنيا، كأنه لقي ما أنفق وهو في وقت الحاجة إليه حيث لا يمكن
تحصيله بتجارة هناك ولا غيرها من أنواع الكسب.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ﴾ أي وأنتم أيها المؤمنون ﴿لَا تَظْلُمُونَ﴾ لا
تنقصون مما أنفقتم في سبيل الله شيئاً، كقوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾
[الكهف: ٣٣] وهذا خطاب عام للذين آمنوا، فعلى كل فرد إعداد ما استطاع،
وما أنفق في سبيل الله يوفأ إليه، والخطاب قبل هذه الآية وبعدها للرسول
ﷺ لتوليته قيادة المؤمنين.

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنَحْهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ﴾ ﴿جَنَحُوا﴾ مالوا للسلم، أي لتترك الحرب بينكم وبينهم، كأنها
سميت سلباً لما فيها من السلامة، قال في (الصحيح): والسلم الصلح [يفتح
ويكسر ويذكر ويؤنث].

وقوله تعالى: ﴿فَاجْتَنَحْهَا﴾ أي فمِلْ إلى السلم كما مالوا، وذلك يستدعي
المعاهدة على الصلح ولوازمه، ويأتي في (سورة التوبة) في معاهدة المشركين
تفصيل ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ كَلْ أَمْرُكَ إِلَيْهِ فِي تَدْبِيرِ نَصْرِكَ وَسَلَامَتِكَ مِنْ
غَدْرِهِمْ ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لما قالوا، إذا أرادوا خيانة مثلاً أو غيرها ﴿الْعَلِيمُ﴾
بما أضمرُوا من وفاء أو خيانة أو غيرهما، فكل أمرُك إليه فهو كافيك.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ تَخَذَ عُولَكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ ﴿تَخَذَ عُولَكَ﴾
يغدروا بك في السلم، أو في طلبه، أو في التظاهر بالجنوح إليه ﴿فَإِنَّ
حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ فإن كافيك الله؛ لأنه معك.

قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضٍ

﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿أَيْدِكَ﴾ قَوَاك، قال الشاعر:

فَاتَتْ أَعَالِيهِ وَأَدَّتْ أَصُولَهُ وَأَدَّى بِقَنَوانٍ مِنَ الْبُسْرِ أَحْمَرَا

﴿بِنَصْرِهِ﴾ بِالْقَاءِ الرَّعْبِ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَسَائِرُ أَسْبَابِ الْغَلْبَةِ،
وَأَيْدِكَ ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ لِأَنَّهُمْ أَطَاعُوا الرَّسُولَ ﷺ وَجَاهَدُوا مَعَهُ
وَاسْتَعَدُّوا لِذَلِكَ لِلْمُسْتَقْبَلِ.

﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ جَعَلَ قُلُوبَهُمْ مُتَّفِقَةً عَلَى الرِّغْبَةِ فِي نَصْرِ
الرَّسُولِ ﷺ، وَقَتَالَ أَعْدَاءُ اللَّهِ أَعْدَاءُ رَسُولِهِ، وَعَلَى التَّعَاوُنِ عَلَى ذَلِكَ،
فَأَصْبَحُوا إِخْوَانًا بَعْدَ عَدَاوَةٍ كَانَتْ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ شَدِيدَةً.
﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ لَشِدَّةُ الْعَدَاوَةِ
الَّتِي كَانَتْ فِيهِمْ وَرُسُوخُهَا فِي قُلُوبِهِمْ لَمَّا سَبَقَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْقَتْلِ وَالْقِتَالِ
وَالظُّلْمِ مِنْ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ وَالْإِهَانَةِ.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾ بِالتَّأْلِيفِ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَنَزْعِ الْغِلِّ مِنْهَا وَإِبْدَالِهَا
بِالْحُبِّ بَيْنَهُمْ وَالتَّأَخِّيِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَاجْتَمَعُوا مَعَ الرَّسُولِ ﷺ
وَتَوَحَّدُوا فِي نَصْرِهِ وَمُعَادَاةِ أَعْدَائِهِ، فَصَارُوا بِذَلِكَ قُوَّةً لِلرَّسُولِ ﷺ أَيْدِيهِ
اللَّهُ بِهِمْ ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ قَاهِرٌ لَا يُنَالُ ﴿حَكِيمٌ﴾ وَكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ نَصْرُ نَبِيِّهِ
لِإِظْهَارِ دِينِهِ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَإِحْقَاقِ الْحَقِّ وَإِبْطَالِ الْبَاطِلِ.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ أَيُّ فَحْسَبِكَ أَيُّ كَافِيكَ؛ لِأَنَّهُ مَعَكَ ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ﴾ وَانْقَادَ
لَأَمْرِكَ وَحُكْمِكَ وَالْجِهَادِ مَعَكَ، فَقَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تَنْتَظِرُ زِيَادَةَ عَلَيْهِمْ
مِنَ الْأَعْوَانِ فِي الْجِهَادِ.

﴿الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ۚ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ١٥ أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ۚ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ قال في (الصحيح): «التحريض على القتال: الحث والإحماء عليه» انتهى، وقال في تفسير حمي وحيت عليه - بالكسر - غضبت. انتهى، وذكروا أنه يقال: «حرّاض للذي يوقد على الأحجار لتكون نورة أو جصاً» انتهى، فظهر: أن التحريض حث يحرك الحمية والغضب لا مجرد الحث.

وقال الراغب: «والتحريض الحث على الشيء بكثرة التزيين له وتسهيل الخطب فيه» انتهى المراد، فلم يجعله مطلق الحث عليه، بل جعله الحث المخصوص الذي يرغب في القتال بطريقة تزيينه وتسهيل شدته، وذلك بذكر فوائده العاجلة والآجلة، وما أعد الله للمجاهد من الثواب، وما في الشهادة من الترغيب العظيم في القرآن والحديث الشريف.

﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِنْ تَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ١٥ ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ﴾ من الرسول ﷺ والمؤمنين ﴿عِشْرُونَ صَابِرُونَ﴾ ومائة صابرة، شرط الصبر لأنه شرط النصر، فأفاد أن مع الإيمان والصبر يغلب المجاهدون مثلهم عشر مرات من الكفار، بسبب أن الذين كفروا ﴿قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

قال بعض المفسرين - ونعم ما قال - : «وفقدان الفقه في الكفار وبالمقابلة ثبوته في المؤمنين، هو الذي أوجب أن يعدل الواحد من العشرين من المؤمنين أكثر من العشرة من المائتين من الذين كفروا حتى يغلب العشرون من هؤلاء

مِّنْكُمْ مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١١﴾ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ

المائتين من أولئك على ما بني عليه الحكم في الآية، فإن المؤمنين إنما يُقدِّمون فيما يُقدِّمون عن إيمان بالله وهو القوة التي لا يعادله ولا يُقاومه أي قوة أخرى لا تبتائنه على الفقه الصحيح الذي يوصِّفهم بكل سجية نفسانية فاضلة كالشجاعة والشهامة والجُرأة والاستقامة والوقار والطمأنينة والثقة بالله واليقين بأنه [أي المجاهد المؤمن] على إحدى الحسينين إن قُتل ففي الجنة وإن قُتل ففي الجنة، وأن الموت بالمعنى الذي يراه الكفار لا مصداق له [يعني أنه في حق المؤمن الشهيد أو كل مؤمن إنما هو انتقال من هذه الحياة إلى حياة أفضل] وأما الكفار فإنما اتكاؤهم على هوى النفس... إلخ.

﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ ﴿الَّذِينَ﴾ أي هذا الحين الذي نزلت فيه هذه الآية خفف الله عنكم بنسخ ذلك التكليف بقتال العشرين مائتين، والمائة ألفاً من الذين كفروا ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ ولم يقل: إنكم ضعفاء؛ لأن الضعف في جملتهم لا في كل فرد، وهو الضعف الذي يصعب معه تحمل التكليف المذكور صعوبة زائدة على صعوبته في المرة الأولى؛ لأن الإنسان قد يقوى على الشيء في المرة الواحدة، ويضعف عن تكرره عليه، فقد حدث الضعف من هذه الناحية، وهذا بالنسبة إلى بعضهم لأن ما كل واحد منهم بلغ في إيمانه وزهده في هذه الحياة بل ولا في الشجاعة الأصلية مبلغ رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب عليه السلام حتى تكون قوتهم على المعاودة كقوتهم على الابتداء.

﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ﴾ أي

صابر بقرينة ذكره مع المائة، والإكتفاء واقع في القرآن، قال تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] أي الذاكرات الله كثيراً، وقال تعالى: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿يَا ذِينَ اللَّهِ﴾ أي إذنه بالغلبة المذكورة، وإن كانت مخالفة للعادة المعهودة، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ يبين أن من سبب الغلبة هو الصبر الذي لأجله يكون الله معهم، فينصرهم بحيث تغلب المائة مائتين، والألف ألفين، فأما دون هذا العدد من المؤمنين مع هذا العدد من الكافرين فموجب النسخ والتخفيف أنه لا يجب عليهم القتال، بل لهم أن يحتالوا لترك مواجهتهم بأي حيلة، وهذا مخصص لقوله تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ وهو في الحقيقة نسخ لبعض ما تضمنته، وإن سمي تخصيصاً فهو مجاز.

وما وقع يوم (حنين) من ثبات رسول الله ﷺ وعلي عليه السلام، ومن معهما في حال انهزام الباقي من جيش رسول الله ﷺ، وكذلك ما وقع من ثبات الحسين في قلة أصحابه وكثرة أعدائه هو عمل بأحد الجائزين، وهو أفضل وأشرف، وعليه جرى أئمة الهدى وسائر الأخيار من ذريتهم وشيعتهم.

وفي (مجموع الإمام زيد بن علي عليه السلام): «وقال زيد بن علي عليه السلام: إذا كان الإمام في قلة من العدد لم يجب عليه قتال أهل البغي، فإذا كان أصحابه ثلاثمائة وبضع عشرة عدّة أهل بدر وجب عليه وعليهم القتال، ولم يعذروا بترك القتال، فإنه ليس من الأعمال شيء أفضل من جهادهم» انتهى.

ولعل هذا خاص في قتال البغاة، لقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا آلَ بَنِي نُبَيْحٍ﴾ [الحجرات: ٩] واختصاص الباغي بأن فساده في دار الإسلام - والله أعلم.

يُثَخِّنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

﴿٢٧﴾ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثَخِّنَ فِي الْأَرْضِ

ليس يليق بحال النبي ﷺ، ولا صح ولا استقام أن يكون له أسرى؛ لأن تعجل الأسرى لا يحصل له به قوة، وغرضه ومهمته عزة دينه ورفع راية الحق، وذلك لا يحصل إلا بالإنخان في الأرض وإضعاف الكفر وأهله بالقتل المؤدي إلى ذلتهم.

والأسرى: جمع أسير، والأسرى يؤخذون ويربطون حتى يفتدوا أو يفديهم غيرهم بما يعطون الأسرى فيطلقونهم، وهذا لا يليق بحال النبي ﷺ أن يكون مطلباً مقدماً قبل الإنخان في الأرض، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿حَتَّى يُثَخِّنَ فِي الْأَرْضِ﴾ معناه: يغلب ويبالغ، ويقال: حتى يظهر على الأرض» انتهى.

قال في (الصحيح): «وأنخته الجراح أوهنته، ويقال: أنخن في الأرض قتلاً إذا أكثر» انتهى.

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ ﴿تُرِيدُونَ﴾ الخطاب لأصحاب رسول الله ﷺ الذين أرادوا فداء الأسرى، وهو ﴿عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ لأنه عارض يزول ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ﴾ إعزاز دينه الذي هو سبب سعادة ﴿الْآخِرَةَ﴾ لمن اتبعه، وذلك بالإنخان في الأرض قبل الأسر ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب لا يُنال، فمن عزته إعزاز دينه ﴿حَكِيمٌ﴾ فأمره ونهيه على ما فيه الحكمة.

﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ وهو حكمه أن لا يؤاخذ على الخطأ أو نحو هذا

رَحِيمٌ ﴿٦١﴾ يَتَأْتِيَا النَّبِيَّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ

﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ أي في الأسرى ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فقد كان تعالى قادراً على أن يجعل في الأسرى قوة ويسلطهم على المسلمين، فيقتلوهم ويضعفوا أمرهم، فيكون للمسلمين ضد ما أملوا في الأسرى من الفائدة التي أخذوها لأجلها.

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿فَكُلُوا﴾ لعل (الفاء) للتفريع على العفو المفهوم من قوله تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ فلكون الكتاب سبق بما اقتضى العفو كلوا ﴿مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ ووجه التفريع: إما أن الغنائم تفرعت على العفو، ولولا العفو لفات النصر وفات الغنائم، وإما أنهم كانوا يعاقبون بتحريم الغنائم لولا الكتاب، فإباحتها متفرع على العفو، فكلوا من الغنائم ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ أي هي حلال طيب، فهو حال من (كلوا).

﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾ بطاعته في كل شيء من الغنائم وغيرها، ومن ذلك حكمه في أول السورة وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ كالتعليل لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ فهو من مغفرته ورحمته.

﴿يَتَأْتِيَا النَّبِيَّ﴾ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ ﴿خَيْرًا﴾ الإيمان والنية الصالحة ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ من الفدى، ويعوضكم بخير مما أخذ منكم لإطلاقكم من الأسر، والراجع: أن هذا وعد لهم بتعجيل رزق خير مما غرموا في الفداء.

عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ إن كانت المغفرة الكاملة للدنيا والآخرة، فالخير الإيمان والتوبة، وإن أريد المغفرة رفع العذاب العاجل كقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجِلَ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [الكهف: ٥٨] فالخير الإسلام والإقلاع عن الشرك ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: مغفرة ورحمة عاجلة، ومغفرة ورحمة عاجلة وآجلة، ولكل منهما أهل.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا﴾ أي الأسرى ﴿خِيَانَتَكَ﴾ أن يخونوك بعد إطلاقهم من الأسر ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ بمحاربة رسوله ﷺ ومعاونة المشركين أو بالشرك ﴿فَأَمْكَنَ﴾ نبيه ﷺ ﴿مِنْهُمْ﴾ من أخذهم وأسرهم، فهو قادر على أن يُمكن منهم مرة أخرى إن خانوك؛ لأنهم خانوا الله بخيانتهم لك ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يكون منهم من خير أو شر، وبكل شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ فهو لا يهمل المفسدين ولا يسوي بين المحسن والمسيء، وأحكامه موافقة لحكمته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ هذه في المؤمنين مع رسول الله ﷺ من المهاجرين الذين تركوا بلادهم وهاجروا المشركين، أي هجروا المشركين، وهجرهم المشركون، وهجر المؤمنين للمشركين، ومهاجرتهم: مفارقتهم لمن في بلادهم منهم

بالخروج إلى المدينة المنورة دار الهجرة التي صارت دار الإسلام والإيمان، ومأوى الرسول ﷺ ومن معه من المهاجرين والأنصار، فحكم بالولاية بين المؤمنين المهاجرين الذين جاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، والذين آووا رسول الله ﷺ وآووا من معه من المهاجرين في وقت الهجرة، وذلك يبذل بلادهم لهم، وإمدادهم من مالهم، والجهاد معهم لحماية الرسول ﷺ وإيوائه ومن معه، ونصروا رسول الله ﷺ بالجهاد معه وفي نصرته.

وهذا يفيد إيمانهم؛ لأن الذين في قلوبهم مرض والمنافقين لم يكونوا كذلك، فأهل هذه الصفات من المهاجرين والأنصار أولئك بعضهم أولياء بعض، فهم إخوان في الدين متعاونون على نصرته وحمايتهم له ﷺ، همُّهم في ذلك واحد، فبعضهم مع بعض لا يتولون الكفار، فهم مجتمعون على ذلك متحابون عليه، وذلك معنى الولاية، فكل مهاجر ولي لكل أنصاري من المؤمنين والعكس.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ فلا ولاية بينكم وبينهم؛ لأنهم ليسوا معكم في الأمر المهم الذي هو التعاون على نصر الدين وحمايته والتأخي عليه، حتى يهاجروا أو يصيروا معكم في ذلك.

﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ وذلك إذا قوتلوا على الدين ليرجعوا إلى الشرك، أو هم قوم بقاتلهم ليرتدوا، فعلى رسول الله ﷺ أن ينصرهم هو ومن معه من المهاجرين والأنصار مع عدم الولاية، ينصروهم لينقذوهم منهم ويتمكنوا من الهجرة، إلا على من بينه وبينهم عهد على الصلح يتمسك به المعاهدون ويثقون به في ترك الحرب، فعلى الرسول ﷺ وعلى من معه التمسك بالميثاق، وترك نصره هؤلاء الذين

تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا

آمنوا ولم يهاجروا في هذه الحالة تمسكاً بالميثاق، وهذا حكم وسط للذين آمنوا ولم يهاجروا ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ كلكم أنتم ومن لم يهاجر ﴿بَصِيرٌ﴾ فيحكم في كل بما يليق به ولكل بما يصلح له.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ مالكم من ولايتهم من شيء ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ إن لا تفعلوا الولاية بين المؤمنين المهاجرين والأنصار دون غيرهم، واعتبار الكفار بعضهم أولياء بعض لا يتولاهاهم مؤمن ولا يتولونه ﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ﴾ باختلال نظام المؤمنين، وبث الخلاف والفرقة بينهم، والمعادة، وضعف التناصح، وفي الأخير ضعفهم وقوة الكفار، وحيثئذ يكون نشر الفساد في الأرض ويضعف المسلمون عن دفعه كما هو الحال اليوم.

قال الشرفي في (المصايح): «قال في (البرهان): ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ يعني بغلبة الكفار ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ لضعف الإسلام، وأيضاً يحتمل ﴿تَكُنْ [فِتْنَةٌ] فِي الْأَرْضِ﴾ باختلاف الكلمة ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ بكثرة المنازعات والفتن» انتهى.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنهم الذين تمت فيهم حقيقة الإيمان وصفاته المذكورة في أول السورة.

﴿هُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ لما سلف منهم قبل الإيمان وللصغائر، ومما سلف ما وقع من الزلات فتابوا منه، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون

مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ ۖ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢١٨﴾

﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وعد بالرزق الكريم مطلق فيرجى به الرزق في الدنيا والآخرة، وكانوا في أول الهجرة في إقلال وجوع فرزقهم الله من الغنائم والفىء.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ﴾ من بعد هجرة الأولين الذين هاجروا قبل نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ الآية فهؤلاء المتأخرون آمنوا وهاجروا قبل الفتح المسقط للهجرة من مكة؛ لأنها صارت بالفتح دار إسلام ولكنهم تأخروا عن أولئك الذين هاجروا من قبل نزول هذه الآيات فأولئك المتأخرون منكم في ولايتكم تتولونهم ويتولونكم لصدق إيمانهم وهجرتهم بدليل الجهاد معكم.

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فالولاية بين المؤمنين المجاهدين لا تبطل الولاية بين أولي الأرحام منهم، بل أولو الأرحام من المؤمنين من المهاجرين والأنصار أولو الأرحام منهم بعضهم أولى ببعض؛ لأن سبب الولاية العامة للمؤمنين المجاهدين قد حصل لهم، واختص أولو الأرحام بسبب خاص هو الرحمة الانتساب الخاص إلى رحم ولِدوا منها فهم أولى ببعضهم من سائر المؤمنين والمهاجرين ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في حكم الله الذي كتبه، إما كتابة القرآن وإما كتابة إيجابه وحكمه الجازم، مثل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتْلُ﴾ [البقرة: ٢١٦] ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ [البقرة: ١٧٨].

قال الشريفي في (المصايح): «واحتج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب - صلوات الله عليهم جميعاً - في كتابه إلى

أبي جعفر المنصور بهذه الآية، في أن الإمام بعد رسول الله ﷺ هو علي بن أبي طالب عليه السلام، ذكره الرازي» انتهى.

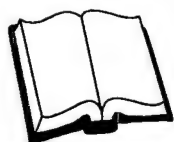
قلت: الآية مطلقة في كل أمر راجع إلى الولاية والاختصاص، ولذلك كان أمير المؤمنين علي عليه السلام هو الذي تولى غسل رسول الله ﷺ وحراسته حتى صلى عليه الناس في يومين، وحتى دفنه ﷺ.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فقلوه الحق، وحكمه الحق، وعلينا أن نمتثل أمره ونهيه، ونعلم أنه رقيب علينا في كل عمل لا يخفى عليه طاعة مطيع لله ورسوله ولا معصية عاص لله ورسوله.

فهذه الخاتمة راجعة إلى ما في هذه السورة من ذكر وقائع وتكاليف وأخبار وأحكام وهي تشير إلى الوعد والوعيد - وبالله التوفيق.



التيسير في التفسير



سورة التوبة



سُورَةُ الْبُرَاجِ

بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي

ابتداء تفسیر (سورة براءة) وهي (مدنية)

﴿١﴾ ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ قال الشرفي في (المصاييح): «قال الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين عليه السلام: إن قال قائل: لِمَ لم تكتب في أولها ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾؟»

قيل له: اعلم - هداك الله - أن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ مفتاح كل خير وبركة ورضى وتزكية أثبتها الله فيما كان أنزله على نبيه ﷺ وعلى المؤمنين من القرآن، وأن (براءة) نزل في أولها مفتاح حرب وإنذار ونبذ العهد الذي كان بين الرسول وبين المشركين، وإنذار وإبعاد لهم من ذي الجلال والإكرام عن المسجد المطهر والبيت الحرام، وإخباراً لهم بأن ما كانوا يفهمون ويعرفون قد زال وتصرم وحال، وأنهم إن ثبتوا على شركهم قُتلوا حيث ما ثقفوا إشادة من الله سبحانه بذكر الإسلام وإظهاراً وإعزازاً لدعوة نبيه ﷺ، فلذلك لم يثبت فيها ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾» انتهى.

أي هذه ﴿بَرَاءَةٌ﴾ واقعة ﴿مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ موجَّهة وبالغة ﴿إِلَى﴾ المشركين ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ أيها المؤمنون، أي براءة لله ورسوله من عهودهم فلا يلحق الرسول ﷺ عيب ولا ذنب في رفض العهود المذكورة؛ لأنها بلاغ إلى الكفار يعلن التخلي من الصلح السابق ويؤذن بالحرب وذلك نهاية لضمون العهد السابق، ونهاية لحكمهم؛ لأنه في حال يمكن فيه استعداد العدو للحرب إن شاء، فلا غدر فيه ولا نكث للعهد، وقد أرسل هذه البراءة رسول الله ﷺ إلى المشركين لتقرأ عليهم أيام الحج في مكة في حال اجتماع الكثير منهم بحيث تبلغهم كلهم.

قال الشريفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): براءة نزلت برفع الأمان، ونزلت سنة تسع من الهجرة فأنفذها رسول الله ﷺ مع أمير المؤمنين علي عليه السلام في الموسم بعد ما سلمها إلى أبي بكر فاستردّها منه بأمر من الله - عز وجل - نزل به جبريل عليه السلام وقال: (لا يبلغها إلا أنت، أو رجل منك) فسلمها رسول الله ﷺ إليه فقرأها أمير المؤمنين عليه السلام في يوم النحر على جمرة العقبة وكان قدر ما قراه عشر آيات من أولها» انتهى.

قال الشريفي: «ومثل هذا ذكر الإمام الناصر أحمد بن يحيى عن أبيه الهادي إلى الحق صلوات الله عليه - ثم قال عليه السلام -: وقد روت العامة هذا الخبر في رد أبي بكر، وإرسال علي - صلوات الله عليه - بالصحيفة في (مسند ابن أبي شيبه) وغيره، فلما كان يوم النحر واجتمع المشركون قام علي بن أبي طالب صلوات الله [عليه] عند جمرة العقبة فقال: (يا أيها الناس إني رسول [رسول] الله إليكم) وكان فيما روى أنه سمع أقصى الناس كما سمع أدناهم، فقالوا: بماذا أرسلك؟ فقرأ عليهم: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يقول: من كان بينه وبين رسول الله عهد فهو بريء منه» انتهى.

قلت: في (مسند أحمد بن حنبل) [ج ١/ ص ٣]: «حدثنا عبد الله قال حدثني أبي قال حدثنا وكيع قال قال إسرائيل: قال أبو إسحاق: عن زيد بن يثيع عن أبي بكر أن النبي ﷺ بعثه براءة لأهل مكة: لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، من كان بينه وبين رسول الله ﷺ مدة فأجله إلى مدته والله بريء من المشركين ورسوله، قال: فسار بها ثلاثاً، ثم قال لعلي عليه السلام: ألحقه فرد علي أبا بكر وبلغها أنت، قال: ففعل، قال: فلما قدم على النبي ﷺ أبو بكر بكى، قال: يارسول الله حدث في شيء، قال: «ما حدث فيك إلا خير، ولكن أمرت أن لا يبلغه إلا أنا أو رجل مني» انتهى.

الْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ

وفيه من [زوائد] ابنه عبد الله: حدثنا عبد الله: حدثنا محمد بن سليمان لوين حدثنا محمد بن جابر عن سماك عن حنش عن علي عليه السلام قال: لما نزلت عشر آيات من (سورة براءة) على النبي عليه السلام دعا النبي عليه السلام أبا بكر فبعثه بها ليقراها على أهل مكة، ثم دعاني النبي عليه السلام فقال لي: (أدرك أبا بكر (رض) فحيثما لحقته فخذ الكتاب منه فاذهب به إلى أهل مكة فاقرأه عليهم) فلحقته بالجحفة فأخذت الكتاب منه ورجع أبو بكر (رض) إلى النبي عليه السلام فقال: يا رسول الله نزل في شيء، قال: (لا، ولكن جبريل جاءني فقال: لن يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك) انتهى.

وفي (الدر المنثور) للسيوطي: وأخرج ابن مردويه: عن سعد بن أبي وقاص (رض): أن رسول الله - عليه السلام - بعث أبا بكر (رض) ببراءة إلى أهل مكة ثم بعث علياً رضي الله عنه على إثره فأخذها منه، فكان أبا بكر (رض) وجد في نفسه، فقال النبي عليه السلام: «يا أبا بكر إنه لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني» انتهى، وفي هذا روايات عديدة.

﴿٢١﴾ ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ﴾ السياحة: السير الطويل في الأرض، والأمر بالسياحة كناية عن الأمان في هذه الأربعة الأشهر وهي من يوم إبلاغهم في الحج عاشر ذي الحجة إلى عاشر ربيع الأول فهي مهلة للمشركون يأمنون فيها لينظروا لأنفسهم، فإذا اختاروا الإسلام، وإذا اختاروا الحرب، وقد أمروا أن يعلموا: أنهم ﴿غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ فهو قادر على قهرهم بنصر نبيه وبغير ذلك، لا يعجزونه بقوتهم ولا يعجزونه بهرب، وأمروا أن يعلموا: ﴿أَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ﴾ فعليهم أن لا يتعرضوا للخزي والهوان والعار، بل أن يسلموا ليسلموا الخزي من الله الذي يجعله على الكافرين.

فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهَرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٢١﴾

﴿٢٠﴾ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴿٢١﴾ الْإِذَانُ: إِبْلَاغٌ بِصَوْتٍ رَفِيعٍ مَوْجَهٌ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ لِيَعْلَمُوا ﴿٢٠﴾ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴿٢١﴾ بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَهَذَا عَامٌ لِلْمُشْرِكِينَ مَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَهْدٌ.

و﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ عَاشِرُ ذِي الْحِجَّةِ يَوْمَ طَوَافِ الزِّيَارَةِ الْمُسَمَّى طَوَافِ النِّسَاءِ لِحُلْهِنَّ بِهِ، وَعُمُومُ الْإِذَانِ لِلْمُشْرِكِينَ يَأْتِي تَخْصِصَهُ قَرِيبًا، وَمَعْنَى بَرَاءَتِهِ مِنْهُمْ إِعْلَانُ الْحَرْبِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ أَمَانٌ مَنْ بَعْدَ هَذَا فَلَا يُلْحِقُ الرَّسُولَ ﷺ عَارٌ مِنْ قَتْلِهِمْ وَلَا إِثْمٌ.

﴿فَإِنْ تَبَيَّنْتُ﴾ إِلَى اللَّهِ أَيِ رَجَعْتُمْ عَنِ الْإِبَاقِ مِنْهُ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فِي دُنْيَاكُمْ وَأُخْرَتِكُمْ ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عَنِ اللَّهِ وَأَصْرَرْتُمْ عَلَى الشُّرْكِ ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ وَهَذَا تَأْكِيدٌ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ حَرْبُ اللَّهِ وَأَنَّهُ غَالِبُهُمْ. ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هَذَا إِذْذَارٌ بِعَذَابِ النَّارِ عِبْرَةٌ عَنْهُ بِالتَّبَشِيرِ تَهْكُمًا بِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ أَبَوَا إِلَّا أَنْ يَعْمَلُوا مَا يُوَدِّعُهُمْ إِلَيْهِ كَانَهُمْ طَالِبُونَ لَهُ.

﴿٢١﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ أَيِ وَقَوَا بِالْعَهْدِ وَفَاءً كَامِلًا لَمْ يَنْقُصُوا مِمَّا عَاهَدُوا عَلَيْهِ شَيْئًا ﴿وَلَمْ يُظَاهَرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ وَلَمْ يَعِينُوا عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَحَدًا ﴿فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ وَهَذَا تَخْصِصٌ لِعُمُومِ الْبَرَاءَةِ وَالْإِذَانِ أَخْرَجَ مِنْهُ مَنْ قَدْ جَرَّبَهُ الْمُؤْمِنُونَ مَوْفِيًا بِعَهْدِهِ عَلَى التَّمَامِ، فَمَنْ التَّقْوَى أَنْ يَبْقَى الْمُؤْمِنُونَ عَلَى الْعَهْدِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، وَيَبْقَى أَمْنًا مِنْهُمْ إِلَى مَدَّةِ الْأَجَلِ الَّذِي جُعِلَ حَدًّا لِلصَّلَاحِ وَالْعَهْدِ.

فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحَرَّمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ
وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا
الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ

﴿٢٢٧﴾ فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحَرَّمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾
﴿فَإِذَا﴾ تفريع على البراءة من المشركين والأذان، وبيان أن ليس
مراد قتالهم في الأشهر الحرم، وهي أربعة يأتي ذكرها في هذه
السورة، وانسلاخها: انقضاؤها وذهابها.

قال الراغب: «السلخ: نزع جلد الحيوان، يقال: سلخته فانسلخ، وعنه:
استعير سلختُ درعه نزعته، وسلخ الشهر وانسلخ» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ يدل على قتلهم سواء في بلدهم أو
في سفر أو في معركة أو أينما كانوا، مستعدين للقتال أو غير مستعدين، وفيه
تخويف لهم، ويحتمل: أن يعم الحَرَم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ
الْحَرَامَ بَعْدَ عَالِمِهِمْ هَذَا﴾ ويحتمل: أن هذا العموم مبني على الخصوص في
قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩١].

﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أسرى إن شئتم، أي اقتلوا من شئتم وخذوا من شئتم
﴿وَأَحْصُرُوهُمْ﴾ امنعوا من الذهاب حيث شاءوا؛ لتقتلوهم أو تأسروهم
متى ضاقوا من حصرهم واضطروا إلى الاستسلام.

﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ ﴿كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ كل مكان يصلح
لرصدهم وانتظارهم حتى يأتوا عنده فيقتلوا أو يؤخذوا مثل انتظارهم على
طريق يبرون منها.

﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ لأنهم قد
خرجوا من الشرك الذي لأجله أمرتم بقتلهم.

الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجَرَهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلَغَهُ مَأْمَنَهُ ۚ
 ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ
 اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا
 اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا هُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِنْ

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر لمن تاب إليه ويرحمه، وتخليه سبيلهم أن لا
 يعترضوا في سبيل بل يتركوا ليذهبوا حيث شاءوا، وهذا تخصيص ثانٍ من
 عموم البراءة والأذان.

﴿٦﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ ۖ طلبك أن تجيره ممن يخاف منه
 القتل أو نحوه ﴿فَأَجَرَهُ﴾ فاحمه من ذلك ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ لزيادة الحجة
 عليه إذا سمعه؛ لأنه يعرف أنه كلام الله بكونه خارقاً في كماله ﴿ثُمَّ أَبْلَغَهُ
 مَأْمَنَهُ﴾ مثل: بلده أو أصحابه حيث يأمن، وبذلك لا يبقى له جوار إذا بلغ
 مأمنه ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم بأن يجار حتى يسمع كلام الله ثم يبلغ مأمنه ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
 لَا يَعْلَمُونَ﴾ لعدم استعدادهم للعلم ولإعراضهم واشتغالهم بديناهم فالآيات
 تمر عليهم فيعرضون عنها، ففي حالة استجارة المشرك قد يتذكر ويتبته إذا سمع
 القرآن، ففي هذا تخصيص مؤقت لهذه الحالة يخرجها من عموم الأذان والبراءة.

﴿٧﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا
 الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا هُمْ ۚ
 إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ؟ وهذا يدل
 على أنهم لا يصلحون لعهد لما يأتي بيانه في الآية التي بعد هذه.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ استثناء لأناس مخصوصين قد
 مضت معاهدتهم واستقاموا عليها، وقوله تعالى: ﴿عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾

يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾

أي عند الكعبة ﴿فَمَا اسْتَقَمُّوْا لَكُمْ﴾ على العهد لم يميلوا ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٨﴾ واستقامتكم حينئذ من التقوى.

﴿كَيْفَ﴾ يكون للمشركين عهد ﴿و﴾ لا وفاء لهم بل ﴿إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ يكونوا أقوى منكم حتى يتمكنوا من قتلكم أو أخذكم ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ إما ﴿لَا يَرْقُبُوا﴾ لا ينتظروا إلا عهداً، أي لا ينتظروا تمام مدة عهد ولا مدة ذمة، أو لا ينظرون إلى عهد ولا ذمة ولا يلتفتون إليه، وهذا الذي أفاده في (المصابيح).

قال في (الصحيح): «الريب: الحافظ، والريب: المنتظر، تقول: رَقَبْتُ الشيء أَرْقُبُهُ...» إلخ. قلت: وإذا كان في الآية بمعنى لا يحفظون فهو مستقيم؛ لأن معناه: أنهم يضيعون العهد والذمة؛ لإهمالهم لهما.

وفي (مفردات الراغب): «وَرَقَبْتُهُ: حفظته، والريب: الحافظ» انتهى، وقال الشرفي في تفسير قول الله تعالى - حاكياً عن هارون عليه السلام -: ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤] أي تحافظ على وصيتي في قولي لك: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ [الأعراف: ١٤٢] ولم تعمل بموجبها» انتهى المراد.

وأما الذمة: فقال في (لسان العرب): «وفي الحديث ذكر الذمة والذمائم، وهما بمعنى العهد والأمان والضمان والحرمة والحق» انتهى المراد.

وفي الحديث: «لا تعطوا القوم ذمتي ولا ذمة الله، فالمخفر ذمة الله لاق الله وهو عليه ساخط، اعطوهم ذمتكم وذمم آبائكم وفوا لهم، فإن أحدكم لأن يُخْفِرَ ذمته وذمة أبيه خير له من أن يخفر ذمة الله وذمة رسوله» انتهى من (مجموع الإمام زيد بن علي عليه السلام).

عَنْ سَبِيلِهِ ^١ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ^٢ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً ^٣ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ^٤ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا

قلت: يظهر: أن الذمة هنا بمعنى الضمان، مبالغة في الأمان، وزيادة في العهد لتأكيد، فالمشركون لا يراعون عهداً ولا يراعون ذمة إن ظهرُوا على المسلمين، وكأن عطفها على العهد من الترقى، كأنه لا يرقبون في مؤمنٍ إلا ولا ذمة، ولا ما هو أقوى منه وهو الذمة إن أعطوكم ذمتهم، وهذا خبر الله عالم الغيب بين أنهم إن يظهروا على المؤمنين لا يرقبون فيهم إلا ولا ذمة، فقد بين تعالى بذلك أنه لا عهد لهم باعتبار ما سيكون منهم أي من المشركين إن يظهروا على المؤمنين.

﴿يَرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي بكلامهم ﴿وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ تمتنع قلوبهم من تطبيق ما قالوا ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَسِيقُونَ﴾ فسوقاً غير الكفر والشرك خبثاً وتعمدً للفجور، فهم أبعد من أن يوفوا بعهد؛ لأنهم شاركوا المشركين في عقيدتهم وفي كفرهم بآيات الله وامتازوا بأنهم لا يتخرجون من قبيح.

﴿أَشْتَرُوا بِغَايَةِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ استبدلوا باتباع آيات الله أو بالإيمان بآيات الله ﴿ثَمَنًا﴾ هو الأغراض الدنيوية التي يرون أنها تفوت إن آمنوا واتبعوا آيات الله ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ما أسوأ ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ما تكرر منهم من العمل الفاحش.

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ ﴿لَا يَرْقُبُونَ﴾ هذه صفتهم التي استمروا عليها واعتادوها فهم لا يردعهم عن النكث إلا الخوف منكم، فأما العهد والذمة فلا يرقبونه ولا يلتفتون إليه، وهذا خبر عن ماضيهم المتصل بالحال فلا تكرار بينه وبين الأول، وهذا من بيان خبثهم ودفعاً لتوهم أنهم قد راقبوا العهد في الماضي ﴿وَأُولَئِكَ﴾ أهل هذه الصفات ﴿هُمْ الْمُعْتَدُونَ﴾ لنقضهم عهد الله عليهم وإصرارهم على نقض العهود.

الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۖ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا

﴿١١﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ تَابُوا عَنْ جُرَائِمِهِمْ كُلَّهَا وَرَجَعُوا إِلَى اللَّهِ بِالْإِيمَانِ ﴿١٣﴾ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ ﴿١٤﴾ فَهُمْ إِخْوَانُكُمْ ﴿١٥﴾ فِي الدِّينِ ﴿١٦﴾ فَلَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ.

﴿١٧﴾ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ الْتَفْصِيلَ خِلَافَ الْإِجْمَالِ، نَفْصِلُ: نَجْعَلُ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةَ مَفْصَلَةً لِيَسْتَفِيدَ مِنْهَا وَيَتَنَفَّعَ بِفَهْمِهَا قَوْمٌ يَعْلَمُونَ مَا عَلِمْنَاهُمْ بِالْآيَاتِ الْمَفْصَلَةِ، وَبِهَذِهِ الْآيَةِ خَتَمَتِ الْآيَاتِ الْعَشْرَ النَّازِلَةَ سَنَةِ تِسْعٍ لِإِعْلَانِ الْبَرَاءَةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَوْ بِالْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهَا.

﴿١٩﴾ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ ﴿٢٠﴾ كَمَا هُوَ شَأْنُهُمْ ﴿٢١﴾ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ ﴿٢٢﴾ مَنْ بَعْدَ أَنْ عَاهَدُوا عَلَى الصَّلَاحِ، نَكَثُوا: أَيِ نَقَضُوا الْمِيثَاقَ بَعْدَ أَنْ عَقَدُوا لَكُمْ الْيَمِينَ عَلَى الصَّلَاحِ وَلَعَلَّهُ فِي الْأَصْلِ تَشْبِيهُ بِنَكَثِ الشَّعْرِ وَالصُّوفِ وَالْوَبَرِ بَعْدَ غَزْلِهِ أَيِ نَقْضِهِ وَإِرْجَاعِهِ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ غَزْلِهِ، وَنَكَثَ الْإِيمَانَ بِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ قِتَالَ حُلَفَائِهِمْ.

﴿٢٣﴾ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ ﴿٢٤﴾ طَعَنُوا فِي الْإِسْلَامِ بِكَلَامِهِمْ فِي ذِمِّ الْإِسْلَامِ ﴿٢٥﴾ فَقَتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿٢٦﴾ أَيِ فَقَاتِلُوهُمْ فَهُمْ ﴿٢٧﴾ أَيْمَةُ الْكُفْرِ أَيِ الْمَتْبُوعُونَ فِي الْكُفْرِ فَقَاتِلُوهُمْ ﴿٢٨﴾ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَا عَهْدَ لَهُمْ، فَكُلُّ عَهْدٍ لَهُمْ ضَائِعٌ ﴿٢٩﴾ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿٣٠﴾ عَنْ قِتَالِكُمْ إِذَا قَاتَلْتُمُوهُمْ.

نَكُتُوا أَيْمَنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
 أَتَحْشَوْنَهُمْ فَأَلَلَهُ أَحَقُّ أَنْ تَحْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ
 اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَتَحْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ
 وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٤﴾

﴿١٣﴾ أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكُتُوا أَيْمَنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ
 بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَحْشَوْنَهُمْ فَأَلَلَهُ أَحَقُّ أَنْ تَحْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾
 ﴿١٣﴾ أَلَا تَقْتُلُونَ؟ إنكار على المؤمنين كأنه قيل: كيف لا تقتلون قوماً نكثوا
 إيمانهم ﴿١٤﴾ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿١٣﴾ بقتالكم يوم
 بدر ﴿١٤﴾ أَتَحْشَوْنَهُمْ؟ فتركون قتالهم خوفاً منهم ﴿١٣﴾ فَأَلَلَهُ أَحَقُّ أَنْ تَحْشَوْهُ ﴿١٤﴾ لأن
 عذابه أشد من قتال القوم، وهذه الآيات يظهر أنها نزلت في الحث على فتح
 مكة وقتال قريش، وذلك متقدم قبل نزول العشر الآيات التي في أول (براءة).
 ﴿١٣﴾ قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَتَحْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ
 صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وهذا أمر وترغيب بذكر فوائد ونصر، وهو غاية
 الترغيب، وقوله تعالى: ﴿يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ بقتل من يقتل وغيظ
 قرابته منهم وأصحابه.

وقوله: ﴿وَتَحْزِهِمْ﴾ يذلهم ويفضحهم بعجزهم عن الدفاع واستسلامهم بعد
 كبرهم وعنادهم، وقوله: ﴿وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي إن تقتلوهم ينصركم ﴿١٣﴾ وَيَشْفِ
 صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ قد ظلمهم المشركون كثيراً ففي قلوبهم حرارات وحقد
 على الكفار لا يشفيها إلا قتال الكفار وإخزاؤهم والنصر عليهم.

﴿١٤﴾ وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴿١٣﴾ وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ هؤلاء المؤمنين
 الذين غاظهم المشركون كثيراً حتى رسخ الغيظ في قلوبهم فلا يذهبه إلا ما
 ينال المشركين بقتال المؤمنين لهم.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ﴾ من بعد ذلك القتال وفوائده ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ فباب التوبة مفتوح لهم وإن قوتلوا وعذبوا بالقتال، فمن شاء الله هداه للتوبة فأسلم وتاب، وهذا دفع لتوهمهم أنها لا تقبل توبتهم لطول تمردهم وقتالهم للمسلمين وتعذيبهم قبل الهجرة ومعاداتهم لرسول الله ﷺ وهمهم بإخراجه وغير ذلك من عدوانهم وظلمهم وتكذيبهم لآيات الله.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ فهو عليم بما سيكون، وهو عليم بما عليه الكفار وما قد مضى منهم وبكل شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ فحكمه بالقتال وتوبته من بعد على من يشاء كل ذلك مطابق للحكمة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا﴾ غير مكلفين بالقتال ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ أي تُتْرَكُوا في حال لم يتميز المؤمن الصادق في إيمانه الجاهد في سبيله ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ جاهدوا ولم يتخذوا من الكفار ﴿وَلِيجَةً﴾ بطانة يتولونهم من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين.

قال الراغب: «والوليعة: كل ما يتخذه الإنسان معتمداً عليه وليس من أهله، من قولهم: فلان وليعة في القوم إذا لحق بهم وليس منهم» انتهى، وقال في (الصحيح): «ووليعة الرجل: خاصته وبطانته» انتهى.

فالمؤمنون الخُلص جاهدوا وثبتوا على إيمانهم ولم ينافقوا، فكان التكليف بالجهاد لتمييزهم وإثابتهم، وإظهار فضلهم على غيرهم ممن تقاعد عن الجهاد ومن نافق، ولولا التكليف بالجهاد لكانوا في الظاهر سواء، ولم تحصل للمؤمن فضيلة الجهاد، وفضيلة التوكل والثبات عند الزلازل والخوف.

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٤﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ

﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ عليم بخبر أعمالكم كلها؛ لأنه عالم الغيب، فقلوه: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ إنما هو كناية عن وقوع ما يعلم الله وقوعه، مع أنه سبحانه عالم ما سيكون قبل كونه ولكنه تشبيه للتكليف بالإختبار الذي يترتب عليه تمييز الخبيث من الطيب في حقنا، وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ بمعنى بل أحسبتم، فهو إضراب من الترغيب في الجهاد بذكر فوائده إلى ذكر حق الله فيه من الإختبار الذي يريده.

﴿٤﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ ۚ لَيْسَ مِنْ شَأْنِ الْمُشْرِكِينَ كَأَنَّهُ لَا يَتَصَوَّرُ مِنْهُمْ ﴿أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ لِأَنَّ أَعْمَالَهُمْ حَابِطَةٌ لَا تَقْبَلُ فِيهِ كَلَامٌ عَمَلٌ، فَالمراد العمارة التي لها فائدة وتعد حسنة؛ ولذلك قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام الناصر - أحمد بن الهادي إلى الحق عليه السلام -: وقد جاء في الرواية أنه لما أسر بعض رؤساء المشركين أقبل ناس من المهاجرين فعيروه بالكفر وقطيعه الرحم وعون المشركين على رسول الله ﷺ وترك الإيمان والإقامة على الكفر فقال لهم: ما لكم تذكرون مساوينا ولا تذكروا محاسننا؟ قالوا له: وهل لكم محاسن؟ قال: نعم، إن كنتم تجاهدون في سبيل الله مع رسول الله ﷺ الأعداء فنحن أفضل منكم أجراً، قالوا: وبأي شيء؟ قالوا [قال]: نعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونفك العاني، ونفادي الأسير، ونسقي الحاج، ونؤمّن الخائف، فأنزل الله ردّاً عليهم: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ..﴾ الآية» انتهى.

اللَّهُ مِّنْ ءَامِنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ ^٢ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُم

و﴿مَسْجِدَ اللَّهِ..﴾ المسجد الحرام وسائر المساجد الشرعية، ولعل ذكر الجنس ليتناول الكلام من كان من المشركين يدّعي عمارة المسجد الحرام، ويتناول سائر المساجد الشرعية في أن عمارتها لا تنهيا من مشرك.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مِّنْ ءَامِنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ ^٢ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ أصل العمارة ضد التخريب ولكن السياق يدل على أن العمارة هنا: بمعنى إحياء المسجد بالعبادة فيه، وعمارة المسجد الحرام بالطائفين والعاكفين والركع السجود، قال تعالى: ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ [الطور: ٤] وافتخار المشركين بعمارة المسجد الحرام يُظهر أنهم: أرادوا إحياءه بمعاونة الحجاج والعمّار بالسقاية ونحوها، والحماية بحيث كثر الحجاج والعمار، أو أرادوا إحياءه بأنفسهم بالطواف وبصلاتهم، أو بالمعنيين. وفي (الصحيح): «(أبو زيد: يقال: عَمَرَ الله بك منزلك) انتهى، وفي (لسان العرب): «ويقال: عَمَرَ الله بك منزلك: يَعْمُرُهُ عمارة وأمره جعله أهلاً» انتهى المراد.

فالذين يعمرّون مساجد الله هم المؤمنون؛ لأن العمل لا يقبل إلا من المؤمن، والجامع للصفات الأربع هو المؤمن حقاً، فعمل الكفار لا يعد عمارة؛ لأنه غير مقبول بل هو حابط، فهو كلا شيء، ويمكن أن لا يسمى عمارة؛ لأن المشرك لا يجي المسجد؛ لأن حياة المسجد وعمارته إنما هي بالعبادة الحقيقية، وعمل المشرك فيه أشبه باللعب؛ ولكون المشرك نجساً لا يصلح للكون في المسجد، فلا يعتبر أهلاً ببقائه فيه كما لو كان فيه كلب فلا يعتبر كونه في المسجد عمارة له بل شغلاً ونجساً.

سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ
﴿١١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ

وقوله تعالى في المؤمنين: ﴿فَعَسَىٰ ٢ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ أي
يقرب أن يكون أهل هذه الصفات الأربع من المهتدين في بقية أعمارهم
للصراط المستقيم فيختم لهم بالخير ويثابون على عمارة المسجد وسائر أعمالهم
فائدة ﴿فَعَسَىٰ ٢ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ بيان: أنه لا بد من
الثبات على الإيمان والإهداء بهدي الله لئلا يحبط العمل، وأهل الصفات
المذكورة قريب منهم الثبات بسبب الإيمان وترجيح خشية الله على خشية غيره،
فهم بعيد من النفاق والانقلاب، فعسى ﴿أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ ولعل
هذا المعنى هو المراد في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا
ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢] ومنه قول المصلي: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

﴿١١﴾ ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ﴾ ﴿أَجَعَلْتُمْ؟﴾ الخطاب لمن سوى بين ﴿سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وبين الإيمان بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله،
سؤال إنكار للتسوية بينهما وسقاية الحاج سقاية الحجاج بالماء العذب.

﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ في علمه أو في علمه وحكمه وهو أحكم الحاكمين
﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فقد كان المشركون في ضلال حين يزعمون
سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام مع شركهم عملاً صالحاً يفتخرون به، ولو كانوا
على هدى لعلموا أنه لا يقبل منهم عمل مع الشرك، وأن ذلك كسرابٍ بقيعة.

أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٣٧﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢٣٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ

﴿٢٣٧﴾ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ ولكون المراد بالكلام في العمل الكلام في العاملين، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾ أي مَنْ يسقي الحاج ويعمر المسجد الحرام، ومن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله، ثم زاد توضيحاً بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ فبين: أنهم لا يستوون وأوضحَ عظمَ درجة المؤمن المهاجر المجاهد، وفي التفضيل وجهان:

أحدهما: أنه ليس معناه المشاركة في الدرجة وإنما هو لإثبات درجة عظيمة مقابل لا شيء، كقوله تعالى: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَقَكُمُ﴾ [الحجرات: ١٣] ولا كرامة للمشارك عند الله، ويؤكد هذا الحصرَ بقوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ فلا درجة لغير الفائز.

الوجه الثاني: أن يكون مدعي المساواة كان قد أسلم وأراد أن سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام نافعان له وإن كانا قبل الإسلام فرد الله عليه بنفي التسوية، ثم بيان فضل المؤمن المهاجر المجاهد؛ لأنه قام بواجب الإيمان وواجب الهجرة وواجب الجهاد، وتعداد ذلك مناسب لذكر فضله وإن كان الإيمان والجهاد في تلك الظروف قد أفاد الهجرة بالنسبة لمن لم يكن من أهل المدينة ويشعر ذكرُ الهجرة هنا أن دعوى المساواة كانت بين عملٍ مشترك وعملٍ مهاجر كما تدل عليه الرواية.

عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ
وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ هُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ
* خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام
في (الأحكام): «ويقول تبارك وتعالى فيه [أي في علي عليه السلام] وفي العباس
ابن عبد المطلب عندما كان من تشاجرهما على الفضيلة، فقال العباس: (أنا
ساقى الحجيج) وقال علي عليه السلام: (أنا السابق إلى الله ورسوله) فأنزل الله -
عز وجل - في ذلك: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ أَمَنَ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَأْتُوا إِلَهُمْ وَأَنْفُسِهِمْ
أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ
وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

وكان سبب ما أنزل الله من ذلك أن العباس بن عبد المطلب عليه السلام ذكر
فضل ما في يده وما يظهر من عمله من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام،
وذكر أمير المؤمنين عليه السلام قديم إسلامه وهجرته واجتهاده في جهاد أعداء
ربه، وبذله مهجته لله ورسوله، ففضى الرحمن بينهما وبين الفضل بين
فضيلتهما بما ذكر وقال في كتابه: انتهى ما أردت نقله هنا.

وفي (الدر المنثور) رواياتٌ حاصلها: نزول قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ
الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ..﴾ الآية، في علي عليه السلام والعباس عليه السلام، وفيه:
وأخرج أبو نعيم في (فضائل الصحابة) وابن عساكر عن أنس (رض) قال:
قعد العباس وشيبة يفتخران..

فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ

إلى قوله.. فقال علي عليه السلام: «أنا خير منكما أول من آمن وهاجر» فانطلقوا ثلاثتهم إلى النبي ﷺ فأخبروه فما أجابهم بشيء فانصرفوا، فنزل عليه الوحي بعد أيام، فأرسل إليهم فقرأ عليهم: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ إلى آخر العشر، انتهى.

وفيه: «وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو الشيخ، وابن مردويه: عن عبد الله بن عبيده عليه السلام قال: قال علي للعباس عليه السلام: (لو هاجرت إلى المدينة) قال: أولست في أفضل من الهجرة ألت أسقي الحاج وأعمر المسجد الحرام؟ فنزلت هذه الآية يعني: ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ قال: فجعل الله للمدينة فضل درجة على مكة» انتهى.

وفي (مصنف ابن أبي شيبة) [ج ١٢/ ص ٨١ - الطبعة الأولى تاريخها ١٤٠٢ هـ] : «حدثنا وكيع، عن إسماعيل، عن الشعبي: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قال: نزلت في علي والعباس» انتهى، وفي (حاشيته): «أخرجه الطبري في (التفسير) من طريق ابن عيينة عن إسماعيل» انتهى.

وذكره ابن كثير من طريق عبد الرزاق: أخبرنا ابن عيينة.. إلخ، وفي كتاب (شواهد التنزيل) تأليف الحاكم الحسكاني روايات كثيرة تؤيد هذا، وفي النسخة المطبوعة تخريج واسع لتلك الروايات، فراجع.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ كالتعليل يشير إلى سبب عظم الثواب من قدرة الله وعلمه وغناه وكرمه وغاية الرحمة والرضوان لأوليائه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنَّ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ اتخذهم أولياء إصفاء المودة لهم والكون معهم فيما يهمهم، أي النصح لهم في المعاونة لهم على الأمر المهم لهم.

تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا
حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤٠﴾ لَقَدْ

وذكر الشرفي في (المصاييح) في معنى هذه الآية: «عن الإمام الناصر أحمد ابن الهادي عليه السلام قال: إنها نزلت في المسلمين من أهل مكة، فالذي وصل إلينا من الخبر أن رسول الله ﷺ أمر الناس بالهجرة إلى المدينة فجعل الرجل يقول لأبيه والرجل لأخيه والرجل يقول لامرأته والرجل يقول لقرابته: إنا قد أمرنا بالهجرة إلى المدينة فاخرجوا معنا، فمنهم من سارع وتعجبه الهجرة، ومنهم من يأبى على صاحبه أن يهاجر معه، فجعل الرجل يقول لزوجته ولولده ولأخيه ولقرابته إذا أبوا عليه أن يهاجروا معه: والله لئن ضمني [ضمناً] الله في دار هجرة بعد اليوم لا نفعتكم بشيء أبداً ولا أعطيكم شيئاً أبداً وصفهم [كذا] [فمنهم] من تتعلق به زوجته وعياله فيقولون: ننشذك بالله أن تدعنا على غير شيء فنضيع ونهلك فيرق لهم عند ذلك ويرحمهم فيجلس معهم ويدع الهجرة، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ﴾ الآية» انتهى.

قلت: ولا يشكل على هذا تأخر نزول (براءة) بعد الفتح، فإن المتأخر هو العشر الآيات في أولها وقد مر ما يفيد هذا، فأما بقية السورة فمنها ما هو متقدم أو كل بقيتها أو أكثره.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنهم عصوا الله ورسوله بتوليهم، ومعصية الله ظلم لأنها حيف وجور؛ لأن الحق والعدل طاعة العبد المنعم عليه لسيدته المنعم عليه بنعم لا يحصيها، فإذا أساء إليه بالمعصية وارتكاب ما نهاه عنه فقد ظلم وجار وتعدى.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ قال الراغب: «فصار العشيرة اسماً لكل جماعة من أقارب الرجل الذين يتكثر بهم» انتهى.

نَصَرَكُمْ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴿٦٠﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ

﴿وَأَمْوَالٌ أَقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي اكتسبتموها فهي عريضة عليكم بسبب اكتسابكم لها ﴿وَتَحِزَّةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ أي أموال تجارة تخشون أن لا تنفق لكم إن هاجرتم ﴿وَمَسَكِنٌ تَرْضَوْنَهَا﴾ إما لالفهم لها وإما لأن فيها أغراضهم ومطالبهم فلا يريدون مفارقتها للهجرة .

﴿قُلْ﴾ إن كان ذلك المذكور ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾ أي فانتظروا ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ بنصر نبيه والإنتقام منكم.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن أمره الخبيثة الفجار، أي فأنتم حيثئذ فاسقون محرومون من هدى الله؛ لأنه لا يهدي القوم الفاسقين، وهو يفيد: أنهم مستحقون لانتقام الله منهم؛ لأن الفاسق يستحق العقاب، وهذه الآية للمسلم مخبر الإيمان الصحيح أو الفسق الصريح، فليتأمل نفسه ليعرف من أي الفريقين هو أمن المؤمنين أم من الفاسقين؟

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَ﴾ اذكروا ﴿يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ قال في (الصحيح): «والموطن المشهد من مشاهد الحرب، قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ وقال طرفة:

على موطن يخشى الفتى عنده الردى متى تعترك فيه الفوارس تُرْعَدُ

انتهى.

وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٤٢﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٤٣﴾

و﴿حُنَيْنٍ﴾ موضع وقعت فيه معركة شديدة، قال في (الكشاف):
و﴿حُنَيْنٍ﴾ واد بين مكة والطائف» انتهى ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ قال
في (لسان العرب): «وأعجبه الأمر سره» انتهى، سرتكم كثرتم لظنكم
أنكم تغلبون العدو بسبب كثرتم ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ لم تكفكم شيئاً
من عدوكم أي لم تدفع كثرتم عنكم شيئاً من ضر العدو لكم، وهذا يدل
على أن العدو قد أصابوهم ببعض الإصابات لم يدفعوها بكثرتهم ﴿ثُمَّ
وَلَّيْتُمْ مُدَبِّرِينَ﴾ بعد أن لم تغن عنكم كثرتم شيئاً انهزمت مدبرين،
والإدبار ضد الإقبال.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۖ وَعَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا
لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿سَكِينَتُهُ﴾
الطمأنينة وسكون القلوب وذهاب الفزع على رسوله وعلى المؤمنين،
والمؤمنون في تلك الحال هم الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ لم يفروا من
الزحف، ويحتمل أن هذا الفرار من بعضهم لاحقاً بالخطأ فلا يخرجهم
من الإيمان وذلك فراراً من رجوع فوراً وكان فراره بسبب مفاجأة العدو
قبل التوقع له ولمصادفته يرمي وهم غافلون - والله أعلم.

فهذه السكينة في وقت الخوف أضافها الله إلى نفسه هي آية من الله وأمر
خارق كإنزال الجنود، فاما اطمئنان بقية الجند المنهزمين بعد تراجع الجيبيين
لدعوة الرسول ﷺ فليس من السكينة المذكورة لأنه أمر غير خارق لحصول
سبب الأمن الطبيعي.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: حينئذٍ وإد بين مكة والطائف كان فيه القتال بين رسول الله ﷺ وبين قبائل من المشركين فأعجب أصحاب النبي ﷺ بكثرتهم حتى ظنوا أنهم لا يهزمون فلما التقوا بحنين حمل عليهم المشركون حملةً واحدةً فخفت أقدامهم واختلفت قلوبهم وثبت رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين، ومعه نفر من بني هاشم فلم يبرحوا، وثبت الله أقدامهم ونصحوا، قال الشاعر:

خلا الناس عنه في حنين بأسرهم ولوا هزيماً بالرماح الشوارع
سوى الهاشميين الكرام فإنهم ذوو الصبر تحت المرهفات القواطع
وفيهم عليٌّ خير من وطئ الحصا قريع قريش كلها في الوقائع
سنان رسول الله في كل حومة وكاشفها عن وجهها غير راجع

قال الشرفي: «ومعنى قوله: ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً﴾ [التوبة: ٢٥] أي فلم تدفع عنكم الكثرة شيئاً ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ مع رحبها وسعتها أي لا تجدون موضعاً لمنجاتكم لشدة الخوف» انتهى المراد.

وقال الشرفي في (المصابيح): «وفي هذه الآية وتفسيرها يقول الإمام الناصر أحمد بن الهادي عليه السلام: فلما التقوا بحنين كسر العدو [جفون] سيوفهم ثم حملوا عليهم فهزموا المسلمين هزيمة شديدة ورسول الله ﷺ على بغلته وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يقود به وهو ابن عمه، والعباس بن عبد المطلب أخذ بالسفر [بالثفر] وانهزم الناس عن رسول الله ﷺ إلا عشرة رجال كلهم من بني هاشم لم يخلطهم أحد من الناس منهم: العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، وأمير المؤمنين علي عليه السلام، وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ...﴾ الآية.

فوجبت السكينة على رسوله وعلى المؤمنين.. الآية، فوجبت السكينة وفضلها له ﷺ ولمن وقف معه بحنين خاصة وبمثل هذه يعرف الحق لأهله والفضل لمن جعله الله له وفيه، وقد قال غيرنا: إن الذين وقفوا معه نحو من ثلثمائة رجل، وليس ذلك بشيء وليس الصحيح إلا عشرة من بني هاشم، وفي ذلك يقول الشاعر:

خلا الناس عنه في حنين بأسرهم وولوا هزيماً بالرماح الشوارع

ثم ذكر الأبيات التي مر ذكرها آنفاً.

قال عليّ عليه السلام: وقد قيل في ذلك من الشواهد ما لا نحصىه ورجع رسول الله ﷺ يناديهم: (يا معشر المهاجرين إليّ) ويقول: (يا معشر الأنصار إليّ) ثم يقول: (أين أصحاب السمرة)؟ فاجتمع الناس، ثم حملوا على المشركين فهزمهم الله لرسوله ﷺ ولولوا مدبرين وغنمت أموالهم وذرايهم، ولهم خبر يطول وأنت تجده في (كتاب المغازي) إن شاء الله تعالى» انتهى.

قلت: قد صححت بما بين المعقوفات؛ لأن الظاهر أن خلافة تصحيف من بعض النساخ وغلطهم.

وفي (سيرة ابن هشام): «أن رسول الله ﷺ قال: (يا عباس أصرخ يا معشر الأنصار يا معشر أصحاب السمرة)» انتهى، وهي الشجرة المذكورة في القرآن: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]

فالدعوة لهم تذكير لهم بالبيعة تحتها.

وقوله تعالى: ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي بالقتل والهزيمة واغتنام أموالهم وذرايهم وما في ذلك من الغيظ والحزن، وقوله: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ أي تعذيبهم عقوبة عاجلة، أو التعذيب من حيث هو تعذيب جزاؤهم.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ
الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ
فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٥﴾ قَتِلُوا الَّذِينَ لَا

وفي (قصة حنين) تذكير بنصر الله لرسوله والمؤمنين حين لم تنفعهم الكثرة
فهو تذكير لهم بنعمة الله وعبرة ليزدادوا توكلًا على الله، وليس فيها دلالة
على أنهم أثموا بإعجاب كثرتهم لهم وكيف لا تعجبهم وهي في ظاهر الحال
قوة للإسلام، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾
[الأنفال: ٦٠] وليس العجب بالقتال مع الكثرة بل مظنة العجب القتال في حال
القلة، فجعل ذلك من العجب المذموم غير صحيح عندي، وبالله التوفيق.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ القتال للمسلمين والتعذيب للكفار
﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ فيهديه للإسلام وهذا دفع لتوهم الكفار أنه لا توبة لهم،
فأما المسلمون فلا إشكال في قبول توبة من تاب منهم من الفرار وقد تقرر
ذلك يوم أحد فجعل هذه الآية فيهم بعيد عندي مع أنهم داخلون في
عمومها ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ومن مغفرته ورحمته توبته على بعض العصاة
ليتوبوا.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا
الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ قال الشريفي في [المصابيح]: قال في
[البرهان] هم أنجاس الأبدان كنجاسة الكلب والخنزير وتنزه منهم المساجد
كما تنزه من الكلاب والخننازير ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ بحج أو
عمرة كما كانوا يفعلون، وقوله: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ وهو عام سنة تسع
من الهجرة، لقول علي عليه السلام: «ألا لا يحج بعد هذا العام مشرك» انتهى.

قلت: يعني: أنه تفسير للآية، وهو واضح لأن رسول الله ﷺ أرسل علياً إليهم بـ(براءة) وهم بمكة، فدل ذلك على أنه لم يكن سبق النهي عن دخولهم المسجد الحرام؛ لأنه لو كان قد سبق لم يحج المشركون لأن رسول الله ﷺ قد كان فتح مكة وصارت دار إسلام، ولو كانت هذه الآية نزلت قبل سنة تسع لنهاهم رسول الله ﷺ قبل إرسال براءة، أي سنة ثمان مثلاً، ولو نهاهم لاشتهر أنهم انتهوا أو أنهم لم ينتهوا.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عِيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ يا أيها الذين آمنوا خفتكم ﴿عِيْلَةً﴾ فقرأ بسبب انقطاع ما كان يأتي به المشركون مع الحج من الطعام وغيره ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ﴾ من الفقر ﴿مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ فعليكم أن تمنعوا المشركين على كل حال، وتوكلوا على الله وهذا فائدة قوله تعالى ﴿إِنْ شَاءَ﴾ لأنه لو لم يقل إن شاء لذهب الإبتلاء بمنعهم مع خوف العيلة.

فإن قيل: فما فائدة هذا الوعد المعلق على شرط المشيئة؟

قلت: فائدته: أن يرجو فضل الله، ولا يياسوا لمنع المشركين من رزق يغني عما كانوا يجلبونه إلى مكة، وإذا اجتمع الخوف والرجاء كان شأن المؤمن التوكل على الله في امثال أمره ونهيه وأن لا يمنعه الخوف من طاعة الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تذكير لهم أنه عليم بأحوالهم فهو عليم بانقطاع ما كان يجلبه المشركون عليهم بحاجة المؤمنين إلى بدله من الرزق وهو حكيم، فإذا اقتضت حكمته أن يرزقهم ويغنيهم من فضله فعل، وهذا أيضاً مما يحصل به الرجاء لفضله.

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿١١﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى

وأما الحصر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ والقصر فيه فالراجح: أن معناه: ليس المشركون صالحين لقرب المسجد الحرام؛ لأن عملهم غير مقبول وهم يطوفون عراة وصلاتهم عند البيت مكاءً وتصدية وفي تلبيتهم الشرك؛ لقولهم: «لييك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك» فليس فيهم خير يؤهلهم لقرب المسجد الحرام إنما هم نجس، فالقصر قصر القلب، مثل: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١] وذلك لثلاث يظنونها منع المشركين من قرب المسجد الحرام أنه من الصد عن العبادة في المسجد الحرام فليسوا أهل عبادة لله إنما هم نجس.

﴿قَتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ واليوم الآخر؛ لأنهم وإن ادعوا ذلك غير مؤمنين، كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨] وقال في بعض أهل الكتاب: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٨١] فالإيمان الصحيح هو ما بعث على طاعة الله وتقواه لبعثه على الخشية من الله ومراقبته وهكذا الإيمان باليوم الآخر هو ما بعث على الاستعداد له والحذر من النار والصبر على طاعة الله وترك الإصرار على معصية الله خوفاً من النار.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ فهم أهل فساد وإفساد وإذا تركوا فهم يبيحون الخمر والخنزير، وذلك يؤدي إلى نشرهم لفسادهم في الأرض، وقد قال تعالى في اليهود: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: ٣٣] والتجربة في هذا الزمان تدل على انتشار الفساد بسبب الحرية التي تبيح الخمر والزنا واللواط، وغير ذلك من أسباب شيوع الفساد وانتشاره وانتشار الأمراض بسببه، مع انحراف أهل الأهواء عن الملل جملة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ وهو دين الله ارتضاه لهذه الأمة وأرسل به رسوله وأنزل به كتابه وقامت الحجة على أهل الكتاب وغيرهم بالقرآن فعتوا عن الإيمان به وأصروا على الكفر، وهذا مع ما يأتي في الآيتين بعد هذه الآية من فسادهم.

وقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يخص أهل الكتاب من بين سائر الكفار لحكمة وهو أحكم الحاكمين حيث شرع قتالهم حتى يعطوا الجزية بخلاف سائر المشركين الذين ليسوا أهل كتاب سماوي.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ غاية للأمر بقتالهم فلا يجب متى أعطوا الجزية ﴿عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ عن يد بسبب يد ونعمة عليهم هي أمانهم من القتل فقولته تعالى: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ كقولته: ﴿فَازِلُهُمَا﴾ الشيطان عنها ﴿أَي فِي مَعْنَى﴾ ﴿عَنْ﴾ فاليد هنا النعمة ولذلك أفردت، ولو كانت عبارة عن العضو لجمعت، كقولته: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (الواو) واو الحال أي في حال صغارهم والصغار الذلة وذلك يفيد أن لا يبقى لهم عز بل يخضعوا لدولة الإسلام وأحكامه من غير أن يظلموا ولا ينالوا كرامة المسلم.

ومن أمثلة ذلك: ما روي عن علي عليه السلام في خاصمته لكتابي ادعى عليه علي عليه السلام درعاً له، فتحاكما إلى شريح فجلس علي عليه السلام عند شريح، والقصة بسندها في (أمالي أبي طالب عليه السلام) في (الباب الثالث) وفيها: فقال - أي أمير المؤمنين علي عليه السلام -: هيه يا شريح لو كان خصمي مسلماً ما جلست إلا معه ولكنه نصراني، وقد قال رسول الله ﷺ: «إذا كتم وإياهم في طريق فصيروهم إلى مضائقهم، وصغروهم كما صغر الله بهم من غير أن تطفوا» انتهى.

والقصة في (أمالي المرشد بالله عليه السلام) في (الباب الرابع والثلاثين) [ج ٢ / ص ٢٣٥] بسند آخر، وفيها: فقال علي عليه السلام: لولا أن خصمي ذمي لاستويت معه في المجلس لكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أصغروا بهم كما أصغر الله بهم» انتهى.

وفائدة الجزية: أن تعين على إدارة أمورهم مع أنه لا زكاة عليهم ولا فطرة، وفائدة التصغير بهم: تقريهم إلى الإسلام لأنهم في مهلة الأمان قد يأنفون من أداء الجزية صاغرين ويرون عدالة الإسلام فيرغبون فيه، وقد روي أنهم كانوا في دولة الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين يسلمون بسبب عدله.

وكذلك الخصم الذي خاصمه أمير المؤمنين علي عليه السلام لدى شريح في قضية الدرع قال كما في الرواية في (أمالي المرشد بالله عليه السلام): أمير المؤمنين قدمني إلى قاضيه وقاضيه قضى عليه، أشهد أن هذا الحق، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ومثله في (أمالي أبي طالب عليه السلام) ورواية (أمالي أبي طالب) رواها الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) في (باب القول فيما يجب على القاضي أن يفعله) وعقب عليها الإمام الهادي عليه السلام في ما يفيد صحتها عنده حيث قال عقيها: «رحم الله علياً أمير المؤمنين، فقد جهل الحق من جهل فضله..» الخ.

الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنِّي يُؤْفَكُونَ ﴿٢٥٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ

﴿٢٥٠﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنِّي يُؤْفَكُونَ ﴿٢٥١﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: يعني قوماً من اليهود كانوا غلوا في عزير - صلوات الله عليه - لما بعثه الله بعد موته بمدة من الزمان، فقرأ لهم التوراة جميعاً وكتبها وأحاط بمعرفتها كلها وحفظها يروى أنهم صدقوه أنه مبعوث بعدما أنكروا عليه وقالوا عزير مات منذ زمن طويل، فلما رأوا ما فعل من كتابة التوراة كلها وحفظها وروايته لجميعها غلوا فيه حتى جاوزوا به الحد وخرجوا به من الدين والقصد» انتهى.

قلت: ظاهر الآية: أنهم أجمعوا فعل ذلك بقول بعضهم ورضى الباقين، وهو يحتمل أنهم كالنصارى في إثبات اللاهوت والناسوت، ويحتمل أنهم جعلوا عزيراً ابناً بالتبني والاتخاذ، وكلا القولين باطل وجهل بالله الغني الحميد.

وقال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام الناصر أحمد بن يحيى الهادي عليه السلام: قد جاء في الرواية أن بخت نصر لما ملك بابل وظهر على بني إسرائيل وملك بيت المقدس وهدمه وقتل من قرأ التوراة وأحرق ما قدر عليه منها، وكان عزيراً إذ ذاك غلاماً صغيراً، فاستصغره فلم يقتله ولم ير أنه يقرأ في التوراة، فلما توفي عزير ببابل - صلوات الله عليه - ورجعت بنو إسرائيل من بعده إلى بيت المقدس رجعوا وليس منهم إنسان يقرأ التوراة.

فمكث عزيز عليه السلام في موته مائة سنة ثم بعثه الله سبحانه ليجدد لبني إسرائيل توراتهم ويكون لهم آية فأتاهم فقال لهم: أنا عزيز، فكذبوه وقالوا: قد حدثنا آباؤنا أن عزيزاً مات ببابل فإن كنت كما تزعم عزيزاً فأت بالتوراة علينا قال: نعم فكتبها لهم حتى فرغ، فقال: هذه التوراة، ثم إن رجلاً من بني إسرائيل يقال له سمحان بن لحيان، وكان من أبناء الذين سباهم بخت نصر وكان أبوه رجلاً صالحاً فقال: إن أبي أخبرني أن التوراة جعلت في جابية والجابية هي الجرة ثم دفنت في كرم لنا، فانطلقوا معي حتى أستخرجها لكم.

فانطلقوا معه حتى احتفرها فاستخرج الجابية وفيها (التوراة) فعارضوها بما كتب لهم عزيز فلم يجدوها غادر منها آية واحدة مما كتب كله ولا سورة فعجبوا وقالوا: إن الله - عز وجل - لم يقذف التوراة في قلب رجل منا بعد ما ذهبت من بيوتنا وقلوبنا إلى قلب رجل واحد إلا وهو ابنه، فهذا شركهم بالله عز وجل، فعند ذلك قالت اليهود: ﴿عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ﴾ جل وتعالى وتقدس عن قول كل كافر وعلا علواً كبيراً، وأما النصارى فكان شركهم بالمسيح صلوات الله عليه لَمَّا رفعه الله - عز وجل - إليه وحدث من بعد عيسى - صلى الله عليه وسلم - قوم لم يكونوا أدركوه ولكنهم كانوا يقرؤون التوراة ويؤمنون بعيسى صلوات الله عليه.

فأتاهم رجل من اليهود يقال له: يونس، فغرههم في دينهم حتى لبس عليهم، وأتاهم بالشبهة مثل ما ترى أكرمك الله في دهرك ممن يتحيل في إدخال الجبر والتشبيه وفساد الدين والطعن على المحققين من الزنادقة وأهل الإلحاد ووضع الكتب المخالفة للقرآن فنعوذ بالله لنا ولك من الحيرة في دينه والجهل بكتابه والركون إلى غير مرضاته إنه قوي عزيز» انتهى المراد.

وَرَهَبْنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦﴾

﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾
قُرئ ﴿يُضَاهَوْنَ﴾ يشاكلون فهو قولهم خرج من أفواههم على كبره ونطقوا به في حال أنهم يضاهئون به ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ فهو الباعث لهم على النطق به، وذلك أن من طبع البشر الميل إلى الاقتداء، كما قالوا لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

قال بعض المفسرين: «إن تسرب العقائد الوثنية في دين النصارى ومثلهم اليهود من الحقائق التي كشف عنها القرآن الكريم في هذه الآية ﴿يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ وقد اعتنى جمع من محققي هذا العصر بتحقيق ما تضمنته كتب القوم، أعني العهدين: القديم، والجديد، على ما حصل من مذاهب البوذيين والبرهمنيين، فوجدوا معارف العهدين منطبقة على ذلك حذو النعل بالنعل حتى كثيراً من القصص والحكايات الموجودة في الأناجيل، فلم يُبق ذلك ريباً لأي باحث في أصالة قوله تعالى: ﴿يُضَاهَوْنَ...﴾ الآية في هذا الباب» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿قَتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ تعبير عن الغضب عليهم بسب تلك المقالة، كقوله تعالى: ﴿قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْضُودِ﴾ [البروج: ٤] ثم قال تعالى: ﴿أَنِّي يُؤَفِّكُونَ﴾ أي من أين يصرفون عن القول في الله بالحق إلى القول بالباطل الذي لا يقبله عقل ولا دين ولا تؤدي إليه حجة ولا شبهة لو عرفوا الله جل جلاله.

﴿٦﴾ ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ ﴿اتَّخَذُوا﴾ أي المذكورون في الآيتين قبل هذه ولعله جمع لهم على التوزيع أي بعضهم اتخذوا ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾ وبعضهم اتخذوا المسيح فنسب إلى

مجموع الفريقين لذلك، والأخبار: علماء اليهود هنا، والرهبان: عباد النصارى المتفرغون للعبادة فلا يشتغلون بكسب الرزق ولا بأعمال دنيوية. اتخذوهم ﴿أَرْبَابًا﴾ أي ملاكاً مالكين لهم ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ لأنهم جعلوا أحكامهم تجري عليهم دون أحكام الله تعالى، فجعلوا تحريم الحلال إذا حرمه عليهم جعلوه ملزماً لهم ليس لهم أن يستحلوه بعد أن حرمه أخبارهم ورهبانهم، وهكذا إذا أحلوا لهم ما حرم الله جعلوا ما حرم الله حلالاً لهم فقد جعلوا أخبارهم ورهبانهم مالكين لهم يحق لهم أن يحكموا فيهم بما شاءوا؛ لأن حكمهم لا يكون حقاً إذا كانوا أحراراً مثلهم، وإنما المالك هو الذي يحكم في عبده فيلزمه حكمه، فمعنى جعل الحكم لأخبارهم ورهبانهم: جعلهم مالكين لهم، فصح: أنهم اتخذوهم أرباباً حقيقة وجعلوا لهم الربوبية أسبق إليهم من ربوبية الله لهم حيث آثروا حكمهم على حكم الله، فصح أنهم اتخذوهم أرباباً من دون الله.

﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ اتخذوه رباً مالكاً لهم؛ لأنهم أوجبوا على أنفسهم عبادته والعبادة إقراراً بالعبودية بزعم العابد.

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فلم يأذن الله لهم باتخاذ أرباب من دون الله ولا بعبادة غير الله، فتدينهم بذلك الشرك تدبيراً لم يأذن الله به وإن ادعوا أنه من دين الله ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ بعبادة الله ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ ليس ثلاثة أقانيم ولا مؤلفاً من متعدد بل هو واحد حقيقة ﴿لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا يشاركه ابن ولا صاحبة ولا غيرهما ليس له صاحبة ولا ولد، وهو المالك لعباده؛ لأنه الذي خلقهم ورزقهم فهو ربهم فلا يستحق العبادة إلا هو ﴿سُبْحَنَهُ﴾ بُعد عن مشابهة ما يشركونه من المخلوقين الضعفاء المربوبين وتعالى عن ذلك بعزته وقهره فوق عباده.

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٢٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ ﴿نُورَ اللَّهِ﴾ هداية بالقرآن والرسول ﷺ فهم أعداء الحق وأعداء الهدى فلا حق لهم في أن يتركوا ليفسدوا في الأرض بل يجب أن يُقتلوا حتى يخضعوا لحكم الإسلام في إطار الصغار حتى لا يتمكنوا من نشر الفساد، ألا ترى أنهم في هذا الزمان ظهر فسادهم وانتشر بالمبشرين وبالإذاعات والتلفزيون والإنترنت وغيرها لما تمكنوا وضعف المسلمون بتفرقهم وتحاذلهم، بل وعدم الإيمان في قلوب أكثرهم وصاروا يقتلون المسلمين قتلاً ذريعاً لا يحميهم ميثاق الأمم المتحدة، ولا ما يزعمون من رعاية حقوق الإنسان، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

ولو أصلح المسلمون ما بينهم وبين الله لأصلح ما بينهم وبين الناس ولكن كثيراً منهم لا يؤمنون بالإيمان الصحيح وإن ادعوا بالسنتهم أنهم مؤمنون: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَلَمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿[المائدة: ٨٠-٨١] و صار الكثير منهم علمانية يفصلون بين الدين والسياسة، ويرفضون تطبيق الشريعة الإسلامية فكيف لا تضرب عليهم الذلة والمسكنة.

وإطفاء نور الله بأفواههم: هو التشكيك في صدق الرسول ﷺ في أنه رسول الله، وفي أن القرآن كلام الله ونحو ذلك من الكلام المضل عن الهدى، وفي العبارة تشبيه بإطفاء السراج بالتيار الهوائي الخارج من الفم، وفي إضافة نور الله إلى الله تعظيم له ودلالة على قوته وضعف أفواههم عن إطفائه.

لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۗ وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَحْمَى

﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ قد كانوا أرادوا إطفاء نور الله في وقت رسول الله ﷺ فأبى الله ﴿إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورُهُ﴾ بإتمام الوحي وإكمال الدين وإظهاره، وقد كان ذلك في آخر عهد الرسول ﷺ فاتمَّ نوره والكاغرون كارهون لذلك؁ لأن الله غالب على أمره.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ هذا كالتعليل لقوله: ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ﴾ فالله الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴿يَأْتِي أَن يطفنوا هذا النور قبل أن يظهره على الدين كله؁ ولا يستطيعون مغالبة الله على أمره؁ والهدى: ما بلغه الرسول عن الله من القرآن وسائر الوحي يهدي من اتبعه إلى الحق؁ ودين الحق: ما شرعه الله لعباده من عبادته والقيام به من الأعمال والمعاملات وغيرها؁ وهو دين العباد لربهم يدينون به أي يطيعون الله به ويعملون له.

وقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي ليعليه ويجعله فوق الأديان كلها بقوة حجته ونصره لأهله ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ لأن الله غالب على أمره؁ وفي هذه الآيات تشجيع على قتال أعداء الإسلام المذكورين حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتَكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٢٥٦﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ

﴿٢٥٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٢٥٧﴾ هَذَا تحذير من الإغترار بهم فهم فاسدون يأكلون الحرام ويصدون عن دين الله الذي ارتضاه لعباده، فلا ينبغي مع هذا النظر إلى أنهم أحبار أو أنهم رهبان فذلك مظهر خداع وتضليل، كما أنه حث على منع تمكّنهم من الصد عن سبيل الله بإذلال مجتمعهم وإخضاعه لحكم الإسلام بقتال من أمر بقتالهم في الآيات السابقة: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

﴿٢٥٨﴾ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتَكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٢٥٩﴾ قال في (الصحيح): الكنز: المال المدفون - ثم قال: وفي الحديث: «كل مال لا تؤدّي زكاته فهو كنز» انتهى.

وفي (مفردات الراغب): «الكنز: جعل المال بعضه على بعض وحفظه - ثم قال -: وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ أي يدخرونها» انتهى، وفي (لسان العرب): «الكنز: اسم للمال إذا أحرز في وعاء ولما يحرز فيه، وقيل: الكنز المال المدفون» انتهى المراد.

وقوله: «ولما يحرز فيه» الصواب: وللإحراز فيه، يعني: أنه يكون مصدر كنز كما يكون اسماً للمال المكنوز، وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما بلغ أن تؤدّي زكاته فزكّي فليس بكنز» رواه الإمام أبو طالب عيسى في (الأمالى) وعمله (الباب الثاني والعشرون).

اللَّهُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٥٧﴾ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا

وفي الآية الكريمة دلالة على وجوب الإنفاق في سبيل الله وهو الإنفاق في سبيل دين الله، أي حمايته أو نصرته أو حفظه أو نحو ذلك، وهذا واجب غير الزكاة.

والآية عامة لأهل البخل الذين يكتزون الذهب والفضة، وفيها تعريض بالأخبار والرهبان أن منهم من يكتز وأنه داخل في الوعيد المذكور، وهو دليل واضح على أن الذهب والفضة المكنوزة ﴿تُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا﴾ جباه الكانزين، والجهة: أعلا الوجه فوق العينين، والجنوب: الضلوع، والظهر: القفا.

قال في (لسان العرب): «والظهر من الإنسان من لدن مؤخر الكاهل إلى أدنى العجز عند آخره» انتهى، وقال فيه: «والكاهل: مقدم أعلا الظهر مما يلي العنق، وهو الثلث الأعلا فيه ست فقر» انتهى.

﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ يقال لهم حين يعذبون بها هذا ما كنزتم لأنفسكم ﴿فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنُزُونَ﴾ وهو تحقيق لخسرانهم العظيم بسبب ما كنزوا.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ ﴿عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾ أي شهور العام الواحد ما هي إلا ﴿اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ وهذا حكم الله الذي حكم به في كتابه، أو ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في حكمه حين كون الشمس والقمر وبروجهما يوم خلق السموات والأرض،

فجعل الليل والنهار وجعل الأهلّة وجعل القمر يمر على منازلها في شهر، والشمس تمر على منازلها في سنة، فكتب هذا التوقيت بتسخيره للشمس والقمر على سيرهما المقدر المحدود، كما قال تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَحُسَبَانِ﴾ [الرحمن: ٥] فبهما علم الناس السنين وحساب الأوقات أيام وشهور وسنين وهذا مع دورة الأرض، ولعلها ذكرت هنا لمشاركتها في تحديد الشهور، لأن الهلال إنما يكون هلالاً لموقع القمر بين الشمس والأرض - والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ يفيد أنه خلق الشمس والقمر وسخرهما في بروجهما يوم خلق السموات والأرض فكانت الأشهر اثنا عشر شهراً يوم خلق السموات والأرض، وقوله تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ الأربعة: ذو العقدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب، ومعنى ﴿حُرُمٌ﴾: أن كل شهر منها حرام أي لا يحل القتل فيه ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ تحديد الأشهر بهذا العدد اثني عشر وتحريم أربعة منها: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ بالقتل فيها.

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ ومع تحريم الأربعة الحرم قاتلوا في غيرها المشركين كلهم عربهم وعجمهم وأهل الكتاب وغيرهم، إلا أن قتال أهل الكتاب محدود بإعطاء الجزية، وخص من الأمر بالقتال من ذكر في أول (سورة التوبة).

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام) لقول الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾: «معناه: عامة» انتهى.

وفي (الصحيح): «والكافة: الجميع من الناس، يقال لقيتهم كافة أي كلهم» انتهى، في (لسان العرب): «الكافة: الجماعة، وقيل: الجماعة من الناس، يقال: لقيتهم كافة: أي كلهم».

تُحِلُّونَهُ عَامًا وَتُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُؤَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٨﴾

وقال أبو إسحاق في قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨] قال: كافة، بمعنى الجميع والإحاطة» انتهى المراد، وقال الشريفي في (المصابيح): «قال الفراء: معنى كافة: أي جميعاً، والكافة لا تكون مذكرة ولا مجموعة على عدد الرجال» انتهى.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ فقاتلوهم وثقوا بأن الله معكم إذا كنتم متقين لله مطيعين، وهذا تشجيع وتعبير عن قوة المتقين بالله.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا تَحِلُّونَهُ عَامًا وَتُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُؤَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ قال في (الصحيح): «وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ هو فعيل بمعنى مفعول، من قولك: نسأت الشيء فهو منسوء إذا أخرته، ثم يحول منسوء إلى نسيء كما يحول مقتول إلى قتيل» انتهى.

وعلى هذا: فالمعنى: أن حرمة الشهر الحرام التي يؤجلها المشركون إلى شهر آخر من غير الأشهر الحرم هذه الحرمة المجعولة في غير الشهر الحرام هي زيادة في الكفر، لأنها تشريع لم يُشرعه الله؛ ولأنها يضل بها الذين كفروا؛ لأنهم يستحلون الشهر الحرام بسبب تأجيل حرمة إلى غيره، والمعنى: أن التأجيل لهذه الحرمة إلى الشهر الحلال زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا، ولعل هذا هو السبب في تفسير النسيء بتأجيل الحرمة وتأخيرها أي بالمصدر.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: كان أهل الجاهلية فيما روي إذا احتاجوا إلى القتال في الأشهر الحرم تَسَلَّفُوا منها أياماً يحلون لها حاجتهم ويحرمون بعد ذلك أياماً بعددها من زمانهم ويسمونهم النسيء بمنزلة نسيء الدين، وهو النظرة بين المتدائنين، قال الشاعر:

ونحن الناسئون على معد شهرورهم الحرام إلى الحليل»

انتهى المراد، وهذا يفيد: أن (النسيء) اسم للشهر الذي حرّموه بدلاً من تحريم الشهر الحرام فتسميته النسيء بمعنى أنه الشهر الحرام أخر عن وقته الحقيقي.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «هم قوم من بني كنانة كانوا ينسئون الشهور معناه يؤخرونها لحرب أو لأمر فيجعلون ذا الحجة في الحرم أو ذي [ذا] القعدة أو غيرها من الشهور» انتهى نقله من صورة المخطوطة.

وأفاد في حاشية المطبوعة بتحقيق الدكتور محمد حسن تقى: أن في بعض النسخ (ذا) في الموضعين أي بالنصب ولعله الصواب؛ لأن ذلك هو التأخير، أما جعل ذي الحجة في ذي القعدة فهو تقديم، وفائدة جعل ذي الحجة في الحرم: أن يستحلوا ذا الحجة، ولعلمهم يجعلون الحرم حيثئذ في صفر فتكون تلك السنة عندهم ثلاثة عشر شهراً، وقد رد الله تعالى ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِلَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ وهذا هو الراجح في معنى ﴿النَّسِيءُ﴾ أنه يستلزم أن تكون السنة أكثر من اثني عشر شهراً بشهر أو بأيام.

وقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي بسببه يقعون في الضلال عن الحق لأنهم يقعون في الباطل بناء على النسيء، وقوله تعالى: ﴿يُحْلَوْنَهُ عَامًا وَتُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: والمعنى: أنهم يحلون عند حاجتهم إليه سنة، ويرمون به إذا استغنوا عن القتال فيه سنة أخرى، والعام هو السنة وهو الحول» انتهى المراد.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٦٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا

قلت: الراجع: أنهم كانوا إذا أحلوه عاماً حرموه في العام الذي يليه حفاظاً على وقته الأصلي؛ لأنهم لو استمروا عليه نسوا الأصل فهو نوع من تبرير باطلهم بغير مبرر - والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لِيُؤْطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي ليوافقوها بتحريم أربعة أشهر وذلك لا يكفي، وأما قوله تعالى: ﴿فِيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ فهو تفریع على إحلاله عاماً وهو الأصل في التفریع وعلى تحريمه عاماً لأنهم توصلوا به إلى إحلاله في العام الأول وجعلوه مبرراً له، فكانوا بإحلاله عاماً وتحريمه عاماً قد أحلوا ما حرم الله.

﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿زُيِّنَ لَهُمْ﴾ زَيَّنَّه أَنْفُسَهُمْ لِلْحَصُولِ عَلَى هَوَاهَا بِالْقِتَالِ فِيهِ وَزَيَّنَهُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ لِيَزِدَادُوا كُفْرًا وَضَلَالًا وَلِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ لِأَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ الْخِذْلَانَ بِكُفْرِهِمْ، وَ﴿سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ قَبِيحُ أَعْمَالِهِمْ.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ تَقْدِيمٌ لِلْحَثِّ عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَإِنْكَارِ التَّأَقُّلِ عَنْهُ؛ لِأَنَ مِنْ شَأْنِ الْمُؤْمِنِ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ١٥].

فالإنكار عليهم بقوله: ﴿مَا لَكُمْ﴾ معناه: السؤال: ما المانع عن إجابة الدعوة إلى الجهاد؟ لأن الأصل فيهم إن كانوا مؤمنين أن يجيبوا ولا يتشاقلوا، والمراد به بعضهم، إلا أنهم غلبوا على المؤمنين لكثرة المتشاقلين في تلك الحال ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا﴾ أي اخرجوا من البلد إلى الجهاد، وفي (مفردات الراغب): «التفر: الإنزعاج عن الشيء وإلى الشيء كالفرع إلى الشيء وعن الشيء» انتهى المراد، فهو يشعر بالسرعة وقوة النهوض والحركة.

وقوله تعالى: ﴿أَتَأْقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي تشاقلتم مائلين إلى القعود على الأرض أي ائناقلتم عن الخروج مائلين ﴿إِلَى﴾ البقاء في مكانكم من ﴿الْأَرْضِ﴾ وهو يصور تباطؤهم بتشاكل يصعب معه التزحزح للخروج لأجل الثقل الحاصل بالتشاكل.

قال سيد قطب في قوله تعالى ﴿أَتَأْقَلْتُمْ﴾: «وهي بجرسها تمثل الجسم المسترخي الثقيل يرفعه الرافعون في جهد فيسقط منهم في ثقل ويلقيها بمعنى الفاظه ائناقلتم إلى الأرض وما لها من جاذبية تشد إلى أسفل وتقاوم رفرقة الأرواح وانطلاق الأشواق... إلخ.

﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ ﴿أَرْضَيْتُمْ﴾ بهذه الحياة ﴿الدُّنْيَا﴾ على قصرها وقلة لذاتها وكثرة المنغصات فيها بدلاً ﴿مِنَ﴾ الحياة ﴿الْآخِرَةِ﴾ في جنات وسعادة دائمة، فالقاعد عن الجهاد في سبيل الله العاصي لربه بالقعود عنه تفوته الجنة وليس له متعة إلا هذه الحياة الفانية. ﴿فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ﴿فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي في جنب الآخرة، أي بالنسبة إلى الآخرة ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وكيف لا يكون قليلاً وهو منسوب إلى الخلود الأبدي في جنات النعيم؟ فهو قليل في مدته، وقليل في لذته وخيره، بل هو أقل من نسبة ساعة واحدة إلى مليون سنة.

وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦٦﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنْفِرُوا

﴿٦٦﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦٧﴾ كُتِبَتْ فِي الْمَصْحَفِ ﴿إِلَّا﴾ بِغَيْرِ نون كما ينطق بها، والأصل ﴿إِنْ لَا﴾ وهي (إن) الشرطية و(لا) النافية. ﴿إِنْ لَا تَنْفِرُوا﴾ كما أمرتم ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يحتمل: عذاباً عاجلاً وآجلاً، ويحتمل: عذاباً آجلاً، والأول أرجح لتقديمه على قوله تعالى ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ ويحتمل: أن تقديمه لأنه أهم وأشد من الاستبدال لا لتقدمه في الوقوع. وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا﴾ أي يأتي بقوم يجاهدون بدلاً منكم.

وقوله: ﴿وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا﴾ أي شيئاً من الضر؛ لأنه لا تضره معصية من عصاه ولأن دينه يظهر ونبيه ينصر بغيركم إن لم تنفروا ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قادر على تعذيبكم وعلى استبدال قوم غيركم وعلى نصر نبيه وإظهار دينه وعلى كل شيء وليس محتاجاً إلى جهادكم إنما يريد أن يبلوكم بالأمر بالجهاد وبالجهاد إن جاهدتم.

﴿٦٦﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ

نَصْرَهُ اللَّهُ ﴿فِي حَالِ غِيَابِكُمْ عَنْهُ وَغِيَابِهِ عَنْكُمْ﴾ ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾
 أَي حِينَ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ ﴿يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ
 مَعَنَا﴾ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ فِي حَالِ حِينَ انْفِرَادِهِ عَنِ الْأَنْصَارِ لَيْسَ مَعَهُ مَنْ يَنْصُرُهُ.

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾ أَي لِرَفِيقِهِ فِي تِلْكَ الْحَالِ ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ فَهُوَ قَوِي
 بِاللَّهِ وَاثِقٌ بِاللَّهِ، وَصَاحِبُهُ لَا يَنْصُرُهُ بَلْ هُوَ يَطْمَئِنُّ صَاحِبُهُ بِقَوْلِهِ لَهُ: ﴿إِنَّ
 اللَّهَ مَعَنَا﴾ وَيُثَبِّتُهُ عَلَى دِينِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ أَي لَا تَحْزَنْ لَكُنْ مَعِيَ،
 فَإِنِّي وَأَنْتَ فِي رِعَايَةِ اللَّهِ فَلَا تَحْزَنْ لِأَجْلِ وَحْدَتِنَا أَوْ لَا تَحْزَنْ لِعَدَمِ مَنْ
 يَنْصُرُنَا ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

وَالْفَرْقُ دَقِيقٌ فَالْحُزْنُ الْأَوَّلُ سَبَبُهُ الصَّحْبَةُ، وَالْحُزْنُ الثَّانِي سَبَبُهُ الْيَأْسُ مِنْ
 السَّلَامَةِ، وَهَذَا الْحُزْنُ غَيْرُ الْخَوْفِ فَهُوَ غَيْرُ مَنْهِيٍّ عَنِ الْخَوْفِ وَلَيْسَ مَنْكَرًا
 إِنَّمَا الْمَنْكَرُ الْحُزْنُ لِكَوْنِهِ لَا زَمًّا لِلْحُزْنِ، فَفِي تِلْكَ الْحَالِ تَبَيَّنَ نَصْرُ اللَّهِ لَهُ
 وَاسْتِغْنَاؤُهُ بِاللَّهِ عَنِ الْأَنْصَارِ مِنَ النَّاسِ، فَاعْتَبَرُوا بِهَا لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ نَاصِرُ
 نَبِيِّهِ وَلَوْ قَعَدْتُمْ عَنْ نَصْرِهِ.

قَالَ الشَّرْفِيُّ فِي (المصابيح): «﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ يَعْنِي النَّبِيُّ ﷺ حِينَ
 خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ وَدَخَلَ غَارًا فِي جَبَلِ ثَوْرٍ لِيَخْفَى عَلَى مَنْ خَرَجَ مِنْ قَرِيشٍ فِي
 طَلَبِهِ وَالْغَارُ عَمِيقٌ فِي الْجَبَلِ وَالْغَارُ هُوَ الْجُرْفُ مِنْ جُرَافٍ [اسْتِعْمَالُ الْجُرْفِ
 بِمَعْنَى الْغَارِ لُغَةٌ يَمْنِيَّةٌ وَلَعَلَّهَا عَرَفِيَّةٌ مَوْلَدَةٌ] الْجِبَالُ وَهُوَ الْكَهْفُ وَهُوَ الْكِنَانُ.

ثُمَّ قَالَ الشَّرْفِيُّ: وَالْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هُوَ أَنَّهُمْ
 جَعَلُوهُ كَالْمُضْطَرِّ إِلَى الْخُرُوجِ وَخَرَجَ ﷺ أَوَّلَ اللَّيْلِ إِلَى الْغَارِ وَأَمَرَ عَلِيًّا أَنْ
 يَضْطَجِعَ عَلَى فِرَاشِهِ لِيَمْنَعَهُمُ السَّوَادُ مِنْ طَلَبِهِ حَتَّى يَبْلُغَ إِلَى مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ»
 انْتَهَى الْمُرَادُ.

وقوله: «جعلوه كالمضطر إلى الخروج» يعني: بتأمرهم على قتله تلك الليلة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ يدل على أن الكفار طلبوه فأيده الله بالملائكة ودفع بهم أعداء الله عن نبيه ﷺ، وقوله تعالى ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ بأن أعز نبيه وسلّمه من أخذهم له وقتله وقد تأمروا على قتله ليطلوا أمر الله ودينه ويبقى الشرك فأبطل الله كيدهم ونجاه منهم بما جعل له من أسباب النجاة منهم وتفويت غرضهم حتى أبطل الشرك والكفر وجعله الأسفل.

فإن قيل: فأين نصر الله له ﷺ والآية إنما دلت على انفراده عن الأنصار، وقوله: ﴿لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنَ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾؟

قلنا: بل أفادت نصره بقوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ فنجاته وفوات غرضهم بنصر الله وإنزال السكينة عليه جعل قلبه مطمئناً ثابتاً كأنه غير مطلوب ليقتل حذراً أن يفوتهم فيكون له أنصار فيعود عليهم ويقهرهم ويبطل دينهم، فشدة الطلب وشدة حرص الطالبين من شأنه تحصيل الخوف وارتجاف قلب المطلوب مع وحدته وابتعاده عن قرابته وعدم من ينصره من الناس، فكيف لا يكون محتاجاً إلى إنزال السكينة عليه؟ فكان إنزال السكينة عليه وتخييب أمل أعدائه من النصر ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ لأنه إذا قال للشيء كن كان؛ ولأن دينه الأعلى لأنه لا بد أن يظهره على الدين كله.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ كالتفصيل والبيان للنصر وما بينهما ظرف للنصر كأنه قيل: فقد نصره الله في حال وحدته عن الأنصار ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾.

خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْغُوكَ

﴿١١﴾ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾ هَذَا الْأَمْرُ رَاجِعٌ إِلَى مَا قَبْلَهُ مِنْ إِنْكَارِ الشَّاقِلِ إِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِرُوا، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ ﴿١٣﴾ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴿١٤﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿إِذَا قِيلَ﴾ يَدُلُّ عَلَى وَجُوبِ النَّفْرِ عِنْدَ الْقَوْلِ لَهُمْ: أَنْفِرُوا ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَلَعَلَّ الْمُرَادَ قَوْلَ مَنْ لَهُ الْوَلَايَةُ عَلَيْهِمْ كَالرَّسُولِ ﷺ وَيَحْتَمِلُ وَجُوبَ النَّفْرِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لِلْأَمْرِ وَلَايَةٌ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا قِيلَ﴾ لَمْ يَفْصَلْ، فَيَكُونُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: ٩] فَإِنَّهُ لَا يَشْتَرِطُ فِيهِ أَنْ تَكُونَ لِلْمُؤَذِّنِ وَلَايَةٌ عَلَيْهِمْ.

وَفِي (مَجْمُوعِ الْإِمَامِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ): عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنْ عَلِيٍّ (عليه السلام) قَالَ: «لَا يُفْسِدُ الْجِهَادَ وَالْحُجَّ جَوْرُ جَائِرٍ، كَمَا لَا يُفْسِدُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ غَلْبَةُ أَهْلِ الْفُسْقِ» انْتَهَى.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خِفَافًا﴾ مُطْلَقٌ فِي سَبَبِ الْخِفَةِ فَتَكُونُ خِفَةُ الْبَدَنِ لِعَدَمِ مَا يَثْقُلُهُ مِنْ نَقْصِ قُوَّةِ لِمَرَضٍ سَابِقٍ أَوْ كَثَرِ لَحْمٍ وَشَحْمٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَثِقَالًا﴾ مُطْلَقٌ فِي أَسْبَابِ الثَّقَلِ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ خَصَّ الْأَعْمَى وَالْأَعْرَجَ وَالْمَرِيضَ وَبَقِيَ مِنْ سِوَاهُمْ فِي الْعَمُومِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أَيُّ النَّفْرِ خِفَافًا وَثِقَالًا وَالْجِهَادَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ لَهُمْ؛ لِأَنَّ ثَوَابَهُ عَظِيمٌ وَفِيهِ إِعْزَازٌ لِلدِّينِ وَإِذْلَالٌ لِلْكَفْرِ وَحِمَايَةٌ مِنَ الْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ.

وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۖ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٦٧﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم تعلمون علمتم ذلك، ومعنى إن كنتم تعلمون الإطلاق ليس مقيداً بمعلوم، فكأنه قيل: إن كان من شأنكم أن تعلموا، وذلك شأن كل عاقل والخطاب للمؤمنين، فلا بد أن يعلموا ما أخبر الله به.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ ﴿لَوْ كَانَ﴾ ما دعوا إليه والكلام في المتشاقلين إلى الأرض ﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾ قال في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: غنيمة قريبة» انتهى.

والعرض يصدق على متاع الدنيا لأنه عارض لا يبقى، قال تعالى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ [الأعراف: ١٦٩] فالغنيمة منه ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ بحيث يسIRON في الطريق ولا مشقة فيه، وهذا ليس شأن المجاهدين فإنهم يجولون ويصلون ويذهبون يمينا وشمالاً على ما تدعو إليه حال المعركة فالمعنى لو كان ما دعوا إليه متاع من متاع الدنيا يسافرون له سفراً قاصداً ﴿لَا تَبْعُوكَ﴾ حتى ينالوه بغير قتال ﴿وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ قال في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: السفر والسير» انتهى.

وقال الراغب: «والشقة: الناحية التي تلحقك المشقة في الوصول إليها» انتهى، وفي (الصحيح): «والشقة - أيضاً - السفر البعيد، يقال: شقة شاقة» انتهى، ومثله في (لسان العرب). ثم قال فيه الأزهري: «والشقة بُعد مسير إلى الأرض البعيدة قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ وفي حديث وفد عبد القيس: أُنَا نَأْتِيكَ مِنْ شُقَّةٍ بَعِيدَةٍ أَي مسافة بعيدة، والشقة أيضاً: السفر الطويل» انتهى.

أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ ﴿١٢﴾ لَا يَسْتَغْنِيكَ الَّذِينَ يُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ

والمعاني متقاربة وهي تدل على أن المتخلفين عن الجهاد مع رسول الله ﷺ تخلفوا لبعد المسافة إلى محل الجهاد وفي ذلك مشقة السفر الطويل مشقة الغياب عن الأهل والمسكن والمال وفي هذا التعبير دلالة على عدم إيمانهم لأنهم إذا تخلفوا لهذه العلة فهم غير مؤمنين، لأنهم عصوا الله ورسوله ﷺ فراراً من مشقة السفر الطويل فبالأولى أنهم لا يجاهدون في سبيل الله مع رسول الله ﷺ لأنهم أهل دنيا فقط.

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا خُرْجًا مَعَكُمْ يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ يهلكون أنفسهم بالكذب والحلف على الكذب فقد كانوا استطاعوا، ولكن كرهوا الجهاد في سبيل الله، وفي هذه الآية رد على من قال: أن استطاعة العبد لا تكون إلا عند الفعل وهي عندهم موجبة للفعل ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في حلفهم ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا خُرْجًا مَعَكُمْ﴾.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معنى ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾: أي غفر الله لك، مالك أذنت لهم ولم تبليهم بما يثقل عليهم، حتى تختبرهم ويتبين لك الصادق والمنافق الكاذب منهم» انتهى.

ويظهر: أن المتشاغلين إلى الأرض عند الأمر بالخروج إلى غزوة تبوك استأذنوا رسول الله ﷺ في التخلف فأذن لهم، لأن المتشاغل غيابة أفضل من حضوره ولمعرفته أنهم مظنة الإنهزام لو خرجوا ولمثل هذا صرف طالوت

وَأَنْفُسِهِمْ ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّمَا يَسْتَعْذِرُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿١١١﴾ وَلَوْ

أكثر جنده بالنهر الذي شربوا منه فكان الأذن لهم هو الصواب في ظاهر الحال ولكن هذه الغزوة كانت مسافتها بعيدة وهي تؤدي إلى حرب الروم أهل القوة والكثرة، فكانت هيتهم مع ضعف حال المجاهدين تمنع غير المؤمنين من امتثال أمر الرسول ﷺ بالجهاد لهم؛ لأن المنافقين والذين في قلوبهم مرض يحبون الحياة ولا يريدون طاعة الله ورسوله ﷺ، فكانت صعوبة المعركة والسفر لها وهيتها تحملهم على التخلف سواء أذن لهم النبي ﷺ أم لم يأذن لهم، فكان الأذن لا موجب له بل كان تركه فرصة يتبين له الصادق في دعواه الإيمان والكاذب، وقد فاتت بطريقة السهو وصار الأذن لهم مجرد رفع بهم وستر عليهم، وهو ينافي الغلظة عليهم التي يستحقونها ومن هنا كان زلة غفرها الله له قبل أن نبهه عليها.

فقوله: ﴿لَمْ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ ليس سؤال توبيخ وإنما هو سؤال عن سبب الإذن ليبين له أنه كان ساهياً فيه وأنهم كانوا يستحقون تركه ليتبين له الكاذبون والصادقون بطاعة الصادقين ومعصية الكاذبين وفيه دلالة على غضب الله عليهم وإن أذن النبي ﷺ لم يفدهم شيئاً، لأنهم متشاقلون عن الجهاد ليس لهم فيه نية والأذن لهم بترك الخروج مع النبي ﷺ لم يكن أذنأ في ترك الجهاد في سبيل الله لأنهم لا يجاهدون في سبيل الله ولو خرجوا معه وزعموا أنهم يجاهدون في سبيل الله.

﴿لَا يَسْتَعْذِرُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ أي لا يستأذنونك أي لثلا يجاهدوا، كقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦].

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ بضماثرهم ونياتهم وأنهم يريدون الجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فهو أخبر عنهم لعلمه بهم.

﴿إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ لا يؤمنون بالله واليوم الآخر فلا يخافون عذاب الآخرة لمعصيتهم لله ولا يرجون ثوابها لو جاهدوا في سبيل الله وارتابت قلوبهم شككت في صدق الرسول وقلقت فهم في ريبهم في شكهم وقلقهم يترددون بين الإيمان والكفر وبين الطاعة والمعصية.

فاحتمال صدق الرسول ﷺ في نفوسهم يدعو إلى الإيمان والطاعة وتجويزهم كذبه يدعوهم إلى الكفر والمعصية واحتمال انتصار الرسول ﷺ يدعوهم إلى طاعته واحتمال غلبة الكفار له في نفوس المرتابين يدعوهم إلى ترك الجهاد معه بل وإلى النفاق واتخاذ اللوائح وكلا الاحتمالين مقلق لهم غفيف والجهاد لمشقتة وكونه تعرضا للقتل يبعد وقوعه منهم لأنهم يحبون الحياة الدنيا ولا يوقنون بالحياة الآخرة فحرصهم على الحياة الدنيا يصرفهم عن الجهاد ويدعوهم إلى الاستئذان ليتستروا بالأذن لهم في التخلف ولا يصارحوا بالعصيان.

وهذا الاستئذان هو استئذانهم في ترك الخروج للجهاد بعد دعوة الرسول ﷺ إلى الخروج للجهاد وهو غير الاستئذان المذكور في أواخر (سورة النور) فهناك الاستئذان من بعض المؤمنين بالله ورسوله ﷺ الحاضرين معه على أمر جامع للرسول والمؤمنين يستأذنونهم ليذهبوا عن محل اجتماعهم لبعض شأنهم وذلك مثل اجتماع لمشاورة في أمر مهم أو لموعظة أو تبليغ وحي يراد تبليغه للعموم.

أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعْدُوا لَهُ، عُدَّةٌ وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ
 أَقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا
 وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
 بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدْ أَتَعَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ

﴿٤٦﴾ ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعْدُوا لَهُ عُدَّةٌ﴾ فتركهم للإعداد مع تمكنهم
 منه دليل على أنهم لا يريدون الخروج ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ سمي
 خروجهم انبعاثاً؛ لأنهم لا يخرجون للجهاد في سبيل الله فكأنه مجرد خروج
 عن البلد ليس كخروج المؤمنين وليس من الطاعة لله ورسوله إنما هو رثاء
 لو كان ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ حب إليهم القعود وزادهم كسلاً.

﴿وَقِيلَ﴾ بلسان الحال: ﴿أَقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ المأذون لهم في ترك
 الخروج للعدو الشرعي كالأعمى والأعرج والمريض وهذا تحقير لهم حيث
 قرنوا بالعجزة.

﴿٤٧﴾ ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ بالإرجاف عليكم
 والتخويف من الأعداء وبانهزامهم عند لقاء العدو حين البأس ونحو ذلك
 من أسباب الضعف في الرأي وفي العزم، واستثناء الخبال على طريق المشكلة
 التقديرية؛ لأنهم يضعون الخبال موضع زيادة القوة للمجاهدين بتسويدهم
 وتكثيرهم فبطريقة المشكلة جعله من الزيادة بنفس الاستثناء المفرغ ويأتي
 نظيره، وهو قوله الله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾
 وقريب منه في الاستثناء وإن لم يكن من المشكلة قول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكنايب

الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُوا ﴿١٨﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَتَذُنْ لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾

هذا والخبال: ضعف الرأي والإضطراب، قال الراغب: «الخبال: الفساد الذي يلحق الحيوان فيورثه اضطراباً كالجنون والمرض المؤثر في العقل والفكر» انتهى.

﴿وَلَا وَضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونَ هُمْ﴾ قال الراغب: «ووضعت الدابة تضع في سيرها أسرع - ثم قال - : وأوضعتها حملتها على الإسراع» انتهى.

فقوله تعالى: ﴿وَلَا وَضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ مجاز عن السعي في التفريق بين المؤمنين لأن من أوضع بعيره خلال الناس فرقهم، وقوله تعالى: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أي يطلبون لكم الفتنة أن يفتنكم الذين كفروا بسبب تفرقكم واختلاف قلوبكم ﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونَ هُمْ﴾ غافلون عن كيدهم وفساد نياتهم لا يظنون فيهم الكذب والتغريب وهكذا كثيراً من الناس ولذا يتوصل الكفار بالصحافة الخائنة وغيرها من وسائل الإعلام لإفساد الشعوب الإسلامية والتفريق بينهم ويجعلون منع الصحافة ظلماً وكتباً للحرية.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ عليم بما يفعلون وعليم بما يسرون وعليم بكل أمورهم؛ لأنه عالم الغيب والشهادة فقوله فيهم هو الحق.

﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُوا﴾ لقد ابتغى هؤلاء المتخلفون عن الجهاد في سبيل الله ابتغوا من قبل هذا التخلف الفتنة للمسلمين بتدبير الكيد لهم، إما بالتحريض للكفار عليهم مع الأرجاف على المسلمين وتخويفهم من قوة الكفار، وإما بالتناجي فيما بينهم وتدبير الكيد بأي وسيلة، وإما بغير ذلك.

﴿وَقَلَّبُوا لَكَ﴾ يا رسول الله ﴿الْأُمُورَ﴾ التي حاولوا كيدك بها فاتخذوا وسائل مختلفة وآراء متعددة لإبطال أمرك بتقليب الأمور وتحويلها عن وجه إلى وجه خداعاً، والتقليب يكون بقلب الحقائق كذباً وخداعاً، ويكون بفعل ما يظهرونه طاعة، وهم يكيدون به الرسول ﷺ مثل: خروج بعضهم مع رسول الله ﷺ يوم (أحد) ثم رجوعهم من الطريق، فهذا الرجوع تخذيل للمجاهدين وكان ظاهر الخروج الطاعة فانقلب مكيدة.

قال الشريفي في (المصابيح): «قال الإمام الناصر أحمد بن يحيى عليه السلام: وتقليب الأمر: تصريفه وترديده، لأجل التدبر والتأمل فيه يعني اجتهدوا في تدبير الحيل والمكايد ودور الآراء في إبطال أمرك.

قال في (البرهان): وتقليبهم الأمور: هو معاونتهم في الظاهر، وممالات المشركين في الباطن، والثاني [كذا] توقعهم الدوائر وانتظارهم الفرص» انتهى.

﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ﴾ الذي أبطل ذلك الكيد وخيب آمالهم، ولعله كشف أسرارهم تارة وتفويت أغراضهم بنصر الله لرسوله ﷺ وعصمته له من كيدهم ﴿وَوَظَّهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ دينه الذي حاولوا إسقاطه وإضاعته ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ فهم ما زالوا أعداء الدين في الماضي وأعداءه في المستقبل.

﴿وَمِنْهُمْ﴾ من المستخلفين ﴿مَنْ يَقُولُ أَئِذْنَ لِي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ قال الشريفي رحمه الله في (المصابيح): «قال الهادي عليه السلام، هذه الآية نزلت في جد [ضبط اسم الجد من غير (المصابيح) انتهى - مؤلف] بن قيس وذلك أنه أمره رسول الله ﷺ بالخروج معه في غزوة تبوك فقال يا رسول الله قد علمت إعجابي بالنساء ومحبي لهن وأنا أخشى إن رأيت بنات الأصفر أن لا أصبر وأفتن بهن، فقال سبحانه: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ

إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ^ط وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٢٧٤﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا

سَقَطُوا ﴿٢٧٤﴾ يقول سبحانه: ألا في العذاب والفتنة، فمعناها: العذاب، فأخبر سبحانه أنه عاد وتعلل بمعنى قد وقع فيه بتخلفه عن الرسول ﷺ انتهى.

فقوله: ﴿وَلَا تَفْتِنِي﴾ أي لا توقعني في الفتنة أي في الإثم إذا رأيت جوارى الروم ووقعت في الزنا أو ارتددت إلى دينهن طمعاً فيهن، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: ولا تأمني ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ معناه: في الإثم وقعوا» انتهى.

وتسمية الإثم فتنة، لأنه سبب للعذاب وهذا أرجح وقوله: ﴿سَقَطُوا﴾ أي هذا القاتل وأضرابه من المتخلفين المعتذرين.

قال سيد قطب - ونعم ما قال - : «والتعبير يرسم مشهداً كأن الفتنة فيه هاوية يسقط فيها المفتونون، وكأن جهنم من ورائهم تحيط بهم وتأخذ عليهم المنافذ والمتجهات فلا يفلتون» انتهى المراد.

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ^ط وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ ﴿إِنْ تُصِيبَكَ﴾ يا رسول الله ﴿حَسَنَةٌ﴾ مثل: نصر، وغنيمة ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ تغمهم وتؤلم قلوبهم يقال ساءه ضد سره ﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ﴾ مثل قتل فيمن معك من المؤمنين ﴿يَقُولُوا﴾ هؤلاء المتخلفون ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا﴾ هيأنا لنفوسنا أسباب السلامة ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ بتخلفنا عن الجهاد ﴿وَيَتَوَلَّوْا﴾ إلى مقاعدهم ﴿وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ بما هم عليه من المخادعة للمؤمنين وترك الجهاد معهم وفرحون بما أصاب رسول الله ﷺ عداوة له ورجاء لضعفه واطمئننا إلى قوة الكفار وركونا إليهم.

هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا
بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ
مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ

﴿٥١﴾ ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا﴾ ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا﴾ هو خير لنا في العاقبة فكتبه الله لنا، لأنه خير لنا هو مولانا مدبر أمورنا ومحسن رعايتنا ومتولي مصالحنا، فقله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ يدل على أنه فائدة لا خسارة علينا، ولعل هذا المعنى هو مراد الحسين بن القاسم عليه السلام، فقد قال الشريفي في (المصايح): «وقال الحسين بن القاسم عليه السلام: معناه: ﴿لَنْ يُصِيبَنَا﴾ من الكفار وظلمهم ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ عليه الأجر والثواب، ولكنه اختصر في كثير من متشابه الكتاب ليشين بذلك فضل أولي الألباب، ثم قال: ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي مالكننا وناصرنا ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وحق المؤمن أن لا يتوكل على غيره» انتهى من (المصايح).

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ليكلوا أمرهم إليه يدبر لهم ما شاء فلا يتركوا الجهاد حذراً من المصيبة وهذا أمر للمؤمنين أن يتوكلوا على الله لا على غيره.

﴿٥٢﴾ ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ ﴿تَرَبَّصُونَ﴾ تتظرون ﴿بِنَا﴾ ينالنا ونصير إليه ﴿إِلَّا إِحْدَى﴾ الخصلتين ﴿الْحُسَيْنَيْنِ﴾ وهما: النصر، أو الشهادة، فالنصر خير عظيم لظهور دين الله في الأرض وذهاب الشرك والفساد، والشهادة خير عظيم لما مر في (سورة آل عمران).
﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ ونحن نتظر بكم ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ﴾ بسبب عداوتكم للدين وتخلفكم عن

أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٧﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَّلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٨﴾ فَلَا

الجهاد في سبيل الله وكيدكم للإسلام فنحن نتوقع ﴿٥٧﴾ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ ﴿٥٨﴾ يوقعه عليكم بأي سبب من أسباب عذابه ﴿أَوْ﴾ يصيبكم الله بعذاب ﴿بِأَيْدِينَا﴾ بأن يأمرنا أن نعذبكم ويسلطنا عليكم بإجرامكم.

﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ بنا ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ بكم وقوله: ﴿مَعَكُمْ﴾ هي معية الإشتراك في التربص ووقته وإن اختلف متعلقه، وقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ تعبير عن عدم المبالاة بتربصهم.

﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي سواء أنفقتم ﴿طَوْعًا﴾ رثاءً وتعمية على أهل الحق توهمون به النصح للدين ﴿أَوْ كَرْهًا﴾ عند الأمر بالإنفاق في سبيل الله الأمر للعموم؛ لئلا يظهر نفاقكم ﴿لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ﴾ لأنكم من قبل قوم فاسقون، و﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] وأنتم قد استمر منكم وتكرر الخبث والفجور.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَّلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وهذا خبث عظيم وفجور كبير، فهو من بيان فسقهم ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ لأنهم لا يرجون الثواب ولا يخافون عذاب الآخرة فهم إنما يراؤون بها رثاء؛ لئلا يقتلوا وهم كارهون لها وذلك سبب كسلهم.

تُعْجِبُكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَتَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ

﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ كذلك لعدم إيمانهم بالثواب والعقاب ولبخلهم عن الإنفاق في وجوه القرب فهم يكرهون الإنفاق في سبيل الله وللفقراء والمساكين وسائر ما يأمر الله به ورسوله وسبب ذلك عدم الإيمان الذي هو شرط في قبول الأعمال، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٤] وقد اجتمع منهم الإخلال بشرط القبول والمانع من القبول، قال تعالى: ﴿وَقَلِّمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ يَفِيعَةٍ﴾ [النور: ٣٩].

﴿فَلَا تُعْجِبُكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ قال في (لسان العرب): «وشيء معجب: إذا كان حسناً جداً».

قلت: فإعجابه تسببه للسرور به أو للرغبة فيه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٢] فإن المعنى: ولو رغبت في حسنهن وتفسيره بالسرور غير متعين في كل موضع وإنما يتعين فيمن قد حصل له الأمر المعجب.

وقد قال الراغب في تفسير (العجب): «ويستعار مرة للمؤنق، فيقال: أعجبني أي راقني» انتهى، وفي (لسان العرب): «وكذلك حديث عبيد بن عمير: (ما من عاشية أشد أنقاً ولا أبعد شبعاً من طالب علم) أي أشد إعجاباً واستحساناً ومحبة ورغبة والعاشية من العشاء وهو الأكل بالليل

ومن أمثالهم: «ليس المتعلق كالمثائق» معناه: ليس القانع بالعلقة وهي البلغة من العيش كالذي لا يقنع إلا بآتق الأشياء وأعجبها ويقال: هو يتائق، أي يطلب آتق الأشياء، أبو زيد: أنقت الشيء أنقاً إذا أحببته» انتهى.

وروى أبو طالب عليه السلام في (الأمالي) وهو في (باب الترغيب في حسن الخلق) بإسناده عن علي عليه السلام كلاماً له ذكره في (الأمالي) منه: قوله عليه السلام: «وقعت جارية حماء حواء لعساء لمياء...» إلى قوله عليه السلام: «... فلما رأيتها أعجبت بها وقلت لأطلين إلى رسول الله ﷺ أن يجعلها في قسمي...» إلخ.

فظاهر قوله عليه السلام: «أعجبت بها» رغبت فيها، وفي حديث (مجموع الإمام زيد بن علي عليه السلام): عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام قال: «كان رسول الله ﷺ يعجبه من الحلو التمر والرطب ومن الأطعمة الثريد ومن البقول الهندباء» فالظاهر من قوله: يعجبه، أنه كان يحبه أحسن من غيره.

فالراجح في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ﴾ أنه تفريع على كون نفقاتهم لا تقبل فهي قليلة الفائدة كما في الحديث: «ليس لك من مالك إلا ما لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت، أو أكلت فأفانيت» فقد فاتتهم الفائدة العظمى في مالهم فهو حقير لقلة فائدته، فلا ينبغي استحسانه لوفوره لأن نصيبهم منه قليل، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لكل امرئ في ماله شريك: الوارث، والحوادث» وعلى هذا فتكثير مالهم وولدهم ليس مسارعة لهم في الخير إنما هو فتنة لهم لأنهم يتعبون في خدمة المال وحراسته ويشقون بالحرص عليه والأسف على ما فات.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ أن يمدهم بالمال والبنين ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فيعيشون معيشة ضنكا بسبيهما، أما الولد فيزيد الحرص على جمع المال

وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ تَحَدَّثُونَ مَلَجًا أَوْ مَغْرَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ

فيكون التعذيب به من هذه الجهة، وقد يكون عاقاً أو غير مساعد على معاونة أبيه، فيكون التعذيب بالغيب الذي يحدث لأبيه بسبب عقوقه أو معصيته، والآية الكريمة لم تحدد التعذيب بالمال والولد وقد أراده الله فهو بصير بذلك وليس لنا أن نخدده.

﴿وَتَزَهَّقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ مستحقون للنار، وذلك أنهم يشغلون أوقاتهم بمألهم وتتوجه قلوبهم إلى الجمع والمحافظة وتزداد قسوة وغفلة حتى يموتوا على ذلك وذلك عقوبة على محادة الله ورسوله وسببه منهم فلو آمنوا لكانت أموالهم وأولادهم خيراً نافعاً في الدنيا والآخرة، وكان أولادهم سبباً لزيادة الثواب بتربيتهم على الدين والطهارة، ولكنهم أقبلوا على الدنيا واختاروها وصارت همهم ونيتهم وإرادتهم، فصارت عليهم عناء وعذاباً؛ بفساد قلوبهم بالحرص وطول الأمل، وعدم التوكل على الله، وعدم القناعة، وأراد الله أن يتركهم على ما اختاروا لأنفسهم عقوبة لهم عاجلة فأنزل عليهم الموت ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ باختيارهم فالحال التي زهقت أنفسهم وهم عليها هي منهم والله أراد إزهاق أنفسهم وهم على ما اختاروا لأنفسهم عقوبة لهم بترك التوفيق فساءت خاتمهم باختيارهم.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ حلفة المسلمين تظاهراً بالإسلام ﴿إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ على دينكم ﴿وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ فهم يحلفون على الكذب ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ فلذلك أظهروا الإسلام، ولذلك يحلفون بالله إنهم لمنكم والفرق - بفتح الراء والفاء - الخوف، وخوفهم من القتل بسبب كفرهم.

﴿لَوْ تَحَدُّوتْ مَلَجًا أَوْ مَغْرَتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ هذا تحقيق لفرقهم وبيان لشدة عليهم ف﴿لَوْ تَحَدُّوتْ مَلَجًا﴾ يلجأون إليه من دون أن يفارقوا ديارهم وأموالهم للجأوا إليه خوفاً من رسول الله ﷺ وخوفاً من غلبة الكفار، والملجأ ما يحميهم وينجيهم لو لجأوا إليه من قوي يجيرهم أو غيره ﴿أَوْ مَغْرَتٍ﴾ جمع مغارة وهي إما الغار على قول (صاحب الصحاح) وغيره، وقال (صاحب لسان العرب): «والمغار، والمغارة: كالغار وفي التنزيل: ﴿لَوْ تَحَدُّوتْ مَلَجًا أَوْ مَغْرَتٍ أَوْ مُدْخَلًا﴾» انتهى، وإما منخفض من مكان كما ذكره (الراغب).
فالحاصل: مكاناً يختفون ممن يخافونه، إما كهف عميق، وإما حفرة، والأول أظهر.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مُدْخَلًا﴾ نفقاً ضيقاً أو جحراً ضيقاً يندسون فيه ليأمنوا، قال الشرفي في (المصابيح): قال في (البرهان): والمدخل: الضيق الذي يدخل فيه بشدة» انتهى، وقال الراغب: «وَادْخُلْ: اجتهد في دخوله، قال: ﴿لَوْ تَحَدُّوتْ مَلَجًا أَوْ مَغْرَتٍ أَوْ مُدْخَلًا﴾» انتهى.
وقوله تعالى: ﴿لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾ أي هربوا إليه طلباً للنجاة، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي يسرعون إسراعاً شديداً، قال الرغب: أصله من الفرس إذا غلب فارسه بنشاطه في مروره وجريانه، وذلك أبلغ من النشاط والمرح. انتهى، يعني الجموح أبلغ من النشاط والمرح.

قلت: فقد أحسن (صاحب الكشاف) حيث قال: «يجمحون: يسرعون إسراعاً لا يردهم شيء، من الفرس الجموح..» إلخ.
وفي (لسان العرب): «وقوله تعالى: ﴿لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي يسرعون، وقال الزجاج: يسرعون إسراعاً لا يرد وجوههم شيء، ومن هذا قيل فرس جموح وهو الذي إذا حمل لم يرده اللجام» انتهى المراد.

فَإِنْ أَعْطُوا مِنْهَا رِضْوَانًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ

﴿٥٨﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَتِ ﴿٥٩﴾ قال الشريفي في (المصابيح): قال في (البرهان): رويانا عن بعض السلف أنه قال: بينا رسول الله ﷺ يقسم قسماً إذ جاءه ابن ذي الخويصرة التميمي، فقال له: اعدل يا رسول الله، فقال: «ومن يعدل إن لم أعدل؟» فأنزل الله ذلك فيه رواه أبو سعيد الخدري، انتهى المراد، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: يعيبك ويقع فيك ويطعن عليك» انتهى.

فالحاصل: يذمك في الصدقات أنك تخطئ في قسمتها أو تضعها في غير الصواب أو نحو ذلك.

﴿فَإِنْ أَعْطُوا مِنْهَا﴾ بعد اللزم ﴿رِضْوَانًا﴾ لأن سبب اللزم إنما هو حرصهم عليها ﴿وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ على رسول الله ﷺ لأنهم لم يعطوا والمفاجأة هنا بالنظر إلى أنهم يظهرون الإسلام فسخطهم على رسول الله ﷺ مفاجئ؛ لأنه لا يتوقع من مسلم ومع ذلك هو ينافي الحياء والمروءة ويدل على خسة النفس لذلك فهو مفاجئ ممن لم يكن ظهر منه مثل ذلك من قبل.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا﴾ حين منعوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ لكان خيراً لهم، ومعنى ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ كافينا الله؛ لأنه الرزاق وهو لا يخفى عليه حالنا ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ إما راغبون عما منعه، أي راغبون عنه

وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ
وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

إلى الرجاء في الله وحده وانتظار فضله، وإما إلى الله راغبون أي نرغب إليه وحده أي ندعوه ليعطينا من فضله وهذا أرجح، والحصر هنا لأجل الدعاء، أي ندعوه وحده، فلا ينافي قولهم: ﴿وَرَسُولُهُ﴾ لأنه إذا أجاب دعاءهم فقد يعطيهم من طريق رسول الله ﷺ.

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تشريع من الله يقطع طمع الطامعين من أغنياء المنافقين والذين في قلوبهم مرض الذين يلمزون رسول الله ﷺ في الصدقات.

والفقراء: هم المحتاجون حاجة تلجئ إلى السؤال أو الإقتراض، والمراد الحاجة الطبيعية لا حاجة النهم بجمع المال، والحاجة الطبيعية مثل حاجة القوت، حاجة اللباس الساتر، حاجة المسكن الذي يؤويه، حاجة الماء، حاجة الدفء من البرد، حاجة الدواء، حاجة ما يخفف الحر في بلاد الحر الشديد، حاجة الزواج، ويدخل في حاجة القوت أو نحوه من هذه الأشياء ما يتوقف حصولها عليه كالخطب والتنور والآنية المحتاج إليها لتحضير الطعام أو حفظه، فحاجة ذلك كله من الفقر ومن كان واجداً ما يسد خلته حتى يحصل دخل آخر من غلول مال أو نحوه فليس فقيراً في اللغة بل هو غني.

وقيل: الفقير من لا يملك ما تجب في مثله الزكاة فاضلاً عن المنزل والأثاث والكسوة ونحو ذلك، وذلك بناءً على أن اسم الفقر والغنى قد نُقِلَا

عن معناهما إلى معنى شرعي؛ بدليل قوله ﷺ: «فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم، تؤخذ من أغنيائهم وترد في فقرائهم» انتهى.

قلت: مجرد الإستعمال في حديث لا يدل على النقل؛ لأنه قابل للتخصيص والتقييد ولا يجب أن يشمل كل من وجبت عليه الزكاة؛ لأن صدقة نكرة لا يعم كل صدقة، وعلى الجملة هذا موكول إلى بيان تفاصيل أحكام الزكاة فهي تبين من تجب عليه ونصابها الذي تجب فيه وليس الحديث بصدد بيان حقيقة الغني والفقير، ولو دل على أن من تؤخذ منه الزكاة غني لم يدل على أن من لم تؤخذ منه ليس غنياً لاحتماله التخصيص والتقييد وذلك كثير في الحديث، فلا يجب قصر اسم (الغني) فراراً من التخصيص - والله أعلم.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: وإنما سمي الفقر فقراً؛ لأنه يفقر الظهر ويقطعه وكذا المسكين فإنما سمي مسكيناً لأنه يذل ويستكين ويخضع للفقر ويضعف ويلين» انتهى، وقال الراغب: «وأصل الفقير هو مكسور الفقار» انتهى المراد.

قال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) مفسراً لهذه الآية: «فأما الفقراء فهم الذين لا يملكون إلا المنزل والخادم وثياب الأبدان فهؤلاء هم الفقراء.

والمساكين: الذين يجب لهم أن يأخذوا من الصدقة فهم أهل الحاجة والفاقة والإضطرار إلى أخذها.

والمعاملون عليها: فهم الجباة لها المستوفون لكيلها وأخذها من أيدي أربابها.

والمؤلفة قلوبهم: فهم أهل الدنيا المائلون إليها الذين لا يتبعون المحققين إلا عليها ولا غنى بالمسلمين عنهم ولا عن تألفهم، إما للتقوي بهم على عدوهم، وإما تخذيلاً لهم وصدأً عن معاونة أعدائهم كما فعل رسول الله ﷺ ويجب على الإمام أن يتألفهم لذلك وعليه أن يُنيلهم بعض ما يرغبون فيه.

وأما الرقاب: فهم المكاتبون الذين يكاتبون مواليهم على شيء معلوم، فيجب على الإمام أن يعينهم في ذلك بقدر ما يرى أو على قدر ضعف حيلتهم وقوتها.

وأما الغارمون: الذين قد لزمتهم الديون من غير سرف ولا سفه ولا إنفاق في معصية، فيجب على الإمام أن يقضي عنهم ما عليهم من ديونهم ويعطيهم من بعد ذلك ما يقيمهم ويحييهم ويقوتهم ويكفيهم.

وأما السبيل [سبيل الله]: فهو أن يصرف جزء السبيل في التقوية للمجاهدين، والإستعداد بالقوة للظالمين مما يتقوى له من الخيل والسلاح والآلات عليهم، وذلك ما أمر الله سبحانه فيهم، فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وأما ابن السبيل: فهو مار الطريق المسافر الضعيف، فيعان بما يقبته ويكفيه من قليل أو كثير يدفع إليه الإمام مما له في يده ما يقوم به في كرائه ونفقته وما يكون إن كان عارياً في كسوته حتى ينتهي ويصل إلى بلده» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أي مفروضة للثمانية الأصناف فرضها الله لهم أي أوجبها وحدها ولحقته (التاء) لأنه قد صار اسماً مثل النطيحة.

قال في (الصحيح): «والفرض: ما أوجبه الله تعالى، سمي بذلك لأن له معالم وحدوداً» انتهى المراد، وقال الراغب: «والفرض كالإيجاب لكن الإيجاب يقال اعتباراً بوقوعه وثباته والفرض بقطع الحكم فيه» انتهى المراد.

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ
رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ تَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ

وقوله: «في الرقاب فواجب على الإمام أن يعينهم...» إلخ. الراجح: أن
المكاتب مصرف لمعاونته على التحرر وللإنفاق على نفسه، وهو في الحقيقة
معاونة على التحرر، لكن الآية لم تخص المعاونة، وكذا قوله تعالى:
﴿فَكَاتِبُهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مِلِّ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣]
فيتصدق عليه لقوته وحاجاته ولمعاونته على تحرير رقبتة.

﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ هنا جرمتان من
المنافقين:

الأولى: أذيتهم للنبي ﷺ إما بكلام فيه وإما بالتناجي بالإثم والعدوان
ومعصية الرسول وإما بغير ذلك فهو جريمة من حيث هو أذية للنبي ﷺ
ولا حاجة بنا لتعيينه ما هو.

والجريمة الثانية: قولهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أي مسماع سموه أذنا كما سمي
الرقيب عينا.

قال الشرفي في (المصابيح): «عن الناصر أحمد بن الهادي رحمه الله: كانوا
يؤذون رسول الله، فيقولون فيه مالا ينبغي، فقال بعضهم لبعض: لا تفعلوا
فإننا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع كذا بنا، فقال ابن سويد: بل نقول ما
شئنا فإنما محمد أذن سامعة لمن يأتيه فنحن نأتيه فيصدقنا، فنزل عليه صلوات
إلله عليه ﴿وَمِنْهُمْ﴾ يعني المنافقين ﴿الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ
أُذُنٌ﴾ أي يسمع من أناه» انتهى.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ أَذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿أذُنُ خَيْرٍ﴾ سماع سماعاً هو خير لكم لما فيه من الإغضاء عن كلام المنافقين والإعراض عن جهالاتهم وإفساح المجال لمن أراد أن يتوب إلى الله ويصح إسلامه، فاللين والرفق بكم أقرب لاستصلاحكم ﴿فِيمَا رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] فالتغافل عن حقيقتكم رحمة لكم بإظهار قبول اعتذاركم تارة وترك كشف حقيقتكم عند اعتذاركم تارة أخرى، وأذن خير لكم من حيث أنه يسمع كلام الله فيؤمن بالله الذي أنزله عليه، ويبلغ ما أنزله الله إليه من الهدى والرحمة للعالمين.

وأذن خير يؤمن ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ﴾ فيقبل منهم قولهم: ﴿آمَنَّا﴾ ولا يردهم لاحتمال أنهم كاذبون، فيسهل عليهم الدخول في الإيمان بإيمانه لهم وهذه نعمة عظيمة على من كان منافقاً فتاب وآمن؛ لأنه لو رد عليه كلامه وقوله: (آمنت) رده عليه: بأنك قد عرف منك النفاق، والله أعلم بكلامك هذا لشق عليه وعسر الإيمان لمواجهته بالغلظة عليه، فكون رسول الله ﷺ مسماعاً رحمة وكرم، وصفة مدح له، ومن تكلم فيه بالذم لكونه مسماعاً وأذاه بذلك أو بغيره له ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عقوبة له بأذيته لرسول الله ﷺ عاجلة وأجلة يوم القيامة.

وقلت: عاجله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾ وقوله تعالى: ﴿سَتُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿أَوَّلًا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾.

وَرَسُولُهُ أَهَقُ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ
مَنْ تُحَادِدِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ
الْعَظِيمُ ﴿٣٣﴾ تَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي

﴿٣٢﴾ مَحْضُوفٌ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَهَقُ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ
كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣٣﴾ يتسترون بالإيمان الكاذبة ليرضوا محمداً ﷺ والمؤمنين،
ويحلفون بالله إنهم لمنكم اتخذوا إيمانهم جنة والله العالم بحقيقتهم العالم بكذب
إيمانهم ﴿أَهَقُ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ ويرضوا رسوله ليسلموا عذابه ويفوزوا بثوابه؛
ولأنه ربهم المنعم عليهم بما لا يحصونه من النعم، فهو أحق أن يرضوه.

وقوله: ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ لأن المؤمنين يعلمون أن الله ورسوله
أحق أن يرضوه، فهؤلاء المنافقون إن كانوا مؤمنين كما يدعون فهم يعلمون
ذلك.

﴿٣٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ تُحَادِدِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ
خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٣٤﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ فقد جاءتهم الآيات
البيّنات الدالة على ذلك فمن حق المنافقين أن يعلموا لو استعملوا عقولهم
﴿مَنْ تُحَادِدِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾.

في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: من يحارب ويشاقق»
انتهى، وهو أحسن في التعبير من تفسيره بالمخالفة؛ لأنه يستعمل في مواضع
الحرب أو الشقاق، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي
الْأَذَلِّينَ * كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢٠-٢١] وقال
تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ..﴾ إلى
قوله تعالى: ﴿..وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [المجادلة: ٥].

قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَزِرُّوْا اِنَّ اللّٰهَ مُخْرِجُ مَا تَحْذَرُوْنَ ﴿٢٤﴾ وَلَیْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُوْلُنَّ اِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ اَبِاللّٰهِ وَاَیَّتِیْهِ وَرَسُوْلِهِ كُنْتُمْ

قال الشرفي في تفسيرها: «إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ..» [المجادلة: ٢٠] أي يخالفون أمره ويعادون ويحاربون أوليائه ويتعدون حدوده وذلك تارة بالحاربة لأولياء الله وتارة بالتكذيب والصد عن دين الله، والضمير في قوله: «يُحَادُّونَ» يمكن أن يكون راجعاً إلى المنافقين.. إلى قوله: ويحتمل سائر الكفار» انتهى المراد.

فالأقرب في معنى الحادة: أنه المعادة، وأنها مشتقة من الحدود التي تكون بين بلدان المتعادين المتباينين، فالآية تفيد: أن للمنافقين نار جهنم خالدين فيها؛ لأنهم شاقوا الله ورسوله ﴿ذَٰلِكَ الْخِزْيُ﴾ الفضيحة والعار ﴿الْعَظِيمُ﴾ أشد من افتضاحهم في الدنيا إذا انكشف نفاقهم وفجورهم في إيمانهم وكذبهم، وما يقولونه من تحقير النبي ﷺ وما يتناجون به من الإثم والعدوان ومعصية الرسول وتوليهم للكفار من دون المؤمنين وغير ذلك من عيوبهم.

﴿تَحْذَرُ الْمُتَنَفِقُونَ﴾ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَزِرُّوْا اِنَّ اللّٰهَ مُخْرِجُ مَا تَحْذَرُوْنَ ﴿٢٤﴾ قال الراغب: «الحذر: احتراز عن خيف» انتهى.

فالمراد: أنهم يحاولون إخفاء ما في قلوبهم من الغش والعداوة للإسلام وأهله لئلا تنزل فيهم سورة من القرآن تخبرهم أن في قلوبكم كذا وكذا من الكفر والبغضاء وهذا من جهلهم؛ لأن الله لا يخفى عليه ما يكتُمون، ثم أن كتمانهم وإخفاءه بما يظهرونه للمسلمين من دعوى الإيمان، وحلفهم إنهم لمنهم ونحو ذلك مما يقولونه، تغطية على نفاقهم وهم فيه غير جادين إنما هم

تَسْتَزِرُّوْنَ ﴿١٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ تُعَذِّبُ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١٦﴾ اَلْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا

مستهزئون، كما قالوا لشياطينهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤] فحذرهم بكلامهم الذي يقولونه استهزاء، فقال تعالى: ﴿قُلِ اسْتَزِرُوا﴾ أي لن يفيدكم الاستهزاء بترك إنزال سورة تنبؤكم بما في قلوبكم ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجُ مَا تَخْذَرُونَ﴾ إخراج به كشفه لرسوله ومصارحتكم به.

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ﴾ عن خوضهم وتناجيتهم بالإثم والعدوان ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ ﴿نَخُوضُ﴾ نفيض في الكلام ونسترسل فيه تلهياً بالخوض ﴿وَلَعَبُ﴾ كنا ﴿نَلْعَبُ﴾ بما نقول ليس جداً فيه.

﴿قُلِ أِبَالَهُ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ فهو في صورة السؤال عما ادعوه خوضاً ولعباً وهو استهزاء بالله وآياته ورسوله قد انكشف ولم ينفعهم كتمانهم بقولهم: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ بقولكم: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ ليس مجرد خوض ولعب بل هو الكفر بعينه. ﴿إِنْ يُعْفَ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ﴾ يوفقون للتوبة لحكمة في ذلك ﴿تُعَذِّبُ طَآئِفَةً﴾ منكم ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ استمروا على كونهم مجرمين وأصروا فلم يوفقوا للتوبة ولا بد من تعذيبهم في الدنيا والآخرة.

﴿اَلْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ متشابهون في أهوائهم وسلوكهم وغشهم وعداوتهم للدين فهم: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ

هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٢٨﴾ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأُولَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴿٢٩﴾ يَخْلُونَ، فقد كان هناك المهاجرون في سبيل الله والمحتاجون المؤمنون من الأنصار، وكان المؤمنون يتصدقون، وبعضهم يؤثرون على أنفسهم، والمنافقون يقبضون أيديهم في خلال ذلك المجتمع مجتمع المواساة والإيثار وكثرة المحتاجين؛ لأنهم يبغضون المسلمين ويكرهون معاونتهم، حتى قال قائلهم: ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ [المنافقون: ٧].

﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ غفلوا عنه وتوجهت قلوبهم إلى أغراضهم وباطلهم فلم يراقبوا الله ولم يخافوه ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ تركهم وأهملهم عن التوفيق والألطف والهداية، كأنه نسيهم من هذه الجهة. ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ هم الخبثة الفجار بعينهم ليسوا من الإيمان في شيء.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٠﴾ هذا وعد الله لا يتخلف، ولا يعارضه قوله تعالى: ﴿إِنْ نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾ لأنه في معنى التوفيق للخروج من النفاق ومن خرج من النفاق وتاب تاب الله عليه، وذلك - أي قبول التوبة - معلوم من الدين لا يلزم استثنائه، بل يترك الاستثناء إحالة على فهم السامع. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٤] فإنما معناه إِنْ شَاءَ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ بالتوفيق ليتوبوا وهو لا يعارض الوعيد؛ لأنه إنما يفيد: أَنْ أَمَرَ اللَّهُ فِيهِمْ بِحُكْمٍ فِيهِمْ بِمَا يَشَاءُ وهو لا ينافي الوعيد القاطع للتردد.

فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٦﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ

وكذا قوله تعالى: ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبُهُمْ فَيُنْقَلِبُوا خَائِبِينَ * لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَلِإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [عمران: ١٢٧-١٢٨] فهو لا ينافي وعيده للكفار الذين لم يتوبوا؛ لأنه ليس إلا بيان أن الحكم له فيهم يحكم فيهم ما يريد، وقد بين ما يريد بما أنزل فيهم من الوعيد إن لم يتوبوا، وأن التائب يغفر الله له بيانا واضحا جليا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي طردهم من رحمته، وقوله تعالى ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي باق لا نهاية له.

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ هذا التفات خطاب للمنافقين أي أنتم كالذين من قبلكم ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ قد مضوا وهلكوا وقد ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً﴾ في أبدانهم ﴿وَأَكْثَرَ مِنْكُمْ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا فَاسْتَمْتَعُوا﴾ في الحياة الدنيا ﴿بِخَلْقِهِمْ﴾ بنصيبهم من متاعها الذي هو انتفاع محدود الوقت.

﴿وَخُضْتُمْ﴾ أيها المنافقون كالخوض الذي ﴿خَاضُوا﴾ من القول الذي بقيت تبعته وذهبت لذته ﴿أُولَئِكَ﴾ الخائضون بالباطل ﴿حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ﴾ التي عملوها من الخير كإطعام جائع أو تفريج عن ملهوف ونحو

وَتُمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧﴾

ذلك مما يظنون نفعه، فهو حابط ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ لم يدفع عنهم العذاب العاجل
﴿وَالْآخِرَةِ﴾ لن يدفع عنهم في الآخرة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لأن
دنياهم انقضت ﴿وَعُقِبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥] ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ
وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَتُمُودَ وَقَوْمِ
إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾ ألم يبلغهم ﴿نَبَأُ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ خبر الذين من قبلهم وقصتهم فيعتبروا بهم لئلا
يهلكهم الله بذنوبهم كما أهلك من قبلهم بذنوبهم وصاروا إلى جهنم وذلك
الحسran المبين.

﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ النمرود وأتباعه ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ قوم شعيب
الذين أخذتهم الرجفة ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ المنقلبات إلى الباطل.

قال الشرفي في (المصاييح): «قال الهادي عليه السلام: ﴿الْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ هي
الأمم الكاذبات على الله المجترئات الآفكات، وإنما سميت مؤتفكات لما أتت
به من الإفك، والإفك فهو العجز عن حقوق الحق والتمادي في طريق
الفسق، فسمى من كان كذلك مؤتفكات مما كان منها من الكذب والإفك
على الله في الحالات» انتهى.

قلت: يظهر من عطفها في الآية أنها أمم مخصوصة، ولعلمهم كانوا مسلمين
فانقلبوا فسموا مؤتفكات لتحولهم عن الحق إلى الباطل، وخصوا بهذا الاسم
لذلك من بين الأمم المكذبة للرسول، ولم يقل: الآفكات وإن كان سبب

عقابهم إفكهم؛ ولعل ذلك ليدل المنافقين الذين كفروا بعد إيمانهم أن من انقلب على عقبيه لم ينفعه إيمانه الذي قدمه قبل الانقلاب بل حبط في الدنيا والآخرة لأنها: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ فكذبوا بآيات الله البينات فأهلكهم الله ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ لأنه غني حكيم فلا يصح منه ولا يستقيم أن يظلمهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بتكذيبهم بآيات الله ومحاربتهم لدين الله، وهذا من أوضح الدلائل على بطلان الجبر، وإلا فما المنفي بقوله: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ وما المثبت بقوله: ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وما الفائدة من هذا النفي وهذا الإثبات وقد تبين أن المعنى أنه سبحانه وتعالى لم يكن ليظلمهم بتعذيبهم الذي عذبهم ويعذبهم به ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي هم الذين فعلوا سبب استحقاقهم للعذاب، فأصابهم سيئات ما كسبوا فلو كان فعلهم من الله لما كان لهذا الكلام معنى، فليحرر فكره من طلب الحق وإلى الله المصير.

ولا شك أنه يستوي قول من قال: لا قدرة للعبد وإنما هو كالشجرة - إن صح أن أحداً قال بهذا القول - وقول من قال: للعبد قدرة موجبة للفعل، وأنه يستوي من قال: أنها موجبة يوجد فعل العبد بوجودها فيه، ومن قال: يوجد فعل العبد بوجودها فيه ووجود إرادته، وإرادته عندهم فعل الله يخلقها في العبد، فمتى خلقها وجب عندهم حصول الفعل بالقدرة، فالقدرة عندهم موجبة للفعل بشرط إرادة العبد للفعل، وإرادة العبد للفعل هي من الله عندهم يخلقها في العبد، فإذا وجدت بقدرة الله وجد الفعل بالقدرة الموجبة بشرط الإرادة، وإنما هؤلاء محتالون للقول بالجبر بحيلة؛ لأنهم يقولون: وجد فعل العبد بقدرته وإرادته وصورة هذا القول صورة قول أهل العدل.

ولكنهم وقعوا في الجبر يجعلهم إرادة العبد من الله يوجد في العبد وجعلهم تأثير قدرة العبد بزعمهم علة موجبة لحصول فعل العبد بشرط إرادة العبد، وجعلوا حصول هذا الشرط من الله فقد جعلوا القدرة والإرادة من الله، وجعلوا القدرة موجبة للفعل متى خلق الله الإرادة في العبد وأوجدتها ولا تؤثر القدرة إلا بشرطها والشرط والمشروط والفعل عندهم كله من الله، فلم يخرجوا من الجبر، وإن أثبتوا للعبد بزعمهم قدرة وجعلوا وجود فعله متوقفاً على إرادته، فإن هذا لم يخلصهم من إثبات تعذيب الله للعبد عقوبة على ما أوجده الله فيه كما لو عذبه على السواد الذي خلقه فيه سواء سواء؛ لأن نسبة الفعل إلى العبد مجرد قيامه به ووجوده بقدرة وإرادته ولكن هذه الإضافات لا معنى لها؛ لأن قدرته عندهم موجبة للمراد والإرادة ليست فعل العبد فلم يبق للعبد تمكن من ترك الفعل؛ لأنه على قولهم مجبور على الإرادة، وعلى الفعل وإن كان لا يسمى مجبراً ولا مكرهاً، فهذا لا يفيدهم شيئاً في إثبات عدل الله وحكمته وتنزيهه من ظلم عباده؛ لأن الله إذا عذبه بذنبه والله سبحانه وتعالى هو الذي أوجد ذنبه بخلقه للقدرة الموجبة والإرادة فيه، فقد عذبه على قولهم بما خلق فيه ولا يفيد اللفظ بأنه إنما عذبه بذنبه شيئاً من تنزيه الله عن تعذيبه بغير استحقاق، وكيف يكون ذلك الفعل سبباً لاستحقاق العذاب وذلك الفعل ناتج عن فعل الله في العبد ولا دخل للعبد في وجود الفعل أصلاً؛ لأن سببه الموجب من الله عندهم فهو من الله وحده؛ لأن فاعل السبب فاعل المسبب فنعوذ بالله من إهمال العقول.

ولما وصف المنافقين بصفاتهم ووعظهم بالوعيد وبذكر من فيه عبرة لهم من الذين من قبلهم وصف المؤمنين بصفاتهم التي تميزهم عن غيرهم، فقال تعالى:

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٦﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

﴿٧٦﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ الولاية ضد العداوة فهي الحب والكون معهم في الأمور المهمة بسبب الحب ويوافق هذا الحديث الشريف: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا».

﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ لحرصهم على طاعة الله منهم ومن غيرهم حباً لله ولدينه؛ ولكونهم مأمورين بذلك ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ لأن إيمانهم يبعثهم على إقامتها أي إحيائها وإتمام فروضها وشروطها وخشوعها؛ لرغبتهم في عبادة الله؛ ولأنهم مأمورون بذلك ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ رغبة في ثوابها وفي مواساة مصارفها؛ ولأنهم مأمورون بذلك ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ لأن إيمانهم يأمرهم بطاعة الله ورسوله لخوفهم من الله وإيمانهم بالجنة والنار؛ ولذلك إذا زل أحدهم سارع إلى التوبة ولم يصر على ما فعل وهو يعلم أنه قد عصى الله.

﴿أُولَئِكَ﴾ أي أهل تلك الصفات ﴿سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ في الآخرة ولعل هذه الرحمة صرف عذاب النار عنهم، قال تعالى: ﴿مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ [الأنعام: ١٦] ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ومن عزته وحكمته أن يرحم المؤمنين؛ لأنهم أهل ولايته.

وَمَسْكِنَ طَيْبَةً فِي جَنَّتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ

﴿٧٢﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴿٧٣﴾ بَاقِينَ فِيهَا لَا يَمُوتُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَسْكِنَ طَيْبَةً فِي جَنَّتِ عَدْنٍ ﴿٧٥﴾ قَالَ الشَّرْفِيُّ فِي (المصابيح): «قال في البرهان: [أي في المساكن] هي القصور من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر مبنية بهذه الجواهر، فأما جنات عدن فمعناها جنات خلود وإقامة ومنه المعدن لإقامة جوهره» انتهى المراد.

وكون المساكن في جنات بقاء فضيلة للمساكن؛ لأنها مع حسنها وطيبها وجودتها لا يخاف صاحبها أنه سيفارقها بل يكون واثقاً ببقائه فيها.

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ تنكير الرضوان إما لتعظيمه أي ورضوان عظيم من الله أكبر من ذلك المذكور، وإما للدلالة على أن أي رضوان من الله فهو أكبر من ذلك النعيم؛ لأن لذته في قلب المحب لله أعظم من كل لذة إذا علم رضاه عنه وأكبر من كل غرض في الجنة في نفس المؤمن، أو لأنه يفيد أن لهم من النعيم ما يستدعيه رضا الله لكرمه وقدرته على كل شيء وعلمه بكل شيء وذلك «ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

هذا ولعل نسبة الرضوان إلى الله تعالى كنسبة الرحمة، أي أنه باعتبار الغاية من دون إثبات عاطفة أو نحوها، قال الشرفي في (المصابيح): «وقال الحسين بن القاسم: قيل: إن رضوان الله عليهم أكبر من دخولهم الجنة، قال عليه السلام: وأنا أقول: إن رضوان الله في ذلك اليوم هو الجنة، ومعنى أكبر أي أن رضوان الله كبير فقام أكبر مقام كبير... إلخ».

وَمَا أُولَئِهِمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ تَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يُوعَدُونَ بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٣﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ لَا يَنْصُرُوا لَكُمْ فَقَدْ

قلت: لعله عليه السلام تأول الرضوان بناء على أن معناه: عَرَضَ يَنْزُهُ اللهُ عَنْهُ فجعل الرضوان هو الجنة، كما كانت الرحمة في قوله تعالى: ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧] هي الجنة.

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿ذَلِكَ﴾ الذي وعد الله المؤمنين والمؤمنات ﴿هُوَ الْفَوْزُ﴾ والظفر والفلاح ﴿الْعَظِيمُ﴾ لأنه سعادة دائمة وسلامة من شقاوة دائمة. ﴿يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ جِهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ وَمَا أُولَئِهِمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿جِهْدِ الْكُفَّارَ﴾ غالبهم وحاول قهرهم بضروب المغالبة فبعضها بالسلاح، وبعضها بالتخويف والإذلال، وبعضها بالحجة القوية البالغة، وإبطال الشبه والتعللات؛ بحيث يضعف المبطل ويقوى جانب الحق ﴿وَاغْلُظْ﴾ الغلظة ضد الرقة فهي قسوة وشدة وعدم مبالاة، كما قال الشاعر:

يُكِي عَلَيْنَا وَلَا نُبْكِي عَلَى أَحَدٍ لَنَحْنُ أَغْلَظُ أَكْبَادًا مِنَ الْإِبِلِ

﴿وَمَا أُولَئِهِمْ﴾ يوم القيامة ﴿جَهَنَّمُ﴾ يأوون إليها ويصيرون فيها ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ كلمة ذم.

﴿تَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يُوعَدُونَ بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ هؤلاء منافقون قالوا كلام كفر، ثم صاروا

وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا ءَاتَتْهُمْ مِّن فَضْلِهِ يَخْلُؤُا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا

﴿مُخَلَّفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ خوفاً من المسلمين، فأكذبهم الله، وبين فجورهم في حلفهم، ثم قال تعالى: ﴿وَهُمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ أي هموا بعدوان كاغتيال رسول الله ﷺ ولم ينالوا ذلك الذي هموا به، وهذا تحقيق لكفرهم، وقد روي: أنهم حاولوا في عودة رسول الله ﷺ من تبوك إسقاطه وهو في العقبة، إسقاطه من فوق بغلته إلى الوادي.

﴿وَمَا نَقَمُوا﴾ أي ما أنكر هؤلاء المنافقون شيئاً يبعث على الكفر والهم بالفتك ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَتْهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وهذا يستدعي الشكر فوضعوا الكفر موضع الشكر وجعلوه بدله، كما مر في قوله تعالى: ﴿مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ والغنى ما كانوا ينالونه من الغنائم والصدقات قبل نزول آية المصارف الثمانية، أو بالتأليف لبعضهم، وقوله: ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي من فضل الله.

﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ﴾ وهذا بعد كشف جرائمهم دفع لتوهمهم أنه لا توبة لهم ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا﴾ عن الله بالإصرار على كفرهم ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فلا ينصرهم الكفار الذين نافقوا إليهم ولا غيرهم، والولي أعم من النصير؛ لأنه يتولى رعاية من يتولاه وحمايته وإصلاح أموره.

﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي من المنافقين ﴿مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَيْسَ ءَاتِنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): والمشهور في سبب نزول هذه الآية أن ثعلبة بن حاطب قال: يا رسول الله ادع الله أن

أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ

يرزقني مالاً، فقال ﷺ: «قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه» فراجعته وقال: والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه، فدعى له، انتهى، وقصة ثعلبة في (أمالى المرشد بالله): [ج ١/ ص ١٩٨-١٩٩].

﴿فَلَمَّا ءَاتَتْهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ يَخْلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿يَخْلُوا بِهِ﴾ لم يصدقوا كما عاهدوا الله ﴿وَتَوَلَّوْا﴾ عن طاعة الله لم يكونوا من الصالحين ﴿وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ عما يبلغه رسول الله ﷺ بحضرتهم من الآيات والمواعظ.

﴿فَأَعْقَبَتْهُمْ﴾ كان سبباً للعاقبة السيئة ذلك التولي والإعراض، أو الله على أنه من المتشابه المؤول بالخذلان ﴿يَفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي حياً للنفاق وإصراراً عليه، كقوله: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٩٣] ﴿إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ﴾ أي يموتون على ذلك وبيعثون يوم القيامة عليه ويوقفون موقف الحساب والسؤال وهم كذلك.

﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ فالعصيان بالخلف وبالكذب جرّهم إلى النفاق، وفي الحديث: «...والكذب يهدي إلى الفجور» فهو موافق للآية الكريمة.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ حين عاهدوا الله كاذبين ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ ما يتناجون به من الإثم والعدوان ومعصية الرسول ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ ألم يعلموا ذلك فيراقبوا الله ويتقوه ويجتنبوا أسباب غضب الله عليهم، لقد آن لهم أن يعلموا.

الْمُطَوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ أَسْتَغْفِرُ

﴿٧٦﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ﴿٧٦﴾ هذا وصف لمن عاهد الله فقد أضاف إلى نكث العهد وإلى البخل جريمة أخرى هي لزم المطوعين من المؤمنين في الصدقات.

واللمز: الذم، كما مر عن الإمام زيد بن علي عليه السلام، ووافقه (صاحب الصحاح) فقال: «اللمز: العيب..» إلى قوله: «...ورجل لماز ولمزة أي عياب» انتهى. وقيل: اللمز الإغتياب، وفي (تفسير القاسم عليه السلام)؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُلْ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١] الجمع بين القولين - والله أعلم.

وَالْمُطَوِّعِينَ ﴿٧٦﴾ الذين ينفقون رغبة وطوعاً ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ حكي الشرفي في (المصاييح): «عن الحسين بن القاسم عليه السلام معنى ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ وهم مع ذلك لا يجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ، وهو طاقتهم وقوتهم وما يقيم ويثبت أرواحهم في أجسادهم» انتهى المراد، فقد جعل الذين لا يجِدُونَ وصفاً للمطوعين معطوفاً بالواو، كقول الشاعر:

هو الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

وهو قريب؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ لأن مظنة أن يسخروا منه هو منفق القليل، فأما منفق الكثير فإنما يذمونه بدعوى أنه أنفق رياء، وليس ذلك من السخرية. والآية تفيد: أنهم جمعوا بين اللمز والسخرية، فالمطوعون يستحقون المدح والإحترام، فإذا انضاف إلى تطوعهم أنه إثارة على أنفسهم زاد به استحقاقهم للمدح والتعظيم فلمزهم والسخرية منهم ظلم على ظلم ظلّمات بعضها فوق بعض.

هُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨١﴾ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨٢﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا

﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي فعل بهم كفعل الساخر بهم والمستهزئ بهم؛ لأنه أَعَدَّ لهم العذاب الأليم في الدنيا والآخرة، وأملى لهم، وهم يتوهمون الإيماء لهم خيراً لأنفسهم ﴿وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على جرائمهم كلها، ومنها: اللمز، والسخرية.

﴿أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي سواء استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، فهو تخيير بين الاستغفار وتركه لبيان أنهما سواء. ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ لأنه أعلم بجرائمهم وإصرارهم، وأنهم ليسوا أهلاً لأن يغفر الله لهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ فكفرهم بالله ورسوله جرأهم على الجرائم الأخر، وعلى الإصرار والبعد من التوبة لعدم الخشية من الله وعدم الخوف من عذاب الآخرة؛ لأنهم قد كذبوا الرسول الذي أُنذَرهم والله لا يهدي القوم الفاسقين الخبيثة الفجار المتمردين على الله فلا يغفر لهم ولو أكثر الاستغفار لهم لأن الغفران متوقف على اهتدائهم وتوبتهم، ولا يهديهم الله لأنهم فاسقون.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ﴾ سرهم تخلفهم

يَكْسِبُونَ ﴿٣٠٢﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَعِذْ نُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَّنْ نَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنَ تُقْبِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ

وقعودهم عن الجهاد مع رسول الله سروراً اطمأنوا إليه، كأنهم قد أدركوا الخير الذي لا يعقبهم شراً، وسرهم مقعدهم من حيث أنه خلاف رسول الله كراهة له ولمرافقته وللتأسي به، فهذا الفرع نتيجة كفر ﴿وَكِرَهُوا أَنْ تُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهذا تقديم لما يترتب عليه من الوعيد ليدل على أنهم فرحوا بما يضرهم وكرهوا ما هو خير لهم.

﴿وَقَالُوا﴾ لبعض الناس ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ تخذيلاً عن الجهاد، ومعارضة لدعوة الرسول ﷺ إليه، ونهياً عن المعروف ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ وأنتم صائرون إليها ولم تتقوها فلم تنهون عن النفر في الحر وأنتم لم تتقوا نار جهنم ﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ لو كان المنافقون يفهمون ليحذروا حر جهنم، لكنهم قد أهملوا عقولهم فهم لا يفقهون فقه من استعمل عقله.

﴿فَلْيَضْحَكُوا﴾ في فرحهم بالقيود وتركهم للجهاد ﴿قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا﴾ كثيراً جزاءً بما كانوا يكسبون ﴿قَلِيلًا﴾ مدة في هذه الحياة الدنيا تنتهي ثم يصيرون إلى نار جهنم حيث سيكون كثيراً.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا﴾ تعبير عن حقارة ذلك وقلته في جنب أنهم يصيرون إلى جهنم، كقوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتُّعُوا فَلِئَمْ مَصِيرُكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠] وأما قوله: ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ فهو يدل على أن البكاء الكثير كائن لهم وأنه مطلوب لهم أي يريده الله لهم، وقوله تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي يجعلهم باكين كثيراً بما كانوا يكسبون من الآثام المتكررة العديدة.

مَرَّةٍ فَأَقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ ﴿٨٢﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨٣﴾ وَلَا

﴿٨٢﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ ﴿٨٣﴾ من هذه الغزوة، التي فرحوا بمقعدهم عنها خلاف رسول الله قالوا وهي (غزوة تبوك) ﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ من هؤلاء المنافقين، ولعل السر في قوله: ﴿طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ ولم يقل: (إليهم) أنهم لا يبقون كلهم حتى يرجع بل يموت بعضهم أو ليعم كل طائفة لأنه نكرة في سياق الشرط فكل طائفة منهم يقول لها ما أمر به في قوله.

﴿فَقُلْ لَّنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَأَقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ﴾ لأنكم لا تزالون منافقين أعداء للدين مفسدين، فلن تصلحوا للخروج معي أبداً ﴿وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ﴾ لأنفسكم ﴿بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وكنتم مأمورين بالخروج للجهاد في سبيل الله فعصيتهم، فكشف الله سرهم، وبين أنكم لو خرجتم أفسدتم، وأنكم لا تصلحون للجهاد في سبيل الله، فكيف تصلحون للخروج مع رسول الله ومرافقة نبي الله وأنتم أعداؤه وأعداء دينه، وقوله: ﴿مَعَ الْخُلَفَاءِ﴾ تحقيق لقعودهم في المدينة، والخالفون: الباكون فيها خلف المجاهدين، أي مع غياب المجاهدين.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا﴾ هي صلاة الجنازة سميت صلاة لأنه يدعى للميت فيها، والله أعلم. وفائدة التأيد: بيان أن من تأخر موته حتى جوز الرسول ﷺ أنه قد تاب فلا حكم لذلك لو وقع؛ لأنهم لا يزالون فاسقين ولو عاش أحدهم سبعين سنة بعد هذا التخليف.

تُعْجِبُكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ﴿٨٥﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٦﴾ وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا

﴿وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ لَأَنَّ ذَلِكَ تَكْرِيمٌ لَهُ، وَلَيْسَ أَهْلًا إِلَّا لِلْإِهَانَةِ ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾ فهنا علتان للنهي:
الأولى: أنهم كفروا بالله ورسوله.

والثانية: أنهم ماتوا وهم خبيثة فجار متعمدون للفجور لخبثهم.

﴿وَلَا تُعْجِبُكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ﴾ ولا تستحسن أموالهم الوافرة وأولادهم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾ فتعذيبهم بها هو المراد بها لأنها تجر عليهم الهم والغم والعناء والتعب المتواصل والتشديد على أنفسهم وعلى أهلهم فبذلك ونحوه يعذبهم الله بها عذاباً عاجلاً والقصر في هذه الآية هو قصر القلب.

أي إنما يريد الله أن يشقوا بها لا أن يسعدوا ﴿فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ لاشتغالهم بالدنيا وشغل قلوبهم بها عن النظر لأنفسهم لفرط حُبهم لها وغفلتهم عن الحياة الدائمة، فكأنه لا حياة إلا هذه الحياة، فلذلك جعلوها أكبر همهم، حتى ماتوا وهم كافرون، فمأواهم جهنم وبئس المصير.

قال الراغب: «زهقت نفسه: خرجت من الأسف على الشيء» انتهى، وفسر في (الصحيح) و(لسان العرب) زهوق النفس: بخروجها من غير قيد الأسف، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ﴾ معناه: تخرج» انتهى.

مَعَ رَسُولِهِ اسْتَعْذَنَكَ أَُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَكِنَّ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ

﴿٨٦﴾ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَعْذَنَكَ أَُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٧﴾ كان الكلام فيمن قيل لهم: ﴿انفروا في سبيل الله﴾ وهنا فيمن سمع كتاب الله يأمر بالإيمان والجهاد مع رسول الله، وهو خاص بأولي الطول من المذكورين أولاً، ولعل هذا كان قبل أن يبلغهم رسول الله ﷺ ما أمر به في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ لأن هذا بعد (غزوة تبوك) وقد نزل الأمر بالإيمان والجهاد في القرآن من قبل قالوا: وكانت (غزوة تبوك) سنة تسع من الهجرة.

و ﴿أُولُوا الطَّوْلِ﴾ الأغنياء الذين لهم فضل من المال يستطيعون به الخروج للجهاد، سواء كان معنى الطول: الغنى، والسعة، أو كان معناه: القدرة ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا﴾ أي اتركنا ﴿نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ كأنهم يحتاجون بعود غيرهم، مع أن القاعدين إما معذور فلا حجة به لغير المعذور، وإما عاصٍ لرسول الله ﷺ فلا حجة فيه بل المقتدي بالعاصي عاصٍ.

﴿٨٧﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴿٨٨﴾ رضوا لأنفسهم سيما الضعف، بأن يكونوا قاعدين مع النساء؛ لأنهن لم يكتب عليهن الجهاد لضعفهن مع كفاية الرجال.

﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يفهمون الزجر والإنذار والتخويف فهما نافعاً؛ لأنهم معرضون لا يفهمون ولا تقبل أنفسهم ما فهموه لأنهم كارهون لذلك.

وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَيْسَ عَلَى

﴿٨٨﴾ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٩﴾ الرَّسُولُ مُحَمَّد ﷺ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ أَهْلُ الْإِيمَانِ الصَّادِقُ الْمَشَارِكُونَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي نَصْرَةِ الْإِسْلَامِ، وَالِدَعْوَةُ إِلَى اللَّهِ، وَالْإِيمَانُ الصَّحِيحُ الْكَامِلُ ﴿٩٠﴾ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ﴿٩١﴾ مَكْتُوبٌ لَهُمْ وَمَعَدَةٌ لَهُمُ الْخَيْرِ الْكَثِيرُ ﴿٩٢﴾ وَأُولَئِكَ أَهْلُ تِلْكَ الصِّفَاتِ ﴿٩٣﴾ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩٤﴾ الظَّافِرُونَ بِالْخَيْرِ لَا مَنْ قَعَدَ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَظَنَ أَنْ الْخَيْرَ فِي ذَلِكَ.

﴿٩١﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٩٢﴾ لِلرَّسُولِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴿٩٣﴾ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩٤﴾ لِأَنَّهُ السَّعَادَةُ الدَّائِمَةُ وَمَنْجَاةٌ مِنَ الشَّقْوَةِ الدَّائِمَةِ فَهُوَ ﴿٩٥﴾ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩٦﴾ قَالَ الرَّاعِبُ: «الْفَوْزُ الظَّفَرُ بِالْخَيْرِ مَعَ حَصُولِ السَّلَامَةِ» انْتَهَى.

وقوله تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ تنبيه على أنهم على خلاف ما عليه المتخلفون الذين تقدم الكلام فيهم وبضدها تتميز الأشياء فقوله: ﴿لَكِنِ﴾ لإفادة ذلك.

﴿٩٧﴾ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ﴿٩٨﴾ قَالَ الشَّرْفِيُّ فِي (المصابيح): «قال في (البرهان): والفرق بين العذر والتعذير: أن العذر حق، والتعذير كذب» انتهى.

الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ﴾ وهم الذين غير جادين في الأمر، يظهرون باللسان خلاف ما في القلب» انتهى.

فالمعذرون هنا: هم الذين يدعون الأعذار المرخصة في ترك الجهاد، أو الأعذار التي تسبب الأذن لهم في التخلف، وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ﴾ أي جاءوا إلى رسول الله ﷺ يدلون إليه بدعاوى الأعذار ليؤذن لهم في التخلف عن الجهاد.

﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ﴿قَعَدَ﴾ عن الجهاد وتخلف فلم يخرج للجهاد ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ﴾ أي قالوا: كاذبين، إما قولهم: ﴿آمَنَّا﴾ وأما أنهم يقولون لرسوله ﷺ: سنجاهد معك، وهم في ذلك متعمدون للكذب.

﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ علق الوعيد على الكفر ليخرج من خرج من الكفر بالتوبة، ويحتمل: رجوعه إلى المعذرين والكاذبين وهو الراجح.

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾ ليس عليهم حرج في ترك الجهاد، والضعف قد يكون من أثر المرض، وقد يكون من شدة الكبر بحيث لا يستطيع القتال. ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إذا صلحت نياتهم وجدوا في معاونة الإسلام بما يقدرون عليه من القول ونحوه، فالنصح إخلاص الولاء لله ورسوله ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ ما عليهم حجة ليصيبهم حرج؛ لأنهم محسنون، والخرج إنما هو على المسيئين.

مَا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَعِذُّونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رِضًا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فهو يغفر لأهل الأعداء الصحيحة، ويرحمهم بما قد يقع منهم من تقصير في النصح لغفلة أو سهو أو نحو ذلك.

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ ولا حرج على الذين هم راغبون في الجهاد، لكن ليس لهم راحل تحملهم إلى محل الجهاد وهو بعيد، فإذا ﴿أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ على إيل من عندك لم يكن عندك ما تحملهم عليه ﴿تَوَلَّوْا﴾ من عندك يكون ﴿حَزَنًا﴾ من أنهم لا يجدون ما ينفقون ليجاهدوا، فهؤلاء ما عليهم من حرج في ترك الجهاد لأنهم راغبون فيه لم يمنعهما إلا أنهم لا يجدون ما ينفقون في راحل أو في كراء راحل وفي مؤونة السفر.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَعِذُّونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ يقدرّون على تحصيل الدواب ومؤونة السفر، ولكن ليسوا مؤمنين فيرغبوا في نصرة الإسلام بل أرادوا القعود ﴿رِضًا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ مع النساء الخوالف في البلد للذين رحلوا للجهاد، أي خلفن المجاهدين، وهذه صورة للأغنياء المعتذرين دنيئة قد رضوا بها لأنفسهم بسبب كراحتهم للجهاد.

﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهذا يدل على أنهم قد توردوا حتى استحقوا الخذلان فصارت قلوبهم كارهة للحق فكأن عليها طبعاً وختماً كالختم على الزجاجة يمنع من دخول العلم إلى قلوبهم وهذا تمثيل وقد مر تحقيقه في تفسير أول (سورة البقرة).

لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ^١ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ يعتذرون من خلفهم واستئذانهم لترضوا عنهم ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ لن نصدقكم ولن نقبل منكم اعتذاركم ﴿قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ وفي هذا دليل على أن المعتذر المخادع الذي يعلم كذبه وإصراره لا يجب قبول عذره وهو مخصص لعموم الحديث: «من لم يقبل العذر من محق أو مبطل لا ورد علي الحوض».

فإن قيل: فما فائدة قوله: «أو مبطل»؟

قلنا له فائدتان: الأولى: إذا كان تائباً وقد ندم على إساءته فاعتذر منها فيقبل اعتذاره لتبقى الأخوة بين المؤمنين، الثانية: إذا فرض أنه مبطل في الواقع لكن لا يعلم أهو محق أم مبطل، فيقبل اعتذاره حملاً له على السلامة؛ لتبقى الأخوة بين المؤمنين، فاما هؤلاء المذكورون في الآية فهم مصرون بخادعون بدليل هذه الآية. وقوله تعالى: ﴿قَدْ نَبَأْنَا﴾ أي أخبرنا الله وأعلمنا بعض أخباركم، وهو ما يكشف كذبكم وخداعكم وإصراركم.

﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أي عملكم المستقبل سيراه الله ورسوله فإن صلحتم نفعكم وإن بقيتم على ما أنتم عليه كان أمركم مكشوفاً لرسول الله ﷺ ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ في الآخرة ﴿إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ العالم بكل ما قدمتم لأنه عالم الغيب والشهادة ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ حتى لا ينفعكم كتمان ما تكتُمون في الدنيا من نفاقكم وفسادكم ويكون يوم القيامة عملكم كله مكشوفاً فتجزون الجزاء الأوفى لأن الله ينبئكم به هو ولا يحتاج إلى سؤالكم ليعرف ما كنتم تعملون.

سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا أُنْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ
إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٥﴾ سَيَحْلِفُونَ
لَكُمْ لَتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ
الْفَاسِقِينَ ﴿١٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ

﴿١٥﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا أُنْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴿١﴾ أي رجعتم إليهم
﴿لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ﴾ عن تعنيفهم أو مؤاخذتهم بسبب تخلفهم عن الجهاد، أي
يخلفون على اعتذارهم لتصدقوهم فيه فتركوهم، أعيد ذكر هذا وإن تضمنه
قوله يعتذرون من أجل ذكر حلفهم بالله ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ إعراض هجر
وإرجاء لأمرهم لحكم الله فيهم.

﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ ترك مجالستهم وتقى مخالطتهم لرجسهم أي فسقهم
وخبثهم وفجورهم ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ فهي حسبهم ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ﴾ أي بكل جرائمهم التي تكررت منهم وتعددت ونعوذ بالله من
غضب الله فقد ولاهم ما تولوا وتركهم وشأنهم على أنه حافظ لدينه
ولرسوله ومتقم منهم بجهنم.

﴿١٦﴾ سَيَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضَوْا عَنْهُمْ ﴿٢﴾ أعيد ذكر الحلف ليرتب عليه قوله
تعالى: ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾
الفجرة: الخبيثين المتمردين على الله، فكانت لأعدائهم المصحوبة بأيانهم
ثلاثة أحكام:

الأول: ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا...﴾ إلى آخر الآية.

الثاني: ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾.

الثالث: ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنْهُمْ مَا دَامُوا
فاسقين، أي فزاعكم عنهم باطل.

مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ
مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ

﴿١٧﴾ ﴿الْأَعْرَابِ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
عَلَى رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ قال الشريفي في (المصابيح): «قال الحسين بن
القاسم عليه السلام: هم أهل البادية الجهال والكفرة والجفاة الضلال...» إلخ.

أقول: الأعراب: البدو، وما ذكر فيهم هو من تفسير قوله تعالى: ﴿أَشَدُّ
كُفْرًا..﴾ الآية، قال الراغب: «العرب: ولد إسماعيل، والأعراب جمعه في
الأصل، وصار ذلك اسماً لسكان البادية» انتهى، أي سكان البادية من
العرب، وفي (الصحيح): «العرب: جيل من الناس وهم أهل الأمصار،
والأعراب منهم: سكان البادية خاصة - ثم قال -: وليس الأعراب جمعاً
لعرب، وإنما العرب اسم جنس» انتهى باختصار.

وقوله تعالى: ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ أي أشد من هؤلاء الذين في المدينة
الذين يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم، وقوله تعالى: ﴿كُفْرًا﴾ لعله ككفر
بعض المنافقين مع إظهارهم الإسلام ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَنِفَاقًا﴾ أي أشد ولاءً للكفار مع إظهارهم الإسلام،
وهذا مما يفيد أن ليس مفهوم النفاق إبطن الكفر مع إظهار الإسلام، بل
الكفر شيء والنفاق شيء قد يجتمعان وقد لا يجتمعان أعني كفر الجحود
بالرسول والقرآن، وذلك أن مريض القلب يعترف بالإسلام خوفاً فيشهد
الشهادتين، ويكون بذلك قد أسلم كما قال تعالى: ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾
ثم يحمله الخوف من الكفار؛ لعدم ثقته بنصر الله لرسوله وإظهاره لدينه، لأنه
غير مؤمن، فيوافق ليكون له عند الكفار ما يؤمنه إن غلبوا المسلمين، فالنفاق
هو موالاته الكفار سراً مع إظهار الإسلام.

عَلِيمٌ ﴿٣٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيَدْخُلُ هُمُ اللَّهُ

وقوله تعالى: ﴿وَأَجْدَرُ﴾ أي أقرب إلى ﴿أَلَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ من الوحي في القرآن وفيما جاء منه على لسان الرسول ﷺ ومن طريقة من غير القرآن فالأعراب لبعدهم عنه أجدر بالجهل لأحكام الله وشرائعه، وهكذا يكونون لبعدهم عن العلم والعلماء، إلا أنهم في هذا الزمان قد يتمكنون من المعرفة بواسطة الكتب والأشرطة التي تسمع في المسجلات، ونحوها من الوسائل التي سهلت للناس التعلم لمن أراد التعلم، وقد يزدادون جهلاً بما يلقي إليهم من وسائل الإعلام المشتتة على الشبه والتضليل، فيضيفون جهلاً مركباً إلى الجهل البسيط.

وقوله تعالى: ﴿حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي حدود الدين المأخوذة مما أنزل الله، وحدود الدين مثل: أعداد الصلوات، أعداد الركعات، كيفية الركوع، كيفية السجود، أول وقت الصيام، أول وقت الإفطار، كم نصاب الزكاة من المزكى، وكم الزكاة: العشر، أو نصف العشر، أو ربع العشر.. ونحو ذلك، فحاصل ذلك: أنهم أقرب إلى الجهل بتفاصيل الشريعة وتفاصيل الدين.

قال في (الصحيح): «وفلان جدير بكذا: أي خليف، وأنت جدير أن تفعل كذا» انتهى المراد، وقال الراغب: «والجدير المنتهى لانتهاء الأمر إليه انتهاء الشيء إلى الجدار وقد جَدَرَ بكذا فهو جدير وما أجدره بكذا وأجدر به» انتهى، فمعنى الجدير على قول الراغب: الغاية في الأهلية للشيء.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فهو يعلم الفرق بين الأعراب ومن بالمدينة ويعلم كل شيء وهو يحكم فيهم بما هو من مقتضى الحكمة في الدنيا وفي الآخرة.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ يتخذ ما ينفق مغرمًا يعده غراماً

فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَالسَّيْقُوتَ الْأُولَى مِنَ الْمُهْجَرِينَ
وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ

وضياع مال بلا فائدة، أي خسراناً؛ لأنه ينفق لمداواة المسلمين لا لطلب
الثواب، ولا يرجو ثواباً على ما أنفق، فهو عنده تالف في غير فائدة.

﴿وَيَتَرَبَّصُّ﴾ يتظر ﴿بِكُرٍّ﴾ أيها المسلمون ﴿الدَّوَابِرَ﴾ أي دوائر الزمان
وتقلب الأحوال فهو يتظر أن تنقلب الحال فتسقط دولة الإسلام ويفنى
المسلمون ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على هؤلاء الأعراب ﴿دَائِرَةَ السَّوِّءِ﴾ هذا دعاء
عليهم بأن تدور عليهم دائرة السوء، وهو دلالة على استحقاقهم دائرة السوء،
وتعبير عن الغضب عليهم، كقوله تعالى: ﴿قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْذُودِ﴾ [البروج: ٤].

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالهم ولكل قول ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يخفون من تمني دائرة
السوء على المسلمين أو غير ذلك ﴿عَلِيمٌ﴾ بكل شيء.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ
قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ
إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هذا يدل على أن قوله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا﴾
خارج منه بعضهم ﴿يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ﴾ أي يعدّها قربات له ﴿عِنْدَ
اللَّهِ﴾ لأنه مؤمن أنفقها لله وفي سبيله.

﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ أي دعاءهم عند أخذ المنفق منهم، فهم يرجون
الخير بصلوات الرسول ﷺ فإن كان ﴿صَلَوَاتٍ﴾ معطوفاً على ﴿مَا يُنْفِقُ﴾
فالمعنى: ويتخذ صلوات الرسول ﴿قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي سبباً للقربة عند
الله، لأن دعاء الرسول مستجاب، وهم يرجون أن يكون سبباً للتوفيق
والهداية، ولأن صلوات الرسول تزيدهم رغبة في فعل الخير إذا سمعوها،
فيزدادون بسببه من العمل المقرب عند الله.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا﴾
 هُمْ جَنَّتْ تَجْرَى تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَلْدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

وهذا الوجه أقرب من جهة التركيب، ويحتمل: أن ﴿صَلَّاتٍ﴾ معطوفاً على ﴿قُرْبَتٍ﴾ أي ويتخذ ما ينفق صلوات الرسول أي سبباً لها، كأن المال يصير صلوات الرسول، وهذا ضعيف من جهة التركيب فيما نرى، فإن معناه لا يجوز إلى التأويل.

والأول أرجح، ويؤكد تأنيث الضمير في قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّا قُرْبَةً هُمْ﴾ فظاهره العود إلى ﴿صَلَّاتِ الرَّسُولِ﴾ ولأنه أقرب من ﴿مَا يُنْفِقُ﴾ فعود الضمير إلى ﴿صَلَّاتِ الرَّسُولِ﴾ أقرب، وإن شمل ما ينفقون فبطريقة الإكتفاء، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١] فأكتفى بضمير أحد الشئيين اكتفاء بفهم السامع لإرادة الحكم على كل واحد منهما.

وقوله تعالى: ﴿سَيَدْخُلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ تحقيق لحصول القرية لهم عند الله و﴿رَحْمَتِهِ﴾ الجنة، بدليل ﴿سَيَدْخُلُهُمُ﴾ فهي قرينة، فأما رحمة الدنيا فهم داخلون فيها ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ولذلك يقبل العمل الصالح ويعد عليه الثواب ويجعل ما تقدم من زلات الإنسان الصغائر غير مانعة من الثواب العظيم وكذلك ما تقدم من السيئات قبل الإيمان والتوبة يجعله كأن لم يكن.

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾
 بِإِحْسَنِ رَضَى اللَّهُ عَنْهُمْ ﴿كَانَ الْكَلَامُ فِي الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ كَانَ سَبِيًّا لِلْكَلامِ فِي بَقِيَةِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ مع رسول الله ﷺ، والأقرب أن إعرابه: ﴿السَّابِقُونَ﴾ مبتدأ، خبره ﴿رَضَى اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ وما عطف عليه، والسبق هنا هو السابق إلى الإيمان.

وقوله: ﴿الْأَوَّلُونَ﴾ يخرج بعض المهاجرين والأنصار وبعض السابقين منهم، لأن السبق إضافي، فكل مؤمن سابق لمن آمن بعده ولكن قد شمل الباقيين الذين هم مؤمنون.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ﴾ أي آمنوا بعدهم، ولا يدخل فيها التابعون بعد وفاة رسول الله ﷺ لأن ﴿اتَّبَعُوهُمْ﴾ فعل ماضٍ، فلا يدخل فيه إلا من كان قد آمن قبل نزول هذه الآية إيماناً مقروناً بالإحسان، والمراد به أهل الإيمان الصادق، الباعث على أن يكون صاحبه من المحسنين.

وقد فسر (المحسنين) أول (سورة لقمان) ولأن التابعين بعد وفاة الرسول ﷺ لا ينسب اتباعهم إلى السابقين الأولين فحسب، لأنهم تابعون للصحابة كلهم سابقهم ومسبوقهم، فظهر: أن المقصود بالتابعين للسابقين الأولين المسبوقون من المهاجرين والأنصار الذين سبقهم السابقون الأولون.

وقوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ تعبير عن قبول إيمانهم وإحسانهم وأنه غير ساخط على من كان كافراً منهم لأن إيمانه وتوبته غي ما سلف منه، وقوله تعالى: ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ لأنهم بإيمانهم الصادق يرضون بقضائه، ولا يجدون في أنفسهم حرجاً مما قضى، ويتحملون التكاليف برغبة لإيمانهم بالثواب ورغبتهم في رحمة الله ورضوانه، وهذا يقابل ما مر في الأعراب والمنافقين الكارهين لطاعة الله في الجهاد والإنفاق وغير ذلك الذين نسوا الله فَنَسِيَهُمْ.

أخرج الحاكم في (المستدرک) [ج ٣/ ص ١٣٧]: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «اشتأقت الجنة إلى ثلاثة: علي، وعمار، وسلمان» قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، وأقره الذهبي في (تلخيصه) وأخرجه الترمذي [ج ٥/ ص ٦٦٧] وقال: حسن غريب.

وأخرجه أبو نعيم في (الحلية) [١٤٢/١] وذكره المتقي في (كنز العمال) هكذا، أو ذكره بلفظ: «أن الجنة تشاق إلى أربعة: علي، وعمار، وسلمان، والمقداد» وأفاد: أنه أخرجه الطبراني في (الكبير) عن أنس، وذلك في [ج ١٢/ ص ٢٣٣] من (كنز العمال).

وأخرج الحاكم في (المستدرک) [ج ٣/ ص ١٣٠] عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أمرني بحب أربعة من أصحابي، وأخبرني أنه يحبهم، قال قلنا: من هم يا رسول الله؟ - وكلنا نحب أن نكون منهم - فقال: ألا إن علياً منهم، ثم سكت، ثم قال: أما إن علياً منهم، ثم سكت» قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، قال الذهبي: ما أخرج مسلم لأبي ربيعة. قلت: يكفي في صحته على شرط مسلم أن يكون ربيعة على شرط مسلم وإن لم يخرج له، وفي (تهذيب التهذيب): «حسن الترمذي بعض أفراد - أي أفراد ربيعة» انتهى.

والحديث أخرجه أحمد في (المسند) [ج ٥/ ٣٥١] بلفظ: «إن الله - عز وجل - يحب من أصحابي أربعة، أخبرني أنه يحبهم وأمرني أن أحبهم، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: إن علياً منهم، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، والمقداد بن الأسود الكندي».

وأخرجه الطبري في (منتخب ذيل المذيل) المتصل بتاريخه في [المجلد الآخر منه/ ص ٣٨] من صفحات (المنتخب) فقال: حدثني إسماعيل بن موسى السدي، قال: أخبرني شريك عن أبي ربيعة الإيادي، عن ابن بريدة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى أمرني بحب أربعة. قيل: يا رسول الله من هم؟ سمهم لنا. فقال: علي منهم، يقول ذلك ثلاثاً، وأبو ذر، والمقداد، وسلمان، أمرني بحبهم وأخبرني أنه يحبهم».

وأخرجه الترمذي في (جامعه) [ج ٥/ص ٦٣٦] وحسنه، وذكره المتقي الهندي في (كنز العمال) [ج ١٢/٢٣٣] في فضائل الصحابة في قسم الأقوال بلفظ: «أمرت بحب أربعة من أصحابي وأخبرني الله أنه يحبهم: علي، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، والمقداد بن الأسود الكندي».

وأفاد: أنه أخرجه الروياني عن بريدة، وأخرجه في [ص ٢٣٦] من ذلك الجزء بلفظ: «إن الله أمرني بحب أربعة، وأخبرني أنه يحبهم: علي منهم، وأبو ذر، والمقداد، وسلمان».

وأفاد: أنه أخرجه الترمذي، وابن ماجة، وأفاد: أنه أخرجه الحاكم، وأنهم أخرجوه عن بريدة، انتهى.

وهو في (سنن ابن ماجة) [ج ١/ص ٦٦] وأخرجه أبو نعيم في (الحلية) [ج ١/ص ١٧٢] وأفاد ابن حجر في (الصواعق): أنه أخرجه الترمذي، والحاكم، وصححه عن بريدة، فظهر: أنه سقط من نسخة (المستدرک) المطبوعة قوله: «وأبو ذر، والمقداد، وسلمان» وأنه ثابت في (المستدرک).

قال الشرفي في (المصابيح) في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ قال في (البرهان): «وهو أمير المؤمنين علي عليه السلام؛ لأنه أول من سبق إلى الإسلام من الرجال وخديجة بنت خويلد» انتهى.

قلت: تحقيق هذا في كتب الزيدية والإمامية، وقد عقد له السيد العلامة عبد الله بن الهادي الحسن بن يحيى القاسمي باباً في حاشية (كرامة الأولياء) وحقق ذلك تحقيقاً كافياً، ونقله هنا يطول.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿أَعَدَّ﴾ إما أنه قد خلقها فأعدها للمتقين حقيقة، وإما أنها بمنزلة المخلوقة لسهولة إيجادها، فكانها قد وجدت، وإعدادها للمذكورين بشارة

عَلَى الْبِفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٦﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ

عظمى لمن لم يتحول عن خط الإحسان إلى الإساءة، ولا دلالة فيها على أنهم كلهم لا يتحول أحد منهم عن طريق الجنة؛ لأن معنى إعداد الشيء تهيأته لمن أعد له، وهي قد تكون لأناس يتخلف بعضهم، ولا ينافي ذلك إعدادها لهم.

وقد أفاد القرآن أن بعض المنافقين كانوا قد آمنوا، وقد مر قوله تعالى فيهم: ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ يَسُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧] وفي (جامع البخاري) المسمى بـ (الصحيح) [ج ٤/ ص ١٤٢-١٤٣]: عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «تَحْشَرُونَ حِفَاةَ عِرَافَةِ غُرْلًا» ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعْيِلُهُ وَعَدْنَا عَلَيْهَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٤] فأول من يكسى إبراهيم، ثم يؤخذ رجال من أصحابي ذات اليمين وذات الشمال فأقول أصحابي، فيقال: «إنهم لم يزلوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم...» إلى آخر الحديث نقلته من المطبوعة المجردة عن الشروح عن طبعة [دار الطباعة العامة باستانبول] والحديث مخرج من كتب وطرق عديدة، انظر: (الإعتصام) تأليف الإمام القاسم بن محمد عليه السلام الجزء الأول.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْبِفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ ممن حولكم ممن هو خارج المدينة المنورة ومن أهل المدينة حيث الرسول ﷺ والقرآن يتلى وآيات النبوة تتجدد، و﴿مَرَدُوا عَلَى الْبِفَاقِ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: عتوا» انتهى.

وقال (صاحب الصحاح): «والمروء على الشيء: المرون عليه، والمارد: العاتي» انتهى، وفي (لسان العرب): «المارد: العاتي - ثم قال -: والمروء على الشيء: المرون عليه، ومرد على الكلام: أي مرن عليه لا يعبأ به، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ قال الفراء: يريد مرنوا عليه وجربوا» انتهى المراد.

فالراجح: أن المعنى: عتوا على النفاق، بسبب مروئهم عليه والفهم له، فالعتو حاصل المعنى - والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ صفة لقوله منافقون أي منافقون مردوا على النفاق وكلهم من أهل المدينة وممن حولهم، وقوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ دليل على أن الله لم يجعله يعلم الغيب، إنما يعلم ما أوحى إليه به، ولم يوح إليه بكل شيء.

وقوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ يحتمل في الدنيا، ويحتمل مرة في الدنيا أو عند حضور الموت ومرة بعد الموت قبل القيامة، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُرَدُّوْنَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ هو عذاب جهنم نعوذ بالله من عذابه وفي الآية دلالة على أن ما كل من رأى رسول الله ﷺ وسمعه صحابياً إذا كان قد شهد الشهادتين، لأن هذا الأصل يستلزم جعل المنافقين من الصحابة فإذا جعلوا من الصحابة وجعل الصحابة كلهم عدولاً نتج عنه تعديل المنافقين، وإيجاب قبول حديثهم وهم أعداء الإسلام، فالأولى أن الصحابي: من طالت ملازمته لرسول الله ﷺ متبعاً لشرعه، ولم يثبت عنه تحول عن اتباعه، وقد حققت هذه المسألة في (تحرير الأفكار).

سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ
صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ

﴿١٢﴾ ﴿وَأَخْرُونَ﴾ اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴿وَأَخْرُونَ﴾ لعله عطف على قوله: ﴿مُتَافِقُونَ﴾ فالمعنى: ومن حولكم ومن
أهل المدينة آخرون غير منافقين، لكنهم ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ
سَيِّئًا﴾ تارة يعصون وتارة يطيعون.

﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ
عَلَيْهِمْ﴾ فيوقفهم للطاعة المستمرة والتوبة النصوح ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ومن
مغفرته ورحمته تعريض عباده على التوبة وتوفيق من لم يستوجب الخذلان.
﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ ليسوا كمن قال
فيهم: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ﴾ لأن هؤلاء غير منافقين،
وإنما يتقلبون لعدم رسوخ الإيمان في قلوبهم، كما قال أمير المؤمنين: «من
الإيمان ما يكون ثابتاً مستمراً، ومنه ما يكون عواري بين الصدور والقلوب»
وذلك أنها تعرض الغفلة فينسى الإيمان فكانه كان عارية مردودة.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ يشعر بأنها الزكاة؛ لأنها تجب في الأموال المختلفة،
أما غيرها فيكفي الإنفاق من غير تبع لأنواع المال، بل قد يكفي من نوع واحد.

وقوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ يفيد: أن في إخراج الزكاة على
الوجه المقبول تطهرة لصاحبها، فهي سبب للتوفيق، كقوله في الصلاة:
﴿تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] والزكاة الطيب والصلاح، وهذه
فائدة في الزكاة عظيمة يرغب فيها كل مؤمن.

الْصَّدَقَتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾
أدع لهم إن دعواتك سكن لهم، في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام) لقوله تعالى: ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾: «معناه: دعاؤك سكن لهم وتثبيت» انتهى المراد، وفي (المصابيح) للشرفي عن (البرهان) لأبي الفتح الديلمي تفسير ﴿سَكَنٌ لَهُمْ﴾: «أي تثبيت لهم ورحمة» انتهى.

والدعاء لهم ليس مقيداً بكونه عند أخذ الصدقة، إذ ليس في الآية تقييد والعطف لا يفيد ومجرد الترتيب لا يفيد أن الدعاء لهم عقيب استلام الزكاة وقد روي الدعاء لهم عند استلام الزكاة وهو مناسب ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ فهو يسمع الدعاء ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن ينبغي الدعاء له، وسميع لكل قول، وعليم بكل شيء.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَتِ﴾ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ قد آن لهم أن يعلموا، لأن محمداً إنما هو رسول الله، مبلغ عن الله، دعا الناس إلى التوبة وأكثرهم مشركون، وهو يخبرهم أنه رسول الله يدعوهم بأمر الله، فقد آن لهم أن يعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ هو لا غيره ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ فيكفيهم أن يتوبوا إليه فتقبل منهم، ولو لم يكن الرسول ﷺ قد علم توبتهم، فليس المهم أن يعلم رسول الله ﷺ ويرضى عنهم، إنما المهم تحقيق التوبة، وليس المراد: أن يخفوها عن الرسول ﷺ أو أن لا يبالوا به ولكن المراد: أن يعلموا أن الأمر لله وحده وهو الذي يقبل التوبة عن عباده.

وقوله تعالى: ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَتِ﴾ كذلك دليل على أن النافع قبوله لها وأنه يقبلها فليرغبوا في إيتائها والمراد من التائبين؛ لقوله تعالى:

فَيَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ وَءَاخِرُونَ مُرْجُونَ لَأَمْرُ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ
وَأِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا

﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾
فليرجع إليه كل مذنب، وليتوبوا كلما زلوا، والتوَّاب: كلمة مبالغة تدل على كثرة
التوبة، وهي نوعان: توبة التوفيق للتوبة، وقبول التوبة، وذلك كله كثير وكله رحمة.

﴿وَقُلِ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ وقيل لهؤلاء
التائبين ﴿أَعْمَلُوا﴾ في المستقبل ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ وهو الذي يجزي
﴿وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ فيعاملونكم معاملة المؤمنين إن ثبتتم على التوبة
وبخلاف معاملة المؤمنين إن أسأتم وهذا تأنيس لهم؛ لئلا يظنوا أن معاملتهم
ستكون على ما تقتضيه الإساءة السابقة، ولذلك قال هنا: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾
فهم يتولون من تاب ويؤاخونه، وينسون ما سلف منه قبل التوبة، وبالأولى
أن يرضى عنهم رسول الله ﷺ لأنه على خلق عظيم.

﴿وَسُتَرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وهذا
بعث على الإخلاص لله، لأنه هو الذي يردون إليه ليجزئهم بما عملوا من
خير أو شر، وهو الذي يعلم ﴿الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ ولا ينفع عنده التمظهر
بالصلاح مع فساد الباطن ولو نفع عند الرسول والمؤمنين.

﴿وَأَخْرُوتُ﴾ ﴿مَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ وَمَنْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ﴾
﴿مُرْجُونَ لَأَمْرُ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ قال
الشرفي في (المصابيح): قال في (البرهان): وهم الثلاثة الباقيون من العشرة
المتأخرين عن رسول الله ﷺ في غزوة (تبوك) ولم يربطوا أنفسهم مع أبي
لبابة، وهم: هلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وكعب بن مالك.

ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ۚ وَلِيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ
لَكَذِبُونَ ﴿١٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ

ومعنى ﴿مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ أي مؤخرون موقوفون لما يرد من أمر الله - عز وجل - فيهم ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ أي يأمر بعذابهم في الدنيا إن لم يعلم صحة توبتهم إن بقوا على إصرارهم ﴿وَأِمَّا يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا، انتهى. ومثل هذا في (تفسير ابن كثير) و (تفسير سيد قطب) وغيرهما.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يخفون وما يعلنون عليهم بنياتهم، عليهم بتوبة من تاب وندم من ندم ﴿حَكِيمٌ﴾ فحكمه فيهم هو الحق، وتأتي إن شاء الله الآية في توبة الله تعالى عليهم.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا﴾ إثبات الواو قراءة (حفص) وعليها يكون المعنى أنهم من أهل المدينة أو ممن حولهم الذين اتخذوا مسجداً ﴿ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أما على حذف (الواو) وهي قراءة نافع فـ ﴿الَّذِينَ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمْ﴾ الآية أو ما أفاده الكلام قبله مقدر.

وقوله تعالى: ﴿ضِرَارًا﴾ أي أرادوا بهذا البنيان أن يكون مسجداً لقصد المضاربة للمؤمنين بتقوية جانب المنافقين ﴿وَكُفْرًا﴾ هو الباعث على اتخاذ المسجد لأن الغرض به محاربة الدين ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لينشقوا، ويصير بعضهم إلى مسجد الضرار، بحجة أنه مسجد فيتفرقوا.

﴿وَإِرْصَادًا﴾ إعداداً للمنافق، أي أعدوا هذا البنيان مسجداً ﴿لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ ليأتي فيصلي فيه ومعنى حارب الله ورسوله نافق وحارب دين الله ورسوله وحرّض على قتال رسول الله ﷺ كما

يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ^١ فِيهِ رِجَالٌ يُحْجَبُونَ أَنْ يَتَبَهَّرُوا^٢ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٨٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ

حكى هذا الشريفي في (المصابيح) عن (البرهان) ثم قال: «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: في معنى هذه الآية: يريد سبحانه أنهم بنوا مسجداً للضرر على الإسلام، وجعلوه حبالاً وحيلة لضعفة الأنام ليصلي معهم بعض المؤمنين، ويفترقوا بذلك عن خاتم النبيين، وجعلوه شبكة لضعفه المسلمين، ومعونة ورصداً وطريقاً لمن حارب الله ورسوله» انتهى المراد، والحبال، والشبكة: آلة توضع لإصطياد الصيد بها متى وقع فيها.

قال الشريفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): أبو عامر الراهب [يعني الذي حارب الله ورسوله من قبل] هو أبو حنظلة بن الراهب، قد حزب على رسول الله ﷺ، ثم خاف فهرب إلى الروم ومصر، واستنجد هرقل على رسول الله ﷺ، فبنوا هذا المسجد حتى إذا عاد من [عند] هرقل صلى فيه... إلخ.

وقوله: «أبو» وفي نسخة «والد» وقوله: حزب، هي مهملة بغير نقط تحتمل: حزب، وخرب، ولأجل الغلط في الكتابة تركت نقل بقية الكلام. ﴿وَلْيَخْلَفَنَّ إِن أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي أقسم ليحلف ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ ﴿إِن أَرَدْنَا﴾ بذلك المسجد ﴿إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾ إلا الخصلة الحسنى، أو إلا الإرادة الحسنى، مثلاً: أردنا الثواب والتوسعة للمصلين، وتيسير حضور الصلاة للمجاورين له في الليلة الشاتية واليوم المطير ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في تلك الحلفة؛ لأنهم قد أرادوا الضرار وسائر ما ذكره الله في أول الآية.

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ لأنهم يرغبون في أن يصلي فيه أنت يا رسول الله ليحتجوا بصلاتك على أنه مسجد ثابت له حكم المسجد وحرمة المسجد، فلا تقم فيه إبطالاً لكيدهم، وتخيباً لأملهم.

خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي

﴿لَمَسَجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ مسجد أسس بناؤه على تقوى الله، لأنه بني على نية العمل بما يرضي الله وإقامة الصلاة فيه جماعة وجمعة، وإحياء الدين فيه بتبليغ القرآن وغيره وجمع المؤمنين، لذلك فهو أحق أن تقوم فيه للصلاة وللخطبة ونحوها.

﴿فِيهِ﴾ أي في هذا المسجد الذي أسس على التقوى ﴿رِجَالٌ تُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ لصدق نيتهم في إقامة الصلاة، فهم أحق أن تصلي بهم ومعهم، وتعلمهم وترشدهم، وفيه دلالة على تفضيل جماعة الذين يحبون أن يتطهروا.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ للصلاة ولما وجب التطهر له، والمراد به: المتقون الذين يقبل منهم التطهر؛ لقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] كما أن المراد به التطهر المشروع، لا ما زاد عليه فلا فضل فيه ولا قرينة به، ويؤخذ من الآية: أن الرجال هم الأصل في الكون في المسجد وفي الجماعة، فهم أحق من الصبيان بالمسجد، ومن النساء لو ضاق المسجد، وجماعة الرجال هي الأصل ينظم إليها الرجال والنساء؛ لأنها الأصل.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ رَبِّهِ وَاللَّهُ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ هذا مثل لأهل المسجدين المسجد الذي أسس على التقوى وبنیان الضرار وتسميته بنياناً هي الصواب، لأن الذين اتخذوه مسجداً لم يقرؤا على اتخاذه مسجداً، فهو بنيان لا غير. لمسجد أسس ﴿عَلَى تَقْوَى مِنْ رَبِّهِ﴾

قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١﴾ * إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي

هدى لها وعلمها بما أنزل على رسوله ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ من الله بتأسيس البنيان مسجداً، فهو ثابت وحكمه الثبوت، وله الحرمه الباقية لبنائه على الوجه الشرعي، وعلى رضوان الله به، أفاهل هذا البنيان خير أن تقوم فيهم، أم المنافقون الذين أسس بنيانهم على نفاق وعداوة لله ورسوله، فهو خطر على أهله يوقعهم في نار جهنم، كأنه بني ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ فسقط بمن أسسه ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾.

والجرف: تكون من الأرض في جانب الوادي قد أخذ السيل أسفلها وبقي أعلاها تحته فضاوة، فهو هار حين بني مشرف على السقوط أو متساقط، وشفاها هو طرف أعلاها من جهة الوادي، فالبيان الذي أسس على فجور وسخط من الله من شأنه أن يسقط، كأنه أسس على ذلك الشفا، ومن شأنه أن يهوي بصاحبه المؤسس له في نار جهنم ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ لأنهم على ظلمهم لا يستحقون الهداية ولذلك كان بنيانهم باطلاً.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَنُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ لا يزال شكاً مقلقاً لهم في صدق الرسول والقرآن، أي لا يزال سبباً لعدم الإيمان واليقين في قلوبهم؛ لأنه منكر عظيم ارتكبه فاستحقوا به الخذلان، وما زادهم إلا بعداً من الإيمان بما نزل فيه من القرآن وبهدمه المثير لغضبهم من الحق وتعصبهم للباطل.

﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ هذا تحقيق لالتصاق الريب بقلوبهم، بحيث لا يذهب عنها إلا أن تنقطع وتفنى، فيفنى تبعاً لفنائها فهو كالصباغ الثابت في الخرقة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فهو عليم بقلوبهم وما فيها، وهو قد حكم فيها وفيهم بالحق الذي هو مقتضى الحكمة.

سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ۚ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٣٢﴾

﴿٣٢﴾ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآثٍ لَهُمْ الْجَنَّةُ ﴿٣٢﴾ جعل أنفسهم وأموالهم لله ثمنًا للجنة، ثم فسر تملكهم لأنفسهم وأموالهم بهذا البيع، فقال تعالى: ﴿يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ فهذا معنى أنها - أي الأموال والأنفس - صارت لله بالجنة، أن عليهم أن يبذلوها لله وفي سبيله في القتال لنصرة دين الله وهو سبيله.

وقوله تعالى ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ تحقيق للقتال بما يترتب عليه من أن يقتلوا من أعداء الله ويقتل بعض المؤمنين في سبيل الله، ونسبة القتل إلى الجملة باعتبار كونه مصيبة لهم؛ لأنهم كالجسد الواحد، وقد مرّ قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كُنَّا لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤] ومنه قول الشاعر:
أفتلك أم وحشية مسبوعة خذلت وهادية الصوار قوامها

مسبوعة، أي أصابها السبع بافتراس ولدها.

﴿وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ وعد المؤمنين المجاهدين في سبيله الجنة ﴿وَعَدًا﴾ قد سبق في التوراة والإنجيل وهما في القرآن فهو وعد لكل جيل بالجنة لمن آمن منهم وجاهد في سبيل الله، ولذلك هو ثابت في الإسلام إلى يوم القيامة، وقد جاهد أئمة الهدى في سبيل الله راجين هذا الثمن الربيع، فجاهد الإمام زيد بن علي، وابنه يحيى، ومحمد بن محمد بن زيد بن علي، ومحمد بن عبد الله النفس الزكية، وأخوه إبراهيم، وأخوه إدريس، والحسين بن علي بن الحسين - صاحب فخ - ومحمد بن إبراهيم أخو القاسم بن إبراهيم، والهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم، والناصر الأطروش الحسن بن علي، وغيرهم.

قال الهادي عليه السلام في (الأحكام) في (باب القول في فضل يوم الجمعة): «وَعُصِيتُ حِينَ دَعَوْتُ إِلَى اللَّهِ فَلَمْ أَطْع، فَقُلْتُ: رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي فَبِعْتَهَا مِنْهُ وَمَالِي فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ بِمَا بَذَلَ لِي مِنَ الثَّمَنِ الرِّيحِ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، حِينَ يَقُولُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ..﴾ الآية.

أتمها في (الأحكام) ثم قال عليه السلام: «ثم انتظرت أمر الله وأرصدت لذلك حتى يفتح الله، ويأذن في ما طلبت من إحياء حقه إذْنُ معونة بتسديد وتوفيق لذلك، وتأليف بين قلوب العباد... إلخ.

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ سؤال في معنى النفي لوضوح معنى النفي عند السامع، أي لا أوفى بعهد من الله؛ لأنه لا أصدق من الله قيلاً؛ لأنه عليم قدير غني حكيم فوعده للمؤمنين المجاهدين في سبيله حق لا يتخلف وسماه عهداً، لأنه كلام موثق بتسميته بيعاً، ليدل على استحقاقهم الجنة كما يستحق المبيع من اشتراه.

﴿فَاسْتَبَشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ هؤلاء الذين بايعوا طابقوا ببيعهم بيع الله ورضوا به فأمرُوا أن يستبشروا ببيعهم لما لهم فيه من الربح العظيم المحقق عند كل مؤمن فيحق للمؤمن أن يستبشر به.

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿الْفَوْزُ﴾ الظفر والفلاح مع السلامة من كل شر ﴿الْعَظِيمُ﴾ لأنه السعادة الدائمة في مقابل بذل النفوس والأموال في هذه الحياة الدنيا، فهي في جنب الخلود الأبدي في جنات النعيم شيء حقير تافه؛ لأنه في جنب الخلود الأبدي في النعيم العظيم والملك الكبير.

الْحَمْدُوتِ السَّيِّحُوتِ الرَّكْعُوتِ السَّجِدُوتِ الْأَمْرُوتِ
بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُوتِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ^٥ وَبَشِّرِ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٢٩﴾ مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا

﴿التَّائِبُونَ الْعَبْدُونَ الْحَمْدُوتِ السَّيِّحُوتِ الرَّكْعُوتِ
السَّجِدُوتِ الْأَمْرُوتِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُوتِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ
لِحُدُودِ اللَّهِ^٥ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هؤلاء الذين اشترى منهم أنفسهم
وأموالهم، هم ﴿التَّائِبُونَ﴾ إلى الله، وهم الراجعون إليه، سواء كانوا قبل
فساقاً أم كفاراً، أم هم مقبلون بقلوبهم وأنفسهم إلى الله تاركون لما يشغل
عنه من أمور الدنيا، فكلهم راجعون إلى الله ومن رجوعهم إلى الله
الإستغفار من الزلات الواقعة خطأً أو نسياناً.

وقوله: ﴿الْعَبْدُوتِ﴾ صفة ثانية لهم وهي تشمل طاعة الله في كل شيء
بقلوبهم وألسنتهم وأبدانهم، ولا ينافي ذلك ما يعرض من الزلل الذي لا
يصرون عليه؛ لأنهم بالتوبة يصيرون عابدين.

وقوله: ﴿الْحَمْدُوتِ﴾ صفة ثالثة، والحمد من شكر النعمة، وقيل: الحمد
رأس الشكر، واستمرارهم عليه كما تفيد الجملة الإسمية يفيد أنهم يحمدون
الله على كل حال يكونون فيه؛ لأنهم يعتقدونه خيراً لهم ونعمة ورحمة حتى
المرض والفقر لما يرجون من حسن عاقبته، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا
شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] وحتى لو فرض أن ذلك للذنوب؛ لأنه يدعو إلى
التوبة والإستغفار ويكفر الذنوب فهو خير لصاحبه لحسن عاقبته.

وقوله: ﴿السَّيِّحُوتِ﴾ صفة لهم رابعة تفيد أنهم يؤثرون طاعة الله فيما
أوجب من الجهاد الذين يخرجون له من ديارهم وغيره ولا يمنعهم حب الوطن

ولا حب مساكن يرضونها ولا حب تجارة يخشون كسادها ولا غير ذلك مما يرغب في القعود عن الجهاد أو غيره مما فيه نصر لدين الله وإعلاء لكلمته.

وهذا المعنى هو المناسب للسياق، وما روي في الصيام أنه السياحة محمول على الترغيب في الصيام بتشبيهه بالسياحة لا على أنه تفسير للآية، وما روي تفسيراً لا يستحق اعتماده في العدول عن ظاهر الآية الذي هو المعنى الحقيقي إلى المعنى المجازي؛ لأنه غير معلوم، وكذلك روي في تلاوة القرآن عمل الحال المرتحل، وروي في انتظار الصلاة بعد الصلاة «فذلكم الرباط، فذلكم الرباط» وكل ذلك ترغيب بالتشبيه بالسياحة وبالمرابطة في سبيل الله بالإعداد للجهاد وانتظاره في مظان لقاء العدو.

نعم وجعل ﴿السَّيْحُونَ﴾ وصفاً لازماً لتكرار السياحة بتكرر الأسباب الموجبة للخروج واستعدادهم لها بالنية والإعداد، لما يتوقع فيما بين الخروج والخروج، فكانت السياحة بذلك كالصفة اللازمة.

وقد أخرج الحاكم في (المستدرک) [ج ٢/ ٧٣] بإسناده عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله ائذن لي في السياحة، قال: «إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله» قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي، وذكر السيوطي في (الدر المنثور): أنه أخرجه ابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، والبيهقي في (شعب الإيمان) عن أبي أمامة فذكره.

ويناسب ما ذكرت في تفسير (السائحين) تفسير (السائحات) الذي ذكره الشرفي في (المصابيح) عن الهادي عليه السلام حيث قال: «فالسائحات: فهن المهاجرات إلى الله ورسوله، التاركات لأهل الكفر والجحdan، المهاجرات إلى دار السلام والإيمان» انتهى.

﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ وهاتان الصفتان الخامسة والسادسة للمؤمنين، الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم جعلوا راكعين ساجدين لحافظتهم على صلاتهم ذات الركوع والسجود، أي لحافظتهم على الركوع والسجود فيها.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهاتان الصفتان السابعة والثامنة، والعطف بـ(الواو) من عطف الصفة على الصفة لموصوف واحد، كما مرّ في قول الشاعر:

هو الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

ولعل المراد بالعطف: التنبيه على أنهم يجمعون بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أي يفعلون كلا منهما على ثقل كل واحدة على النفس، من حيث أنها تسخط المأمور أو المنهي، فقاموا بالمهمتين وتحملوا الثقيلين لإرضاء الله، مع ما بينهما من التقابل المناسب للعطف بينهما، وهاتان الخصلتان من صفات المؤمنين، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.

﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ حدود الله: هي التي تُحدُّ بها العبادات، والمعاملات، والمواثيق، والديات، والأروش، ومقادير الحدود: كحد قطع يد السارق وشروطه، وعدد الجلد في الزنا، والقذف وشرب الخمر، فالمحافظة عليها من شأن المؤمن؛ لأنه ملتزم بامثال أمر الله ونهيه وتطبيق أحكامه من غير زيادة ولا نقصان.

ويحتمل (حدود الله): ما شرعه من القطع والجلد ونحوهما، فهي تسمى حدوداً، وحفظها: إقامتها على من وجبت عليه من شريف ووضع، وغنى

لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٢﴾ وَمَا كَانَ أَسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا

وفقر، وهي ثقيلة أثقل من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو هي أثقل النهي عن المنكر؛ لأن الناس ينفرون عنها ويدافعونها ويتعصبون لمن وجبت عليه.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالثواب العظيم: «ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» لطاعتهم لله في الجهاد والتكاليف الشاقة واجتنابهم لمعصيته.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي ما صح ولا استقام، كأنه لا يتصور منهم، فالنبي تمنعه نبوءته، والمؤمنون بمنعهم إيمانهم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً﴾ [النساء: ٩٢] وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَآئِهِ نَفْسِي﴾ [يونس: ١٥] وقوله: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ٨٩].

وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ لأنهم متى تبين لهم حكم الله عليهم بالجحيم حكماً حتماً، فالاستغفار عطف على من قد غضب الله عليه، وشأن النبي والمؤمنين إثبات أمر الله على العاطفة النفسية لذي القربى أو غيره.

﴿وَمَا كَانَ أَسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ والموعدة قول إبراهيم لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [المتحنة: ٤] ولعله عليه السلام كان يطمع أن يهدي الله أباه للإيمان، فاستغفر له طلباً لهدايته، أي لا يعاقبه بالخذلان وأن يوفقه للإيمان.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ﴾ مصرُّ على الشرك معاند للحق، بعد ما وضحت له الحجة ودعاه ابنه فلم يقبل شيئاً ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ تبرأ من أبيه، وترك الإِستغفار له.

وقد يقال: ألم يكن تبين له أنه عدو لله حين وجده مشركاً؟
والجواب: أن المراد بالعداوة لله: العداوة لدينه، وهو وإن علم أنه مشرك على دين قومه وبلده فلعله لم يكن يظن فيه إلا الجهل والتقليد من دون ظنه لعداوة دين الله؛ لأنه كان جاهلاً بدين الله فحين عرفه إبراهيم عليه السلام دين الله وتبين له بالحجة الواضحة ثم عادى دين الله، فقد صار عدواً لله بهذا المعنى أي عدواً لدين الله، والظاهر: أن إبراهيم عليه السلام كان يجوز في دينه الإِستغفار لمن لم يحارب دين الله ليتوب بل هذا واضح والحجة فعله عليه السلام.

وحكى في (المصاييح) عن الناصر أحمد بن الهادي، وعن (صاحب البرهان) تفسير ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ﴾ بموته على الشرك وإيأسه من إيمانه، وذكر أنه كان يرجو أن يُسلم، وعلى هذا لا يبعد أن يفسر قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ بمن مات مشركاً أو ثبت أنه لن يؤمن، وهما مسألتان: مسألة: الإِستغفار لمن يرجى له التوفيق للإسلام ليسلم، ومسألة: الوعد له بالإِستغفار.

فالآيتان هنا في (سورة التوبة) في الإِستغفار نفسه، والآية في (سورة الممتحنة) هي في قوله: ﴿لَا تَسْتَغْفِرُنَّ لَكَ﴾ [آية: ٤] ولا يبعد اختلاف الحكم، فالإِستغفار سراً بحيث لا يشعر به الكافر الذي يرجى إيمانه، لا ينافي إظهار العداوة له، أما وعده بالإِستغفار فهو يعبر عن العاطفة، فهو لا يناسب إظهار العداوة، ويختص بالوالدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَلِحْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥] - والله أعلم.

يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ تُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): ذكر من
معاني الأواه: «المتضرع بالدعاء، ومنها: الموقن بالخشية» انتهى.

وفي (المصابيح) تفسير الشرفي: «قال في (البرهان): والأواه: الداعي
المتضرع الخاشع، وأصل الأواه من التأوه [أي قول القائل: آه] وهو التوجع،
ومنه قول العبدی:

إذا ما قمت أرحلها بلیل تأوه أهة الرجل الحزين

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «الأواه: الخاشع المتضرع» وقيل: معنى
كون إبراهيم عليه السلام أواهاً: أنه كان كلما ذكر لنفسه تقصيراً أو ذكر له شيء
من شدائد الآخرة كان يتأوه إشفافاً من ذلك» انتهى المراد.
والحليم: الذي لا يقابل الإساءة بمثلها عند وقوعها؛ لرجاحة عقله أو
حكيمته، بل يتحمل الأذى عند الإساءة إليه. وقال الراغب: «الحلم: ضبط
النفس والطبع عن هيجان الغضب» انتهى المراد.
ولما كان الاستغفار للكافر الذي يرجى إيمانه من معناه طلب أن لا يضلّه
الله بالخذلان قال تعالى:

﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا
يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُضِلَّ﴾ ليس من
شأنه مع كرمه ورحمته وحلمه أن يضل ﴿قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ﴾ بإرسال
الرسول، وإنزال الكتب، والدعوة إلى توحيده وعبادته، ونظير هذا قوله
تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [نصلت: ١٧].

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٤﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ

﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ يكشف لهم حقيقته ويوضحها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [المائدة: ٩٠] ومن بيان ما يتقون بيان قبح المعصية وكونها سبباً للعقاب وكونها كفر نعمة ونحو ذلك من مفاسدها، فإذا تبين لهم قبح المعاصي وكونها سبباً للعذاب ثم تمردوا بعد ذلك فقد يخذلهم لتمردهم بعد البيان وهو البصير بعباده العليم بسرائرهم، ولذلك قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فهو عليم بمن يستحق الخذلان ومن يصلح للهداية والتوفيق للإيمان.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ تُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فمن فيهما هم عبيده ﴿تُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ متى شاء فمن أماته على الشرك لم يكن له حق في أن لا يميته الله، لأن الملك له في عباده والتصرف كيف يشاء ﴿وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من يحول بينه وبين التصرف فيكم كيف يشاء، بأن يتولى أموركم غيره ويكون أمركم إليه ليحول بينكم وبين أمر الله، أو بأن ينصركم ويدفع عنكم قضاء الله بل لله الحكم في عباده وحده.

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ هذه توبة عظمى، ولذلك قرن الله بين النبي ﷺ و﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ فهي توبة الرحمة والرضوان، وإعداد الجنات بعد الإبتلاء الشديد بغزوة العسرة (غزوة تبوك).

عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٤﴾ يَتَأْتِيهَا

قال الشرفي في (المصاييح): «قال في (البرهان): «وهي (غزوة تبوك) قَبْلَ الشَّام كانوا في عسرة من الظَّهْرِ [أي المركوب] كان الرجلان والثلاثة [يتعاقبون] على بعير، وفي عسرة من الزاد حتى ذكر أن الرجلين كان يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم فيمصها أحدهم ثم يشرب عليها من الماء ثم يمصها الآخر، وفي عسرة من الماء، وكانوا في التهاب الحرّ وشدته، وروينا في الخبر: أنه أصابهم يوماً عطش شديد، فجعلوا ينحرون الإبل، ويعصرون أكراشها فيشربون ماءها، فأمطر الله عليهم السماء بدعاء النبي ﷺ» إلخ.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ أي اتبعوه من بعد ذلك، ومعنى ﴿تَزِيغُ﴾: تميل عن الهدى والصواب إلى الباطل كادت تزيغ، ولعل ذلك لشدة وقت الغزوة ولأجل العسرة في الظَّهْرِ والزاد ولبعد المسافة، ولكون الاتجاه فيها لحرب الروم وهم أولو قوة عظمى، فكانت الصوارف عن الطاعة كثيرة ولأجلها كاد تزيغ قلوب فريق منهم فيتخلفوا عن رسول الله ﷺ ويقعدوا بعدما أمرهم أن ينفروا ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ بلطفه وتوفيقه فلم يتخلفوا ولم تزيغ قلوبهم.

﴿إِنَّهُ بِهِمْ﴾ بالنبي ﷺ والذين اتبعوه ﴿رَّءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ قال الراغب: «الرأفة: الرحمة» وقال (صاحب الصحاح): «الرأفة: أشد الرحمة» انتهى، فالجمع بين ﴿رَّءُوفٌ﴾ و﴿رَّحِيمٌ﴾ يحمل على الحالات المختلفة، ففي حالة رأفة، وفي حالة رحمة - والله أعلم.

﴿و﴾ لقد تاب الله ﴿عَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ الذين قال فيهم: ﴿وآخَرُونَ مُّرْجُونَ لَأَمْرِ اللَّهِ﴾ فهو تخليفهم عن حكم غيرهم من الذين تاب عليهم ومن المنافقين الذين سخط عليهم، فهؤلاء خلفوا بإرجائهم لأمر الله.

﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي برحبها أي بسعتها وقوله: ﴿حَتَّىٰ﴾ وما بعده غاية لتخليفهم ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ﴾ لأنهم ندموا على التخلف، وأقروا أنه لا عذر لهم، فتركوا لم يحكم فيهم رسول الله ﷺ وانتظر أمر الله فيهم، قالوا: ونهى الناس عن أن يكلموهم فضاقت عليهم الأرض على اتساعها بسبب ذنبهم وما أدى إليه من إرجاء أمرهم، وضيق الأرض كناية عن سوء حالهم في محلهم، وعدم وجدانهم مكاناً غيره يتخلصون فيه من همهم وغمهم؛ لأنهم لا يريدون مفارقة رسول الله ﷺ ولا يرون ذلك مخلصاً لهم مما هم فيه، بل يزيدهم من الله بعداً.

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ﴾ فلم يبقَ في أنفسهم اتساع وانبساط ولا مجال لعودة الحالة الطبيعية التي لا قلق فيها، والتي يكون معها بعض السرور لبعض الأسباب، فقد صارت أنفسهم لا مجال فيها لذلك، وهذه حالة نفسية شديدة على الإنسان.

﴿وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ لأن الرسول ﷺ وقف أمرهم وأرجأهم لأمر الله فيهم وأمر الله فيهم إما يعذبهم وإما يتوب عليهم، فقد علموا أن التوبة إلى الله هي طريق النجاة، وهي الملجأ من عذاب الله، وفائدة التشديد هذا أن يحذر الناس التخلف عن الجهاد ولا يتهاونوا به لثقله على النفوس، والجهاد ضروري لدفع الفساد في الأرض.

فلو كفى المتخلف أن يقول عند رجوع رسول الله ﷺ: قد تخلفت لغير عذر، وأستغفر الله العظيم وأتوب إليه، لكانت وسيلة لتخلف الكثير من الناس لذلك كان من الحكمة أن يتوقف قبول التوبة من التخلف على مشقة تعدل مشقة الجهاد حتى ينزجر الناس عن التخلف، ولهذا فلا يقاس على التخلف كل عصيان بل يؤدب العاصي لكل معصية بقدر ما يراه أهل الحكمة والرأي الصائب.

الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ
الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا

وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام تأديب مختلف لأكل الربا تحريق بعض
حبّه، وللزاني في نهار شهر رمضان جلد مع الحد، ولأهل الشطرنج تحريق
رقعتهم وجعل رجل كل واحد منهم في عقاب، وذلك على ما تقتضيه
الحكمة، لا على قدر الشهوة والغضب.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ عطف على ﴿خَلُفُوا﴾ وما يتصل به أي
خلفوا لتلك الحالة التي صاروا فيها، ثم بعد ذلك التخليف تاب الله عليهم
فهداهم للتوبة الصادقة ليتوبوا.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ كثير التوب على عباده رحيم بهم، وقد مرّ
أن الله هو يقبل التوبة عن عباده، فأغنى بيان توبتهم عن ذكر قبولها، وفي
ذلك تنبيه على أن المهم أن يتوب الله على عبده المذنب ليتوب، وذلك
يكون على ما تقتضيه الحكمة وعلى ما تقتضيه حال العاصي من استحقاق
التوفيق أو الخذلان، وقد روي: «أن رابعة العدوية سئلت هل من تاب تاب
الله عليه؟ فقالت: لا، ولكن من تاب الله عليه تاب» انتهى.

وقولها: لا، إنما هو دفع للسؤال لا نفي لقبول توبة التائب، تريد: أن المهم
هل يتوب الله على العاصي، فأما قبول توبة التائب فواضح.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿اتَّقُوا
اللَّهَ﴾ تمهيد لقوله تعالى: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ ليدل على أن الكون
مع الصادقين من التقوى، ومعنى هذه المعية: صدق الولاء للصادقين،
ومشاركتهم في أمورهم العامة المهمة مثل: الجهاد، والنصح لله ورسوله،
والدفاع عن الدين بالحجة الواضحة وبالسلاح.

بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا
مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ
مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ

والصادقون: المؤمنون الذين صدقوا في دعوى الإيمان وصدقوه بأعمالهم
وجهادهم، والتزموا الصدق ولازموه حتى صار صفة لهم، فيطلق عليهم
اسم الصادقين، قال تعالى: ﴿قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ
رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾ إلى قوله تعالى:
﴿..الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٥-١٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ
آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] فالواجب أن نكون مع هؤلاء، ومن ضمن
هذه المعية: الجهاد في سبيل الله معهم، ولذلك عقب هذه الآية بقوله تعالى:

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ
رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْعَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾
الذين فيهم رسول الله ﷺ سيد الصادقين ﴿وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ الذين
هم بجوارهم للمدينة يستطيعون الجهاد مع رسول الله ﷺ وتبلغهم دعوته إلى
الجهاد، فما صح لهم ولا استقام ﴿أَنْ يَتَخَلَّفُوا﴾ لأنه القدوة وفيه الأسوة لكل
مؤمن؛ ولأن عليهم فرض من الله أن يكونوا معه ﴿وَلَا يَرْعَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ
نَفْسِهِ﴾ أي لا يرغبوا عن مصاحبته في الجهاد حفاظاً على أنفسهم من أن
تكون كنفس رسول الله ﷺ ومعها معرضة للقتل، هذا حاصل المعنى، فما كان لهم
أن يتخلفوا ولا يرغبوا عن كونهم معه؛ لأنهم إن تخلفوا ورغبوا عنه فاتهم
الخير الكثير والأجر العظيم، مع ما ينالهم من عقوبة التخلف.

﴿ذَلِكَ﴾ أي كونه لا ينبغي لهم التخلف والرغوب بأنفسهم ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ مصحوب بأنهم أو بسبب أنهم ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمًا وَلَا نَصَبٌ وَلَا خَمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إذا جاهدوا مع رسول الله ﷺ إلا كتب لهم، والظما: العطش الذي يصيب المجاهد لعدم الماء أو تعذر الشرب، والمخمصة: الجماعة كذلك، والنصب: التعب والجهد.

﴿وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ يطأون بأقدامهم أو أرجل خيلهم وضع الأقدام على أرضهم أو ما يغيظهم وطؤه ﴿مَوْطِئًا﴾ مصدر أي وطأ ﴿يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ لدلالته على عزة الإسلام وشجاعة المجاهدين، والغيظ: أثر في النفس لسبب مكروه، قال في (لسان العرب): «الغيظ الغضب، وقيل: الغيظ: غضب كامن للعاجز، وقيل: هو أشد من الغضب، وقيل: هو سورته وأوله» انتهى، أي لا يطأون ذلك الموطئ إلا كتب لهم كما يأتي بعد هذه الجمل المتعاطفة.

﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ ﴿لَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ﴾ لا يصيبون العدو في نفس أو مال أو غرض أو نحو ذلك، فقوله: ﴿نِيلاً﴾ لتأكيد العموم ليعم الشديد واليسير، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ﴾ أي بما وقع من ذلك ﴿عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ أي كتب لهم في كتاب عملهم عمل صالح وقع منهم، ووصفه بالصلاح يفيد أنه نافع لهم متقبل منهم لم يعارضه مفسد ولا محبط وكتابته دلالة على أنه لا يضيع أجره لأن الشيء يكتب ليحفظ، فالمحافظة عليه بالكتابة دليل على الإثابة، وأنه يراه صاحبه يوم القيامة.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ولذلك يكتب لهم وقوله: ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ إما للدلالة على أنه يقبل منهم لأنهم محسنون لا يعملون ما يحبطه، وإما للدلالة على أن تلك الأعمال هي من الإحسان الذي يتقبله الله ويثيب عليه، وإما للدلالة على مجموع الأمرين.

وَإِذَا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣١﴾ وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٣٢﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا

﴿وَلَا يُنْفِقُونَ﴾ في الجهاد أو طريقه ذهاباً أو إياباً ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ في ذهاب أو إياب وقطع المسافة بالسير من أولها إلى آخرها ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ فهو متقبل يثابون عليه.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فذلك الجهاد وما فيه من سبب الظمأ والمخمصة والنصب ووطئ موطن يغيب الكفار والنيل من الأعداء وما ذكر في الآية الثانية كل ذلك يكتب لهم ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فهو أحسن ما كانوا يعملون أو هو من أحسن ما كانوا يعملون ففائدة التفضيل بيان: أنه أحسن ما كانوا يعملون، أو من أحسن ما كانوا يعملون، ولا ينافي ذلك جزاؤهم بالحسن من أعمالهم، أو المراد بالأحسن: القرب كلها وتفضيلها على بقية أعمالهم المباحة وغيرها؛ لأنها كلها مما كانوا يعملون.

﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ﴿لِيَنْفِرُوا﴾ ليخرجوا من بلدانهم إلى الرسول ﷺ ليكونوا معه في المدينة، فظروفهم لا تساعد على ذلك كلهم وليس من لازم الكون معه مجاورته في المسكن، بل يكفي اتباعه ومصاحبته في الجهاد وفيما دعاهم له.

والأعراب الذين هم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله ونحوهم، يكفيهم أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة ليتعلموا من رسول الله ﷺ دينهم الذي يأخذونه من القرآن وكلام الرسول ﷺ وأفعاله وتقديره، ولم يُذكر الرسول ﷺ في هذه الآية ولا في التي قبلها، لأنهما غير خاصتين به، ففيما بعده يقوم المؤمنون المتقون أهل العلم النافع مقامه في وجوب الكون معهم، وفي وجوب التعلم منهم، وأن ينفر إليهم ﴿مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ بما يبلغونهم من وعيد الله لمن عصاه ولمن أعرض عن كتابه واشتغل بالمال والأهل.

فأما قول من قال: إن هذه الآية ناسخة لوجوب الجهاد إلا على الكفاية فليس عندي قوياً؛ لأن وجوب الجهاد كان تابعاً لقول الرسول ﷺ للذين آمنوا انفروا في سبيل الله، فإن كان المراد: وما كان المؤمنون لينفروا للجهاد ولو دعاهم الرسول ﷺ لزم أنه نسخ لوجوب طاعة الرسول ﷺ وهذا خلاف المعلوم من الدين، وإن كان المراد: وما كان المؤمنون الذين لم يدعهم للخروج فلا نسخ؛ لأنهم في وقته ﷺ على هذا التقدير لم يؤمروا بالنفر، لأنه إنما لا يأمرهم لأنه غير واجب عليهم، لأن ظروفهم لا تساعد لهم لأنهم ضعفاء أو نحوهم.

ثم إن التعليل بقوله تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ لا يساعد على كون السياق في النفر للجهاد، بل هو قرينة أنه النفر لمجاورة الرسول ﷺ ومن معه من الصادقين، ولتعلم حدود ما أنزل الله على رسوله ﷺ فالمراد بقوله تعالى: ﴿لِيَنْفِرُوا﴾ أي إلى محل الفقه في الدين ومركز الصادقين، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ تَحْذَرُونَ﴾ كالتعليل للإنذار.

فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا

﴿١٢٣﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَتِلُوا الَّذِينَ يُلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وهذا أمر بالقتال مطلق عام فبطل قول من زعم أنه منسوخ إلا على الكفاية، ومتى تحصل الكفاية لأن القتال مكروه للطباع، وعلى فرض: أنه فرض كفاية يتوكل الناس، ويبطل الجهاد بعد الكفاية، فالأولى أنه واجب عام، إلا أن تدبيره إلى الإمام لتحديد من يأمرهم بالنفر إما العموم وإما الخصوص.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُلُونَكُمْ﴾ يدل على وجوب البدء بهم لأنهم أقرب إلى الضرر على المسلمين، وقد قيل في تفسير ﴿الْكُفَّارِ﴾ الحكام الحاكمون بغير ما أنزل الله، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] وهذا واضح في المتعمدين للحكم بغير ما أنزل الله الذين يجعلون الدين تبعاً لسياستهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أمر بالشدة عليهم والعنف في قتالهم، بحيث يعلموا قسوتكم عليهم وبعدهم من الرحمة لهم. قال في (لسان العرب): «الغلظة: ضد الرقة في الخلق والطبع والفعل والمنطق والعيش ونحو ذلك» انتهى. والمراد الغلظة على الكفار الذين أمرنا بقتالهم، فلا يدل على قتل الأطفال، وبقر بطون الحوامل.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ تشجيع لهم على القتال؛ لأنه تعبير عن توليه لحسن رعايتهم فحيث يكون منها نصرهم ينصرهم، كقوله تعالى لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦].

فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ
إِيمَانًا﴾ ﴿أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ أنزل الله سورة على رسوله ﷺ فبلغها ﴿فَمِنْهُمْ﴾
أي من المنافقين وإن لم يذكروا هنا فقد مر ذكرهم كثيراً في السورة ﴿أَيُّكُمْ
زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ عبارة جدال في القرآن وفي كونه من الله وفي كونه
معجزاً يجب الإيمان به والإيمان بالرسول وما جاء به من أجل القرآن الدال
على صدق الرسول ﷺ فالسورة التي هي معجزة، بدليل التعجيز بها في
قوله تعالى: ﴿فَاتُوا بِسُورَةٍ﴾ [البقرة: ٢٣] لا بد أن تزيد المؤمن إيماناً لأنها معجزة
كاملة جديدة توجب الإيمان وحدها فإذا نفوا زيادتها للإيمان فقد نفوا كونها
تسبب الإيمان وهو نفي لإعجازها.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لما فيها من زيادة
العلم لهم والهدى والشفاء ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ شك
وارتياب وكراهة للدين ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ لأنهم ازدادوا ضللاً
بنفي كونها معجزة وجدالهم فيها بقولهم: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾
فلما كان ازديادهم رجساً وقع بسببها، قيل: زادتهم، وهم الذين ازدادوا
رجساً، والرجس: قدر معاصيهم فهي نجاسة معنوية.

﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ بسبب تراكم أرجاسهم لم يوفقوا للتوبة،
وقوله: ﴿وَمَاتُوا﴾ إما خاص بمن كان قد مات عند نزول هذه الآية، وإما
عام للذين في قلوبهم مرض، وعبر بالماضي لموت بعضهم وتحقيقه من الباقيين
والمتحقق يعبر عنه بالماضي، مثل: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ [الكهف: ٩٩] وهذا هو
الصحيح لقوله تعالى:

يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٦١﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٦٢﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ

﴿١٦١﴾ «أَوَّلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ» ﴿١٦٢﴾ فلو كان الكلام فيمن قد مات لكان الأصل في التعبير أولم يروا أنهم كانوا يفتنون، والفتنة هاهنا: هي المصيبة يصابون بها، وهي تأديب وتعريض على التوبة في كل عام ﴿١٦١﴾ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ ﴿١٦٢﴾ لأن قلوبهم قد بعدت من التوبة وصارت لا ينفع فيها نافع ﴿١٦٢﴾ هُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٦٣﴾ فما وقع عليهم من المصائب لا يبعثهم على التذكر كما ترى كثيراً من أهل الزمان إذا وقع زلزال أو نحوه نسبوا ذلك إلى الأسباب الطبيعية ونسوا التذكر بها.

فهؤلاء المنافقون تتابعت لهم أسباب التوبة فلم تنفعهم، فالرسول ﷺ عندهم يتلو القرآن وما فيه من المواعظ من الوعيد، وما فيه من زجرهم عن النفاق بكشف ما كشف من أسرارهم، وما فيه من التوبيخ لهم والذم لهم والأمر بالإعراض عنهم والمصائب التي تعرض لهم، ثم لا يتوبون بعد ذلك كله ولا هم يتذكرون.

﴿١٦٢﴾ «وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ» ﴿١٦٣﴾ «هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ» تفسير لقوله: ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ لأنهم يفهمون من نظر بعضهم إلى بعض إرادتهم ترك الاستماع للسورة وإرادة التسلل من بين المؤمنين، فكأنهم يقولون عند التسلل: ﴿هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ أي لا يراكم أحد فانصرفوا، فالاستفهام بمعنى: أن السامع يعلم أنه لا يراهم من أحد.

حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا﴾ بعد نظر بعضهم إلى بعض ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ دعاء عليهم يعبر عن غضب الله عليهم واستحقاقهم الخذلان الذي لأجله ينصرفون عن الهدى ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ الآيات والمواعظ والتحذير وغير ذلك لإعراضهم وكراهتهم للحق.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ خطاب للذين آمنوا ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ أي شاق عليه، وفي كلام الإمام علي عليه السلام، لأخيه عقيل شعر:

يعزُّ عليٌّ أن تُرى بي كآبة فيشمت عادٍ أو يساء حبيبُ

وقوله تعالى: ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ ﴿مَا﴾ مصدرية و﴿عَنِتُّمْ﴾ بمعنى: أصابكم عنت وهو الضرر. قال في (لسان العرب): «العنت: دخول المشقة على الإنسان ولقاء الشدة» انتهى.

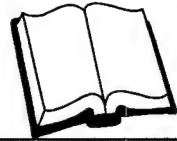
﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ شديد الرغبة في المؤمنين وكثرتهم وبقائهم، لقوة رغبته في ظهور دين الله وانتشاره في الأرض ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فهو يشفق عليهم من كل مضرة، ويرفق بهم بقدر ما ينبغي، فهو رسول يحق اتباعه والكون معه والنصح له، ويقبح عمل المنافقين في إعراضهم عنه وتخلفهم عنه، وتثاقلهم عن طاعته، وتوليهم لأعدائه وما يصدر عنهم في شأنه.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن اتباعك يا رسول الله والإيمان بك ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ كافي الله فهو معي وهو ينصرني ويظهر دينه بغيركم ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فلا احتاج إلى غيره ولا ينصرني غيره.

﴿عَلَيْهِ﴾ وحده ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ في قيامي بأعباء الرسالة ودعوتي للناس
 وجهادي في سبيل الله وغير ذلك، وكلت أمري إليه وحده فما شاء قضاءه لي
 وما قضاءه لي رضيت به ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ وهو الملك الذي له
 الملك العظيم، فله الأمر في كل شيء وعلى كل مخلوق ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾
 [آل عمران: ٤٠] و﴿يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١] ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١]
 ﴿الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨] فهو حسي ونعم الوكيل.



التَّيْسِيرُ فِي التَّفْسِيرِ



سُورَةُ يُوسُفَ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي

تفسير (سورة يونس)

ومواضيعها مواضيع السور المكية

﴿١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الحروف التي يتركب منها الكلام ﴿الر﴾ وسائرهما، ومعنى أنها آيات القرآن أنه مؤلف منها ولذلك فائدتان:
الأولى: أن الله تعالى أوحاه إلى رسوله ﷺ كلاماً ليس مجرد معناه فذكر الحروف لتحقيق أن الله أوحاه بكلماته وحروفه.

الفائدة الثانية: تعجيز العرب بهذا الكتاب الذي هو مؤلف من الحروف التي ينطقون بها فلو كانوا يستطيعون الإتيان بمثله لكان إتيانهم به أيسر من حيث أنه من جنس حروف كلامهم، فلما لم يأتوا بمثله تبين أنه كلام الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿الْحَكِيمِ﴾ وصف للكتاب بما يوصف به العالم الذي يدل على الصواب ويرشد إلى ما تقتضيه الحكمة؛ لأن هذا القرآن تستفاد منه الحكمة؛ لأنه ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] ولكن الكفار كذبوا به وكذبوا الرسول الذي جاءهم به، فقال تعالى:

﴿٢﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴿٢﴾ ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ أي عجباً، أو سبب عجب، والسؤال سؤال توبيخ لهم، ودلالة على أنه ليس عجباً؛ لأن هذا

الوحي تقتضيه الحكمة والرحمة وتستدعيه عظمة الله وعزته، فهو لم يخلق الناس عبثاً، فلا يهملهم وقبلهم الآخرة بما فيها من الجزاء العظيم، عذاب شديد تقتضي الحكمة إنذار الناس لئلا يقولوا في الآخرة: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ [طه: ١٣٤] ﴿لَقَدْ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وثواب عظيم يستدعي تبشير المؤمنين ليعملوا ويصبروا في السعي له على المكاره، حتى يفوزوا به فليس الوحي بهذا عجباً، وهذا الثواب بسبب أن لهم قدم صدق عند ربهم، فإذا بشرهم أن لهم ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ فهو يبشرهم بما يرغب فيه أهل الحب لله أعظم من رغبتهم فيما يترتب عليه من الجنة ونعيمها.

قال في (الكشاف) في تفسير ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: «أي سابقة وفضلاً ومنزلة رفيعة، فإن قلت: لم سميت السابقة قدماً؟ قلت: لما كان السعي والسبق بالقدم سميت المسعاة الجميلة والسابقة قدماً» انتهى.

وأما الراغب فقال: «وقوله: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي سابقة فضيلة، وهو اسم مصدر» انتهى.

فجعل القدم نفس التقدم والزلفى والتفسير واحد، إلا أن صاحب (الكشاف) جعل القدم المعبر بها عن السعي عبارة عن المسبب الذي هو المنزلة الرفيعة.

﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا﴾ القرآن الذي أوحيناه ﴿لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وهذا دليل على أن له مزية على كلامهم تستدعي الإيمان به فجعلوه سحراً لذلك وكذبوا لو كان سحراً لغلب المعاند كالوليد وأبي جهل وأبي لهب ولأحس المسحور بسلب حرية الاختيار أن بقي له عقل أو فارق العقلاء كمن خبله السحر وصار لأجله من المجانين؛ ولعنادهم وجراتهم على

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ

الكذب قالوا سحر مبین، وأكدوا كذبهم بـ (إن) و (اللام) وادعوا أنه بیّن كونه سحراً لا يخفى فأضافوا كذباً إلى كذب ولم يكن ينبغي لهذا القرآن الذي هو خير لمن آمن به وإنذار وتبشير أن يقابلوه بالمحاربة له؛ لأنه الحق ولأن الناس في أشد الحاجة إليه ليخرجهم من الظلمات إلى النور وينقذهم من النار ويهديهم إلى السعادة الدائمة.

﴿٢﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ هذا احتجاج على المشركين وبيان لبطلان الشرك ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ المالك لكم هو ﴿اللَّهُ﴾ فأنتم عباده وحده لا شريك له فيكم فكيف جعلتم له شركاء فيكم؟! ثم قال: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ فبين أن له الملك على كل شيء؛ لأن له الملك قبل كل المخلوقين فقد استحق المُلْك - بضم الميم - وثبت له يوم خلق السموات والأرض.

وقوله: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ يدل على قدرته العظيمة، وضلال الكافرين به الجاعلين له أنداداً، وهو الملك الحقيقي الذي معناه أن له أن يحكم ما يريد، وله الولاية المطلقة على كل شيء لأنه المالك لكل شيء؛ لأنه الخالق للسموات والأرض وما فيهما.

فترتيب استوائه على العرش على خلق السموات والأرض، يفيد: ثبوت الملك له الملك العظيم العام، وعلى سبق ملكه؛ لأنه خلق فملك فكان له

الْمَلِك [بضم الميم] فتولى أمر ما خلق، وهو معنى ﴿أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ أما عطفه بـ(ثم) فثم ليس للتراخي وإنما هو للدلالة على الترتيب مع تباين ما بين المعنيين الخلق والإستواء على العرش في علو الشأن أو الحكمة لا أعلمها.

وإذا كان له الْمَلِك - بالضم - الملك المطلق، فله الحكم وحده ليس لأحد غيره، وهذا يثبت أن حكمه يبطلان الشرك هو الحق، وأن حكمه على عباده أن يعبدوه هو الحق فليس لمخلوق أن يشرع الشرك أو أن يتخذ الله شريكاً، وهذا نظير قول يوسف عليه السلام: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِلَهُهُ﴾ [يوسف: ٤٠].

وبهذا ظهر ارتباط قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ بسياق الآية الذي هو الدلالة على وجوب عبادة الله وحده وعلى بطلان الشرك بخلاف تفسير المخالفين له بمعنى مجهول فإنه لا يفيد في الإحتجاج على إبطال الشرك الذي كانوا عليه في الجزيرة العربية عند نزول القرآن.

أما قولهم: «الإستواء معلوم» فإنما أرادوا به: اللفظ معلوم، وله عندهم معنى مجهول وإن سموه معلوماً، فإنما ذلك بمعنى: أن الإستواء المجهول معناه الذي لا يسأل عنه هو معلوم عندهم، أي أنهم يعلمون استواء لا يفهمون معناه، وهذا يُصَيِّرُ قوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ أجنبياً عن سياق الآية لإيجاب التوحيد وإبطال الشرك؛ لأنه لا معنى للإحتجاج بالمجهول جملة وتفصيلاً، وأبعد من ذلك تفسير المشبهة الذين يعترفون بالتشبيه بأنه مثل استواء الناس على سررهم أي اعتدالهم مع قعودهم عليه.

يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٤١﴾ هُوَ الَّذِي

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ يهيئ ويعد لمستقبل ما خلق على ما تقتضيه الحكمة مثل تقدير الأقوات في الأرض ليكون عاقبة ذلك انتفاع الإنسان وعيشه في الأرض فتدبير الأمر إعداده لعاقبة تقتضيها الحكمة، والأمر: هو أمر ما خلق، وأمر استوائه على العرش الذي هو شأن تصرف المَلِك في مملكته فله الحكم وحده، وهو الذي ينبغي أن يُخشى ويُرجى ويُعبد ويُدعا ليدبر لعبده حياة طيبة في الدنيا والآخرة، وتدبيره تعالى للأمر يعترف به المشركون الذين كانوا حول الرسول ﷺ كما يأتي ذكره في هذه السورة إن شاء الله.

﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ بالشفاعة لأن الملك له وحده لا يشاركه فيه أحد وكل من في السموات والأرض عباد له، فبطل بذلك قول المشركين: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾.

﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ وحده لا شريك له في ربوبيته ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ إقراراً بأنكم عباده وأنه ربكم، وهذه عبادته وحده؛ لأنها هي التي يقبلها الله، أما مع الشرك فالعبادة له غير مقبولة فلا يعد صاحبها ممثلاً لأمر الله تعالى في قوله: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنه ربكم وأنكم عبيده لا شريك له فيكم، وأنه الذي خلق السموات والأرض ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ حتى تعبدوه وحده وترفضوا شركاءكم.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ ﴿إِلَيْهِ﴾ وحده ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿جَمِيعًا﴾ مجموعين في موقف العرض على الله.

﴿جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾
 ﴿إِنَّ فِي آخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ

﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ أي الوعد بالمرجع إليه وعده الله وعداً حقاً صادقاً لا يتخلف حقاً صواباً، ويحتمل ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ موعود الله أي المرجع إليه موعود الله حقاً ثابتاً لا يتخلف كما تقول: الموت حق، والعين حق، أي أنه أمر واقع فالوعد به صادق وإذا كان مرجعكم إليه وحده ما لكم من دونه من ولي ولا نصير فاتقوه واعبدوه وحده.

﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ لأنه على كل شيء قدير وقد علم الإبداء فدل على قدرته على الإعادة، فدل ذلك على صدق الوعد بالحياة الآخرة والمرجع إلى الله فيها.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل لأنهم أطاعوه فإعادتهم ليجزيهم بقدر ما يستحق كل واحد منهم مع أنه يزيدهم من فضله.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾
 الذين كفروا بالله إما لجحودهم وتكذيبهم بآيات الله الدالة على صدق وعده بالمرجع والجزاء، وإما لكفرهم بنعمة الله ففي هذه الثلاث الآيات ذكر الرسول والوحي إليه، ثم الدليل على أن التوحيد هو الحق، ثم ذكر الآخرة.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً﴾ وهذه آية عظيمة تدل على قدرته ونعمته على العبيد تستدعي شكره عليها؛ لأنهم في ضياء الشمس يطلبون المعاش ولو استمر الليل لساءت حالتهم فجعلها ضياء هو من تدبير الأمر يحتاج به على المشركين لإبطال الشرك ولإثبات صدق الوعد بالآخرة.

لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَاطْمَأْنَنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ

﴿وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ يخفف ظلمة الليل لمن احتاج إلى ذلك لسفر أو غيره
﴿وَقَدَرَهُ﴾ أي قدر القمر ﴿مَنَازِلَ لَتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ قدره
صغيراً ثم يكبر ثم يصغر تبعاً لمنازله من البروج التي ينزل فيها فينزل في كل
ليلة في منزلة حتى يتمها ويتم الشهر بتمامها ﴿لَتَعْلَمُوا﴾ بذلك ﴿عَدَدَ
السِّنِينَ﴾ التي تعدادها بواسطة تعداد الشهور ﴿وَالْحِسَابَ﴾ ولتعلموا
حساب الأوقات كالتاريخ الهجري والتاريخ الميلادي وغير ذلك.

﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ لأنه مما تقتضيه الحكمة ويطابقها فليس
عبثاً بل هو مخلوق لما يترتب عليه من الفوائد للإنسان وغيره ومن الثواب
والعقاب في الآخرة.

﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ الدالة على قدرة الله
وأنه ربكم وحده، وأن مرجعكم إليه، والجملة حالية، كما أن قوله:
﴿بِالْحَقِّ﴾ حال من قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ فهي الآيات الكونية
أو ما يعمها وغيرها، وتفصيل الآيات جعل بعضها منفصلاً عن بعضها
الأخر لتعدد الدلالات بتعدد الآيات وتفصيلها، وتوضح كل آية بفصلها عن
غيرها، وتفصيلها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ من أجل أن يعلموا دالاتها على الله
وهم الذين من شأنهم أن يعلموا لسلامة قلوبهم من العمى المسبب عن
التمرد والعناد.

﴿٦﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٧﴾ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴿تَخَالَفَهُمَا﴾ فكل واحد يخلف

الآخر ويخلفه الآخر على نظام محكم وتقدير مناسب للحيوان وغيره ففي ذلك دليل على الله تعالى ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ﴾ لعل المراد به الشمس والقمر والنجوم أو أعم من ذلك لمن يطلع على الملائكة وعلى كل ما في السموات ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي وما خلق الله في الأرض من حيوان ونبات وجمادات وغيرها ﴿لَا يَسْتِ﴾ إن في ذلك المذكور لآيات ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ وخص المتقون لأنهم هم الذين سلمت قلوبهم من توابع الخذلان المسبب عن التمرد والعناد، فهم يعرفون آيات الله ودلالاتها على الله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأْنَأُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ قال الراغب في تفسيره لـ (مفردات القرآن): «والرجاء: ظنٌ يقتضي حصول ما فيه مسرة، وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] قيل: ما لكم لا تخافون...» الخ.

وهو في الآية يمكن بقاؤه على أصله؛ لأن الكلام في الذين لا يؤمنون بالآخرة فهم لا يرجون لقاء الله خيراً ولا شراً، ولعل فائدة ذكر الرجاء إفادة أنهم لا يظنون لقاء الله، وإفادة أنهم لا يظنونه خيراً لهم لعدم عملهم ما يسبب للظن، ولقاء الله: حضور موقف العرض على الله تعالى، والسؤال والحساب.

وقوله تعالى: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أحبوها ورضوا بها بدلاً من الآخرة؛ لأن الدنيا عاجلة والآخرة لا يؤمنون بها، وقوله ﴿وَاطْمَأْنَأُوا﴾ إليها سكنت نفوسهم إليها غفلة عن قلبها بأهلها، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ أي غفلة الإعراض عنها والاشتغال بالدنيا فهم كالناسين لآيات الله الدالة على صدق رسله.

مَّاوَلَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَنَحْيَهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَءَاخِرُ

﴿٨﴾ ﴿أُولَئِكَ مَّاوَلَهُمْ﴾ ﴿أُولَئِكَ﴾ أهل الصفات المذكورة ﴿مَّاوَلَهُمْ﴾ الذي يأوون إليه في الآخرة.

﴿النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي جزاء بما تكرر منهم في الدنيا من جرائمهم المذكورة في الآية التي قبل هذه وسائر جرائمهم فيعذبون جزاء بها كلها يضاعف لهم العذاب بقدرها.

﴿٩﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿وعد الله المؤمنين بعد وعيده للكافرين، وقوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ أي بسبب إيمانهم أو هي (باء) الآلة مثلها في كتبت بالقلم بالإيمان سبب للهدى كما قد يكون الكفر سبباً للخذلان، والهدى للأعمال الصالحات بتعليمها وتحبيبها وتيسيرها.

وقيل: الهدى بمعنى الثواب بالجنة، وإذا كانت (الباء) سببية فيمكن دلالتها على الثواب بالهدى للأعمال الصالحات كما أن الخذلان يكون عقوبة عاجلة فيكون الهدى ثواباً عاجلاً، فأما جعل مفهوم الهدى هو الثواب فيحتاج إلى دليل غير هذه الآية؛ لأن احتمالها لما ذكرت يمنع الاستدلال بها على جعل مفهوم الهدى هو الثواب.

وقوله تعالى: ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ على ما رجحت من تفسير (الهدى) أما على قول من جعل معنى ﴿يَهْدِيهِمْ﴾ يشبههم فهو خبر ﴿إِنَّ﴾ وقوله: ﴿تَجْرَى..﴾ إلى آخرها إما خبر ثان وإما حال من الخبر.

دَعَوْنَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ أَتَيْتَعَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ

﴿١٠﴾ دَعَوْنَهُمْ فِيهَا ﴿١١﴾ كلامهم الذي ألفوه واعتادوه في الجنة ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ وَأَخْرُ دَعَوْنَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢﴾ دعاؤهم لله التسبيح ﴿اللَّهُمَّ﴾ أي يا الله سبحانه أي نسبحك وذلك لرغبتهم في الدعاء والذكر لله، كما قال تعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ الآية [الحج: ٢٤] ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿سَلَامٌ﴾ وهي التحية المباركة الطيبة والتحية كلمة تقال عند اللقاء. قال في (الصحيح): «والمحیی: الوجه» انتهى.

ولكونها كلمة طيبة تقال عند اللقاء سمي الضرب عند اللقاء تحية على المشاكلة؛ لأنه وضع موضع التحية في قول الشاعر:

تحية بينهم ضرب وجيع

وجاء في المنافقين: تحيتهم لعنة؛ لأنهم يجعلونها إذا تلاقوا مكان التحية فتقوم مقامها في إدخال السرور على المنافق.

﴿وَأَخْرُ دَعَوْنَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ رغبة منهم في حمد الله الحميد لكثرة ما هم فيه من النعيم الذي يبعثهم على الحمد لله على ربوبيته للعالمين يختمون بها دعاءهم والحمد لله رب العالمين هنا مثله في آخر (سورة الزمر) ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [آية: ٧٥] فهو حمد على قضائه في الآخرة والأولى في العالمين.

﴿١١﴾ ﴿لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ أَتَيْتَعَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ ﴿لَوْ﴾ (الواو) عاطفة على ما سبق ذكره من كفر الكفار واستبعادهم الوحي

قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضَرْ مَسَّهُ ۚ
كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن

إلى رجل من الناس فقد احتج عليهم وأنذرهم وهنا يشير إلى أنهم يستحقون تعجيل العذاب وهم يستعجلون الخير مع كفر أكثرهم لأنعم الله، فالمعنى: ولو يعجل الله للناس ما يستحقونه كاستعجالهم بخير الدنيا ﴿لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ﴾ لمضى وانقضى أجلهم بالهلاك السريع، ولكن اقتضت حكمته إمهالهم.

﴿فَنَذَرَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ وقد مر تفسيره ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ في تجاوزهم الحد من الكفر وكفر نعم الله وتركهم ﴿يَعْمَلُونَ﴾ يترددون عمي القلوب في حيرة لا يهتدون سبيلاً.

قال الراغب: «العمه: التردد في الأمر من التحير» انتهى.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضَرْ مَسَّهُ ۚ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿الضُّرُّ﴾ كالمرض ﴿لِجَنبَيْهِ﴾ أي على جنبه ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ أي على أي حالة كان عليها حين مسه الضر، أي دعانا لكشف الضر عنه ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ﴾ مضى في سعيه لما يهوى غير ذاكر لنعمة الله عليه بكشف الضر ولا شاكر ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضَرْ مَسَّهُ﴾ لأنه استغنى ونسي افتقاره إلى الله حين كان يدعو لكشف ضره فلم يعتبر بذلك بل أصر على إعراضه وتمرده.

﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ ما استمروا عليه وتكرر منهم من العمل السيء كذلك كثره في إعراضه ونسيانه شكر النعمة زين للمسرفين المتجاوزين للحد في كفر النعمة ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فلا يتركونه لما يعرض لهم من التأديب.

قَبْلَكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا^٥ وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا تَتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا

﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا^٥ وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴿١٣﴾ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ ﴿١٤﴾ مثل: قوم نوح، وعاد، وثمود؛ لما اجتمع فيهم ثلاث خصال:

الأولى: أنهم ﴿ظَلَمُوا﴾ بالشرك مثلاً والتكذيب بآيات الله وتكذيب الرسل.
الثانية: أنها جاءتهم الرسل القاطعة للعلة ببيان الحق وإقامة الحجة عليهم.
الثالثة: أنهم ما كانوا ليؤمنوا لو لم يهلكوا في بقية أعمارهم لإصرارهم وعنادهم وبعدهم عن الهدى فما صح ولا استقام أن يؤمنوا.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي كذلك العذاب الذي عذبنا به القرون الماضية جزاء لظلمهم وإجرامهم ﴿نَجْزِي الْقَوْمَ﴾ الذين أجمعوا على الإجرام أو فشى فيهم ولم يقبلوا نصيحة الرسل وما كانوا ليؤمنوا، فهي سنة الله في الأولين والآخرين أن يهلكهم أو يعذبهم عذاباً شديداً.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿خَلَائِفَ﴾ تخلفون القرون الماضية ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ تتمعون فيها ﴿لِنَنْظُرَ﴾ كيف تعملون أي لنختبركم في الأرض وفي خلافتكم للقرون الماضية لنختبركم كيف تعملون أتعلمون صالحاً أم سيئاً أي إنكم في مقام التكليف الذي يقع فيه الإحسان الذي هو سبب الثواب أو الإساءة التي هي سبب العقاب فأشبهت حالتكم حالة الابتلاء والاختبار، والله لا يخفى عليه ما سيكون منهم.

يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنتَ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ
أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ
عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا
وَلَا أَدْرِكُكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾

﴿١٥﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنتَ
بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴿١٥﴾ هذا في الخلائف المكذبين الذين كانوا في وقت
رسول الله ﷺ إذا تلى عليهم آيات الله حال كونها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات تدل
على أن القرآن من الله دلالة بينة، قال الجاهلون أو الغافلون الذين لا يتوقعون
لقاء الله في الآخرة؛ لأنهم لا يؤمنون بالآخرة: ﴿أَنتَ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا﴾
القرآن ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ كفراً منهم بكونه كلام الله وزعماً أنه من كلام الرسول ﷺ
وأرادوا أن يأتي بقرآن لا ينهى عن الشرك ولا ينكره، بل يقرهم عليه أو يتغافل
عنه، والإتيان بقرآن غير هذا إتيان بقرآن آخر مع بقاء هذا القرآن منسياً،
والتبديل: نسخه والرجوع عما فيه وكل ذلك تبديل؛ لأنهم أرادوا ترك هذا
القرآن على كلا المعنيين والإتيان مكانه بقرآن آخر فرد الله عليهم بقوله تعالى:

﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي﴾ كما طلبتم ﴿إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا
يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ يوحى به ربي ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يوم
القيامة الذي لا ترجونه فلا بد لي من اتباع ما يوحى إليّ فما صح ولا استقام
مني ما طلبتم مع إيماني بالآخرة وخوفي عذاب يوم عظيم إن أطعتمكم، وفي هذا
دلالة على أن المعصية سبب للعذاب في الآخرة وإن لم تكن من مشرك.

﴿١٦﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرِكُكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ
فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أن لا أتلوه عليكم

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا

﴿مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ لأنه لو شاء لم يوجه إليّ أو لم يأمرني بتلاوته عليكم لكنه شاء أن أتلوه عليكم فتلوته عليكم بأمره ليس ذلك من تلقاء نفسي وكذلك لو شاء الله ما ﴿أَدْرَنْكُمْ بِهِ﴾ لكن قضت حكمته إبلاغكم الحجة وعرض الهدى عليكم.

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ﴾ بقيت ﴿فِيكُمْ عُمُرًا﴾ نحو أربعين سنة من قبل نزول القرآن عليّ ومضى الشباب الذي هو وقت الطموح في مدة طويلة لو كان من شأني الإفتراء على الله لكان العمر الماضي وقتاً له واسعاً.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتنظروا بعقولكم نظر إنصاف وتعرف للحق وتتركوا الإعراض والمسارة إلى التكذيب بآيات الله قبل النظر فيما جئتم به من الآيات نظر إنصاف وطلب للحق.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ بعد قيام الحجة بهذا القرآن ﴿مِمَّنِ افْتَرَى﴾ واختلق ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ إما أنا لو بدلت هذا القرآن بكلام مني وإما أنتم فيما تدعون على الله الرضى بدينكم من الشرك وتحريم ما أحل الله، وإما أي مكلف بلغه القرآن، فلا أظلم ممن افتري على الله كذباً ﴿أَوْ كَذَّبَ﴾ بآيات الله وهي بينات واضحات الدلالة على أنها من الله ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ﴾ لا يظفر بالخير ولا يفوز به ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ لأن الله غالب على أمره وهو على كل شيء شهيد، فكيف يترك المجرمين ينالون الخير بإجرامهم دون أن يفضحهم ويحيب آمالهم.

يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ

﴿١٨﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ ﴿١٩﴾ فَيَعْبُدُوهُ خَوْفًا ﴿٢٠﴾ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴿٢١﴾ فَيَعْبُدُوهُ رَغْبَةً فِي نَفْعِهِ لَهُمْ ﴿٢٢﴾ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَعْبُدُونَهُمْ ﴿٢٤﴾ شَفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ ﴿٢٥﴾ لِمَكَانَتِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ فَيَعْبُدُونَهُمْ لِيَشْفَعُوا لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ بِزَعْمِهِمْ لئلا يعذبهم أولا يمنعمهم الخير بسبب ذنوبهم، وهذا دعوى لا حجة له لا حجة لكونهم شفعاء ولا حجة لكون عبادتهم سبباً لشفاعتهم.

﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿أَتُنَبِّئُونَ﴾ سؤال توبيخ على قولهم هذا، فالله علام الغيوب الذي ﴿لَا يَغْزُبُ عَنْهُ مِثْقَلُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبا: ٣] لا يعلم له شريكاً ولا شافعياً كما يدعون، ولا يعلم هؤلاء الذين يعبدونهم إلا عباداً أمثالهم لا مشاركة لهم في ملك ولا ملك ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦].

﴿سُبْحَنَهُ﴾ عما يشركون تنزهه عن أن يكونوا له أنداداً أو شركاء أو أكفاء ﴿وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ علو القهر وعلو العظمة وهذا التسبيح والتنزيه راجع إلى أول الآية ليس من مقول القول.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ جماعة مجتمعين على دين واحد هو توحيد الله ﴿فَاخْتَلَفُوا﴾ من بعد ذلك، فليس الشرك إلا محدثاً

مِّن رَّبِّهِ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٦٠﴾
وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّيَهُمْ إِذَا لَهُمْ مَّكْرٌ فِي ءَايَاتِنَا قُلْ
اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٦١﴾ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي

أحدثه المخالفون للدين الأصلي الذي كانوا مجتمعين عليه ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بحكمته - جل وعلا - أن لا يمهل المخالف للحق إلى حين تقتضي الحكمة إهلاكه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤] أو أن تكون هذه الدار دار ابتلاء واختبار والآخرة دار الجزاء ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الناس حين اختلفوا لقضي بينهم: أي حكم وفصل ﴿فِيمَا فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ كله بنصر الحق وإهلاك المبطل حتى ينتفي الخلاف أو بإنهاء الخلاف بالقسر والإلجاء، وقوله تعالى: ﴿فِيمَا فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ يعم كل ما فيه يختلفون من التوحيد وغيره.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على رسول الله ﷺ ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ تدل على صدقه، فقد كذبوا بالقرآن وبسائر آيات الله ﴿فَقُلْ﴾ لهم في مقابل كفرهم بآيات الله ﴿إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ فهو الذي يعلم ما يحكم به بيني وبينكم ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ حكمه ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ وهذا لأنه قد جاءهم بالبينة الواضحة فكذبوا بها، كما مر من قولهم: ﴿إِنْ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ فالجواب في هذه الآية إنما هو عن تكذيبهم بآيات الله التكذيب الذي عبروا عنه بقولهم: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾.

﴿وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّيَهُمْ إِذَا لَهُمْ مَّكْرٌ فِي ءَايَاتِنَا قُلْ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ الرحمة بعد الضراء يكون لها وقع في النفس فتسرُّ بها النفوس وتكون نعمة يتبها لها الغافل

الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ وَجَرْنَ بِيَمٍ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا
جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ
دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ
الشَّاكِرِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَتَأَيَّيْهَا

فمن حقها أن يشكرها الإنسان، لكن الناس على خلاف الشكر يسارعون إلى المكر في آيات الله، والعمل لإبطائها في حين النعمة عليهم، وهذا أمر مفاجئ بالنسبة إلى المخلوق أن تحسن إلى الإنسان فيسارع إلى الإساءة إليك مع أنه لم يسبق منك إلا الإحسان.

﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ لأنه قد جعل الملائكة الحفظة يكتبون ما يملكون ليروه يوم القيامة فيكون حسرة عليهم وسبباً لعذاب النار، فسرعة مكره إرسال الملائكة ليكتبوا ما سيقوله الكافرون قبل أن يملكون، وسمي مكرأ لغفلة الكفار عنه، وكونه مقدمة لكتابة مكرهم التي تترتب عليها ندامتهم يوم الحساب، ومن مكره بالحق خذلانهم فهو عقوبة عاجلة.

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ وَجَرْنَ بِيَمٍ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾ بما جعل لكم من قوة السير وما يسر لكم من الدواب ﴿فِي الْبَرِّ وَ﴾ الفلك في ﴿الْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ﴾ غاية لتسييره لكم وجرين أي الفلك، وهي: السفائن ﴿وَجَرْنَ بِيَمٍ﴾ أي بالراكبين فيها أي ببعضهم، وفيه التفات من فوائده: أن القصة خاصة ببعض الكائنين في الفلك فلم يحسن الإستمرار في الخطاب العام.

النَّاسُ إِنَّمَا بَغِيكُم عَلَى أَنْفُسِكُمْ ۖ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ
فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ

وقوله تعالى: ﴿بَرِيحٌ طَيِّبَةٌ﴾ فهي التي كانت تسوق السفينة في البحر فتجري براكيها ﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾ سرتهم وأمنوا أن يغرقوا ﴿جَاءَتْهَا﴾ أي جاءت الفلك ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ شديدة تحمل الماء وترفعه حتى يكون فوقها كالظلل وإذا نزل فيها أثقلها وغرقوا لا محالة.

﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ﴾ موج البحر ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي من الجهات كلها أي جهات الفلك ﴿وَوُظِّنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي ظنوا أنهم صاروا في مهلكة لاخلص لهم منها ﴿دَعَوْا اللَّهَ﴾ قائلين في دعائهم لطلب النجاة ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا﴾ يا الله ﴿لَنَكُونَنَّ مِنْ﴾ عبادك ﴿الشَّاكِرِينَ﴾ وهذا أبلغ مما لو قالوا: (لنشكرون) لأن الشاكرين وصف لمن شكروا وثبتوا على شكرهم والكون منهم يشعر بأن يكون الشاكر ثابتاً على شكره مثلهم من حيث أن من لم يثبت على الشكر وبدله بالكفر يخرج من اسم الشاكر.

﴿فَلَمَّا أَجْنَبْتُهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ نكثوا العهد بسرعة فاعتبر النكث مفاجئاً، وقوله: ﴿يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يفيد: انتشار بغيتهم أو أن من شأنه أن ينتشر في الأرض ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ بل هو ظلم وفساد في الأرض وكفر نعمة.

﴿يَتَأَيُّمُ النَّاسُ إِنَّمَا بَغِيكُم عَلَى أَنْفُسِكُمْ ۖ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ إنما تبغون على أنفسكم حين تبغون على عباد الله، فقوله: ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ خبر ﴿بَغِيكُم﴾ وقوله: ﴿مَتَّعَ الْحَيَاةَ﴾ برفع ﴿مَتَاعٌ﴾ خبر بعد خبر، وينصب متاع حال، ومعنى كونه متاع الحياة الدنيا: أنه قليل يفنى وحسابه في الآخرة حيث الجزاء الدائم.

مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ
 إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىٰ
 أَتْنَهَا أَمَرْنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ
 كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣٦٩﴾ وَاللَّهُ يَدْعُوهُ إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ في الآخرة ترجعون إلى الله وحده ﴿فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا
 كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ننبئكم: نخبركم، لأنه لم يخف علينا شيء من عملكم ولم
 ننس منه شيئاً ولم نهمله فهناك الحساب والجزاء الأوفى، فأي فائدة للباغي
 في بغيه مع أن يوم المظلوم على الظالم شر من يوم الظالم على المظلوم؛ لأن
 عذاب الباغي دائم وبغيه متاع قليل.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ
 نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا
 وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىٰ أَتْنَهَا أَمَرْنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا
 حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ﴾ هذه الآية الكريمة تبين قصر مدة متاع
 الحياة الدنيا واغترار الناس بها مع ذلك.

وقوله تعالى: ﴿كَمَاءٍ﴾ التشبيه ليس بالماء وحده وإنما هو بجملة ما أفادته
 قصة إنزال السماء وما ترتب عليه من ظهور النبات ونموه وإثماره وذهابه
 حين ظن أهله أنهم قادرون عليه.

وقوله تعالى: ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ أي نبتت الأنواع المختلفة
 بسبب المطر واختلطت بسبب اختلاط أصولها أو بذورها وهذه عادة الأرض
 بعد أن تحمي بالمطر تنبت نباتات مختلطة فهو يشير إلى قوة ربيها، وقوله:
 ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ﴾ كالفجل، والبصل، والثوم، والكراث، والجرجير،

وكذلك ثمار الشجر الأخرى لأنها من النبات، قال تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا﴾ [عبس: ٢٧-٢٨] وما تأكل ﴿الْأَنْعُمُ﴾ ظاهر؛ ولحصول المأكولين يرغب الناس فيهما.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ جمالها عند اخضرار الشجر وتفتح الزهر وبناع الثمر ﴿وَأَزْيِنَتْ﴾ يشير إلى تكامل النبات وظهور ما تقوى فيه رغبة الناس من الثمر اليناع الذي تزينه ألوان ينعه المختلفة الدالة على ينعه، فكان الأرض بمنتجاته امرأة أخذت زيتها ولبستها ليرغب فيها من يراها، فقوله: ﴿أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ استعارة مكنية، قرينتها قوله: ﴿أَخَذَتْ﴾ وقوله: ﴿وَأَزْيِنَتْ﴾ يدل على المقصود بأخذ الزينة الذي هو التزين لمن يرى.

وقوله تعالى: ﴿وَوَظَرَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدَرُونَ عَلَيْهَا﴾ لأنها في تلك الحال تحت تصرفهم ولا يعلمون ما في الغيب.

ويعجبني قول سيد قطب في تفسيره لهذه الآية من حيث نبه على بقية المعنى، فقال: «ذلك مثل الحياة الدنيا التي لا يملك الناس إلا متاعها حين يرضون بها ويقفون عندها ولا يتطلعون منها إلى ما هو أكرم وأبقى، هذا هو الماء ينزل من السماء وهذا هو النبات يمتصه ويختلط به فيمرع ويزدهر وها هي ذي الأرض كأنها عروس مجلوة تتزين لعرس وتتبرج وأهلها مزهوون بها يظنون أنها بجهدهم ازدهرت وبلإرادتهم تزينت وأنهم أصحاب الأمر فيها لا يغيرها عليهم مغير ولا ينازعهم فيها منازع، وفي وسط هذا الخصب الممرع وفي نشوة هذا الفرح المللع وفي غمرة هذا الإطمئنان الواثق ﴿أَتْنَهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْرَبِ بِالْأَمْسِ﴾ انتهى.

وَهَدَىٰ مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٠﴾ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنْ

﴿كَانَ لَمْ تَغْبِ بِالْأَمْسِ﴾ كَانَ لَمْ تَكُنْ بَاقِيَةً بِالْأَمْسِ.

﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿كَذَلِكَ﴾ التفصيل الذي يبين صفة الدنيا وسرعة زوالها واغترار الناس بها ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ نبين الآيات بيان تفصيل ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ليؤدبهم التفكير إلى معرفة ما به يهتدون.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَهَدَىٰ مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿دَارِ السَّلَامِ﴾ الجنة لسلامة أهلها من النار ومن كل شر فهو يدعو إليها ويبين لعباده طريقها، فمن أجاب داعي الله تسبب للهدى إلى صراط مستقيم، وقوله تعالى: ﴿وَهَدَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ دليل لمن أراد الهدى أنه من الله ليستهديه ويسبب لهداه بتقواه، فقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد: ٢٨].

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ آمنوا وعملوا الصالحات لهم ثواباً عليها ﴿الْحُسْنَى﴾ أي الحسنة الزائدة في حسناتها أو المثوبة الحسنى ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ وهي تفضل من الله، كقوله تعالى: ﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [فاطر: ٢٠] ويحتمل أن الحسنى حسنة واحدة، والزيادة تسع حسنات معها؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] والأول أظهر.

اللَّهُ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ

﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهُهُمْ قَتْرٌ وَلَا ذَلَّةٌ﴾ قال الشرفي في (المصاييح): «قال في (البرهان): والقتر: سواد يعتري الوجه عند حزن شديد، وأصل القتر الغبار قال الشاعر:

متوج برداء الملك يتبعه موج ترى فوقه الرايات والكدر»

انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا ذَلَّةٌ﴾ أي لا هوان وانكسار كما يكون لأعداء الله فالذين أحسنوا لا يغشاهم قتر ولا ذلة.

﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وفي الجنة الحسنى والزيادة فكان هذا تفسير لأول الآية، وهنا فائدة الدلالة على أنهم فيها لا يموتون فالنعيم دائم والملك الكبير لا يذهب.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي وللذين كسبوا السيئات ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذَلَّةٌ﴾ يمثّلها أي ما يقتضيه العدل وهو أن يكون عذابه في شدته على قدر سيئته وليس معنى ذلك أنه ينتهي؛ لأنه لو كان المعنى: أن مدته في النار على قدر سيئته، لكان المشرك والمكذب بآيات الله وكل صاحب جريمة لا يبقون دائماً في النار.

فإن قيل: إن المشرك ونحوه ذنبه عظيم لا يقاس به غيره؟

قلنا: صحيح أنه عظيم، ولكن لا دخل له في الخلود إذا كان معنى المماثلة في مدة البقاء، وكانت مدة غير الشرك تنتهي.

فإن قيل: بل قبح الشرك يقتضي الخلود؟ قلنا: إن الخلود لا نهاية له وشرك المشرك منه؛ لأنه كان في أثناء الحياة الدنيا فتعذيب المشرك أطول من مدة الشرك.

فإن قيل: إن العذاب على قدر القبح لا على قدر مدة المعصية؟ قلنا: فإذا جاز أن يكون قبح الشرك يقتضي الخلود جاز في غيره أن يكون قبحه يقتضي الخلود، وإنما تختلف مراتب العقاب باختلاف مقادير شدته ومسألة الخلود لا مجال للعقل فيها وإنما تظهر الحقائق يوم القيامة ووعد الله حق؛ لأنه أحكم الحاكمين وأصدق القائلين.

﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ والعاصم المنجي ﴿قُلْ سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [مرد: ٤٣] فلا ينجيهم من الله شيء لا صنم، ولا ملك، ولا عيسى، ولا عزيز، ولا نبي ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ لشدة حزنهم وهول الموقف عليهم اسودت وجوههم، حتى كأنها أغشيت ظلم الليل في حال خلوه عن النور فلا قمر ولا غيره مما يخفف ظلمة الليل، وذلك يكون في ليلة كفر النجوم غمامها، وفي الآية تنبيه عجيب لتضمنه استعارة مكنية وتقييد الليل بالإظلام.

قال سيد قطب في (تفسيره): «ثم يرسم السياق صورة حسية للظلام النفسي والكدر التي تغشى وجه المكروب المأخوذ المرعوب ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ كأنما أخذ من الليل المظلم فقطع رقعا غشيت بها هذه الوجوه، وهكذا يغشى الجو كله ظلام من ظلام الليل المظلم ورهبة من رهبة تبدو فيه هذه الوجوه ملفعة بأغشية من هذا الليل البهيم» انتهى.

أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٣٧٤﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ

وقوله: «ورهة من رهبته» صواب العبارة: أن من محاسن هذا التشبيه وهذه الاستعارة اختيار سواد الليل لاشتماله على الوحشة والخوف، والله أعلم.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿أُولَئِكَ﴾ أهل الصفة المذكورة ويحتمل أن الإشارة إلى المذكورين باعتبار القتر والسواد المذكور وكذلك الإشارة إلى الذين أحسنوا باعتبار أن وجوههم لا يرهقها قتر ولا ذلة، فيكون السياق هنا كالسياق في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ..﴾ الآية [آل عمران: ١٠٦-١٠٧] في إفادة: أن اللون يوم القيامة إما دليل الخلود في الجنة، وإما دليل الخلود في النار.

﴿وَيَوْمَ نَخَشِرُهُمُ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ﴾ ﴿نَخَشِرُهُمُ جَمِيعًا﴾ الذين أحسنوا والذين كسبوا السيئات جميعاً مجتمعين في موقف السؤال ﴿وَيَوْمَ﴾ ظرف ولعل العامل فيه ﴿تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ..﴾ الآية ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ﴾ أي الزموا مكانكم وقفوا لا تبرحوا حتى تسألوا أنتم وشركاءكم.

﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ (زيلنا) فرقنا بينهم بسؤالهم في ذلك الموقف الرهيب التفريق متعدد فتفريق بينهم وبين شركائهم، وتفريق بين الأخلاء الذين كانوا متحابين على الشرك، وتفريق بين التابعين والمتبوعين، انقطعت العلاقات وانقلبت إلى عداوات وذلك لهول الموقف.

لَغَفْلِينَ ﴿٢٦﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ
الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ

﴿وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿مَا كُنْتُمْ﴾ تخصونا بالعبادة
لأنكم كنتم تعبدون الجن بها وهم الذين كانوا يأمرونكم بعبادتنا ويزعمون
لكم أن عبادتنا حق وصواب، فالمسؤولية عليكم وعليهم، فنفى التخصيص
بالعبادة مقدمة للتهرب من المسؤولية بدعوى أن عبادتهم كانت عبادة
لغيرهم فلا تتعين المسؤولية على هؤلاء الشركاء، وهذه الآية تشبه آية
(سورة سبأ) فتفسيرهما سواء وإذا لم تكونوا تخصونا بالعبادة:

﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَفْلِينَ﴾ ﴿٢٨﴾
فالمسؤول غيرنا ونحن براء؛ لأننا لم نعلم بعبادتكم فلا أمرنا ولا رضينا فنحن
نبرأ من عبادتكم لنا وهذا تمام التنصل والتخلص من مسؤولية شركائهم.

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ
وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿هُنَالِكَ﴾ في مكان السؤال والحساب يوم
القيامة ﴿تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ تختبر ما أسلفت من حسن أو سيء
بمباهدتها لجزائه وتعرف خبر عملها الذي أسلفت أي أمضته في الدنيا
﴿وَرُدُّوْا﴾ أي المحشورون كلهم ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ ليحكم فيهم ما يريد ﴿مَوْلَاهُمُ
الْحَقِّ﴾ مالكم الحق لا شركاء المشركين ولا قادة المتبوعين ﴿وَضَلَّ﴾ ضاع
﴿عَنْهُمْ﴾ هنالك ﴿مَّا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَفْتَرُونَ﴾ من الدعاوي
والمبررات الباطلة والأمانى الكاذبات الخادعة فلا شركاء ولا شفعاء ولا
عاصم من أمر الله.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٠﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصَرِّفُونَ ﴿٦١﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا

﴿قُلْ﴾ للمشركون ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ مَنْ يَنْزِلُ لَكُمْ الْمَطَرُ مِنَ السَّمَاءِ، وَمَنْ يَنْبِتُ لَكُمْ الثَّمَرَاتِ مِنَ الْأَرْضِ وَمَا تَأْكُلُونَ وَتَأْكُلُ أَنْعَامُكُمْ.

﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ يجعلها لمن يشاء ويفقدها من يشاء فلا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كالشجر من الحب والنوى ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ كالمولود الميت في بطن أمه ﴿وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ أمر المخلوقات فيجعلها مؤدية لما يؤول إليه أمرها كتدبير أمر المطر يجعله مؤدياً إلى ري الحيوان والنبات وتدبير النبات لإنتاج الثمر وتدبير الثمر لتغذية الإنسان وغيره وكذلك التدبير للخصب وللجذب وللصحة وللسقم وللغنى واللفقر وللحياة وللموت بتهيئة الأسباب والشروط ونحوها وغير ذلك.

﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ الذي يرزقنا وهو الذي يملك السمع والأبصار وهو الذي يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي وهو الذي يدبر الأمر. ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله بترك الشرك وعبادة الله وحده وقد عرفتم أنه الذي يرزقكم من السماء والأرض إلى آخر ما ذكر.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ ﴿٦٢﴾ ذَلِكَمُ الَّذِي لَهُ الصِّفَاتُ الْمَذْكُورَةُ ﴿رَبُّكُمْ﴾ ما لكم الحق، لا ما تعبدون من دونه فما يملكون من قطمير، فلا ربوبية لهم.

يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ فَأَنْتِ تُؤْفِكُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي

﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۚ فَأَنْتِ تُصْرِفُونَ﴾ ۚ لأن ما بعد الحق خلاف الحق فهو باطل، واتباعه ضلال وغواية ﴿فَأَنْتِ﴾ ۚ فمن أين ﴿تُصْرِفُونَ﴾ ۚ عن الحق الذي تقضي به فطرة العقول إلى الباطل الذي ليس عليه دليل.

﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ۚ ﴿حَقَّتْ﴾ ۚ صدقت وكانت صواباً كما حقت على المشركين المذكورين الذين قامت عليهم الحجة الواضحة في الآيات الماضية فلم يؤمنوا؛ لأنه ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون و﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ ۚ إخباره أنهم لا يؤمنون في حال فسقهم للتنافي بين الفسق والإيمان فظلمة الفسق على قلوبهم تمنع دخول نور الإيمان، وذلك الفسق هو تعمد الفجور والخبث والتمرد والعناد، لا الفسق العرفي الذي هو المنزلة بين المنزلتين إذا لم يكن معه عناد للحق ومحاربة للدين.

وعلى قراءة ﴿كَلِمَاتٍ﴾ يكون المراد بها الكلمات المتعددة في القرآن المفيدة لمعنى هذه الكلمة مثل ما مرّ في أوائل (سورة البقرة) وفي (سورة الأنعام) ومثل ما في (سورة يس) و(المطففين) ومثل ما يأتي في هذه السورة وغير ذلك.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ۚ ﴿مَنْ يَبْدُوَ الْخَلْقَ﴾ ۚ من يخلقه أول مرة ابتداء ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ۚ يخلقه تارة أخرى بعد إفناؤه ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ۚ أي الله وحده يبدؤ الخلق ثم يعيده

إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٦٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٦٦﴾ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ

ومن سواه عاجز عن ذلك ﴿فَأَنِّي تُؤْفِكُونَ﴾ فمن أين تقلبون عن فطرة العقول بإشراك من لا يخلق وجعله ندًا للخالق.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ وهذا احتجاج على المشركين بأن ليس في شركائهم من يهدي للحق؛ لأنها لا تكلمهم وهي جمادات لا تسمع ولا تبصر، أما الله سبحانه وتعالى فإنه ﴿يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ يجعل العقول في القلوب وإرسال الرسل وإنزال الكتب وما جعل من الآيات الكونية والآيات المسموعة.

﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ فهذه قضية تعرفها فطرة العقل أن من يهدي إلى الحق أحق أن يتبع لوجوب التوصل إلى الحق واجتناب الباطل، أما الأصنام التي لا تهتدي فضلاً عن أن تهدي فلا يفيد اتباعها والإقبال عليها والتعبد لها شيئاً من الحق، بل هي سبب للضلال، فما لكم أيها المشركون تركتم حكم فطرة العقول وانصرفتم إلى الباطل، وهذا توبيخ لهم خاطبهم الله به، ثم التفت الكلام عن خطابهم إلى خطاب غيرهم لتمام الاحتجاج عليهم وعدم جدواه فيهم:

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾ أكثر المشركين ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ فهم لا يعلمون أنهم

الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ

على حق وإنما يظن أكثرهم أنهم على حق لوسواس يؤدي إلى الظن مثل ما عبروا عنه بقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] ومثل حسن ظنهم بأسلافهم واستبعادهم أن يتعمد أسلافهم الباطل ولكن ذلك لا يقاوم الدليل القاطع الدال على بطلان الشرك ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي﴾ أي لا يكفي شيئاً ﴿مَنْ الْحَقِّ﴾ أي لا يدفع شيئاً من الحق، وهذا يدل على أن اتباع المعلوم هو الحق، وأن لا يعدل عن اتباعه إلى الروايات التي لا يعلم أن النبي ﷺ قال ما روي عنه فيها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ يبين أن الله تعالى أخبر أن أكثرهم إنما يتبعون الظن؛ لأنه عليم بما يفعلون فهو يعلم أنه اتباع للظن أو على أي وجه وقع، وقوله: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ لعله يخرج المقلدين المهملين للنظر بالكلية وإنما يقلدون لمجرد الهوى في اتباع آبائهم.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ﴿هَذَا الْقُرْآنُ﴾ الذي تسمعونه خارقاً للعادة في حكمته وإحكام بيانه، قال (صاحب الكشاف): «ومعنى وما كان أن يُفترى، وما صح وما استقام أن يكون مثله في علو أمره وإعجازه مفترى» انتهى.

يعني: أن هذا النفي مثله في ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ [التوبة: ٧٠] ونحوها مما فيه نفي الكون و(لام الجحود).

وعبارة (سيد قطب) في تفسير هذه الآية: «فهو - أي هذا القرآن - بخصائصه الموضوعية والتعبيرية بهذا الكمال في تناسقه، بهذا الكمال في العقيدة

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ۚ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ۚ

التي جاء بها، وفي النظام الإنساني الذي يتضمن قواعده، وبهذا الكمال في تصوير حقيقة الألوهية وفي تصوير طبيعة البشر وطبيعة الحياة وطبيعة الكون لا يمكن أن يكون مفترى من دون الله؛ لأن قدرة واحدة هي التي تملك الإتيان به هي قدرة الله القدرة التي تحيط بالأوائل والأواخر وبالظواهر والسرائر وتضع المنهج المبرأ من القصور والنقص ومن آثار الجهل والعجز.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ما كان من شأنه أصلاً أن يفترى، فليس المنفي هو الافتراء، ولكن جواز وجوده هو المنفي وهو أبلغ في النفي وأبعد» انتهى.

﴿وَلَيْكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتاب وهو التوراة والإنجيل، أي ولكن كان هذا القرآن تصديق الذي بين يديه، وكان هذا القرآن ﴿تَفْصِيلَ أَلِكِتَابِ﴾ أي الفرض والإيجاب على عباد الله بما فيه من الأوامر وسائر أدلة الإيجاب، مثل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ [البقرة: ١٧٨] ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ [البقرة: ٢١٦] ففي القرآن تفصيل بين ويحتمل شمول الكتاب لأمر الله ونهيه؛ لأن النهي يوجب الترك.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿لَا رَيْبَ﴾ في القرآن؛ لأنه الحق الواضح بالحجة المفيدة للعلم اليقين، وهذا القرآن ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ المالك لهم فهو يدعو عباده إلى دار السلام ويأمرهم وينهاهم؛ لأن له الحكم في عباده وعليهم أن يعبدوه كما علمهم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ بل يقول المشركون افترى محمد هذا القرآن تمرداً منهم وعناداً ﴿قُلْ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿قُلْ﴾ إِنْ افْتَرَاهُ كَمَا زَعَمْتُمْ ﴿فَاتَّوْا بِسُورَةِ مِثْلِهِ﴾ فِي الْحِكْمَةِ وَعَظْمِ الْفَائِدَةِ وَإِتْقَانِ الْبَيَانِ.

﴿وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ﴾ لِيَعِينَكُمْ عَلَى الْإِتْيَانِ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ فَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَدْعُوهُ لَذَلِكَ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ لَأَنْكُمْ قَدْ زَعَمْتُمْ أَنَّهُ مِنْ قَوْلِ الْبَشَرِ حِينَ قَلْتُمْ افْتَرَاهُ مُحَمَّدٌ، فَإِذَا كَانَ مِنْ قَوْلِ الْبَشَرِ فَإِنَّهُ لَا بَدَّ أَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانَ مِنْ قَوْلِ الْبَشَرِ وَكُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي زَعْمِكُمْ أَنَّهُ افْتَرَاهُ.

وَقَدْ بَسَطَ (قَطَبٌ) عِنْدَ تَفْسِيرِهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى﴾ بَسَطَ فِي ذِكْرِ مَا يَمْتَازُ بِهِ الْقُرْآنُ بِقَدْرِ مُسْتَطَاعٍ (سَيِّدُ قَطَبٌ) فَلْيَرَا جَعَهُ مِنْ أَرَادَ التَّوَسُّعَ.

وَذَكَرَ (الطَّبَاطِبَائِيُّ) فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ كَلَاماً مُفِيداً، وَحَاصِلُهُ: أَنَّ التَّعْجِيزَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَأَمْثَالِهَا بِمَا فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْعُلُومِ النَّافِعَةِ الْمُهْمَّةِ وَالْمُتَنَوِّعَةِ الْوَاسِعَةِ الَّتِي يَعْجِزُ الْبَشَرُ عَنِ الْإِتْيَانِ بِهَا وَمَعَ ذَلِكَ وَقُوعُهُ فِي أَعْلَى دَرَجَاتِ الْبَلَاغَةِ، وَهُوَ كَلَامٌ مُفِيدٌ فَلْيَرْجِعْ إِلَيْهِ مَنْ أَرَادَ التَّفْصِيلَ فِي هَذَا الْمَعْنَى.

وَقَدْ جَمَعَ تِلْكَ الْمَعَانِي قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى ﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هُود: ١] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلَتْ: ٤١-٤٢] فَلْيَطَالِعْ لِفَهْمِ هَذِهِ الْمَعَانِي مَا فِي تَفْسِيرِ (قَطَبٌ) وَمَا فِي تَفْسِيرِ (الطَّبَاطِبَائِيُّ) وَقَدْ جَادَا بِكَثِيرٍ مِمَّا يَتَطَلَبُهُ الْعَصْرُ الْحَاضِرُ فِي تَفْسِيرِهِمَا.

وَالْتَّعْجِيزُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَفِي غَيْرِهَا مِنَ الْقُرْآنِ يَكْشِفُ بَطْلَانَ زَعْمِهِمْ أَنَّهُ افْتَرَاهُ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ وَاحِدَةٍ مِثْلِهِ مَعَ شِدَّةِ حَرَصِهِمْ عَلَى إِبْطَالِهِ وَمَعَ أَنَّهُ بِلِسَانِهِمُ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينِ جَاءَهُمْ بِهِ رَجُلٌ نَشَأَ بَيْنَهُمْ فَلُغَتُهُ لُغَتُهُمْ وَلَوْ أَطَاقَ

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ

اختلافه لأطاقوا مثله، ومع أن التعجيز بسورة منه مستمر في حياة الرسول ﷺ من حين جاءهم بالقرآن، وذلك نحو ثلاث وعشرين سنة وبعده فلم يأتوا بمثله، كما أخبر الله تعالى في قوله: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤].

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ استعجالاً منهم على رده وحرصاً على دفعه فكذبوا بأنه من الله، ولعلمهم لو أحاطوا بعلمه على الكمال لعلموا أن قولهم: ﴿أَفْتَرَنَاهُ﴾ كلام في غير محله؛ لأنه كتاب فيه العلوم الواسعة والحكم البالغة والبيان الواضح المحكم، ومع ذلك فهو عزيز لا مدخل فيه لطاعن، وسليم من الاختلاف والتدافع والتفاوت الذي يكون في كلام البشر بسبب اختلاف حالتهم من قوة وضعف ونشاط وملل وانتباه وغفلة وانبساط وانقباض، كما قدمت في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنَّا مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

فقولهم: ﴿أَفْتَرَنَاهُ﴾ وهم يعلمون أنه رجل نشأ في بلد لا علم فيه ولا دراسة للكتب، وهو لا يقرأ كتاباً، ولا يخطه يمينه، جهالة منهم وخبط عشواء.

﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ لما يأتهم تأويله وهو مصداقه الذي يطابقه؛ لأنه عاقبة خبره عما سيكون ومآله فحين يأتهم يؤمنون حين لا ينفعهم إيمانهم. ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فإنهم كذبوا بآيات الله؛ لأنهم لم يحيطوا بها علماً؛ ولأنهم لما يأتهم تأويلها ولذلك أهلكهم الله.

مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ

﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿فَأَنْظُرْ﴾ يا محمد أما هؤلاء المكذبون فإنهم لا يريدون أن ينظروا ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ الذين سارعوا إلى التكذيب بآيات الله من دون أن يحيطوا بها علماً عجلة بالسيئة قبل الحسنة واتباعاً لأهوائهم، وأصروا على التكذيب فما كانوا ليؤمنوا حتى يأتهم تأويلها، فأخذهم الله ولعذاب الآخرة أشد وأخزى.

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّن لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿وَمِنْهُمْ﴾ ومن المكذبين اليوم ﴿مَّن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ بعد اليوم، فقله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ سؤال وليس يعلم الذين لم يؤمنوا ﴿وَمِنْهُمْ مَّن لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أبداً في دار الخیار؛ لأنهم مفسدون محاربون للدين، فاستحقوا الخذلان.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ فهو يجازيهم بكفرهم وإفسادهم وكل جرائمهم، فالكفار في أول تبليغ الرسالة كانوا فريقين فريقاً: كذبوا وهم أتباع للمفسدين مضلل عليهم، وفريقاً: كذبوا وحاربوا الرسالة بالصد عن الإيمان وإلقاء الشبهات وتعذيب بعض من آمن ونحو ذلك، فهؤلاء المفسدون مخذولون لا يؤمنون، وفائدة الإخبار بأن منهم من سيؤمن تهوين الأمر على الرسول ﷺ لقوة رغبته في إيمان الناس وقلة من آمن به في أول الرسالة أو ذلك من فائدة الإخبار بالفريقين.

﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ بعد إيمانهم فترا من عملهم كقوله تعالى

يَهْدِي الْعُمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً

في (سورة الشعراء): ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنَّ عَصَاكَ فَعَلْنَا إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [٢١٥-٢١٧] ففي إعلان البراءة والمفاصلة إظهار القوة والتوكل على الله وعدم المبالاة بهم، وإبطال لكيد من كاده بإظهار الإسلام ثم الكفر، كما ذكر الله تعالى عن بعضهم في قولهم: ﴿آمِنُوا يَا لَيْلِي أَنْزَلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَّهَ النَّهَارِ وَاتَّخَفُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].

﴿فَقُلْ لِي عَمَلِي﴾ فانا ثابت عليه؛ لأنه لي ونفعه لي ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ إما نافعاً وإما ضاراً ﴿أَنْتُمْ بَرِيْعُونَ مِمَّا آَعَمَلُ﴾ فلستم مسؤولين عن عملي ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلست مسؤولاً عنه ولا يضرني، وهذه كلمة متاركة ومقاطعة، ودلالة على أنهم إن كذبوه فإنما يضرّون أنفسهم.

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ استماع تعجب أو إجابة لداعي حب الإطلاع الطبيعي مع إصرارهم على الفسق.

﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ فاستماعهم كاستماع الصم؛ لأنهم كارهون للحق معرضون عن التدبر فهو يمر على آذانهم قبل أن يتدبروه؛ لأن قلوبهم غير صالحة للتدبر لأنهم أهملوا عقولهم، فكانه اجتمع عليهم الصمم وسلب العقول.

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ لأنك بينهم في مكة تدعوهم إلى الله ولكنهم مصرون على الكفر.

مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۖ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٥﴾ وَإِنَّمَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ

﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمَىٰ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ فنظرهم إليك كنظر العمي لأنهم لا يتفهمون به ولا يدعوهم إلى النظر الصحيح وطلب الصواب فلا تحرص على إيمان كل من استمع إليك أو نظر إليك؛ لأن بينهم وبين الإيمان مسافات بعيدة ولا تبال بهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فهم يوقعون أنفسهم في طريق النار، وهم يوقعون أنفسهم في حبال الشيطان وما يترتب على الخذلان، وفي هذه دلالة واضحة لمن أنصف على بطلان دعوى أن الله هو الذي يوجد فعل العبد الذي هو المعصية التي يستحق بها النار، ففي هذه الآية نفي لقولهم وإثبات لقولنا.

ولا يفيدهم تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ﴾ بأن فعله بهم لا يكون ظلماً ولو عذبهم بلا ذنب؛ لأن عطف قوله: ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يفيد: أن المقصود لا يظلمهم بأن يعذبهم بغير استحقاق منهم أو بفعل ما يوقعهم في العذاب أي لا يفعل ذلك، ولذلك عطف عليه قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي هم الذين يفعلون ما يوقعهم في النار، فأثبت لهم ما نفاه عن نفسه، ودل على أنهم هم الذين يوقعون أنفسهم في أسباب العذاب فيظلمون أنفسهم بذلك، فأى دليل أوضح من هذا لمن سلمت بصيرته؟!؟

﴿وَيَوْمَ تَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۖ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ ﴿وَيَوْمَ تَحْشُرُهُمُ الظرف

ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا

منصوب بقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ﴾ أوب (اذكر) ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبِثُوا﴾ في الدنيا وفي البرزخ يرون المدة قصيرة جداً؛ لأنها قد مضت، وذلك يسبب الندم على ما قدموا من أسباب العذاب ميلاً إلى الدنيا فبقيت عقوبته، فالمعنى ويوم نحشرهم مستقلين المدة الماضية ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبِثُوا﴾ فيها ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ أي يستشعرون ذلك.

فقوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ سواء كان حالاً ثانية أي نحشرهم يتعارفون، أو حالاً من يلبثوا داخلاً في المستثنى استثناء مفرغاً؛ لأن الآية على كلا التقديرين تفيد تعارفهم في الدارين.

فعلى الوجه الأول: يتعارفون يوم الحشر؛ فإذا تراءوا في الآخرة عرف بعضهم بعضاً لأنهم قد تعارفوا في الدنيا.

وعلى الوجه الثاني: كان لم يلبثوا إلا ساعة يتعارفون فيها؛ لأنهم قد تعارفوا في الآخرة بسبب ذلك التعارف في الدنيا، فاستشعروا قصر مدة تعارفهم في الدنيا، وما كان في ذلك التعارف من أسباب العداوة في الآخرة والندم الطويل، وانقطاع الألفة في الآخرة ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ١٣٧].

وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ لأن دنياهم قد مضت وفاتهم في الآخرة كل خير وصار مأواهم النار ذلك هو الخسران المبين، فقد تحقق خسرانهم ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ في الدنيا كما كانوا يزعمون أن التكذيب هو الصواب، بل تحقق يوم حشر الله لهم أنهم كانوا ضالين.

﴿وَإِنَّمَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أي وإن أريناك بعض العذاب الذي نعدهم أريناك بأن عجلناه في حياتك وشاهدته، فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا﴾ أصله (وإن ما) وهي (إن) الشرطية أدغمت في الميم و(ما) صلة تحسن القول.

الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن نعذبهم ﴿فَالْيَنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ وحسبهم ذلك سواء عجل لهم عذاب في الدنيا أم لم يعجل؛ لأن مرجعهم إلى الله وحده وهو الشهيد على ما يفعلون، والشاهد هو الحاكم فيهم، لا يفوتونه ولا يجدون منه ولياً ولا نصيراً.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿رسول من الله أرسله إليهم﴾ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ ﴿يوم القيامة يخاصمهم بما كذبوه في الدنيا وآذوه وقتلوه﴾ قُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴿أي بين الرسول وأمه﴾ بِالْقِسْطِ ﴿أي بالعدل والحق﴾ وَهُمْ ﴿الرسول وأمه﴾ لَا يُظْلَمُونَ ﴿بل تجزى كل نفس بما تسعى، فيثاب رسولهم وينال ما وعده الله من الخير، ويعاقب أعداؤه جزاء سيئة بمثلها كما مر﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ بالعذاب الذي وعدتمونا استعجالاً له لظنهم أن الوعد غير واقع، وقولهم: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ تحكم لأن المعنى إن كنتم صادقين أخبرونا متى يكون إن كنتم صادقين وإلا فلستم صادقين، وهذا كفر بالرسول وبالوعد حيث سوا بينه وبين من معه من المؤمنين فنسبوا الوعد إليهم على سواء والمطالبة لهم على سواء.

وإنما قلت: أنه تحكم لأنهم جعلوا شرط الصدق ما ليس شرطاً لأنه لا يجب إلا الدليل على صدق الوعد وقد بينه الله ورسوله فلم يقبلوا وكلامهم هذا ذكره الله في مواضع من القرآن وفي كل موضع جواب مناسب وجوابه هنا ما في الأربع الآيات التي بعد هذه.

يَسْتَعِجِلُونَ ﴿١٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْتُكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعِجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٢٠﴾ أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ءَالْتَنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعِجِلُونَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا

﴿١٩﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴿٢٠﴾ فلا أملك تحصيل ما اقترحت من تحديد وقت الوعد؛ لأن الأمر كله لله، فإن شاء حدد، وإن لم يشأ فلا يستطيع غيره أن يحدد، كما لا يستطيع أحد أن يعجل ما وعد الله به من القيامة وما فيها.

﴿٢١﴾ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٢٢﴾ فلا تحسبوا إمهالككم وأنتم تكذبون بالآيات وبالأيام الآخر إهمالاً لكم، إنما هو إملاء حتى يأتي أجلكم كما كان للأمم قبلكم، وهو أجل محدود لا تستقدمون قبله وإذا جاء لا تستأخرون، وبهذا يظهر: أن السياق في وعدهم بالعذاب من غير فرق بين أن يكون في الدنيا أو في الآخرة؛ لأنهم كافرون بالآخرة.

﴿٢٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْتُكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعِجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٢٤﴾ عذابه عذاب الله الذي وعدكم جزاء على كفركم، وهو يشير إلى شدته بإضافته إلى الله ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ وأنتم نائمون فهو مباغت لكم في الليل ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ فلن تقدروا على دفعه وإن عاينتموه في النهار نازلاً عليكم ﴿مَّاذَا يَسْتَعِجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ هل فيه شيء مرغوب يستعجله المجرمون المستحقون للعذاب بإجرامهم أي أنه عذاب ليس فيه أي مرغوب يدعو إلى استعجاله فلماذا تستعجلونه بقولكم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

﴿٢٥﴾ أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ءَالْتَنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعِجِلُونَ ﴿٢٦﴾ أي تكفرون به وتستعجلونه ثم إذا ما وقع آمنتكم به، آمنتكم أنه العذاب الذي وعد الله به أو آمنتكم بالرسول بسبب وقوع العذاب والأول أظهر، فهم مكذبون بالعذاب ف قيل: ﴿أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾ بأنه حق كما وعدكم الله به.

﴿٥٦﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٧﴾ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۖ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ

﴿٥٦﴾ وَاللَّيْلِ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥٧﴾ الْآنَ يَقْبَلُ إِيمَانَكُمْ حِينَ قَدْ وَقَعَ الْعَذَابُ بَعْدَ مَا كَذَبْتُمْ بِهِ وَكُنْتُمْ بِهِ لَفِرَاطٍ تَكْذِيبِكُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ أَيُّ أَنَّهُ إِذَا وَقَعَ لَمْ يَرْفَعْ عَنْهُمْ وَلَمْ يَنْفَعَهُمْ إِيمَانُهُمْ.

﴿٥٨﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٩﴾ ثُمَّ بَعْدَ وَقُوعِ الْعَذَابِ بَيَانًا أَوْ نَهَارًا صَرَّمَ إِلَى عَذَابِ الْخُلْدِ، وَهُوَ الْعَذَابُ الدَّائِمُ الَّذِي لَا مَوْتَ فِيهِ فَقِيلَ لَكُمْ بِسَبَبِ ظُلْمِكُمْ فِي الدُّنْيَا: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ وَهُوَ جَزَائِكُمْ الَّتِي تَكْرُرْنَ مِنْكُمْ فِي الدُّنْيَا فَالْعَذَابُ الْعَاجِلُ تَصِيرُونَ بِهِ إِلَى عَذَابِ الْخُلْدِ مِنْ أَجْلِ سُوءِ الْخَاتَمَةِ لِأَنَّهُ أَخَذَكُمْ الْعَذَابَ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ.

﴿٥٦﴾ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ ﴿٥٧﴾ أَحَقُّ مَا وَعَدَ اللَّهُ بِهِ مِنْ عَذَابِ الْخُلْدِ ﴿٥٨﴾ يَسْأَلُونَكَ أَنْ تَنْبِئَهُمْ، أَيُّ تَخْبِرُهُمْ أَحَقُّ هُوَ؟

﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّد ﴿إِي﴾ أَيُّ نَعَمْ ﴿وَرَبِّي﴾ أَحْلَفَ بِهِ ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ وَاقِعٌ بِكُمْ ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ لِلَّهِ أَيُّ لَا تَدْفَعُونَهُ عَنْ أَنْفُسِكُمْ وَلَا يَعْجِزُ اللَّهُ عَنْ تَعْذِيبِكُمْ.

﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ﴿٥٩﴾ فَكُلُّ نَفْسٍ قَدْ ظَلَمَتْ فِي الدُّنْيَا لَوْ أَنَّهَا عِنْدَ حُضُورِ عَذَابِ الْآخِرَةِ مَا فِي الْأَرْضِ مِنَ الْأَمْوَالِ ﴿لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ، أَيُّ لِبَذْلَتِهِ فِدْيَةً لَهَا مِنَ الْعَذَابِ.

﴿حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ هُوَ يُخَيِّءُ وَيُمَيِّتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ
﴿٥٧﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ

﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ وذلك حين رأوه من مكان بعيد
وعلموا أنه واقع بهم بما كسبوا في الدنيا فندموا وودوا لو أنهم أطاعوا الله
ورسوله، فأما إسرار الندامة فلعل سببه الكبر فيما بينهم.

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ بَيْنَهُمْ ﴿٥٩﴾ بين أهل الموقف
المفهومين من كل نفس ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالحق والعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾
فتجزى كل نفس بما تستحق لا يزداد في عذاب أحد فوق ما يستحق ولا
ينقص على المظلوم شيء من إنصافه من الظالم.

﴿٦٠﴾ ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ ﴿٦١﴾ ﴿إِنَّ لِلَّهِ
مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ وما في ﴿الْأَرْضِ﴾ فهو يقضي بينهم ويحكم فيهم لا
معقب لحكمه، ووعدته حق؛ لأنه يتصرف تصرفاً حقاً في ملكه فلا صارف له
عما وعد به ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ لأنه قادر على كل شيء وعليم بكل
شيء وغني عن كل شيء فلا أصدق منه قليلاً.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أكثر الناس أو أكثر المكذبين الذين فيهم
السياق؛ لأنهم لا ينظرون نظر طلب لمعرفة الصواب بل يعرضون.

﴿هُوَ يُخَيِّءُ وَيُمَيِّتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هو وحده ﴿يُخَيِّءُ﴾ عادته
الإحياء ﴿وَيُمَيِّتُ﴾ عادته الإماتة؛ لأنه على كل شيء قدير ﴿وَإِلَيْهِ﴾ وحده
﴿تُرْجَعُونَ﴾ لأنه المالك لكم الذي أحياكم ثم يميتكم، ثم يحْيِيكُمْ تارة
أخرى، يتصرف فيكم كيف يشاء، فإليه وحده ترجعون للحساب والجزاء.

وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا تَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ ءَللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا تَجْمَعُونَ﴾ ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ﴾ سببُ النجاة من العذاب والفوز بالجنة بما في هذا القرآن من الموعظة التي تخرج عن معصية الله وتبعث على طاعة الله، وما فيه من الشفاء ﴿لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ من الريب وسائر عيوب القلب، فهو يؤدي إلى سلامة القلب من العيوب لتسبيبه للإيمان، واحتقار الدنيا، والعمل للآخرة، ونهيه عن عيوب القلب ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فهو حقيق بأن يَرُغِبَ فيه الناسُ وَيُقْبِلُوا على تعلُّمه وتدبر آياته والتمسك به وأن يتركوا الجدال فيه والمكابرة والتكذيب؛ لأنه نعمة وخير عظيم.

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد جاءكم هذا الخير العظيم ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ متلبساً بفضل الله، مثل: ﴿وَيَالْحَقُّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥] ومثل: ﴿تَنبِئُ بِالذُّعْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] بفضل الله على الناس ورحمته لهم جاءهم هذا الكتاب الذي هو الخير العظيم ﴿فَبِذَلِكَ﴾ الذي جاءكم متلبساً بفضل الله ورحمته ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾ فهو الحقيق بأن يفرحوا به؛ لأنه ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا تَجْمَعُونَ﴾ لأنه يهدي إلى السعادة الدائمة وإلى النجاة من الشقوة الدائمة، فالفرح به والإطمئنان إليه حق وصواب، ليس كالفرح بالدنيا الذي هو اغترار.

﴿وَمَا ظُنُّنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿٦﴾ وَمَا تَكُونُ فِي

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلْمَكْذِبِينَ بِالْقُرْآنِ ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ وَعِطَاءَ لِنَتَفَعُوا بِهِ ﴿فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي (سُورَةِ الْأَنْعَامِ) فَلَمْ تَشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ فِيهِ وَتَبْقُوهُ عَلَى مَا جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ.

﴿قُلْ﴾ يَا رَسُولَ اللَّهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ﴾ بِذَلِكَ التَّحَكُّمِ بِالتَّحْرِيمِ وَالتَّحْلِيلِ أَوْ بِذَلِكَ التَّحْرِيمِ وَالتَّحْلِيلِ ﴿أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ فَتَحْكُمُونَ بِغَيْرِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ وَاخْتِلَافًا وَذَلِكَ هُوَ الْبَاطِلُ الْوَاضِحُ الَّذِي أَنْتُمْ مَتَمَسِّكُونَ بِهِ، ثُمَّ بِهَذَا الْقُرْآنَ تَكْذِبُونَ وَهُوَ يَدْعُوكُمْ إِلَى الْحَقِّ وَتَرْكُ الْأَبَاطِيلِ الْجَاهِلِيَّةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ فِيهِ لَفْتُ لِأَنْظَارِهِمْ إِلَيْهِ، وَإِعْدَادًا لِلسُّؤَالِ عَنْهُ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: أَخْبِرُونِي عَمَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ؟

﴿وَمَا ظُنُّنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿مَا ظُنُّنَّ الَّذِينَ﴾ مَا يَظُنُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيُظَنُّونَهُ سَهْلًا عَلَيْهِمْ؟ هِيَاهُ بَلْ هُوَ الدَّاهِيَةُ الدَّهْيَا وَالشَّقَاوَةُ الَّتِي لَيْسَ لَهَا مَتْنَهَى.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ بِإِرْسَالِ الرِّسَالِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ تَهْدِي إِلَى طَرِيقِ النِّجَاةِ وَدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى التَّوْبَةِ وَإِمْهَالِ النَّاسِ لِيَذْكُرُوا وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ نِعَمِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الَّتِي تَهْمِي لَهُمْ أَسْبَابُ السَّلَامَةِ وَالْكَرَامَةِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ أَكْثَرُ النَّاسِ ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ بَلْ يَكْفُرُونَ نَعَمَ اللَّهُ وَيَكْذِبُونَ بِالْأَنْذَرِ.

شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَا

﴿٦١﴾ ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ وأنت يا رسول الله في تبليغك لهؤلاء الذين يفترون على الله وصبرك على تحمل أعباء الرسالة والقيام بشئونها ﴿وَمَا تَكُونُ﴾ يا محمد ﴿فِي شَأْنٍ﴾ أي شَأْنٍ ﴿إِلَّا﴾ والله يشهد ما تكون فيه ﴿وَمَا تَتْلُوا﴾ يا محمد من هذا القرآن ﴿مِنْ قُرْآنٍ﴾ قليل أو كثير ﴿إِلَّا﴾ والله يشهد ما أنت فيه ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ﴾ كلُّكم أنت ومن آمن ومن كفر أي عمل صالح أو فاسد حسن أو سيئ ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ إذ تندفعون وتسترسلون فيه لا يخفى علينا منه شيء.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾ ما يبعد ولا يغيب عنه، قال في (الصحاح): «وَعَزَبَ عَنِّي فُلَانٌ، يَعْزُبُ، وَيَعْزِبُ: أَي بَعْدَ وَغَابَ» انتهى.

فالمعنى: أن الله شهيد على كل شيء حتى مثقال الذرة في الأرض ومثقال الذرة في السماء.

﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿لَا أَصْغَرَ﴾ من مثقال ذرة إلا وقد أحاط به علم الله فلا يفوته ولا ينساه، فكل إنسان وكل عمل لا يخفى على الله ولا ينساه، وذكر الكتاب هنا تمثيل للإحصاء والإحاطة والحفظ.

إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٣٨﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٣٩﴾ وَلَا تَحْزَنْكَ قَوْلُهُمْ

﴿٣٧﴾ «أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» فإحصاء أعمالهم صغيرها وكبيرها لا يضرهم؛ لأن أعمالهم صالحة، وسيئاتهم محووة بالتوبة، وصغائرهم مكفرة باجتناّب الكبائر فـ ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يوم القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿٣٨﴾ «الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ» هذا تفسير لأولياء الله فلا يُقَرَّبُ أحداً عند الله إلا بالإيمان والتقوى.

﴿٣٩﴾ «لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ وحدهم دون غيرهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إما بمثل رؤيا مبشرة، أو كرامة خارقة للعادة، أو بشرى الملائكة عند حضور الموت قبل خروج النفس.

﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ من حين يبعثون ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ تأكيد لوعدهم بالبرى، ولكل وعد وكل وعيد، كما قال تعالى في (الوعيد): ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَنِي﴾ [ق: ٢٩] فكل ما وعد الله به أو أوعده فلن يتخلف أبداً.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي هو السلامة التي دل عليها قوله تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والكرامة التي دل عليها قوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ وقد قال تعالى: ﴿تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [نصمت: ٣٠] فلهم ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ النجاة والظفر بالجنة والخير العظيم.

إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۖ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ۖ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ ۚ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿٣٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٣٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۚ سُبْحَنَهُ ۚ هُوَ الْغَنِيُّ

﴿٣٥﴾ وَلَا تَحْزَنْكَ قَوْلُهُمْ ۚ أَي لَا تَحْزَنْ لَتَكْذِيبِ الْمَكْذِبِينَ بِوَعْدِ اللَّهِ وَبآيَاتِ اللَّهِ.

﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۖ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ فلا بد من الجزاء الأوفى ونصر أولياء الله وإهانة أعداء الله، فتكذيب المكذبين وبآل عليهم ولن يضرُوا الله شيئاً ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لقولهم ولكل قول ﴿الْعَلِيمُ﴾ بإجرامهم وبكل شيء فلا بد لهم من الجزاء الأوفى.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ فمرجعهم إليه وحده وهو يحكم فيهم ما يريد وعليهم إن يعبدوه وحده ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أي شيء يتبعونه؟ وأي شيء يحتجون به لشركهم؟.

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ ليس لهم حجة وليس لهم دليل يتبعونه ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾ أي ما يتبعون ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ وما هم ﴿إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ بما يقولون كما يقول خارص التمر في رؤوس النخل: «قدره كذا كيلاً»، وعلى هذا فليس لهم أن يعارضوا الحق الثابت بكتاب الله بظنونهم وخرصهم.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ فربكم المنعم عليكم هو المستحق للعبادة، ذكر هنا منفعة الليل وهي السكون والراحة

لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا
أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى

من أعمال الجسد والفكر لتعود القوة لليوم الثاني ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ والبصر
نعمة وفائدته واضحة وهي السعي للمعاش وحاجات الحياة.

﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ ﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ﴾ في جعل
الليل ليسكنوا فيه وجعل النهار مبصراً ﴿لَآيَاتٍ﴾ عديدة ﴿لِقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ﴾ أما من يعرض حتى كأنه لا يسمع فهو لا يهتدي بآيات الله،
ففي الليل والنهار الدلالة على قدرة الله وعلمه والدلالة ملكه لعباده من
حيث إنعامه عليهم وتربيتهم بجعل الليل والنهار خلفاً والدلالة على فضل
الله ورحمته، وفي إقبال الليل بعد النهار آية، وفي طلوع الفجر بعد الليل آية،
وفي طلوع الشمس آية، وفي الضحى آية، وفي العصر آية، وفي غروب
الشمس آية، فهي آيات تدل على متصرف في الكون مدبر لأمر عباده.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ سُبْحٰنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ
وَلَدًا﴾ كأنهم أرادوا أنه اتخذ الملائكة بنات لا بمعنى أنه ولد لهم، بل بمعنى
التبني ليكونوا له قررة عين ﴿سُبْحٰنَهُ﴾ تنزيه له عن كل نقص وعن كل
عيب ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ فلا يحتاج إلى اتخاذ الولد، وإنما يتخذ الولد من يحتاج،
والله المنزه عن مشابهة المخلوق لا يحتاج.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فكلهم عبيد ليس فيهم ولد
﴿إِنَّ عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا﴾ ما عندكم ﴿مِّنْ سُلْطٰنٍ﴾ حجة ﴿بهٰذَا﴾
القول على الله ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ سؤال إنكار عليهم
وتوبيخ.

أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ ^ط وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٦﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَجَعَلْنَاهُمْ حَتِيفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا

قال الشرفي في (المصاييح): «والواو في قوله: ﴿وَشُرَكَاءَكُم﴾ بمعنى (مع) أي وأجمعوا أمركم مع أولئكم واستعينوا بها في هلاكي» انتهى.

ومعنى إجماعهم أمرهم: تقريرهم لقرارهم، وتأهبهم لإنفاذه واستعدادهم، كما قال الشاعر:

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عِشَاءً فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْءُ
مِنْ مَنَادٍ وَمِنْ مَجِيبٍ وَمِنْ تَصْـ هَالِ خَيْلٍ وَبَيْنَ ذَاكَ رِغَاءُ

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ ثم لا يغمكم أمركم الذي تقررونه وتريدون إنفاذه ولا تبالوا به وامضوا له بجذ وصرامة، ومنه قول طرفة في معلقته:

لعمرك ما يومي علي بغمة نهاري ولا ليلي علي بسرمد

انتهى.

يعني: أنه ماضي العزيمة، قال (شارح القصيدة): «وتلخيص المعنى أنه تمح بمضاء الصريمة وذكاء العزيمة» انتهى.

﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ﴾ أنهؤوا إلي، وأوصلوا أمركم ﴿وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ ولا تمهلوني إن استطعتم فهذه أوامر تعجيز للكفار، فهي متى عجزوا عنها كانت دليلاً على صدقه وكانت معجزة تدل على نبوته.

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ فلا علة لكم في التولي بأن تقولوا ثقل علينا أجر نوح ولولا خوف المغرم لاتبعناه

بِأَيَّتِنَا فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَقِيبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ الذي أرسلني إليكم ولا يفوتني أجره بتوليكم فضرر توليكم عليكم وحدكم ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ لله وجهي ونفسي فلا أعبد ما تعبدون من دون الله.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَتَبَيَّنْهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْفًا وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِأَيَّتِنَا فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَقِيبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ فالمنذرون الذين آمنوا واتبعوا رسولهم نجاهم الله من العذاب مع رسولهم وصاروا معه خلفاء الأرض، والمنذرون الذين كذبوا رسولهم وكذبوا بآيات الله أهلكهم.

وقوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنْهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ﴾ أي نجيناهم من العذاب الذي هو الغرق نجيناهم ﴿فِي الْفُلِّ﴾ أي في السفينة، وهذه آية من آيات الله، أي الفرق بين من آمن ومن كذب بنجاة المؤمنين وهلاك الكافرين.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد نوح ﴿رُسُلًا﴾ مثل: هود، وصالح، وشعيب، وغيرهم، كما قال الله تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]. أرسلهم الله إلى قومهم، وذلك أبلغ في الحجة لمعرفة لمعرفتهم لرسولهم من قبل الرسالة.

﴿فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ جاؤوا قومهم بالآيات البينات في دلالتها على صدقهم، وأن الله أرسلهم فكذبوهم وكذبوا بآيات الله وأصروا على ذلك حتى خذلوا ﴿فَمَا كَانُوا﴾ بعد الخذلان ﴿لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾

وَهَرُوتَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنِيهِ بِغَايَتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ قَالَ

ما صح ولا استقام، كأنه صار محالاً أن يؤمنوا ﴿بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ لأن تكذيبهم لرسولهم من قبل أفسد قلوبهم، وباعدهم عن الإيمان، حتى كأنه لا يتصور منهم أن يؤمنوا.

﴿كَذَلِكَ﴾ الطبع على قلوبهم ﴿نَطَبُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ بالإفساد في الأرض ومحاربة الدين والصد عن سبيل الله، فالتكذيب الأول جرهم إلى الإعتداء، والإعتداء أوقعهم في الخذلان المعبر عنه بالطبع على القلوب، كأنه ختم مانع من دخول الإيمان إلى القلوب؛ لأنه يترتب على الخذلان تسلط الشيطان على المخدول وتزيينه له الباطل وإفساده لقلبه بغروره وخدعه حتى يصير قلبه كالمطبوع عليه.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنِيهِ بِغَايَتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد الرسل المذكورين آنفاً ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنِيهِ﴾ جماعته المعاوين له على أمره ﴿بِغَايَتِنَا﴾ أي بعثنا موسى وهارون مصحوبين بآياتنا ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ وأنفوا من قبول الحق والإيمان بهما وبما جاء به من الآيات ﴿وَكَانَ هَذَا شَأْنُهُمْ﴾ لأنهم ﴿كَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ أهل جرائم فـ(الواو) هنا بمنزلة (واو) الاعتراض كما في قول الشاعر:

رأيت رؤيائهم عبرتها وكنت للأحلام عبّاراً

وقد أثبتتها الزمخشري في (كشافه) وإن أنكرها بعض النحاة بناء منهم على تسميتهم لها (واو) الاعتراض.

مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ^ط أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾
 قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ

قلنا: الخلل في التسمية، أي في تسميتها (واو) الإعتراض وهو اصطلاح لا حجة فيه مع أنه يمكن تسميتها (واو) الإعتراض لاعتراضها في بعض الحالات بين الكلام.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ الحق وهو الآيات الدالة على صدقهما ﴿قَالُوا﴾ مع أنها الحق من عند الله جرأة على الله وعناداً منهم ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي نشاهده في العصى وفي يد موسى ونحو ذلك ما هو إلا سحر وتخيل ﴿مُبِينٌ﴾ أي بَيِّن كونه سحراً لا خفاء فيه، فهو أمر لا حقيقة له فلا عصاه صارت ثعباناً ولا يده صارت بيضاء، وهذا غاية العناد.

﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ^ط أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ﴾ سؤال إنكار وتوبيخ على جرأتهم بأن يقولوا في الحق الذي جاءهم هذا القول دفعا للحق: ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾؟ سؤال بمعنى النفي أي كيف يكون هذا الحق الواضح سحراً والسحر لا حقيقة له إنما هو تخيل وهذا الذي جاءكم أمر حقيقي رباني تعلمون أنه ليس تخيلاً لمعرفتكم السحر ومشاهدتكم لهذا تعرفون بها أنه الحق الواقع، ولذلك تخافون الثعبان، وتعجبون في أنفسكم لبياض اليد، وإن جحدتم بالسنتكم ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ فإن كنت ساحراً فإنه لا بد أن ينكشف وتبطل دعوى الرسالة.

فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ
عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾

﴿٧٨﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمْ الْكِبَرِيَاءُ فِي
الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٩﴾ لِنَلْفِتَنَّا ﴿٨٠﴾ لَتَحُولْنَا وَتَصْرَفْنَا ﴿٨١﴾ عَمَّا وَجَدْنَا
وشاهدنا ﴿٨٢﴾ عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴿٨٣﴾ جعلوها قضية تعصب لأبائهم، وقولهم: ﴿٨٤﴾ وَتَكُونَ
لَكُمْ الْكِبَرِيَاءُ ﴿٨٥﴾ يريدون أن ذلك هو الباعث لهما على دعوى الرسالة، كما قال
قوم نوح: ﴿٨٦﴾ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ ﴿٨٧﴾ [المؤمنون: ٢٤] وهو تجاهل وتغافل؛ لأن العمدة
الدليل الصحيح وكلامهم على الإرادة والقصد من باب:

سألته عن أيـه؟ فقال خالي شعيب

وهي منهم دعوى عارية عن الدليل ولا يعلمون الإرادة؛ لأنها غيب في الصدور.
وقولهم: ﴿٨٨﴾ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨٩﴾ تعبير عن إصرارهم على باطلهم
وأنهم لا يقبلون من موسى وأخيه أي دليل، فهو لطلب اليأس وترك
الحوّض، والراجع: أن (الهمزة) في أول الآية للإنكار عليه، وأنهم أرادوا:
كيف جئتنا لطلب ما لا يكون لطلب أن تلفتنا وتحولنا عما نحن عليه ورثناه
من آبائنا، فهم يعنون أن التحول عن الأمر المألوف ثقيل، ومع ذلك أنهم
وجدوا عليه آباءهم.

فطمع موسى في تحولهم طمع في أمر بعيد، وأيضاً: إن غرضه بزعمهم أن
تكون له ولأخيه بذلك الكبرياء في الأرض فينقلبوا بعد سيادتهم تحت رئاسة
موسى وأخيه، فكيف يتصور عندهم أن يتجشّموا الأمر الثقيل عليهم لأجل
غرضه الذي هو ضد غرضهم؟ ومع ذلك أنهم لا يؤمنون لهما، فكيف جاء
موسى مطالباً فيما لا يتصور بزعمهم أن يكون؟ فهم يعيرون عليه ذلك.

فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٦﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ

وجوابه واضح، ولكنه يكفي التمسك بالحجة الواضحة والآية البينة، فأما تحويلهم عن المألوف، فإنه وإن شق على أهل الجمود الذين لا يطلبون الحق فإنه سهل على طالب الحق لينجو من عذاب الله ويفوز برحمة الله، وكذلك ترك التعصب للأباء؛ لأن إنقاذ النفس من النار أهم، وكذلك كون الكبرياء لرسول الله لا يهم من يتقي النار، وهذا على فرض أنه غرض الرسل وليس كذلك، وأما أنهم لا يؤمنون فإن ذلك لا يمنع من تبليغ موسى وأخيه لرسالة الله؛ لأنهما أطاعا ربهما ولا يضرهما امتناع المرسل إليهم من الإيمان.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾ ليباري بينهم وبين موسى وأخيه ويظهر بزعمه إذا غلبوا موسى وأخاه أنهما ساحران، وهي حيلة للدفاع موسى وأخيه في تلك الحال التي تجلّت حجتهم وتبين صدقهما، وكأنه ظن أنه سيعارض بسحر السحرة، وسيدعي أنه الغالب حتى لا تنتهي مدافعتة للحق ومراوغته.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ لأنهم قالوا: ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥] ليلقي عصاه في الأرض، أو يلقوا حبالهم وعصيهم.

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ﴾ هو ﴿السِّحْرُ﴾ لا ما جئت به؛ ولكون ما جئت به هو السحر ف﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ لأنه عمل فساد ومحاربة للحق ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ليضلوا الناس بإصلاح عملهم؛ لأن الله يريد إظهار دينه فلا يصلح ما يؤدي إلى قوة الباطل ويجعله أهل الباطل حجة لهم.

﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿٤٠٤﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَتَقَوْمِ إِن كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن

﴿وَتُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٤٠٥﴾ ﴿تُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ﴾ يثبتهُ ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ بآياته ودلائله، سميت المعجزات كلمات، إما لدلالاتها كما يدل الكلام؛ وإما لأن الله يوجد لها بقوله: ﴿كُنْ﴾ أي أنها تسهل عليه كما لو لم توجد إلا بمجرد قوله: ﴿كُنْ﴾ فسميت كلمات كما سمي عيسى - صلوات الله عليه - كلمة من الله ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ إحقاق الحق؛ لأن الله غالب على أمره وقد أحق الله الحق وأبطل سحر السحرة، كما هو مذكور في غير هذه السورة.

﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ ﴿٤٠٥﴾ ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾ أولاد من قومه ليسوا من الآباء ولا الشيوخ؛ ولعل السبب أن الكبار قد ﴿رَأَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] وتمكنت في قلوبهم هيبة فرعون ومحاذاة بطشه لكثرة ما قد جربوا في الماضي من ظلمه وطغيانه ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ﴾ آمنوا مع خوف شديد ﴿مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ جماعتهم المجمعين على طاعة فرعون وهم من بني إسرائيل، فهؤلاء الذين آمنوا أفراد من الأولاد هداهم الله للإيمان والمخاطبة بأنفسهم لأجل طاعة الله ورسوله، فأمنوا على خوف من فرعون ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ يعذبهم ليرجعوا عن إيمانهم بموسى إلى الكفر وخوف من ملائهم أن يخبروا بهم فرعون فيفتنهم أي يعذبهم ليرجعوا عن إيمانهم.

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ قال الشريفي في (المصابيح): «أي غالب قاهر متجبر طاغ» انتهى. وقوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يدل على انتشار علوه وطغيانه في الأرض ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين حد غيرهم في الظلم والفساد فلذلك خافه من آمن بموسى من بني إسرائيل.

كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٤٠٥﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ﴿٤٠٦﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٤٠٧﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ

﴿٤٠٥﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَنْقُومُ إِن كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ
مُسْلِمِينَ ﴿٤٠٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا لَهُ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ ﴿٤٠٧﴾ يَنْقُومُ
إِن كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ﴿٤٠٨﴾ وَحَدَّاهُ إِلَىٰ أَرْضِ مِصْرَ وَأَمْرَهُمْ
لَأَنَّهُمْ قَدْ أَرْضِيئُوهُ بِالْإِيمَانِ فَارْضُوا بِمَا قَدَّرَ لَكُمْ مِنْ نَصْرٍ أَوْ شَهَادَةٍ وَكَلَّمَا
أَمْرَهُمْ إِلَيْهِ لِيَدِيرَ لَكُمْ مَا شَاءَ ﴿٤٠٩﴾ إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٤١٠﴾ لَهُ أَنْفُسُكُمْ وَوُجُوهُكُمْ.

لأن شأن من أسلم نفسه لله وأخلصها لربه أن يكل نفسه إلى مالكها ليدبر
لها ما شاء وأن لا يريد لنفسه خلاف ما يريد لها ربه وأن يطيعه وحده لا
يشرك في طاعته عدوه، فالإيمان بالله يستلزم معرفة قدرته، وعلمه، وغناه،
وكرمه، وفضله، ورحمته، ومعرفة ربوبيته، وإحاطة ملكه بعباده وتدبيره
لشؤونهم، فإذا نظر المؤمن إلى ذلك كان من شأنه أن يتوكل على ربه في كل
ما كلفه؛ لأنه يعلم أنه لا يخفى عليه حال عبده ولا ينساه ولا يهمله، وأنه
مدبر أموره ولذلك فلا يمنعه الخوف عن الإيمان.

﴿٤٠٥﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا
بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٤٠٦﴾ فَقَالُوا ﴿٤٠٧﴾ لِمُوسَىٰ تَعْبِيرًا عَنْ طَاعَتِهِمْ لِأَمْرِهِ
﴿٤٠٨﴾ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴿٤٠٩﴾ وَمَعَ ذَلِكَ دَعَا رَبَّهُمْ أَنْ لَا يُمَكِّنَ الظَّالِمِينَ مِنْ ظَلَمِهِمْ.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: المعنى لا
تجعلنا فتنة لهم، ولا تخلنا ولا تدرنا من نصرك وتفتنهم بنا، فيكون هلاكنا
بأيديهم محنة لهم، ولكن أعنا وانصرنا عليهم، وتحتمل الآية معنى آخر»
انتهى المراد، وهذا المعنى الذي نقلته هنا هو الراجح.

مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ

وقولهم: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ موافق للمعنى الأول الذي حاصله: طلب النجاة من فرعون وقومه، إلا أنَّ الأول طلب النجاة من تمكين عدوهم من ظلمهم من حيث أن ذلك غيظ على المؤمن وشديد عليه أن يسلط عليه عدو الله، فهو من معنى بغض أعداء الله وكرهه أن ينالوا غرضهم في المؤمنين.

وأما الثاني فقولهم: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ فهو طلب النجاة برحمة من الله عاجلة من حيث هي رحمة للمؤمنين بالنجاة من القوم الكافرين، وذكر الكافرين لأن كفرهم يبعثهم على الظلم والتعدي على المؤمنين.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿تَبَوَّءَا﴾ اتخذوا لأنفسكما مباءة بيوتاً تبوئون إليها لقومكما حيث يتعين لهم مقرهما فيأوون إلى ناحيتكما بمصر حيث العدو إلا أن مصر واسعة المجال فهم في هذه الحالة في حالة الخوف والاستعداد لما يأمرهم به موسى وأخوه.

ومقتضى هذا الأمر: الاستقرار في ناحية معينة ثقة بوعد الله وهو قوله تعالى: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص: ٣٥] وتخيرُ بيوت لا البقاء في البادية الخالية عن البيوت، وهذه طريقة تسهل اجتماعهم حول موسى وهارون للتعلم منهما وأخذ التربية الروحية وإقامة الصلاة معهما كما هي تغيظ فرعون وملأه من حيث يفهمون منها عدم مبالاة موسى وقومه بهم؛ ولذلك أرسل ﴿فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ [الشعراء: ٥٣-٥٥].

فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ

﴿وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي متجهة إلى القبلة أو متقابلة، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ [الفرقان: ٦٢] أي متخالفين كل واحد يخلف الآخر، وجعل البيوت قبله هو أقرب للتلاقي بينهم والتوحد.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي أنت وقومك؛ لأن المقصود بإنقاذ بني إسرائيل وإرسالهما هو أن تعبدوا الله، كما قال موسى في دعائه: ﴿هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٣٠-٣٤] والصلاة محل الذكر أفضل من غيرها كما يفيدته قول الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَنَشَرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ترغيب في ثبات قوم موسى على إيمانهم في تلك الحال الشديدة ليشبثوا ويصبروا رغبة في حسن العاقبة، وإبهام البشارة يدل على عظمها؛ لأنها من ملك الملوك.

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ إِنَّا آتَيْنَا فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا﴾ قيل: هي من المتشابه فيؤول، وقيل: يجوز العقاب بما يؤدي إلى الضلال، وإرادة الضلال في العقاب ليست إرادة له من حيث هو ضلال، وإنما هي إرادة له من حيث هو سبب العقاب، كما قال: ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ والله سبحانه وتعالى منزّه عن إرادة القبيح.

ويحتمل وجهاً ثالثاً: أنه عليه السلام أراد أن لا يكون صورة هذا الدعاء صورة الاعتراض لو قال: فضلوا عن سبيلك، فجاء بـ(لام) التعليل ليبين أن الله أنعم عليهم وهو يعلم أن ذلك يؤديهم إلى الضلال ليس غلطاً في الإنعام عليهم، فقال: ﴿لِيُضِلُّوْا﴾ ليدل على أن الله تعالى أنعم عليهم، وهو غير غافل بل هو عالم أنه يؤديهم إلى الضلال، فشبّه ذلك بالغرض المقصود.

والحاصل: أن التعليل مجاز، وإنما شبه ذلك بالغرض فاستعمل فيه عبارة الغرض مجازاً، تنزيهاً لله عن الغلط في التصرف، وتادباً عن جعل الكلام في صورة الاعتراض.

وقوله: ﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ﴾ قال في (الصحيح): «الطموس: الدروس والإحماء، وقد طمس الطريق يطمس وطمس وطمسته طمساً يتعدى ولا يتعدى، وانطمس الشيء وتطمس: أي أمحى ودرس، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ﴾ أي غيرها» انتهى المراد.

قلت: ويدل على صحة هذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٦٦].

وقوله: ﴿وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ قال الشرفي في (المصاييح): «ثم قال: ﴿وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي اسلب المعونة لهم فييقون على الضلالة، فيهلكون كفاراً، وينالهم عذاب الآخرة» انتهى.

ولعل هذا حاصل المعنى، والأصل: واشدد العقد على قلوبهم، على طريق التمثيل كذكر الختم والطبع، ولذلك فرّع عليه قوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾.

قال (سيد قطب): «أما دعاؤه بأن يشد الله على قلوبهم فهو دعاء من قد يش من صلاح هذه القلوب ومن أن يكون لها توبة أو إنابة، دعاء بأن يزيدها الله قسوة واستغلاًفاً حتى يأتيهم العذاب، وعندئذ لن يقبل منهم الإيمان» انتهى المراد.

سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ * وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ
فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا
إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُوءَ إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ءَالَتُنَّ

﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ﴿٩٠﴾ قُلْتُ وَسَيَكُونُ مَا سَأَلْتُمَا
﴿٩١﴾ فَاسْتَقِيمَا ﴿٩٢﴾ عَلَى مَا أُرْسِلْتُمَا لَهُ مِنَ الدَّعْوَةِ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ، فَلَمْ يَنْتَه
عَمَلُكُمَا بِهَذِهِ الْإِجَابَةِ، وَكَذَلِكَ اسْتَقِيمَا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ،
وَالِاسْتِقَامَةُ: ضِدُّ الْإِعْوَجَاجِ، فَهِيَ الْإِيمَانُ، وَالتَّقْوَى، وَالثَّبَاتُ عَلَى ذَلِكَ.

﴿٩٠﴾ وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩١﴾ فَلَا تَسَآمَا مِنَ الثَّبَاتِ وَالصَّبْرِ وَلَا
تَعْجَلَا عَلَى مَا طَلَبْتُمَا قَبْلَ أَجَلِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ الَّذِينَ
يَجْهَلُونَ؛ لِأَنَّ الْجَهْلَ بِثَوَابِ الصَّبْرِ قَدْ يُوْدِي إِلَى الْجَزَعِ، وَالْجَهْلُ سَبَبُ الضَّلَالِ
أَوْ كَالسَّبَبِ فِي كُلِّ شَيْءٍ لِأَنَّ الْعِلْمَ النَّافِعَ دَوَاءً لَأَمْرَاضِ الْقَلْبِ وَغَيْرِهِ.

﴿٩٢﴾ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا
حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُوءَ
إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٣﴾ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَالَّتِي بَعْدَهَا ذِكْرُ نَهَايَةِ فِرْعَوْنَ
وَقَوْمِهِ بِالْعَذَابِ الْعَاجِلِ الَّذِي لَمْ يَنْفَعَهُمْ عِنْدَ رُؤْيَيْهِ إِيْمَانٌ، وَالْآيَةُ هَذِهِ تَبَيَّنَ
سَوْءَ خَاتَمَتِهِمْ بِالْبَغْيِ عَلَى رَسُولِي اللَّهِ وَمِنْ مَعَهُمَا.

﴿٩٤﴾ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ ﴿٩٥﴾ أَيُّ جَعَلْنَاهُمْ جَائِزِينَ لِلْبَحْرِ حَيْثُ فَرَقْنَا
بِهِمُ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَهَذَا مِنْ أَعْجَبِ الضَّلَالِ أَنْ يَتَّبِعُوهُمْ وَقَدْ
رَأَوْا الْبَحْرَ انْفَلَقَ لَهُمْ، فَهِيَ آيَةٌ عَظِيمَى يَحِقُّ لَهَا أَنْ يَخْرُوءَ سَجْدًا لَوْ كَانَ
عِنْدَهُمْ أَيُّ اسْتِعْدَادٍ لِلْحَقِّ وَلَكِنَّهُمْ قَدْ خَذَلُوا وَأُجِيبَتْ فِيهِمْ دَعْوَةُ مُوسَى

وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٢١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بَدَنِكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ

﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ ساروا بعدهم ليدركوهم فيأخذوهم أو يقتلوهم، وقوله تعالى: ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: أي البغي والعدو عدوان وطغيان» انتهى.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ﴾ لحقه الغرق وأحاط به العذاب الأليم ﴿قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾ أي إلا الله، وكأنه قال: ﴿إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾ ليعلم أنه معهم على دينهم ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المتبرئين من الشرك.

﴿ءَاَلَكُنْ﴾ ينفعك الإيمان ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي قبل هذه الحالة التي أنت فيها مضطر إلى الإيمان لطلب النجاة من الغرق أي أينفعك الإيمان الآن؟! دخلت همزة سؤال إنكار على ﴿ءَاَلَكُنْ﴾ لأن ﴿ءَاَلَكُنْ﴾ محل الإنكار حيث أن ﴿ءَاَلَكُنْ﴾ وقت الاضطرار الذي لا تنفع فيه توبة، كأنه قيل: هل الآن ينفعك الإيمان وقد عصيت ربك قبل الآن وكنت على الفساد في الأرض مكرراً له لا تتورع ولا تتقي، فكنت من المفسدين؟!

ومن محاسن النظم: حذف المسؤول عنه كأن المنكر له يكره ذكره لشدة إنكاره له، ومن هذا: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَيُّدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٢٠-٢٣] أي أيذا متنا وكنا تراباً نرجع.

﴿١٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٣﴾ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ

﴿١٢﴾ ﴿فَالْيَوْمَ نُنْجِيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ ﴿فَالْيَوْمَ﴾ (الفاء) للتفريع على قوله تعالى: ﴿الْآنَ﴾ أي لا ينفعك إيمانك ﴿فَالْيَوْمَ نُنْجِيكَ بِبَدَنِكَ﴾ والسياق يرشد إلى أن المراد ﴿نُجِّيكَ﴾ جسداً بلا روح ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ حين تكون جسداً خاوياً، فيذكرون ما كنت فيه من الطغيان وما صرت إليه من الذلة والهوان جثة هامة مفردة عن الأتباع والأنصار.

فقوله: ﴿نُجِّيكَ﴾ من النجاة، باعتبار إنقاذ الجثة من الضياع في البحر وإخراجها للناس، وقيل: من النجوة، أي نجعلك على نجوة خارج البحر، والنجوة: المكان المرتفع، وقيل: ببदनك بدرعك.

والسراجح: التفسير بالمعنى المشهور فهو الظاهر ﴿نُجِّيكَ﴾ ننقذك من البحر بجسدك، وقد بلغ أن جسده باقٍ اليوم في مصر في متحف للآثار القديمة، وبهذا تمت العبرة في فرعون وقومه المكذبين بآيات الله.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَفِلُونَ﴾ فهو جسد يتعجب منه في المتحف مع الغفلة عن الاعتبار به، وهكذا يغفل كثير من الناس عن آيات الله.

﴿١٣﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ بعد أن كانوا مستضعفين يتيهون في الأرض ليس لهم وطن بؤاهم الله مسكناً جيداً وهو فلسطين، وذلك حين كان دينهم الإسلام كما قدمنا في تفسير قوله تعالى: ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [آية: ٢١] في (سورة المائدة).

يَقْرَءُونَ أَلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٦﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا

ولعله حين دخلوا القرية التي ذكرها في القرآن بقيادة يوشع بن نون وصي موسى عليه السلام، فعند ذلك كان لهم بلدة طيبة فيها بركات وفيها الماء والثمرات ونحو ذلك من الصفات التي يصلح بها البلد مع عزتهم في بلدهم وأمنهم الذي لا يتم الاستقرار إلا به ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ فعظمت عليهم النعمة بتيسير الدين وحاجات الدنيا.

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ﴾ علم الدين وعرفوا الحق فلم يختلفوا عن جهل، بل لأجل اختلاف الأهواء كما هو شأن أهل السياسة أن يضللوا من لم يكن معهم، ويدّعوا أنهم هم أهل الحق ويتمسكوا بالشبهات والدعايات المضلّة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فليس بالأمْر السهل ولا هو الإجتهد والخطأ فيه، وهكذا اختلفت هذه الأمة فـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وكما اختلف بنو إسرائيل من بعدما جاءهم العلم كتم كفارهم ما جاءهم في (التوراة) من علم رسالة محمد ﷺ وعلاماته الدالة عليه اتباعاً للهوى.

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ أَلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ ﴿فَإِنْ كُنْتَ﴾ يا محمد ﴿فِي شكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ من القرآن وسائر الوحي لم تيقن أنه صدق وحق من الله، ﴿فَسْأَلِ﴾ القراء من أهل الكتاب وهم الذين يتلونه حق تلاوته ولا يكتمون الحق، وهذا فرض وتقدير، كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وفائدته: بيان أن علم رسالة محمد ﷺ وتصديق ما أنزل الله إليه موجود عندهم في الكتاب الذي يقرؤونه.

مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ

﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ والحق ما أنزل الله إلى عبده ورسوله محمد ﷺ يقول الله له: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ﴾ الذي ليس محلاً للريب ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكين المترددين في أنه الحق من ربك، وفي قوله تعالى: ﴿مِنَ رَبِّكَ﴾ تنبيه على وجوب قبوله واتباعه؛ لأنه من ربه المالك المنعم.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ هذا نهى من الله لعبده ورسوله ووعيد له إن كذب وهو تعبد من ربه يؤجر ويثاب إن أطاع ويعاقب إن عصى كسائر عباد الله، وحاشا رسول الله ﷺ من أن يعصي ربه متعمداً أو يشك فيما أنزل إليه أو يكذب بآياته لكن ذلك لا يمنع من أمره ونهيه تعبداً له كسائر عباد الله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿كَلِمَاتُ رَبِّكَ﴾ إما كلماته الدالة على أنهم يعذبون، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ [الزمر: ١٩] ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ﴾ وقعت عليهم وصدقت عليهم لأنهم مجرمون مصرون لا يتوبون أبداً، فشملمهم الوعيد بالعذاب، وإما كلماته أنهم لا يؤمنون على اختلاف دلالتها المتفقة في أنهم لن يؤمنوا مثل ما مر في هذه السورة ومثل ما مر في (سورة الأنعام) حول قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ الآية [١١١] ومرجع المعنيين واحد، فيمكن شمول هذه الآية لهما معاً.

قَرْيَةً ءَامَنَتْ فَநَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَمَتَّعْنَهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي العذاب الذي لا يقبل الإيمان عند رؤيته، وفائدة هذا الخبر أو من فائدته أن لا يشغل رسول الله ﷺ نفسه بالطمع في إيمانهم ومحاولة أن يؤمنوا أكثر مما قد وقع منه ﷺ.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ كلام في القرى الماضية الذين أهلكهم الله بكفرهم ولم ينفعهم الإيمان حين رأوا العذاب ﴿فَلَوْلَا﴾ فهلاً ﴿كَانَتْ قَرْيَةً ءَامَنَتْ﴾ في حين الاختيار وقبل نزول العذاب، ومعنى هذا أنهم أضاعوا فرصة النجاة وكانت ممكنة لهم، فهو يُعِيبُ عليهم ذلك بقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً ءَامَنَتْ﴾ وفائدة ذلك تحذير الأحياء من أن يصيروا مصير الماضين.

﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَمَتَّعْنَهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ استثنى قوم يونس لدخولهم في عموم ما قبله؛ لأنه في معنى النكرة في سياق النفي، لأنه يفيد أنها لم تؤمن قرية آمنت فنفعها إيمانها، فصح استثناء قوم يونس وفي استثنائهم ترغيب في إيمان الكفار الأحياء لينفعهم الإيمان النفع العاجل، وهو كشف العذاب العاجل في الدنيا مع التمتع بالعيش ولذاته إلى حين، فأما نفع الإيمان بالنجاة في الآخرة فهو يتوقف على أن يكون الإيمان خاتمة الحياة فليس السياق فيه، وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ مُجْمَلٌ ولعله الأجل المسمى لكلهم أو لبعضهم.

﴿١١﴾ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَجَعَلَ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا

﴿١١﴾ ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ لما بين تعالى أن بعض الكفار لا يؤمنون، وأفاد أن بعض الماضين لم يؤمنوا في وقت نفع الإيمان، وأن قوم يونس آمنوا في وقت نفع الإيمان فنفعهم إيمانهم بين في هذا أنه لم يُعصَ مغلوباً وأن من لم يؤمن إنما بقي على كفره؛ لأن الله أراد تركه على ما يختار لنفسه ولو شاء الله لم يتركه على ما اختار لنفسه، ولكنه اقتضت حكمته تمكين المكلفين من الطاعة والمعصية فترك كلاً على ما اختار لنفسه؛ لأنه غني عن طاعة المطيع والعاصي ولا تضره معصية العاصي؛ ولذلك تركهم مختلفين منهم من آمن ومنهم من كفر، ولو شاء لجعلهم جميعاً مؤمنين مجتمعين على الإيمان، وهذا تسلية لرسول الله ﷺ عن أبي الإيمان أن لا يأسف عليهم لأن الله لو شاء أن يجعلهم مؤمنين لجعلهم ولكن شاء تركهم على ما اختاروا لأنفسهم.

﴿أَفَأَنْتَ﴾ مع هذا ﴿تُكْرِهُ النَّاسَ﴾ على ما يصيرون به مؤمنين مختارين للإيمان موصوفين بالإيمان حقيقة هذا لا تستطيعه فهو على نفسك من محاولة إيمان من لا يؤمن.

﴿١٢﴾ ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَجَعَلَ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ﴾ أي ما استقام، كأنه لا يتصور أن تؤمن إذا لم يأذن الله أن تؤمن؛ وذلك لأن الإيمان يتوقف على النظر في آيات الله والسلامة من أسباب الخذلان.

فمن استعمل عقله بالنظر في الآيات وكان سليم الفطرة، فقد أذن الله أن يؤمن لأنه يسر له الإيمان أما من أهمل عقله وأعرض عن آيات ربه فالإيمان

تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ
 أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَاَنْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ
 ﴿١٧﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ

بعيد منه لتركه النظر في الدلائل التي يتوقف الإيمان عليها وعدم استعداده
 لقبول ما دلت عليه، لأنه كاره له تأباه نفسه وترفضه فما كان له أن يؤمن وإن
 كان إيمانه ممكناً لو اختاره بأن يستعد في نفسه لقبول الحق، وينظر في آيات الله
 بحيث يحصل شرط الإيمان ويذهب المانع، لكن ذلك لا يكون ولا يقع ممن
 خذل وسلطت عليه الشياطين عقوبة له بتمرده وإفساده واستحقاقه للخذلان،
 فبهذا يظهر خطر العناد على صاحبه، وأن الله غني عن إيمانه، وأفاد ذلك
 بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَجَعَلَ الرِّجْسَ﴾
 قدر الخذلان واعتبر قدراً؛ لأنه تحصل معه أقدار المعاصي وسلطان الشيطان.

﴿١٦﴾ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿١٧﴾ أَنْظَرُوا ﴿١٨﴾ تفكروا
 بعقولكم ﴿١٩﴾ مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿٢٠﴾ من آيات الله ودلائل قدرته وعلمه.
 ﴿٢١﴾ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٢﴾ وَمَا تُغْنِي ﴿٢٣﴾ حاصله: ما
 تدفع عنهم ﴿٢٤﴾ الْآيَاتُ ﴿٢٥﴾ لا تنقذهم من النار وأسبابها ﴿٢٦﴾ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾
 ليس من شأنهم أن يؤمنوا لأنهم معرضون عن آيات الله فلا تنفعهم كثرة
 الآيات في السموات والأرض كما لا تفيد الأعمى كثرة الأنوار؛ لأنه ليس من
 شأنه أن يبصر ﴿٢٨﴾ وَالنُّذُرُ ﴿٢٩﴾ جمع نذير، فهي لا تنفعهم؛ لأنهم يكذبون بالنذر.

﴿٣٠﴾ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴿٣١﴾ حين لم
 تنفعهم الآيات والنذر وأصروا على تكذيبهم بآيات الله وعنادهم ﴿٣٢﴾ فَهَلْ
 يَنْتَظِرُونَ ﴿٣٣﴾ بعد آيات الله ونذره ﴿٣٤﴾ إِلَّا ﴿٣٥﴾ العقاب العاجل و﴿٣٦﴾ أَيَّامِ الَّذِينَ
 خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴿٣٧﴾ أيام العذاب النازل بالأمم الماضين.

﴿١٣﴾ قُلْ يَتَّيِّهُمُ النَّاسُ إِنَّ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِّنْ

وانتظارهم لذلك إما مجاز بمعنى أنهم كالمستظرين له؛ لأنه متوقع نزوله عليهم وهم مسبيون له، وإما مجاز بمعنى: أنهم مطالبون به، كقولهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فكانهم منتظرون له، ومثل هذا في مواضع من القرآن قال تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [يس: ٤٩] ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [ص: ١٥].

﴿قُلْ فَإِنْتَضِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿فَأَنْتَظِرُوا﴾ أي إن كنتم تنتظرون ﴿مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا﴾ فانتظروا نزوله بكم، أي أنتم أهل أن تنتظروا، أو هو مثل: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] لأن انتظارهم له بمعنى الاستمرار على التكذيب بالآيات والنذر والمطالبة بالعذاب إن كان النبي صادقاً ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ لنزول العذاب عليكم الذي يخصكم وينجو منه المؤمنون.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿لَمَّا كَانَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ..﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ تَفِيدُ: نزول العذاب على الأمم الخالية، وأن ذلك سنة الله في الذين خلوا عطف عليها بيان أن من سنة الله إنجاء الرسل ومن معهم من المؤمنين.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أي حقٌّ علينا حقاً أن ﴿نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أن الله كتب على نفسه أن ينجي المؤمنين، وهو وعد مؤكد، ولم يذكر الرسل في آخرها؛ إما لأن العلة في النجاة هي الإيمان والرسل هم أول المؤمنين؛ وإما لأن المراد ﴿نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في المستقبل إن نزل العذاب في المستقبل وهو لا ينزل مع وجود الرسول ﷺ فيهم.

﴿١٤﴾ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٦﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ

﴿١٤﴾ ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ﴿قُلْ﴾ يَا رَسُولَ اللَّهِ بعد الإحتجاج الكامل على صدقك وعلى بطلان الشرك ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ فلا أشك في بطلان دينكم ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فأنا بريء من دينكم. ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنُكُمْ﴾ فلا تنجيكم ألهتكم من الموت فأي الفريقين أحق بالأمن فأنا أعبد الله الذي بيده نفوسنا، وأنتم تعبدون من دونه ما لا برهان لكم به.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فأنا في طاعته بإيماني، ولم تؤمروا بالشرك فانتهبوا لتوقنوا أنكم على باطل.

﴿١٥﴾ ﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي ﴿و﴾ أمرت ﴿أَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ الذي هو الدين؛ لأنه الدين النافع.

وقوله تعالى: ﴿حَنِيفًا﴾ قيل في تفسير (الحنيف): الخاشع أو الخاشع المحب، وهو أقرب من تفسيره بالمائل، وأقم وجهك للدين: اجعل وجهك قيماً مستقيماً للدين، لا يعوج عن العمل لله سبحانه أو لا يعوج عن إقباله على الدين وقبوله له وصلاحه له واستعداده له.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ نهي مؤكد عن الشرك أي قل يا أيها الناس ذلك القول ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بل تبرأ منهم وباينهم.

﴿١٦﴾ ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ ولا تطلب من دون الله لما لا يقدر عليه إلا الله كشفاء مريض، ونصر على عدو، وبركة في

لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ۚ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٧﴾ قُلْ يَتَأَيَّمُوا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ

مال أو ولد، وحفظ من الأمر الغالب، والقرينة لإرادة هذا هي السياق والحال، وقوله: ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وقوله: ﴿مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ فكل ذلك يدل على أن المعنى لا تفعل كما يفعل المشركون الذين يدعون من دون الله شركاءهم ويرجون منهم ما يطلبون وهم لا ينفعون ولا يضررون.

﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ ذلك ﴿فَإِنَّكَ إِذَا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿إِذَا﴾ تأكيد للشرط وهذا تعبد من الله لعبده ورسوله ﷺ وتحذير لسائر الناس من الشرك من حيث دلالة على أن رسول الله ﷺ لو أشرك لكان من الظالمين المستحقين للعذاب بظلمهم الذي هو الشرك.

﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ أما شركاء المشركين فلا يكشفونه ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ۚ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ يجعله لك ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ لأنه الغالب على أمره، وهذا يدل على كفاية الله لعبده، وأنه لا فائدة لعبادة من دونه، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّي أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِي قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿يُصِيبُ بِهِ﴾ أي بفضله ﴿مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ﴾ أي من الناس وغيرهم، وفيه تنبيه على أن الله يصيب بفضله من يشاء من الناس لأنهم عباده وهو ربهم الذي خلقهم والذي يرزقهم، وفيه تنبيه على بطلان الشرك.

مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٨﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ تَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٩﴾

وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ لأنه يصيب بفضلَه المطيعَ والعاصي، فكان الإنعام على العاصي نوع من المغفرة والرحمة، كقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا﴾ [الكهف: ٥٨] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ كقوله تعالى: في (سبا): ﴿بَلَلَّةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ﴾ [آية: ١٥].

﴿قُلْ يَتَّيِبُنَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿قَدْ جَاءَكُمُ﴾ في هذا القرآن وفيما بلغتكم عن الله ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ المالك لكم الذي له الحكم فيكم وعليكم وبينكم ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ قَبْلَ الْحَقِّ وَأَمِنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ ﴿لِنَفْسِهِ﴾ اهتدى؛ لأن نفع الإهداء له.

﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ وغوي عن الحق ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي على نفسه؛ لأن ضرر الضلالة عليه ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ فلست مسؤولاً عن ضلال مَنْ ضل؛ لأنني لست عليكم بوكيل، فلم يوكل إليّ أمرُ هدايتكم وضلالكم ليس عليّ إلا البلاغ، وليس عليّ هداكم، وهذا في خواتم هذه السورة من أحسن ما يختم به الحجاج.

﴿وَأَتَّبِعْ﴾ يا محمد ﴿مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ﴾ من ربك ﴿وَأَصْبِرْ﴾ لحكم ربك على تبليغ الرسالة وما يكون معه من العناء والجهد وأذى الأعداء ولطاعة ربك في كل أمر ونهي وعلى بلائه ﴿حَتَّىٰ تَحْكُمَ اللَّهُ﴾ بينك وبين من أرسلك إليهم.

﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ لأنه يحكم بالحق لا يحيف ولا يغلط؛ لأنه العليم
 القدير الغني، فاصبر حتى يحكم الله فتنال الثواب العظيم والسعادة الدائمة،
 ويُجزى المكذبون العقاب الشديد الدائم، فتلك عاقبة لك وعليهم تستحق
 منك الصبر في هذه الحياة الدنيا، فهو قليل بالنسبة إلى العاقبة الدائمة، فقله
 تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَحْكُمَ اللَّهُ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].



التفسير في التفسير



سورة قنوق



سُورَةُ هُودٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ كِتَبٌ أَحْكَمَتْ ءَايَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَكَاشِفٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ

تفسير (سورة هود) وهي (مكية)

﴿١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الرَّ كِتَبٌ أَحْكَمَتْ ءَايَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿الر﴾ قد مرَّ الكلام في هذه الحروف في تفسير (سورة الأعراف) و(سورة البقرة) ﴿كِتَبٌ﴾ لم ينزل من السماء مصحفاً مخطوطاً ولكن أنزل الله القرآن على رسوله الذي لا يقرأ مخطوطاً ولا يخط كتاباً، نزل به الروح الأمين على قلبه ﷺ أنزله إليه على أنه كتاب يكتب ليحفظ وتتوارثه الأجيال فسمّاه (كتاباً).

﴿أَحْكَمَتْ ءَايَتُهُ﴾ جعلت آياته كما تقتضيه حكمة قائله، محفوظة من كل نقص ومن كل عيب ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] ﴿ءَايَتُهُ﴾ دلائله الدالة على سبل الهدى، وبعد إحكام معانيها فصلت في تعبيرها فجعلت بالتفصيل وهو جعلها ذات فصول تمتاز بها جملها وكلماتها حتى يتيسر تفهمها كلمة كلمة وجملة جملة، وإن كان بعض هذا التفصيل تابعاً لكونها بلسان عربي مبين فهي بينة لمن يتدبرها سليمة من التعقيد، والترتيب بين الأحكام، والتفصيل إنما هو متأخر في الرتبة لا في الزمن.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ كالدليل على أنها أحكمت آياته وأنها (فُصِّلَتْ) لأن قائلها حكيم جعلها مطابقة لمقتضى الحكمة ومقتضى خبرته بإفهام عبادته وما هو أصلح لتفهمهم وماهم به يفهمون كما أنه خبير بالعبارات بينها وغامضها وغير ذلك من شأنها.

يُمَتِّعُكُمْ مَتَّعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٢﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ

﴿٢﴾ ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَنَشِيرٌ﴾ هذا من تفسير الكتاب وبيان مضمونه جملة وخلاصة معانية، وقد أجري التعبير فيه عن الرسول ﷺ لأنه والكتاب كالشيء الواحد، فكأن ذكر الكتاب ذكر للرسول وقد مر اعتبارهما كالشيء الواحد، وهو ظاهر في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ [الطلاق: ١٠-١١] ونظير جعل التعبير عنه ﷺ قوله تعالى في الملائكة: ﴿وَأَنَا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥].

وقوله تعالى: ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ يفيد: النهي عن الشرك في العبادة، وتشريع العبادة لله وحده، وأتبعه بقوله: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ﴾ أي من الله ﴿نَذِيرٌ وَنَشِيرٌ﴾ لأنه ينذر المشركين بعذاب شديد كما هو مبين في موضع آخر من الكتاب، بل وينذر المكذبين بآيات الله وسائر الجرمين المصيرين بعذاب النار ويبشر المؤمنين المتقين بجنات النعيم، كل ذلك مبين في الكتاب وعلى المرسل إليهم تفهم ما أوجزه هنا طلباً للنجاة مما أُنذروهم، فهو أمر تدعو إليه فطرة العقول، والعبادة تشمل طاعة الله في العبادات، والمعاملات، والموارث، والأخلاق، بامثال أمره واجتناب ما نهى عنه، وتشمل اتباع ما أنزل على رسوله ﷺ.

﴿٢﴾ ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَّعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ وهذا بيان معطوف على البيان الأول، وقوله: ﴿أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ دعوة للمشركين وهم عامة الناس وجمهورهم يوم نزول الكتاب لم ينبج منه إلا القليل وكان الفساد ظاهراً بسبب الجاهلية بالشرك على اختلاف أنواعه وبغيره من المنكرات.

فالمخاطبون بهذا محتاجون إلى طلب المغفرة من ربهم الذي لا يغفر الذنوب إلا هو، وطلب المغفرة يستلزم التخلي عما يستغفرون منه من الشرك وغيره؛ لأن الطلب الجاد الذي هو المراد شأنه ترك الإصرار على ما يستغفر منه الطالب وإلا كان لغواً وهو خلاف المراد، ولذلك رتب عليه وعلى التوبة ﴿يُمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾ ﴿وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ أي ثم ارجعوا إليه تشبيهه للعبد العاصي بالعبد الآبق، فإذا خرج عن العصيان بالإقلاع عنه والعزم على الطاعة والندم على ما مضى والشروع في الطاعة كان كالعبد الذي كان آبقاً فرجع إلى سيده مطيعاً، فظهر أن التوبة تتضمن الطاعة لله ورسوله، فأفاد الاستغفار النطق بالشهادتين في حق من كان كافراً، وأفاد ﴿ثُمَّ تَوْبُوا﴾ الطاعة لله ورسوله وذلك لفوائد:

الأولى: أفادها قوله تعالى: ﴿يُمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وذلك يتضمن النجاة من العذاب العاجل الذي يتعرض له الكافرون.

والثانية: الثواب على الإيمان والعمل الصالح والطاعة وذلك هو الفضل الذي به يتفاضل الناس ويؤتونه يوم القيامة بأن يوفوا أجره وهو يعم الواجب وكل قرينة وهذا لأنه مع الاستغفار والتوبة يكون مقبولاً بخلاف عمل المجرم فلذلك رتب الوعد المذكور على الاستغفار والتوبة.

الثالثة: أفادها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وإن تدبروا عن الطاعة ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ﴾ النار وهو عذاب اليوم الكبير يوم القيامة، وصف هنا بأنه كبير، وفي سورة عظيم؛ وذلك لما فيه من القضاء الكبير بثواب لأولياء الله عظيم دائم

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا

وعذاب لأعداء الله شديد دائم، وما فيه من الأهوال على أعداء الله والبشرى لأولياء الله، وما فيه من جمع الناس كلهم والحكم فيهم لكل نفس بما أسلفت.

﴿١﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هذا تمام البيان الذي بدأ بـ (أن) المفسرة في قوله: ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ حث على الحذر من اليوم الكبير لأنهم إلى الله وحده مرجعهم لا يجدون من دونه ولياً ولا نصيراً ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قدير على إعادتهم بعد الموت وعلى تعذيبهم إن لم يتوبوا وعلى كل شيء، فعليهم أن يحذروا بأسه ويطلبوا رحمته؛ لأنه يفعل ما يريد، ففي هذه الآيات دعوة ينبغي لكل عاقل أن يصغي لها سمعه ويفكر بقلبه ليؤمن بربه ويعبده وحده ويستعدّ لمرجه إليه فقد أفادت التوحيد والقيامة والنبوة وغير ذلك من مهمات الدين كما ترى.

﴿١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢﴾ أَلَا ﴿٣﴾ حرف تنبيه وكان سببه التعجب من إعراض الكفار عن النذير الذي يندرهم العذاب الشديد، فإن من شأن العاقل أن يحذر ما يُنذر، ولكونه أمراً ينبغي التعجب منه أكده بقوله: ﴿إِنَّهُمْ﴾ من حيث أن شأنه أن يكون بعيداً وقوعه يستبعده السامع.

وقوله تعالى: ﴿يَتَنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معنى ﴿يَتَنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ أي يردّون صدورهم مدبرين بعد إقبالهم [كذا] وراجعين عن القرآن مستخفين منه لئلا يسمعوه» انتهى.

فجعل من ثناه، بمعنى: صرّفه، وقال الراغب: «ويقال للآوي الشيء: قد ثناه، نحو قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَتَنُونَ صُدُورَهُمْ﴾» انتهى المراد، وله معنيان: ثناه بمعنى: عطفه، وبمعنى ردّ بعضه إلى بعض، وهذا لا يتصور في الصدر، وثناه بمعنى: لواه وصرفه وحوله، وهو الراجح هنا.

وقوله: ﴿لَيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ يحتمل: أن الضمير في ﴿مِنْهُ﴾ للقرآن فالمعنى فيه: يتحولون بصدورهم ووجوههم ليستخفوا أي لئلا يسمعوه، أو أن الضمير للرسول ﷺ عند تلاوته للقرآن يثنون صدورهم وهم بين الناس ليستخفوا من الرسول حتى لا يعرفهم لئلا يعلم أن قد سمعوا القرآن وقامت عليهم الحجة به، والأقرب أن المعنى أنهم يكرهون سماع القرآن فلكرهتهم له يحولون أعاليهم عن وجهته ليتخبثوا منه كراهة لاستماعه كما يستغشون ثيابهم لهذا الغرض.

وعلى هذا: فهم يحولون أعاليهم ويحنون ظهورهم، كما في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام) وَحَنَى الظَّهْرُ يَفْهَمُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لَيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ وعلى هذا، فالضمير في ﴿مِنْهُ﴾ للقرآن أي ليتخبثوا من استماعه كراهة له.

﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ كما فعل قوم نوح، وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وعيد لهم بسبب ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ في تلك الحالة من كراهة القرآن والإصرار على الإعراض عنه، وعلى الكفر ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من ثني صدورهم واستغشاء ثيابهم.

وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿عَلِيمٌ﴾ بما هو أخفى من ذلك ذات ﴿الصُّدُورِ﴾ التي لا تظهر منها إلى اللسان أو الوجه أو الجوارح بل لم تنزل غبوة في الصدور، ولعلها التي تخفى على صاحبها ولا يتنبه لها تحقيق لإحاطة علمه بكل ما يخفى وكل ما يعلن - والله أعلم.

﴿١﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ فيها فوائد راجعة إلى ما مر:

فمنها: إفادتها أنه تعالى الرازق فهو المنعم الذي يستحق أن يعبدوه شكراً على نعمه وأن لا يعبدوا غيره من شركائهم؛ لأنهم لا يرزقونهم ولا يملكون لهم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق.

ومنها: إفادتها سعة علمه بأحوال عباده فهو يعلم ما يحتاجون ويعلم إن دعوه لحاجة يعطيها أو لكشف مهمة، فهذه تناسب قوله تعالى: ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾.

ومنها: مناسبتها لقوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فخلقه لكل دابة وتكفله برزقها دليل على سعة علمه وقدرته، فهو قادر على البعث بعد الموت لكل فرد، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ فهو يعلم مستقر كل حيوان كبير أو صغير من الذرة إلى الفيل يحيط علمه بأحوالها أين تستقر من ظهر الأرض، أو بطنها، أو في الجبال، أو في الشجر، أو في أوكار الطيور، أو في الماء، كل دابة على حدة يعلم مستقرها ومستودعها.

وَلَيْسَ قُلَّتْ إِنَّكُمْ مَّبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٥٧﴾ وَلَيْسَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ

والمستقر: المسكن الذي يسكن فيه الحيوان، أما المستودع: فالراجع أنه محله بعد وفاته من قبر أو غيره سمي مستودعاً لأنه أودع فيه ليبقى إلى يوم البعث، فعلم الله تعالى محيط به أينما كان.

وقال الشرفي في (المصاييح): «ومستودعها: حيث كانت مودعة من صلب، أو رحم، أو بيضة» انتهى، وقد عطف المستودع على المستقر هنا وفي (سورة الأنعام) فيرجح تقدم المستقر قبل المستودع - والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي معلوم لا ينسى، كقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥٢].

قال الشرفي في (المصاييح): «ثم قال - عز وجل -: ﴿كُلٌّ﴾ أي من الدواب والأرزاق والمستقر والمستودع ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي في علم الله العليم، ولكنه ضرب المثل بالكتاب المبين، كذا عن القاسم، والهادي، وغيرهما من أئمتنا (عليهم السلام) انتهى المراد.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ وهذه تناسب قوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ من حيث دلالتها على قدرته على البعث، وتناسب قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ من حيث دلالتها على قدرته وعلمه.

وقوله: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ تنبيه على عظم قدرته حيث خلقها على كبرها في ستة أيام، أي مقدار ستة أيام، وحمل الأيام على أيام الأرض المعهودة أرجح لأنه المتبادر عند العرب؛ ولأنه أنسب للسياق من حيث دل على عظم قدرة الله تعالى حيث خلقها في المدة القصيرة على عظم السموات والأرض.

وكذا قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ تُكْفَرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [نصت: ٩] خطاباً للعرب الذين ينكرون قدرته تعالى على إعادتهم بعد الموت، وتأويلها بأيام من أيام غير الأرض خلاف الظاهر، وتفسيره بمطلق الأوقات يبطل فائدة التحديد بيومين ثم بأربعة أيام، بل لا يبقى لذكر الأيام فائدة تذكر؛ لأن خلقها لا موجب لذكر وقته إذا لم يكن له حد محدود مفهوم يؤدي إلى معرفة عظم قدرته تعالى، وتأويله بأطوار الخلق خلاف الظاهر؛ لأن أطوار الخلق من الخلق لا من زمانه.

وأما قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ المعنى: كان سلطانه وأمره على الماء، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: العز والسلطان» انتهى.

وفي (مصاييح الشرفي) رحمه الله: «قال القاسم عليه السلام: تأويله وكان [ظن] كل ملك الله على الماء، إذ ليس إلا الماء كما ملكه اليوم على الأرض والسماء وعلى جميع ما فيهما من الأشياء» انتهى.

﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ﴿لِيَبْلُوكُمْ﴾ تعليل لخلق السموات والأرض، وبيان أنه تعالى خلقهما ليبلو أي ليختبر الناس أيهم ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ويترتب على هذا الإبتلاء الجزاء، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية: ٢٢] ولكن الجزاء للعمل الحسن والأحسن هو بالثواب عليهما، فثواب المحسنين غاية مستقلة مقصودة بخلق السموات والأرض، وذلك أي خلق السموات والأرض من دلائل البعث؛ ولذلك عطف قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ قُلْتُ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾

لَيَقُولُنَّ مَا تَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ
 مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا
 مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُوفُ كُفُورًا ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ

فهم مكابرون مكذبون بالقرآن الدال بإعجازه على أنه من الله ليس سحراً،
 وهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده وينذرهم عذاباً شديداً، ويبين لهم دلائل
 قدرة الله وعلمه المحيط بكل شيء فيجحدون البعث والجزاء الذي من أجله
 خلق الله السموات والأرض فما أضلهم وما أبعدهم عن نفع أنفسهم.

﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَخْرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا تَحْبِسُهُ ۗ
 وهذه منهم حماقة عجيبة؛ لأنهم قد تعرضوا لعذاب الله ولو قد نزل لندموا
 حين لا ينفعهم الندم وليس بالأمر السهل.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «وقوله تعالى: ﴿إِلَى أُمَّةٍ
 مَّعْدُودَةٍ﴾ معناه: أجل معدود» انتهى.

ومعنى: ﴿مَا تَحْبِسُهُ ۗ﴾ ما يمنع نزوله وإصابتهم به؟ وهو استهزاء
 بوعد الله ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا
 بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿أَلَا﴾ حرف تنبيه ينادي بغفلتهم المهلكة لهم ﴿أَلَا
 يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ العذاب لا يرتد عنهم ولا يصرفه عنهم صارف لا إيمان
 عنده ولا قوة ولا ناصر ولا شافع ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أحاط بهم ﴿مَا
 كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

قال الشرفي في (المصاييح): «وقوله: ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وضع
 يستهزئون موضع يستعجلون؛ لأن استعجالهم كان على جهة الإستهزاء» انتهى.

ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴿٦٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٦١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا

﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ كَفُورٌ﴾ وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ * إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ نعمة شأنها أن تبعثه في كل حال على رجاء الخير منا؛ لأنها رحمة مبتدأة فمن حقه لو استعمل عقله أن يرجو من ربه مثلها وأمثالها ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ نزعنا منه تلك النعمة فمصائب الدنيا كلها إنما هي نزع نعمة.

﴿إِنَّهُ لَكُفُورٌ﴾ كثير اليأس والقنوط من رحمة الله ﴿كَفُورٌ﴾ لنعمة الله فهو ينسأه ويغفل في حالة اليأس عن كون الخير من ربه ينعم به على عبده ابتداءً وقد كان في نعمته قبل نزاعها فكيف لا يرجو منه الخير ﴿كَفُورٌ﴾ يحتمل كفور لنعمة ربه، ويحتمل ﴿كَفُورٌ﴾ بقنوطه: ﴿إِنَّهُ لَا يَتُشُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] وصح بعد قوله: ﴿لَكُفُورٌ﴾ لتعدد المفهوم، فكانه قال: يؤوس كفور بقنوطه.

﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ﴾ قد وجد لذتها وتحققها ﴿بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ﴾ من فقر أو غيره ﴿لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ ذهب عني ما يسوءني وصلحت حالتي لا يهमे إلا نفسه، فإذا زالت عنه الضراء ووجد لذة النعماء لم يشكرها بل يفرح بها ويفخر على غيره بها فيقول: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ سروراً بها واطمئناناً إليها وفخراً على من ليس له مثلها، وما كان ينبغي للإنسان إلا أن يصبر عند البلاء، ويشكر ربه عند الرخاء.

يُوحَىٰ ۚ إِلَيْكَ وَضَآئِقُ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ

وقد استثنى الله المؤمنين فقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ لأنهم يصبرون على بلاء الله وتقواه ويعملون الصالحات شكراً ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أهل هذه الصفات ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لخطيئاتهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ على أعمالهم الصالحات، فبشرهم بالنجاة من العقاب والفوز بالثواب وهذه الآيات تدل على أن الإنسان أقرب إلى الكفر والغرور منه إلى الإيمان والشكر ولذلك رتب على ما حكى عن الكفار من العناد قوله تعالى:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ ۚ إِلَيْكَ وَضَآئِقُ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ فثقل عليك تبليغهم حتى كأنك تعجز عن بعضه مع شدة كتمانهم عليك وضيق صدرك بحيث إنك تطلب النفس بتبليغه من جهة ضيق صدرك عن كتمانهم ويثقل تبليغهم من جهة عنادهم وبعدهم عن قبوله وكرهاتك أن يقولوا كفراً وجدالاً بالباطل ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ أي على محمد ﴿كَتَبٌ﴾ لأنه لا يهمهم إلا الدنيا وأغراضها ويعتبرونها الخير كله ومن قولهم الذي تحاذره ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ رسولاً إلينا احتقاراً لمحمد ﷺ لقلة ذات يده وقلة أتباعه في أول الإسلام فيرونه ليس أهلاً للرسالة وحده ولو كان معه ملك لكان عندهم أهلاً أن يؤمنوا به لمكان الملك.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ تنذرهم العذاب الشديد فلا تحتاج إلى كنز ولا إلى مقارنة ملك رسول معك؛ لأن الإنذار يتم بدون ذلك،

أَفْتَرَاهُ قُلْ فَاتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَتْ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ

ولا تدعي أمراً يتوقف على الكنز أو الملك، وقد تم الإنذار بآيات الله الدالة على صدقك ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ فأمرهم إليه وإليه مأبهم وعليه حسابهم فكل أمرهم إليه واثبت على إنذارهم وتبليغهم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَاهُ قُلْ فَاتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَتْ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ إضراب عن توقع قولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ إلى السؤال أيقولون: ﴿أَفْتَرَاهُ﴾ أي افترى هذا القرآن على الله وليس من الله.

﴿قُلْ﴾ يا رسول الله فإن كنت افتريته ﴿فَاتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ﴾ في الحكمة والإحكام ﴿مُفْتَرِيَتْ﴾ تفترونها أنتم وغيركم، فإنه إذا أمكن أن افتريه أمكن غيري أن يأتي بمثله مفترى، وهذا جواب مسكت؛ لأنهم أرادوا أن القرآن ليس معجزة، فإذا لم يكن معجزة فليأتوا بمثله.

وقوله ﴿قُلْ فَاتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ﴾ تعجيز لهم بأن يأتوا بحديث مثله في حكمته وإحكامه وإنما تذكر السورة والعشر لتوضيح عجزهم، وإذا عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله، فهم عاجزون عن الإتيان بعشر، ولا تعارض لأنهم إذا عجزوا عن الإتيان بعشر، فقد عجزهم في موضع آخر بسورة فلو استطاعوا سورة وجاءوا بها لأبطلوا التعجيز بسورة.

وإذا بطل التعجيز بسورة بطل التعجيز بعشر؛ لأن ما كان من مقدور البشر لا يختلف فيه السورة الواحدة والعشر في إمكان الإتيان به غاية ما في الأمر أن تحتاج العشر إلى وقت أطول أو إلى أعوان أكثر فلوا استطاعوا السورة لاستطاعوا العشر.

اللَّهُ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١١﴾ أُولَئِكَ

فإن قيل: فما فائدة ذكر العشر؟

فاجواب: إن المكابر يصلح له ما هو أوضح في عجزه لإسكاته مع أن التعجيز بالعشر صحيح؛ لأنه لو كان القرآن قول البشر لاستطاعوا العشر لأنه لم يحدد لها وقتاً ولا عدداً من الناس أو غيرهم، بل قال: ﴿وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي ليعينكم على تحصيل العشر السور، وقوله تعالى: ﴿مَنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يطابق قولهم: ﴿أَفْتَرْتُهُ﴾ لأنهم أرادوا ليس من الله فعجزهم أن يأتوا بعشر ليست من الله، وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي في قولكم: ﴿أَفْتَرْتُهُ﴾.

﴿فَالَّذِينَ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿فَالَّذِينَ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ أي مَنْ دَعَوْتُمْوهم لمعاونتكم على الإتيان بعشر سور من مثله لم يستجيبوا لكم إلى الإتيان بعشر والمعاونة عليها؛ لأنهم آيسون من ذلك لعلمهم أن هذا القرآن معجز.

﴿فَاعْلَمُوا﴾ أيها الكافرون بوضوح الدليل القاطع أنه من الله أنزله بعلمه بالحكمة والإحكام الذي يعجز البشر عنه لقصور علمهم وعلمه تعالى محيط بكل شيء بالحكمة التي لا يحيط بها البشر والإحكام الذي يعجز عن مثله البشر ومحيط بقلوب البشر ونفسياتهم وما هو أحسن أثراً فيها من أسلوب التعبير وغيره لمن يهتدي بالقرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي واعلموا أن لا إله إلا هو؛ لأن الله قد بين في القرآن أن لا إله إلا هو، وقد صح أن القرآن كلام الله أصدق القائلين، فالحجة هذه تثبت أن القرآن كلام الله وتثبت بطلان الشرك وأن لا إله إلا الله.

الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن

وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ﴾ أي بعد وضوح هذه الحجة هل أنتم مسلمون لله وجوهكم مخلصون له العبادة؟ لأنكم قد دعوتهم من استطعتم ليعينوكم ممن هو مظنة إسعادكم لمشاركته لكم في الكفر وحرصهم على حماية دينهم وإبطال دين محمد ﷺ فأبوا وهذا طبعي أن لا يدعوا إلا من هو عندهم مظنة إسعادهم دون المؤمنين.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا نُوفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ يريد أن يعيش في هذه الحياة العاجلة ﴿وَزَيَّنَّهَا﴾ يريد المال والبنين وسائر ما تتزين به الحياة الدنيا من شهواتها، والمراد إرادتها القوية التي تكون أرجح من إرادة الآخرة، فالمعنى من كان يختار ويؤثر الحياة الدنيا وزينتها، بدليل المقابلة بينه وبين من يريد الآخرة في غير هذا الموضع ﴿نُوفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا﴾ نوصل إليهم ثمرة أعمالهم وفائدتها على ما جرت به سنة الحياة الدنيا تمهياً لهم واستغناءً عن عملهم للآخرة فإذا حرث أحدهم وبذر نال ما يناله غيره من الزرع، وهكذا سائر الأسباب وإن اختلف الناس في تحصيل مطالب الحياة بسعيهم، فليس المراد إلا أن اختياره للدنيا وزينتها لا يمنع في الغالب من تحصيل ما جرت به سنة الحياة وأسباب الرزق والمطالب، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ [الشورى: ٢٠] وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨] وما حصل من فائدة عمله فهو توفية عمله قليلاً كان أو كثيراً؛ لأنه ثمرته وفائدته.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ لا ينقصون في الدنيا شيئاً من سعيهم لها، وهذا مطلق مقيد بما إذا استحق عقوبة عاجلة واقتضت الحكمة تعجيلها فهو عارض بالنسبة إلى العادة، وذلك مثل ما أصاب آل فرعون من النقص في الثمرات لعلهم يذكرون، ومثل ما أصاب أصحاب الجنة المذكورين في سورة نون، وما هو مشاهد مما يصاب به الناس في أموالهم مما ظهوره للسامع يغني عن استثنائه في الكلام.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال الشرفي في (المصاييح): «قال الهادي عليه السلام: ﴿أُولَئِكَ﴾ فهم الأولون المذكورون بالميل إلى الدنيا وزينتها والرضى بما فيها من زخرفها دون ما هو خير منها، فأخبر الله سبحانه أنه لا نصيب لهم في الآخرة... إلخ.

وفي هذه الآية دلالة على أنهم لا يدخلون الجنة ولا يخرجون من النار، وقوله تعالى: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ أي حبط في الآخرة ما صنعوا في الدنيا فلم ينفعهم في الآخرة وإن كان من عمل الخير كالإحسان إلى الناس والأعمال الدينية التي لم يعملوها إلا للعادة والعرف وللحذر من أن يعيب الناس عليهم تركها لا للتقرب إلى الله والإخلاص له أو كانت مقرونة بالجرائم والإصرار عليها فلم تكن مقبولة.

وقوله تعالى: ﴿وَبِطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الباطل هنا مثله في قول موسى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَرِّءٌ مِمَّنْ فِيهِ وَبِاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٩] فالمراد: أن عمارة الدنيا وخدمتها التي ضيعوا أعمارهم فيها وأتبعوا أنفسهم فيها قد ضاعت وصارت كأن لم تكن من حيث بطلان نفعها ومصيرها كالأحلام، وهاتان الآيتان تضمنتا وعيد القائلين: ﴿افْتَرَاهُ﴾ لأن الباعث لهم على الكفر إثارة الدنيا وزينتها.

قَبْلَهُ كَتَبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا

﴿٤٧﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴿٤٨﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ قُلْتُمْ فِيهِ: ﴿افْتَرَاهُ﴾ وهو على بينة من ربه بينت له أن القرآن هو الحق من الله ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ يتبعه في أنه على بينة من ربه ﴿شَاهِدٌ﴾ بصدقه شهادة مبنية على بينة من ربه، وهذا الشاهد هو الإمام علي عليه السلام جعله الله لمحمد ﷺ كما جعل لموسى هارون رداً يصدقه، ويدل على أنه الشاهد قول الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣] فقد دل على أن من عنده علم الكتاب شهيد بصدقه ﷺ وعلي عليه السلام هو الذي عنده علم الكتاب جملة وتفصيلاً.

أما جملة: فعلمه أنه من الله، وأنه الحق يهدي إلى التي هي أقوم، ونحو هذا من صفاته جملة، وأما تفصيلاً: فلا حاطته بمعانيه على التفصيل، أما دلالة الكفار على صدق شهادة علي عليه السلام فهي سلوكه في اتباعه للنبي ﷺ وجده في نصرته، وصبره على تحمل الشدائد في ذلك في حال قلة المؤمنين وضعف حالهم، مما يدل على أنه على بصيرة من أمره، وبينه من ربه، ورسوخ في إيمانه، فهو شاهد له بالصدق؛ بعمله وتفانيه في نصرته، مع شهادته له بلسانه.

وهذا مع الروايات الواردة في أنه عليه السلام هو الشاهد، وفي أنه الذي عنده علم الكتاب: ففي (الدر المنثور) للسيوطي: «أخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه.

وأبو نعيم في (المعرفة): عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: ما من رجل من قريش إلا نزل فيه طائفة من القرآن، فقال له رجل: ما نزل فيك؟ قال: «أما تقرأ (سورة هود): ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ رسول الله - صلى الله عليه - على بينة من ربه، وأنا شاهد منه». وأخرج ابن مروديه، وابن عساكر: عن علي عليه السلام في الآية قال: «رسول الله على بينة من ربه، وأنا شاهد منه».

وأخرج ابن مردويه من وجه آخر عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ «أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ» «أنا» «وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ» قال: «علي» انتهى، وقد أورد روايات مخالفة بعيدة لا تناسب قوله: «وَيَتْلُوهُ» أو قوله: «شَاهِدٌ». قال الشرفي في (المصابيح) بعد ذكر الأقوال المخالفة في تفسير (الشاهد): واعلم أن الأقوال كلها ملفقة ضعيفة، بل هي تشكيك في معنى الآية لا بيان، والحق: أن المراد بالشاهد علي عليه السلام، كما مر دليل ذلك يتلو النبي ﷺ أي يتبعه شاهد على الأمة منه، أي من لحمه النبي ﷺ، وهذا تفسير أئمة الهدى أهل البيت عليهم السلام، ومروي عن علي عليه السلام وغيره.

من ذلك: ما روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني في كتابه (شواهد التنزيل) بإسناده إلى المنهال بن عمرو، عن عبد الله، عن علي عليه السلام: «﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ قال: هو رسول الله ﷺ «وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ» قال: أنا الشاهد منه» قال الحاكم: وله طرق عن الأعمش وطرق عن المنهال والحارث عنه أي علي عليه السلام.

وروى الحاكم - أيضاً - بإسناده إلى ابن عباس: «﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ قال: هو النبي ﷺ «وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ» قال: هو علي بن أبي طالب عليه السلام» ذكر الحاكم روايات كثيرة تضمن هذا المعنى.

وقوله: «رسول الله ﷺ على بينة من ربه» موافق لقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: ١٨].

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ وكتاب موسى هو (التوراة) ﴿إِمَامًا﴾ قائداً متبوعاً ﴿وَرَحْمَةً﴾ نعمة وهدى فهو مصدق لرسول الله ﷺ بالتبشير به وذكر علاماته، ويحتمل أن المراد أن الله قد أنزل التوراة على موسى ليتبعها ويهتدي بها بنو إسرائيل، فكيف لا ينزل القرآن على محمد ﷺ إماماً ورحمة، والعرب في أمس الحاجة إليه، أو من قبله كتاب موسى، وهذا القرآن مصدق لذلك الكتاب، مطابق له في أصل الدين، كقوله تعالى في (سورة الأحقاف): ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ * وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَلِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [آية: ١١-١٢] وهذا الوجه أقرب عندي - والله أعلم.

ويمكن الجمع بين الوجهين الأخيرين وهما يفيدان معنى الوجه الأول، وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي من كان على بينة من ربه مؤكداً بالشاهد منه وبمكانة كتابه من كتاب موسى يؤمن به أي بالقرآن، وإن قال المكابرون: ﴿افْتَرَاهُ﴾.

ووجه الجمع مع كون مدلوله فرداً: أن الكلام فيه خرج مخرج الإبهام الذي يصلح للكثير والقليل، وفائدته: التعليق على الصلة وما عطف عليها من غير نظر إلى أنه محمد ﷺ فمفهومه غير محدود بفرد، وإنما كان مدلوله فرداً لأنه الذي صدق عليه الكلام وحده فناسبه الإتيان بعبارة الجمع في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ ولعل من هذا الباب قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ فالنار مكانه الذي وعد الكون فيه، و ﴿الْأَحْزَابِ﴾ جمع حزب يعم أحزاب الكفار من قريش ومن معهم ومن اليهود ومن النصارى وغيرهم.

قال الراغب: «الحزب: جماعة فيها غلظ، يعني كثرة» وفي (الصحيح): «حزب الرجل: أصحابه - ثم قال - : والأحزاب: الطوائف التي تجتمع على محاربة الأنبياء (عليه السلام)» انتهى، وفي (لسان العرب): «الحزب: جماعة الناس، والجمع: أحزاب، والأحزاب: جنود الكفار، تألبوا وتظاهروا على حزب [كذا] النبي (ﷺ) وهم: قريش، وغطفان، وبنو قريضة - ثم قال - : وحزب الرجل: أصحابه وجنده الذين على رأيه والجمع كالجمع...» إلخ.

فظهر: أنه يستعمل مفيداً لمعنى التحزب والتعاون، أو اتحاد الطريقة.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ في شك ﴿مِّنْهُ﴾ من القرآن أي اثبت على يقينك به وإيمانك، وإن قال الكفار: ﴿افْتَرَاهُ﴾ وإن كثر الكافرون به وقل المؤمنون ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ ولهذا تكون به محققاً والكافرون به مبطلين فأنت على الحق والكافرون على الباطل، فلا تلتفت إلى كلامهم في القرآن ولا إلى كثرتهم.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فسبب كفرهم عدم صلاحيتهم للإيمان لميلهم إلى الباطل واتباعهم أهوائهم لا كون القرآن محل مرية، فأعجازه المعلوم يدفع ذلك وكذا رسول الله (ﷺ) لا يكون في مرية منه لأنه معصوم وهو أول المؤمنين ولكن هذا تعبد له يشاب على الطاعة فيه وليستفيد به غيره - والله أعلم.

أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ يفيد: أنه الحق من المالك المنعم فلا خيار لعبده في قبوله أو رده أو في الإيمان به أو الكفر به.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ؟ سؤال في معنى النفي يفيد أنه لا أظلم﴾ ﴿مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ﴾ أهل هذا الظلم ﴿يُعْرَضُونَ﴾ يوم القيامة ﴿عَلَى رَبِّهِمْ﴾ يوم الحساب والجزاء ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَدُ﴾ وهم الأنبياء شهود على من عرفوه في عصرهم والهداة من بعدهم في كل أمة شهيد منهم، ولعل من الأشهاد الملائكة الكاتبين لأعمال الناس وتأديتهم للشهادة تنديد بالظالمين وفضيحة لهم وتوبيخ.

﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ مستمرة ﴿عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أي طردهم من رحمة الله ففي الدنيا طردوا من رحمة الله بأن لم يوفقوا للتوبة وخذلوا حتى ماتوا مطرودين من رحمة الله وحشروا ملعونين وعرضوا على الله ملعونين لا نصيب لهم من رحمة الله.

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ هذا تفسير للظالمين الملعونين اللعنة المذكورة ولا ينافي أن غيرهم ملعون إذا استحق مثل لعنتهم وإنما السياق في المكذبين بآيات الله الذين ﴿يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ فخصهم بالذكر زجراً لهم وتحذيراً لغيرهم - والله أعلم.

مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ
الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ

وقوله تعالى: ﴿يُضْعِفُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إن كان يصدون الذي مصدره
الصد فمعناه يصدون غيرهم وهو أظهر هنا؛ لأنه أوفق للسياق، وإن كان
من الصدود فمعناه يعرضون، وسبيل الله دينه الذي ارتضاه لعباده.

وقوله تعالى: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يتطلبون لها عوجاً والعوج ضد الإستقامة
والإستواء وذلك بجدالهم فيها أي في سبيل الله وتقوّلهم فيها، ولعل تكرار
الضمير في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ للتأكيد من حيث أن
السياق في ذكر أسباب لعنتهم الدائمة لفتاً للسامع إليهم ليكونوا عبرة
لغيرهم والله أعلم.

﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ
مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا
يُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ هذه الآية الكريمة تمثل حالهم في موقف العرض على الله حين
تذكر بما كانوا عليه من كراحتهم للحق، وإعراضهم عن سماع آيات الله
وإبصار دلائل الكون، بسبب كراحتهم للإيمان، واستكبارهم عنه، حتى
كانهم ما كانوا يستطيعون ولا كان لهم بصر يبصرون.

وتبيّن الآية استحضاراً لذلك الموقف أنهم لم يكونوا معجزين في الأرض
فلو شاء لعجل لهم العذاب في أول كفرهم لكنه لحكمته أخرهم حتى انتهى
أجلهم الذي أجل لهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ﴾ في الدنيا ولا في الآخرة ﴿مِنْ
أَوْلِيَاءَ﴾ كما كانوا يزعمون في الذين اتخذوهم من دون الله أولياء فلم
يكونوا في الدنيا ينفعونهم ولا هم في الآخرة ينفعونهم فاليوم يضاعف لهم

الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٦﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي
الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا
إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨﴾ * مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ

العذاب بتضاعف جرائمهم وصددهم غيرهم عن سبيل الله، كما قال تعالى:
﴿لِيُحْمَلُوا أَوْزَارُهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾
[النحل: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وَلِيُحْمَلُنْ أَثْقَالُهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣].

﴿٦﴾ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧﴾
وهذه الآية تستحضر حالهم يوم القيامة كالتي قبلها ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ اليوم
لأنهم لم يبعثوا إلا للجزاء لا لأي متاع لهم فحياتهم وأنفسهم ليست لهم إنما
هي للنار ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ ضاع عنهم ما كانوا يفترونه في الدنيا، فلا شركاء
ولا شفعاء، ولا شيء مما كانوا يمتنون أنفسهم.

﴿٨﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ ﴿٩﴾ لَا جَرَمَ ﴿١٠﴾ أَيُّ حَقًّا
﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ﴾ لأنه خسران بفوات كل خير والخلود
في العذاب الشديد الدائم فأي خسران أعظم من هذا مع أنهم مفضلون
على غيرهم في العذاب يضاعف لهم على قدر جرائمهم ففضلوا بذلك في
التعبير عن الخسران بقوله تعالى: ﴿هُمْ الْآخَسَرُونَ﴾.

﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٢﴾ وَأَخْبَتُوا ﴿١٣﴾ الإخبات لله شأن كل مؤمن، ولعله
ذكر هنا ليقابل وصف الكافرين المعاندين المتمردين، فهؤلاء خاشعون لله
متذللون وإليه متقربون، والكفار على عكس ذلك.

كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرَ وَالسَّمِيعَ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٤٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ۖ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٤٨﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا

قال في (الصحيح): «الخبث: المطمئن من الأرض فيه رمل، والإخبار: الخشوع، يقال: أخطب الله» انتهى المراد، والراجع: أنه مضمن معنى الرجوع إلى الله والتقرب إليه فعدي بـ ﴿إِلَى﴾ وفي (تفسير الإمام زيد عليه السلام): «وَأَخْبَتُوا» معناه: أنابوا وتواضعوا».

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرَ وَالسَّمِيعَ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿الْفَرِيقَيْنِ﴾ أي الكفار المذكورون سابقاً، والذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم ﴿كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ﴾ كالذي اجتمع عليه العمى والصمم، وفائدة العطف الإشارة إلى تعدد أسباب الضلال عن الطريق على الأعمى كأنه قيل أعمى وأنضاف إلى عماه أنه أصم، ففي هذا نوع بلاغة ليس في قولك أعمى أصم، وكذلك قوله تعالى في مقابل ذلك ﴿وَالْبَصِيرَ وَالسَّمِيعَ﴾ فقد تعدد سبب اهتدائه للطريق فالعطف في الموضعين، كقول الشاعر:

هو الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

والعطف في قوله تعالى: ﴿وَالْبَصِيرَ﴾ عطف المقابلة بين الشيتين أي هو عطف لازم لاختلاف الأعمى الأصم والبصير السميع، فهو عطف وصفين لواحد على وصفين لواحد، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ فجعل الأعمى والأصم واحداً والسميع والبصير واحداً، والتباين بين الفريقين على هذا أوضح وأقوى.

قال الشرفي في (المصباح): «فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ المؤمنين والكافرين ﴿كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرَ وَالسَّمِيعَ﴾ فقوله: ﴿كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ﴾ تشبيه للكافرين بمن جمع بين العمى والصمم في عدم الإنتفاع

إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿١١﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَلَكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ

بما يُسْمَعُ وَيُبْصَرُ من دلائل الهدى، وقوله: ﴿وَالْبَصِيرُ وَالسَّمِيعُ﴾ تشبيه للمؤمنين بمن جمع بين الصحة [كذا] والبصر والسمع لانتفاعهم بما يُسْمَعُ وَيُبْصَرُ من دلائل الهدى والحق» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ سؤال يفيد النفي أي لا يستويان في الصفة، فالأعمى الأصم مظنة الضلال والغلط واليه في سيره بغير هدى، والبصير السميع سبيل الهدى يسر له، فهكذا الكافر والمؤمن العامل الصالحات المخبت إلى ربه.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تذكرون بالتذكير أم أنتم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذَكَّرُونَ﴾ [الصافات: ١٣] والتذكر الإتيان لما كان منسياً أو حضوره في الذهن، فأما الذكر فيكون لبقاء الشيء في الذهن مع عدم نسيانه من قبل أو بعد نسيانه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ هذا ابتداء قصص بالحق فيه عبرة للمكذبين بخاتم المرسلين ﷺ وفيه تسلية له ﷺ ليتأسى بالرسول الأولين الذين كذبوا فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصر الله ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ تفسير لما أرسل به إلى قومه وهي كلمة مهمة تلفت أنظار العقلاء وتدعوهم إلى النظر في صدقه طلباً للنجاة مما أنذرهم على تقدير صدقه وهو الواقع، فالحكمة أن يبدأهم نبي الله بها في تبليغ الرسالة، وقوله:

﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ كالتفسير لما ينذرهم وهو العذاب ولسببه وهو ترك عبادة الله وحده، ووصف يوم العذاب بأنه أليم تعبيراً عن شدة ذلك وهوله العظيم.

﴿٧٧﴾ أَرَادِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ۖ قَالَ يَتَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ

﴿٧٨﴾ فَقَالَ أَلَمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَزَّلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَزَّلَكَ أَتَبْعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٩﴾ فَقَالَ ﴿٨٠﴾ عَظِفَ عَلَىٰ ﴿٨١﴾ أَرْسَلْنَا ﴿٨٢﴾ قَابِلُوا كَلَامَهُ بِمَجْرَدِ التَّعْبِيرِ عَنِ الشَّكِّ الَّذِي لَا تَبْطُلُ بِهِ حُجَّةُ النَّذِيرِ.

وقولهم: ﴿٨٣﴾ مَا نَزَّلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴿٨٤﴾ استبعاد لإرسال بشر إليهم، أي لو أرسل الله رسولا لجعله ملكا، وقولهم: ﴿٨٥﴾ وَمَا نَزَّلَكَ أَتَبْعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادِلُنَا ﴿٨٦﴾ أي أنك لو كنت على حق لكننا أولى به فكنا أتباعك لأننا أعرف بالحقائق، كقولهم: ﴿٨٧﴾ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴿٨٨﴾ [الأحقاف: ١١] وقولهم: ﴿٨٩﴾ أَرَادِلُنَا ﴿٩٠﴾ إحتقار لهم؛ لفقرهم أو نحوه لا غير.

قال في (الصحيح): «(الردل: الدون الخسيس) انتهى، وقال الراغب: «(الردل، والردُّال: المرغوب عنه لردائته، قال تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ [النحل: ٧٠]» انتهى المراد، وأرادل: جمع أرذل، ففيه مبالغة لتحقير أتباع نبي الله.

وقوله: ﴿٩١﴾ بَادِيَ الرَّأْيِ ﴿٩٢﴾ أي بسبب رأي بدا لهم لا لأنهم نظروا نظراً كاملاً، وقولهم: ﴿٩٣﴾ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴿٩٤﴾ أي تستحقون به أن تكونوا متبوعين ونكون تابعين لكم، وهذه مبالغة في الجدل، جعلوا اتباع النبي ﷺ اتباعاً لمن قد اتبعه بعد أن جعلوهم الأراذل ليعبدوا اتباعهم للنبي ﷺ.

وقولهم: ﴿٩٥﴾ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٩٦﴾ جعلوه واحداً من أهل الدعوة لهم تكذيباً منهم له وزعماً أنه هو والذين اتبعوه سواء ليس له مزية الرسالة، وقولهم: ﴿٩٧﴾ وَمَا نَزَّلَكَ ﴿٩٨﴾ بَلْ نَظُنُّكُمْ ﴿٩٩﴾ مبالغة في الجدل بإسناده إلى

فَعَمِيَّتْ عَلَيْكُمْ أَنْزِلُكُمْ مَوْهَا وَأَنْتُمْ هَا كَرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقْوِمُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ

مشاهدتهم وإلى قلوبهم زعماً أنهم لا يعملون صدقه بقلوبهم ويحددونه بالسنتهم، ونظيره قول فرعون: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَامُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١].

﴿قَالَ يَقْوِمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعَمِيَّتْ عَلَيْكُمْ أَنْزِلُكُمْ مَوْهَا وَأَنْتُمْ هَا كَرِهُونَ﴾ هذا لفت لأنظار قوم نوح وتنبية لهم لكي يتركوا الإعراض عن النظر الصحيح ويفكروا فيما جاء به من البينات الدالة على صدقه في أنه رسول من الله ونذير لهم.

﴿يَقْوِمُ﴾ أخبروني عن حالكم وشأنكم في إعراضكم ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ تدل على صحة ما جئت به وصدقه، افرضوا هذا وقدروا لتعرفوا ما أنتم عليه من الخطر العظيم وتعرفوا أن السبب في جهلكم من عندكم، ويسبب إعراضكم عن الآيات البينات إذا فكرتم فيها ونظرتم نظر إنصاف وطلب للحق.

﴿وَأَتَنِي﴾ ربي ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ﴾ وهي هداه لي ولن تبعني إلى طريق الحق وعبادته وحده ورفض الشرك، افرضوا هذا وقدروه لتعرفوا أنكم على خسارة بفوات ذلك إذا نظرتم، أو تعرفوا احتمال أنكم على خطر عظيم بسبب ترك النظر والإنصاف.

فشأن العاقل: أن ينظر ليتخلص من هذا الاحتمال؛ لأن النظر ممكن، وإنما أظلمت عليكم طريقه لفرط كراهتكم له المانعة من النظر والداعية إلى الإعراض، أنزلكم رحمة الله التي آتاني من عنده حتى تعرفوا الحق وتؤمنوا بي وتعبدوا الله وحده بالصاق ذلك منا في قلوبكم وألستكم وأعضائكم.

مُلِّقُوا رَبِّهِمْ وَلَيْكِنِّي أَرْسَلْتُكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿١٠﴾ وَيَقَوْمٍ مِّنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ
 إِن طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا
 أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَن

﴿وَأَنْتُمْ هَا كَرِهُونَ﴾ تأبون الإصغاء لما أقول والنظر في صحته بإنصاف،
 ولقد رفق بهم في هذا الجواب ودعاهم بالحكمة والموعظة الحسنة فيما مضى
 منه وما يأتي.

﴿١٠﴾ وَيَقَوْمٍ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنِ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴿فَلَا عذر
 لكم بخوف مغرم يثقلكم إن اتبعتموني ما أجري إلا على الله الذي أرسلني
 وكلفني تبليغ الرسالة.

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ۚ إِنَّهُمْ مُلِّقُوا رَبِّهِمْ وَلَيْكِنِّي أَرْسَلْتُكُمْ قَوْمًا
 تَجْهَلُونَ﴾ ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فليس ذلك جزاؤهم في إيمانهم
 بي وبما جئت به من الله ﴿إِنَّهُمْ مُلِّقُوا رَبِّهِمْ﴾ فأمرهم إليه وحده ليحاسبهم
 ويمجزهم بما عملوا إن خيراً فخير وإن شراً فشر ولا دخل لي في ذلك
 ﴿وَلَيْكِنِّي أَرْسَلْتُكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ بالإساءة التي هي من الجهالة والسفاهة
 وبمقابلة الآيات بالإعراض والعناد.

﴿١١﴾ وَيَقَوْمٍ مِّنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ ۖ إِن طَرَدْتُهُمْ ۖ لَأَنَّهُ لَا ذَنْبَ لَهُمْ يوجب
 طردهم، لأن الفقر وضعف الحال لا يوجب طردهم، والإيمان لا يوجب إلا
 تكريمهم، فلو طردتهم لعصيت الله بظلمهم، ولم يكن لي ناصر يدفع عني
 عقوبته ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تتذكرون وإن ذكّرتكم ما تقضي به العقول
 وتحكم به الفطرة مثل ما ذكرتم في هذا الكلام الماضي والآتي.

يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٦٦﴾ قَالُوا يَنْبُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٦٨﴾ وَلَا

﴿٦٦﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴿٦٧﴾ فَقُولُكُمْ: ﴿مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ لَا حجة لكم فيه، لأنني لا ادعي امتيازاً عليكم بأن عندي خزائن الله التي يرزق منها عباده، ولست أعلم الغيب حتى ادعي امتيازاً بعلم الغيب ﴿وَلَا أَقُولُ﴾ لكم ﴿إِنِّي مَلَكٌ﴾ حتى تعارضوني بقولكم: ﴿مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا﴾ إنما أمتاز بما قد ذكرت لكم من الرسالة وما إخباري لكم ببعض المغيبات لأنني أعلم الغيب.

﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ تحقرهم أعينكم لضعف مظاهرهم لفقرهم وضعف حالهم لا أقول فيهم ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فالله يؤتي الخير من آمن واتقى.

ولا دخل للمال والولد والمظاهر الدنيوية في التقريب إلى الله، فلا يصح أن أقول: ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ وظاهرهم الإيمان والتقوى الذي هو سبب الخير؛ لأن الله هو الذي يعلم ما في أنفسهم إن كانوا مؤمنين أو غير مؤمنين ﴿إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لو قلت: ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ لأنه ظلم لهم وقول على الله بغير علم وبهذا تمت الحجة عليهم وانقطعت معاذيرهم.

﴿٦٦﴾ قَالُوا يَنْبُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦٧﴾ وهذا يفيد إصرارهم على الكفر والإعراض عما ذكرهم به وعما احتج عليهم به، فركنوا إلى ما يدعو إليه الجهل والكبر من هذا التعجيز ليوهموا أنهم على معرفة بأنهم على الحق فخاطروا بأنفسهم باستعجال العذاب حماقة وسوء نظر لأنفسهم ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من عذاب يوم أليم.

يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ

﴿١١﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٢﴾ فهذا جواب عن قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ وهو إنما أُنذَرهم عذاب الله، وقوله: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي أنتم لا تدفعون العذاب بقوة فلا تُعْجِزُوا عن تعذيبكم إذا شاء الله أن يأتيكم به، وقد يؤخذ من إطلاق قوله: ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ أنكم ما أنتم بمُعْجِزِينَ، سواء أتاكم الله بعذاب من عنده، أو بأيدينا.

﴿١٢﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٣﴾ وهذا جواب عن قولهم: ﴿قَدْ جَدَلْنَا فَاكْثُرْتَ جِدَالَنَا﴾ يفيد: أن جداله لهم نصح لهم، لكنه لا ينفعهم إن كانوا قد استحقوا من الله عقوبة الخذلان الذي تترتب عليه غوايتهم لا محالة، حتى كأن الخذلان هو الإغواء نفسه، فهو كقول نبي الله هود لقومه: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف: ٧١].

إلا أن هوداً عليه السلام قال: ﴿قَدْ وَقَعَ﴾ ونوحاً عليه السلام قال: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ وكيف لا يترتب على خذلان العبد غوايته، والشيطان مسلط على من اتبعه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] فالإغواء مرتب على طاعتهم للشيطان، ومحاربتهم لدين الله بالجدال في آيات الله.

وليس إغواء ابتداء، بل عقوبة اتباع الشيطان، والتمرد على الله، خذلوا فدعاهم الشيطان إلى ما تهواه أنفسهم، فأجابوا لاتباع هواهم باختيارهم، فلذلك كانت الغواية لازمة لخذلانهم وتركهم للشيطان الذي هو

عقوبة التمرد على الله ومحاربة دينه، فلهذا لا يكون نبي الله نوحاً يدعي معارضته لمراد الله الذي أرسله إلى قومه لينذرهم، ولكنه اختصر الكلام ليبين أنه لا سبيل لنفع النصح إن كانوا قد خذلوا وعبر عن ذلك بإغواء الله ليفهموا أنه أمر لا ينفع معه نصح؛ لأنه لا سبيل إلى تخليصهم من الخذلان لأنه أمر الله الغالب على أمره.

فأحاصل: أنه أراد أن يفهمهم أنه لا ينفعهم نصحه إن كان الله يريد أن يغويهم ليعلموا أن السبب غوايتهم لا عدم الحجة عليهم ولم يكن بصدد بيان كيف كانت غوايتهم المنسوبة إلى الله؛ لأنهم كفار لا يقبلون منه التفصيل ولا يلتفتون إلى التطويل في التعليل لبيان أن هذا الإغواء لا ينافي عدل الله وحكمته؛ لأن الإغواء هو التسبب للغواية والتسبب حق لأنه عقوبة وهو مجرد الخذلان وكونه سبباً ليس موجباً للمسبب بل ترتب عليه باختيارهم لطاعة الشيطان فلذلك كان سبباً، وقد يكون الشيء الواحد سبب هدى وسبب ضلال؛ لأن المهتدي جعله سبب هدى، والضال جعله سبب ضلال؛ ولذلك قال تعالى: ﴿يُضِلُّ يَهْدِي يَهْدِي يَهْدِي يَهْدِي﴾ [البقرة: ٢٦].

ومثال ذلك: النعمة يستعين بها المؤمن على طاعة الله ويجعلها سبباً للشكر، ويستعين بها الكافر على الباطل ويجعلها سبباً للطغيان والبطر، فكانت النعمة سبباً غير موجب، وصاحبها هو الذي جعلها سبباً فكذلك الخذلان وإن كان لا يصلح سبباً للخير، وليس الإغواء في اللغة إلا التسبب للغواية، كقولهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ [القصاص: ٦٣] فاما دعوى أن الإغواء خلق الغواية فهي مخالفة للغة العرب ولا دليل عليها ولكنه التسبب ولا يكون من الله إلا بالحق كما بينت.

إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَجْرِمُونَ ﴿٢٥﴾ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ
مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَصْنَعْ

وأما قوله عليه السلام: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ أي مالكم، فهو بين: أنه أولى بهم من
نبيه، وأنه يفعل فيهم ما يشاء من العقوبة التي استحقوها.

وقوله تعالى: ﴿وَالَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي إليه لا إلى غيره من شركائكم ولا
غيرهم ترجعون ليجزيكم بما قدمتم فلم يترككم على غوايتكم إلا لأنه
يجزيكم بعقابها فلا بد من عقابكم فلا تستعجلوه بقولكم: ﴿فَأَيُّنَا بِمَا نَعْدُنَا﴾
فهذه قصة قوم نوح حين جاءهم الرسول وكذبوه وما دار من الجدل بينهم
وبينه وإصرارهم وطلبهم تعجيل العذاب.

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ﴾ بل يقول الكافرون بك يا محمد ﴿أَفْتَرَنَاهُ﴾
أي افترى هذا القصص الذي هو حق وعبرة لهم، ودليل على أن الله أوحى
إليك هذا الذي قد علمته من أخبار الأمم الماضيين ورسلمهم وما كنت تتلو
من قبله من كتاب ولا تحطه بيمينك بل نشأت في الأميين فلم تعلمه إلا
بوحى من الله وقد رد الله عليهم فيما مر قولهم: ﴿أَفْتَرَنَاهُ﴾ أي هذا القرآن.

﴿قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَجْرِمُونَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد
إن افتريت هذا القصص وهذا القرآن ﴿فَعَلَىٰ﴾ وحدي ﴿إِجْرَامِي﴾ أي ذنبي
وجناتي ليس عليكم منه شيء وأنا بريء مما تجرمون متكرراً منكم من
الشرك وغيره من إجرامكم ليس علي منه شيء ولا أرضاه ولا أشارككم
فيه بوجه لأنني قد نهيتكم ونصحتكم وأبلغت جهدي في ذلك فلم تقبلوا
مني فلا يضرنني ما تجرمون.

أَلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٦٧﴾
وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ

وبعد هذا تأتي (قصة نزول العذاب على قوم نوح عليه السلام) وقد تخلل بين القصتين الفصل بقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ لأنهما قصتان كل واحدة مستقلة بفائدتها وما سقت له، ولولا الفصل لكانتا قصة واحدة، فالأولى تفيد: دعوة الرسول قومه إلى توحيد الله، وإنذاره لهم من عذاب الله، وإخباره أنه رسول من الله، فهي تفيد مهمات من أصول الدين، وتفيد تسلية رسول الله ﷺ حين كذب قومه بما جاء به، وقالوا ﴿افْتَرَاهُ﴾ بأن من قبله من الرسل كذبهم قومهم، والقصة الثانية تفيد نزول العذاب بالمكذبين على التفصيل المذكور فيها، وتفيد ذكر مقدمات نزول العذاب وكيف نجا منه المؤمنون وكيف عم المجرمين.

﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾ فما بقي موجب أو سبب لتأخير العذاب العام لمن لم يؤمن لأنه لم يبق فيهم من يؤمن فيؤخر العذاب حتى يؤمن ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ فلا تبتئس لا تحزن حزن بائس ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ من الشرك والظلم والتكذيب الذي استمر منهم زمناً طويلاً؛ لأن الله منتقم منهم ومنزل عذابه العاجل، فقوله: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ مقدمة للأمر بصنع السفينة لينجوا من الغرق ويهلك من لم يؤمن.

﴿وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا﴾ ﴿أَلْفُلْكَ﴾ السفينة، وقوله تعالى: ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا﴾ تحت رعايتنا وتدبيرنا لك ووحينا لك كيف تعملها، ومن أي أجناس الخشب تعملها، وكيف تجعلها ألواحاً عراضاً، وكيف تجعل غلظ كل لوح، وكيف تنظم بعضها إلى بعض بالمسامير، وكيف تجعلها حتى لا يدخلها الماء لا من تحتها ولا من أي جهة، ونحو ذلك.

تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٢٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٢٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ

﴿وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿وَلَا تُخَاطَبُنِي﴾ الخطاب القول الموجه إلى المقول له، فهو يتضمن النهي عن المطالبة بتأخير العذاب أو بإنجاء بعضهم، ويتضمن النهي عن السؤال عن تعذيبهم أو تعذيب أحد منهم كيف لم يكن أو كيف لم يعجل أو غير ذلك من السؤالات، وهذه عبارة غضب ودلالة على أن الحكم له فيهم لا يسأل عما يفعل، وهي مقدمة لقوله: ﴿إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ لئلا يخاطبه بعد قوله له: ﴿إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ فليس له أن يجادله مثلاً فيهم أو في بعضهم.

وقوله تعالى: ﴿فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ تنبيه على أن العلة في الغرق وغضب الله عليهم هي ظلمهم الواقع منهم بالشرك والتكذيب والجدال في الحق وغير ذلك الجملة كل جرائمهم فهي ظلم وجور استحقوا بها العذاب العاجل لكونها ظلماً أي حيفاً وجوراً.

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ ﴿وَيَصْنَعُ﴾ مضارع لاستحضار الحال الماضية كأنها واقعة الآن ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ﴾ جماعة أو جماعة من كبراء قومه ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾ استجهلوه واستهزؤا به مثلاً، كما روي يقولون: صرت نجاراً وكنت نبياً؟ ويقولون: كيف تصنع سفينة عظيمة في البر بعيدة من البحر، ولا يمكن نقلها لعظمها وما تصنع بسفينة في البر حيث لا ماء.

﴿قَالَ﴾ نوح عليه السلام: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ نستجهلكم حيث تسخرون من هذه السفينة

وهي معدة لنجاتنا من العذاب الذي ينزل عليكم وقد كتب لكم العذاب وقرب منكم وأنتم تلعبون، فأنتم أحق أن يُسخر منكم؛ لجهالتكم، واستمرار سكرتكم.

قال الشريفي في (المصابيح): «فإن قيل: السخرية من أمهات المعاصي فكيف تليق بالأنبياء؟ قلنا: إنما سمي الثاني سخرية، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]».

قلت: ليس تحريماً عقلياً، ويمكن أن يختلف حكمها باختلاف المسخور منه، وباختلاف سببها، فلا يجب أن تكون كلها جهالة، وحيث لا تكون جهالة ولا ظلاً يمكن أن يبيحها الله لمن يشاء كالتهمك - والله أعلم.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ مُّخْزٍ وَمَنْ يَحْلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ ﴿فَسَوْفَ﴾ عطف على ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ فسوف تعلمون عند نزول الغرق عليكم ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ﴾ أنتم أم أنا، فمن أحق بالسخرية هو من يأتيه عذاب ﴿مُخْزٍ﴾ ويفضحه ويذله وهو اليوم يلعب ويسخر ﴿وَيَحْلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

قال في (الصحيح): «وحلّ العذاب يحل - بالكسر - أي وجب» انتهى. وفي (لسان العرب): «وحلّ عليه أمر الله، يحلّ حلولاً: وجب» انتهى، وحكى في (لسان العرب) - أيضاً - مثل ذلك عن الزجاج، وجعله من حلول الدين بمعنى وجوب تسليمه مستقيماً، حلّ أي وجب تسليمه لانقضاء أجله، فأما الحلال بالبلد فمضارعه يحل - بضم الحاء - فالظاهر: أنه لا يصح تفسير حلول العذاب المذكور هنا به، فقلوه: ﴿عَذَابٌ مُّخْزٍ﴾ هو العاجل المهلك.

الْتَّنُورُ قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ
الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٥﴾ وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ
اللَّهِ مَجْرِلَهَا وَمُرْسَلَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤٦﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ

وقوله: ﴿وَحِمْلٌ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي باق وهو عذاب الآخرة، كما
قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ
مُقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧] ووجوبه عليهم إما وجوبه حين يأتهم ولا ينظرون، وإما
وجوبه بهلاكهم عند الغرق مستوجبين لعذاب الآخرة؛ لأنهم يعلمون بذلك
عند هلاكهم - والله أعلم.

﴿٤٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ
اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٦﴾
﴿حَتَّىٰ﴾ غاية لسخرية قومه بسبب صنع السفينة وجوابه فما زال ذلك حتى
جاء أمر الله، وبدأ ظهور الماء من الأرض فنبع، وارتفع من التنور التي هي
من قبل للنار فصارت منبعاً من منابع الماء ﴿قُلْنَا أَحْمِلْ﴾ جواب الشرط
﴿فِيهَا﴾ أي في السفينة أي اجعل فيها ليحملة الماء ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾ من
الحيوان أي نوعين ذكر وأنثى ﴿اثْنَيْنِ﴾ فردين لإنقاذهما من الغرق
﴿وَأَهْلَكَ﴾ أي واحمل فيها أهلك.

﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ إلا من كان ظالماً سبق عليه القول إنه مغرق
في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾
واحمل فيها من آمن ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ﴾ مع نوح ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وفي هذا دليل
على أن أهل الحق قليل وأن الكثرة لا تدل على أن الكثير هم أهل الحق.

﴿٤٦﴾ وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا ﴿٤٧﴾ أَي فِي السَّفِينَةِ ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِلَهَا وَمُرْسَلَهَا﴾
إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤٨﴾ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِلَهَا ﴿٤٩﴾ فَهُوَ الَّذِي يَجْرِهَا كَيْفَ يَشَاءُ

كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٧﴾ قَالَ سَعَاوَى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ

﴿وَمُرْسَنَهَا﴾ فهو الذي يرسيها متى شاء ليس لأهلها أن يجروها ولا أن يرسوها؛ لأنهم في داخلها ومجراها ومرساها بغير فعلهم، بخلاف سفائن البحر، وهذا لا ينافي التسمية على كل نعمة من الله، فمعناها: أن السبب نعمة الله، أو إني أفعُلها بأمر الله، أو نحو ذلك لكل شيء بما يناسبه، فإذا لبست قلت: (باسم الله) لأنه الذي كساك، وإذا أكلت قلت: (باسم الله) لأنه الذي أطعمك، وهكذا سائر النعم.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي ولغفرته ورحمته حملنا في السفينة، وأنجنا من الغرق وأنجنا من القوم الظالمين، وهذا تعبير عن كون ذلك بفضل الله ورحمته ودفع للإعجاب بأنفسهم.

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ هذا تصوير لجريها في الموج واستحضر للحال تلك، بقوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾ والموج الماء الكثير المرتفع فوق الماء، قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ [النور: ٤٠] قال في (لسان العرب): «الموج: ما ارتفع من الماء فوق الماء» انتهى، وعبرة الأصفهاني في (تفسير المفردات): «الموج في البحر: ما يعلو من غوارب الماء» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿كَالْجِبَالِ﴾ يفيد: ارتفاع هذا الموج وعلو سمكه، فهو على ظهر الماء كالجبال، ترفعه قوة تزخر الماء على وجه الأرض واضطرابه بكثرة مصادره الغزيرة من الأرض والجو وسرعة نبوعه من الأرض ونزوله من السماء، والسفينة تجري بهم في ذلك الموج بأمر الله.

لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٦﴾ وَقِيلَ يَتَّارِضْ أَبْلِغِي مَاءَكَ وَيَسْمَأُ أَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِىْ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿وَنَادَى﴾ دعى بصوت رفيع لسمع ابنه مع صوت المطر والأمواج ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ أي وكان ابنه في معزل اعتزل فيه عن أبيه، ولعله كان اعتزل موافقة للكفار، ودلالة لهم على أنه غير مؤمن بأبيه، ولذلك قال أبوه: ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ ولعله كان يوهم أباه أنه مؤمن، ولذلك قال له أبوه: ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾ ابنه ﴿سَآوِى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ استمراراً على انزاله عن أبيه ﴿قَالَ﴾ أبوه ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ ﴿لَا عَاصِمَ﴾ لا جبل ولا غيره يعصم ﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ الذي هو إغراق أعداء الله ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ أي لكن من رحم الله ويسر نجاتهم وعصمهم بالسفينة فهم الذين ينجون، ولعل نوحاً يقول هذا لابنه ليلجأ إلى السفينة على معنى الرجوع إلى الله والتعرض لرحمته ليتبها له بلوغ السفينة.

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ الماء المرتفع ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ أي ﴿فَكَانَ﴾ ابن نوح ﴿مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ لم تنقذه عاطفة أبيه ولا نجاه نسبه، وفي هذا دلالة على أنه لا ينجي من عذاب الله إلا الإيمان والتقوى، وأنه لا ينفع النسب بدون الإيمان والتقوى.

﴿وَقِيلَ يَتَّارِضْ أَبْلِغِي مَاءَكَ وَيَسْمَأُ أَقْلِي﴾ أي أمر الله الأرض أن تبلع ما عليها من الماء فتجعله في بطنها كما تقول: ابلع اللقمة، وهذا الأمر

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٦١﴾ قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ

لعله أمر تكوين ليس قولاً ﴿وَيَسْمَاءُ أَقْلَعِي﴾ أوقفني واتركني إنزال الماء إلى الأرض لتنضب وتصلح لسكنى الإنسان.

قال في (الصحيح): «والإقلاع عن الأمر: الكف عنه» انتهى.

﴿وَعِضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ غاضت الأرض الماء الذي عليها فزال عن وجهها ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ الذي هو: تعذيب قوم نوح وإهلاكهم، وإنجاء نبي الله ومن آمن بالله معه.

﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ واستقرت السفينة واعتدلت ﴿عَلَى﴾ الجبل الذي اسمه ﴿الْجُودِي﴾ وذلك بتقدير الله تعالى استواءها عند نضوب الماء، وقد كان يمكن عند نضوب الماء أن تقع غير مستوية بوقوع بعضها على مرتفع وبعضها على منخفض أو تسقط متجهة إلى أسفل الجبل.

﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قال الشرفي في (المصاييح): «ومعنى ﴿بُعْدًا﴾ أي هلاكاً» انتهى، ومعناه: الدعاء عليهم تعبيراً عن السخط عليهم والرضى بهلاكهم، وموافقته لغرض الداعين، كما يقال سحاً لهذا المعنى، وفي التعليق على ظلمهم دلالة على أنه السبب في هذا القول، وأنهم بظلمهم استحقوا العذاب والهلاك.

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ ﴿نَادَى﴾ دعى ربه ولعله جعل دعاؤه نداءً لإلحاحه في الدعاء وجدّه في الطلب لقوة الباعث عليه فهو في مشكلة دينية راجعة إلى العقيدة فطلب من ربه حلها واستهداه الهدى للصواب، فهو يرى

صَلِحَ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ

أن الله قد وعده نجاة أهله، وأن ابنه من أهله ولم ينج، وأن وعد الله حق لا يتخلف وأنه أحكم الحاكمين، ويظهر: أن سبب المشكلة تغرير ابنه وإيهامه أنه مؤمن، وأن أباه كان يظنه مؤمناً ويحمله في انعزاله على السلامة، فكان يعتقد أنه ممن وعد الله نوحاً بنجاتهم، ولو كان ابنه يصارحه بالكفر ما أشكل عليه إغراقه؛ لأن الله قد استثنى من سبق عليه القول منهم.

﴿٤٦﴾ قَالَ يَنْتَوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴿٤٧﴾ عَمَلٌ مُصَدَّرٌ عبر به في وصف ابنه مبالغته كأنه نفس العمل، فلعله كان يبالغ عند أبيه في إظهار الإيمان فكان حل المشكلة بأن يخبره أن عمله ذلك غير صالح بل هو فاسد لأنه مجرد رياء ولم يكن مؤمناً فهو ممن سبق عليه القول، وقوله: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ لا يعني نفي النسب، وإنما المعنى ليس من أهلِكَ الذين وعدناك نجاتهم.

﴿٤٦﴾ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ﴾ لا تطلب مني ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أهو صواب أم غير صواب مثلاً لا تسألني إنقاذ ابنك من الغرق وأنت لا تعلم إنقاذه صواب أم لا من حيث أن الله أعلم بسرّه وحقيقة عمله وهو لم يكن قد طلب ذلك، والنهي عنه لا يدل على أنه قد وقع.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ تأكيد للنهي، قال الراغب: «الوعظ: زجر مقترن بتخويف» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي لئلا تكون من الجاهلين أي من أهل الجاهالة والسفاهة، وفي هذا دلالة على أنه لا شفاعة لمن حكم الله بتعذيبه.

وَالَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَنْتُوحُ أَهْبِطْ بِسَلَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا

﴿٤٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴿٤٨﴾ ﴿أَعُوذُ بِكَ﴾ أَلْجَأُ إِلَيْكَ لِعِصْمَتِي مِنْ ﴿أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ ﴿وَالَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ ﴿إِلَّا﴾ هِيَ (إِنْ لَا) أَدَغَمْتُ النُّونَ فِي اللَّامِ أَيْ وَإِنْ لَا ﴿تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾.

فإن قيل: هذا طلب للمغفرة فما هو الذنب؟

قلنا: لعله استعجاله بعرض مشكلته وهو لا يخلو إما أن يكون ابنه ممن وعده الله بنجاته فهو لا بد أن ينجو، وإما أن لا يكون منهم فلا إشكال، فإن كان قد علم أنه لا ينجو إلا من ركب في السفينة وأن ابنه لم يركب فعلم أنه لا ينجو فهو لا يعلم حقيقة ابنه وباطنه فكيف يشكل عليه إهلاكه بناء على ظاهره، وهو يعلم أن الله أعلم بحقيقة ابنه منه، فكانت الزلة استعجاله بقوله: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أي الذين وعدت بنجاتهم وهو غالط في ذلك، فاستغفر لأجل ذلك، وإن كان قد تأدب حيث لم يقل: الذين وعدتني بنجاتهم.

﴿٤٨﴾ قِيلَ يَنْتُوحُ أَهْبِطْ بِسَلَمٍ مِّنَّا﴾ يظهر أن هذا القول كان عند إقلاع السماء وابتداء نضوب الأرض فهو هبوط السفينة تبعاً لهبوط الماء، فالأمر بمعنى الخبر عن هبوطه من ذلك الحين بشارة له بالعودة على قرار الأرض بسلام لم يلحقه بأس في السفينة ولا بهبوط السفينة على الجبل ولا بعد خروجهم منها ونزولهم في قرار الأرض فلا وحل يضرهم ولا وباء من أثر الماء وفرط الرطوبة ولا غير ذلك مما هو من مثل ذلك.

أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١١﴾ وَإِلَىٰ عَادِ
أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَنْتُمْ إِلَّا

﴿وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ في (لسان العرب): «عن
الزجاج: البركة: الكثرة في كل خير» انتهى، فالبركات على نوح الدينية:
زيادة الهدى والنور، وتيسير العبادة والقوة عليها، والبركات الدنيوية، مثل:
العافية، والصحة، وزيادة القوة، وذلك يستلزم الرزق وما يحتاجه من اللباس
والمسكن والفراش وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ الأُمم: جماعات من ذريات من
معه، أي وبركات على أمم ممن معك وهم الصالحون من ذريتهم وهي
تشملهم أي من معه من باب الأولى؛ لأن العلة الإيمان وقد ثبت إيمانهم أو
لأن البركة على الآباء توزعت وتفرّعت على الذرية، وهذا يفيد أنهم يلدون
كلهم لأن (مِنْ) ابتدائية فلعل من عدا أبناء نوح انقطع نسلهم من بعد ما
كان لهم نسل فصارت ذريته هم الباقين.

﴿وَأُمَمٌ سُنِمَتُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿وَأُمَمٌ﴾ جماعات أي ممن
معك ﴿سُنِمَتُهُمْ﴾ وإن لم يكونوا مؤمنين كالذين بارك الله عليهم فلهم
متاع في الدنيا ينتهي ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُمْ﴾ من الله ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة أو في
الدنيا والآخرة.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا
قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ
الْغَيْبِ﴾ تلك الآيات الماضية التي فيها قصة صنع السفينة ونجاة نوح ومن
آمن معه وهلاك من لم يؤمن من أولاده وقومه على ما فيها من التفصيل

مُفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ يَنْقُومَ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنِ اجْتَرَىٰ عَلَىٰ آلِي الَّذِي
فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥٧﴾ وَيَنْقُومِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ

الكامل هي من أنباء الغيب أي من أخبار الغيب المهمة أخبر الله بها
وأوحاها إليك في جملة أنباء الغيب يوحياها الله إليك من أخبار الأمم الماضية
والأشياء الماضية وأخبار ما سيكون.

وكلها ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا﴾ يا محمد ﴿أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ الذين نشأت فيهم
وتتلو هذا القرآن عليهم أي على التفصيل وإن كان خبر السفينة التي نجا فيها
نوح وهلاك قومه بالغرق مما توارثته الأجيال ما كنت تعلمها أنت ولا
قومك على التفصيل من قبل هذا القرآن، وفيه دلالة على نصر الله لأنبيائه
وعلى هلاك الكفار المعاندين لهم.

﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فمدة الصبر تنتهي بالنصر
لك ولن معك من المؤمنين الصابرين المجاهدين، وهذا يعين على الصبر،
وقوله تعالى ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ كالتعليل للصبر والراجح أنها غير
مخصصة بالدنيا بل إما في الدنيا والآخرة وإما في الآخرة، فهي كقوله تعالى:
﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [الروم: ٦٠] فدلالته على النصر في الدنيا بواسطة
دليل آخر، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ
الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۚ
إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ ﴿وَإِلَىٰ عَادِ﴾ وأرسلنا إلى عاد ﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾ فهو
عطف على قوله تعالى: ﴿نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ وعاد بعد قوم نوح، وكأنهم أحدثوا
الشرك بعد طهارة الأرض منه بإهلاك المشركين من قوم نوح.

الْسَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ إِبْرَاهِيمَ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ بأن تعبدوه وحده ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ نفي مؤكد بد (من) ﴿إِنْ أَنْتُمْ﴾ ما أنتم ﴿إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ مخلقون كذباً حيث جعلتم له شركاء، والإفتراء الكذب المتعمد، بدليل قولهم فيما حكاه الله: ﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ [سبا: ٨] قال في (الصحيح): «وافتراه: اختلقه، والإسم الفرية» انتهى.

﴿يَقُومُوا لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿عَلَيْهِ﴾ على ما أرسلت به من أمر الله بعبادته وحده وغير ذلك ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ﴾ لا أطلبكم ﴿عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ فاستمعوا لقولي واصغوا لما جئت به من آيات ربكم وفكروا في صحتها حتى تعلموا أني صادق فهذا احتجاج عليهم في إعراضهم وتكذيبه بدون نظر، فإنه غير متهم بغرض دنيوي وهو ينذرهم ويعلمهم أنه لا يستحق عليهم أجراً إنما أجره على الله، وهذا تأكيد لدفع التعلل باحتمال أنه يريد منهم أجراً، وفيه فائدة أخرى وهو أنه لا عذر لهم بخوف المغرم لو كان يريد منهم أجراً.

وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ تنبيه لهم على أنه ليس من شأن العاقل الإعراض عن النذير المنذر بالخطر العظيم لمجرد الهوى أو الكبر أو الحسد أو الاستعباد مع إمكان النظر في صدقه والتأمل لحجته الدالة على صدقه.

﴿وَيَقُومُوا أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ ﴿أَسْتَغْفِرُوا﴾ اطلبوه مغفرة ذنوبكم لتنجوا من العذاب العاجل فقد تعرضتم له بما قدمتم من الشرك وغيره.

نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْتَرْنَاكَ بِعَظْمِ ءِالِهَتِنَا بِسُوءٍ ۖ قَالَ
إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٨﴾ مِنْ دُونِهِ ۚ فَيَكِيدُونِي

﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ ثم ارجعوا إليه بالطاعة له وتقواه وهي من استغفاره ولكن بدأ بذكر الاستغفار تنبيهاً على أنهم بذنوبهم قد استحقوا العذاب بحبس المطر عنهم أو غيره، فالاستغفار لمحو الماضي المانع من الرحمة، والتوبة لإصلاح المستقبل تعرضاً للرحمة وهما في أول أمرهم شيء واحد ولكنه تعدد لاختلاف الاعتبار وأتى بـ(ثم) للترتيب المعنوي بين طلب مغفرة الذنوب الماضية الذي هو التخلص من ماضيهم والرجوع إلى الله الذي هو إصلاح حالهم ومستقبلهم للتعرض لفضل ربهم.

وقوله: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ﴾ أي من أجل الاستغفار والرجوع إلى الله بطاعته وتقواه ﴿مِدْرَارًا﴾ كثيرة المطر متابعته، وهذه صفة لها إذا أرسلها الله كثيرة المطر متابعة الأمطار النافعة مستمرة على ذلك كأنها تمطر، ومن شأنها أن تمطر لأنها مدرار كالبهيمة الحلوب، وفي التعبير بالمدرار إشارة إلى أنه مطر خير وفائدة كما هو معهود من در البهيمة الحلوب ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ بنزول البركات وغير ذلك.

﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾ عن ربكم وهذا التولي ضد الرجوع إليه، وقوله ﴿مُجْرِمِينَ﴾ تحذير لهم من عاقبة التولي؛ لأنهم مجرمون قد استحقوا العذاب فإذا تولوا على هذه الحالة فقد تعرضوا للعذاب بجرائمهم السابقة مع جريمة التولي والإمتناع من الإيمان والتقوى والإصرار على الشرك وسائر جرائمهم.

﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءِالِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ تكذيب بالبينة التي جاءهم بها

جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ

كقول الكفار بمحمد ﷺ: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [يونس: ٢٠] ﴿عَنْ قَوْلِكَ﴾ صادرين عن قولك في تركنا لأهتنا أي لا نتركها بسبب قولك، وهو يشير إلى كفرهم بأنه في قوله مبلغ عن الله فلو أطاعوه أطاعوا الله وكانوا تركوها عن أمر الله تعالى، وقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ نفى بليغ بـ(ما) مع (الباء) لتأكيد أنهم لن يؤمنوا برسالته.

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْتَرَكْ بَعْضُ إِلَهَاتِنَا بِسُوءٍ﴾ ما نقول إنك رسول صادق بل نقول ﴿أَعْتَرَكْ﴾ أي غشيك وأصابك ﴿بَعْضُ إِلَهَاتِنَا بِسُوءٍ﴾ أي يخلل في عقلك أو يضعف في عقلك.

﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيٌّ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ﴾ ﴿بَرِيٌّ﴾ مقاطع لها لا علاقة لي بها يعلن التبري منها تحدياً لهم ولما يشركونه أي يجعلونه شريكاً لربهم فيهم ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أي يتخذونهم أقرب إليه من الله لغفلتهم عن الله ونسيانهم له.

وقوله: ﴿فَكِيدُونِي﴾ تصريح بالتحدي لقومه ولشركائهم الذين زعموا أنهم قد ضروه في عقله، وقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ أي مجتمعين متعاونين على كيدي أي اعملوا ما دبرتم من سوء خفي كتهينة قتلي ﴿ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ﴾ ثم لا تمهلوني، وهذا كقول نوح عليه السلام السابق في (سورة يونس) فهو ينفي قولهم: ﴿أَعْتَرَكْ بَعْضُ إِلَهَاتِنَا بِسُوءٍ﴾ كأنه عليه السلام قال: إن كانوا اعتروني بسوء فليفعلا أشد منه كيدي وهلاكي وأعينوهم على ذلك فأننا هذا أعلن البراءة منهم لله ربي وأشهدكم على ذلك، ولكنهم لا يضررون ولا ينفعون كما تزعمون.

أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَدَسَخَلْتُ رِبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رِبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ الْغَالِبُونَ وَالَّذِينَ

﴿٥٧﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴿٥٨﴾ وكلت أمري إليه فيما بيني وبينكم، وفي تبليغ رسالته إليكم فلا يردني عن التبليغ تخويف في سبيل الله، بل أمضي لما أمرت به وأرضى بما كتب لي وما أراد لي في طاعته، ولا ينالني إلا ما كتب لي؛ لأنه ربي وربكم مالكننا ومالك التصرف فينا.

﴿٥٨﴾ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴿٥٩﴾ (الناصية): مقدم شعر الرأس، وهذا مجاز عن كون كل دابة في قبضة الله وتحت تصرفه أي فأنا وأنتم في قبضته كما كل دابة في قبضته، فلا تتصرف إلا في حدود إقداره لها وتخليته وتمكينه، فإن شاء نصرني وإن شاء غير ذلك فهو الغالب على أمره.

﴿٥٩﴾ إِنَّ رِبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٠﴾ طريقة قيمة وسنة مطابقة للعدل والحكمة فما دبره لي فهو حكمة وصواب وما دبره لكم فهو حكمة وصواب ذكرهم بالله وبأنه الذي يستحق أن يخشى ويرجى ويتوكل عليه المتوكلون.

﴿٦٠﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ﴿٦١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا يَا قَوْمِي ﴿٦٢﴾ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ﴿٦٣﴾ فقد قمت بواجبي في رسالتي إليكم فلا يضرني توليكم؛ لأنه ليس علي إلا البلاغ وليس علي أن تهتدوا.

﴿٦٤﴾ وَدَسَخَلْتُ رِبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴿٦٥﴾ أي يهلككم ويستخلف قوماً غيركم ﴿٦٦﴾ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ لا بمعصيتكم ولا بهلاككم.

﴿٦٨﴾ إِنَّ رِبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿٦٩﴾ راجع إلى قوله: ﴿٦٤﴾ وَدَسَخَلْتُ رِبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴿٧٠﴾ أي يستخلف للإيمان والطاعة غيركم، كقوله تعالى: ﴿٧١﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴿٧٢﴾ [عمد: ٣٨] فالمعنى يستخلف لطاعتي واتباعي ﴿٧٣﴾ إِنَّ رِبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿٧٤﴾ فهو يحفظني والذين آمنوا معي ولا يلحقنا عذابكم حين يهلككم ربي؛ لأنه على كل شيء حفيظ، فلا يهلك إلا ما أذن بهلاكه ولا يهلك شيء على طريق الصدفة.

ءَامِنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجِّنَهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ءَادٌ جَحَدُوا بِمَا يَنصُرُهُمْ رَبُّهُمْ وَغَضَبُوا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾

وهذا المعنى لقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ هو أنسب لقوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ﴾ من حيث ارتباطه بالإستخلاف، ولقوله: ﴿رَبِّي﴾ فإنه يناسبه تعلق الإستخلاف بهود، فكأنه قال: ويستخلف لي ربي قوماً غيركم، وذلك بتكثير ذرية هود والذين آمنوا معه في حياة هود فيكثر أتباعه بحيث يكونون قوماً، أو أنهم قوم من قبل هلاك الهالكين.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ﴿أَمْرُنَا﴾ عذاب قوم هود ﴿نَجَّيْنَا هُودًا﴾ أي من ذلك العذاب ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ هو العذاب النازل على قوم هود غليظ شديد، ووصفه بالغلظة إما لتضعيف الشدة فهو مثل عظيم وكبير، وإما لوصفه بالقسوة على أعداء الله، كقوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣] ومن شدته وغلظته أنه عذاب يهلكهم على كفرهم فيؤديهم إلى عذاب الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي بسبب رحمة منا أو كأن الرحمة آلة لنجاتهم أو نجاة متلبسة برحمة منا وهي رحمته تعالى للرسل ومن آمن معهم أو رحمتهم ورحمة من يهتدي بهم من بعد هلاك قومهم واستبدال غيرهم.

﴿وَتِلْكَ ءَادٌ جَحَدُوا بِمَا يَنصُرُهُمْ رَبُّهُمْ وَغَضَبُوا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ﴿وَتِلْكَ ءَادٌ﴾ إشارة إلى القبيلة المذكورين ﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ و﴿ءَادٌ﴾ خبره، وهو توطئة لوصفهم بقوله تعالى: ﴿جَحَدُوا بِمَا يَنصُرُهُمْ رَبُّهُمْ وَغَضَبُوا رُسُلَهُ﴾ فدل على كذبهم في قولهم: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ ﴿رُسُلُهُ﴾ هود ومن قبله من الرسل لأن دعوتهم واحدة إلى توحيد الله وعبادته وحده عامة للناس شاملة لمن في عصرهم ومن بعدهم ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ فهذه صفتهم فقد استحقوا العذاب الغليظ.

وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۖ أَلَا
بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿١٦٦﴾ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَنْقُومِ آعْبُدُوا

قال في (الصحيح): «والجبار: الذي يقتل على الغضب» انتهى، ثم قال: «وتجبر الرجل: تكبر» انتهى، وقال الراغب: «ويقال للقاهر غيره: جبار، قال: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥] انتهى.

وفي (تفسير الغريب) للإمام زيد بن علي عليه السلام: «فالجبار: المتكبر عن عبادة الله تعالى، والجبار: العظيم الفتاك في غير حق، والجبار: القاهر والعنيد الجائر العادل عن الحق» انتهى.

وقال الراغب: «والعنيد: المعجب بما عنده، والمعاند: المباهي بما عنده» انتهى، وقال في (الصحيح): «وَعِنْدَ يَعْنِدُ - بالكسر - عنوداً أي خالف، ورد الحق وهو يعرفه، فهو عنيد وعاند» انتهى، فظهر: أن الجبار هنا الظلوم الفتاك في غير الحق، وأن العنيد المعاند للحق ولو عرفه.

﴿١٦٦﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ۖ بعد هلاكهم ﴿لَعْنَةً﴾ من الله، فكان من عقابهم سوء الذكر في الدنيا لعنة من الله عقوبة في الدنيا بسوء ذكركم، إما بلعنتهم فيما أنزل على الرسل، وإما به وبشرع لعنتهم من الملائكة والناس أجمعين ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ يطردون من رحمة الله، فيصيرون إلى عذاب الأبد.

﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ ﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ جحدوه بمجحدهم قدرته على كل شيء بقولهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [نص: ١٥] أو كفروا به بمعنى المقاطعة له مثل: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [المتحنة: ٤] وهو بعيد؛ لأن كفروا ربهم عدي بنفسه والكفر الذي بمعنى المقاطعة والمباينة يستعمل بالباء وجعله من نزع الخافض تأويل.

اللَّهُ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦٦﴾ قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ

وقد حكى أهل اللغة: كافرني حقي، فاستعمل متعدياً بمعنى الجحد والإتيان بحرف التنبيه (ألا) في هذا السياق لعل سببه أن كفرهم يستبعد وقوعه كأنه لا يتصور أن يمحذوا قدرة الله عليهم وهو الذي خلقهم، فأتى بحرف التنبيه وأكد به ﴿إِنَّ﴾.

﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادِ قَوْمِ هُودٍ﴾ صورته دعاء عليهم بالبعد لكنه كما يقال بعداً وسحقاً وهو دلالة على استحقاقهم للعذاب الذي نزل بهم، وعبرة عن غضب الله عليهم، وقوله: ﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ عطف بيان لإخراج عاد الأخرى، وقول (صاحب الكشاف): «إن عاداً الأخرى هي عاد إرم» فيه نظر؛ لأن الراجح: أن عاد إرم هي عاد الأولى قوم هود - والله أعلم.

والتنويه بهم بقوله: ﴿أَلَا﴾ مرتين دلالة على غضب الله عليهم وإرادة التنديد بهم حيثما بلغ القرآن وإلى آخر الزمان ما دام القرآن.

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ أي ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً ﴿قَالَ يَنْقُومِ﴾ أي يا قومي بزيادة الياء ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ﴾ مرّ تفسيره ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ﴾ أوجدكم ﴿مِّنَ الْأَرْضِ﴾ من حيث أن الله تعالى بدأ خلق الإنسان من طين، ومن حيث أن النطفة تخلق من الغذاء، وأصل الغذاء من نبات الأرض، وفي ذلك أي خلقهم دلالة على أن الله هو ربهم لا ما يعبدونه من دونه وفي التنبيه على أن أصلهم من الأرض دفع لتكبرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي وهو استعمركم فيها، وعمارتهما إحيائها وإصلاحها للإنتفاع بها، ومعنى استعمركم جعلها صالحة معدة للعمارة وجعلكم قادرين على عمارتها، فأما إعدادها للعمارة فإنه جعل التربة تصلح للإنبات وتصلح للبناء فيها، وبعضها تصلح للبناء بها، ومنها يجعل الآجر كما أعده لذلك، وكذلك جعلها صالحة للعمل فيها للزراعة وللغرس وللبناء، وصالحة للسفر فيها للتجارة وغيرها.

وأما إعداد الإنسان فجعل يديه معدتين للعمل بهما بما لهما من قوة العمل وما فيهما من الكفين والأصابع والمفاصل في الأصابع ومفصل الكف ومفصل المرفق ومفصل العضد أعلى اليد، ويجعل ظهره صالحاً للإنحناء حال العمل، ويجعل البقر صالحة للحرث ومسخرة للإنسان ليعمل بها ويسقي الحرث، وكذلك الإبل فهو الذي أعد للإنسان تحصيل رزقه من الأرض بعمارتهما، فهو الخالق الرازق المستحق للعبادة وحده لا شريك له تعبداً له وشكراً لنعمته فقال: ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ تنبيهاً على وجوب عبادته وحده لا شريك له، وأن عبادة غيره ظلم عظيم.

﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ من الشرك الماضي وغيره من الذنوب لتنجو من العقاب عليه، ثم ارجعوا في المستقبل إلى الله لتصلحوا مستقبلكم، والتوبة: الرجوع، فالطاعة كلها من التوبة ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ﴾ بخلاف ما تتوهمون من بُعد عنكم، فلا تحتاجون إلى وسائط بينكم وبينه تقربكم إليه أو تبلغه عنكم ﴿مُجِيبٌ﴾ لدعوة الداعي، فادعوه يستجب لكم، واستغفروه يغفر لكم، وقد مر في قول هود: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾.

فِينَا مَرْجُؤًا قَبْلَ هَذَا أَتَنَّهُنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١٢﴾ قَالَ يَنْقُومِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿١٣﴾ وَيَنْقُومِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلُ فِي

﴿١٢﴾ قَالُوا يَصْلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُؤًا قَبْلَ هَذَا أَتَنَّهُنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ ﴿قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُؤًا﴾ قد كنا نرجو خيراً لقومك فيك ﴿قَبْلَ هَذَا﴾ قبل أن تدعونا لعبادة الله وحده فلما دعوتنا لهذا خاب أملنا فيك، وهو اعتراف له برجاحة العقل والخصال الكريمة التي معها ينفع الرجل قومه.

وقولهم: ﴿أَتَنَّهُنَا﴾ إنكار عليه بناء منهم على أن الصواب عبادة ما يعبد آبائهم، وليس لهم في ذلك حجة ولكنهم جعلوا عبادتهم تعصباً لأبائهم وهي لا تفيد آباءهم شيئاً بل تضرهم من حيث أنهم سنوا لهم الشرك ومع أن المهم إنقاذ أنفسهم من النار.

﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ ﴿مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ من عبادة الله وترك الشرك أهو حق أم باطل في شك مرِيب مقلق لأنفسنا لا تطمئن إليه، وقد أخطأوا وضلوا ضلالاً بعيداً لأنهم إن إردوا أنهم في شك من عبادة الله ربهم، فكيف يشك عاقل في أنها حق وهو الذي خلق ورزق، وإن أرادوا في شك من عبادة شركائهم فليس مقتضى الشك فيه أن يستمروا عليه، لأن تركه مع الشك أحوط من فعله مع الشك؛ لأن الفعل إقدام بغير دليل والترك توقف فكلامهم هذا مجرد جدل بالاستتهم.

﴿١٣﴾ قَالَ يَنْقُومِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ ﴿بَيِّنَةٍ﴾ آية بينة ﴿مِّن رَّبِّي﴾ تدل على أنني

أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿١٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ

رسول من الله إليكم لأنهاكم عن عبادة ما كان يعبد آبائكم من دون الله ﴿وَأَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةٌ﴾ بما أوحاه إليّ وعلمني من الهدى لعبادته وحده وامثال أمره واجتناب ما نهى عنه ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾ أي من يدفع عني عذاب الله ﴿إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ إن لم أبلغكم ما أمرت تبليغه ولم أنهكم عن الشرك كما أمرت بنهيكم ولم أدعكم إلى عبادة الله وحده كما أمرت أن أدعوكم.

﴿فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَحْسِيرٍ﴾ ﴿فَمَا تَزِيدُونِي﴾ على الكفر برسالي ﴿غَيْرَ تَحْسِيرٍ﴾ لي لو أطعتم لأنها خسارة رحمة ربي ورسالته باستبدال معصيته الموجبة لعذابه.

﴿وَيَنْقُومِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾ أضافها إلى الله لأنها عظيمة عظاماً خارقاً جعلها آية تدل على صدقه.

قال الشريفي رحمه الله في (المصابيح): «يروى: أن قومه خرجوا في عيد لهم، فسألوه أن يأتيهم بآية، وأن يخرج لهم من صخرة معينة أشاروا إليها ناقة، فدعا صالح ربه فخرجت كما سألوا...».

قال الشريفي: «واعلم أن تلك الناقة كانت معجزة من وجوه:

أحدها: أنه تعالى خلقها من الصخرة.

وثانيها: أنه تعالى خلقها حاملاً من غير ذكر.

وثالثها: أنه تعالى خلقها على تلك الصورة دفعة واحدة من غير ولادة.

ورابعها: ما روي إنه كان لها شرب يوم، وكان للقوم شرب يوم.

وخامسها: أنه كان يحصل منها لبن كثير يكتفي الخلق العظيم به، وكل واحد من هذه الوجوه معجز قوي» انتهى.

قلت: قد دل القرآن الكريم على أنها آية ويكفيها ذلك؛ لأن الله أصدق القائلين، وقد دل القرآن على عظمها؛ لقول الله تعالى: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

وقوله: «يكتفي الخلق العظيم به» يعني الناس الكثير، أي قومه، فقد روي أنها كانت تكفيهم لبناً في اليوم الذي تشرب فيه ماء بثرهم.

وقوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ أي اتركوها تأكل في أرض الله فهو يكفيها المرعى ولا تكلفكم مغرمًا ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾ لا ضرب ولا جرح ولا قتل يبعثكم عليه عداوتكم للحق والرغبة في إخفاء آيته التي غاظتكم ﴿فَيَا خُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ إن فعلتم وهذا إنذار لهم من نذير صادق قد دلت الآية العظمى على صدقه ولكنهم لتمردهم ومعارضتهم للحق بالجدال فيه قد خذلوا.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي فقتلوا بفعل بعضهم وأمر ورضى الباقيين.

قال الشرفي في (المصابيح): «يحتمل: أنهم عقروها لإبطال تلك الحجة، وأن يكون لأنها ضيقت الشرب على القوم، وأن يكون لأنهم رغبوا في لحمها وشحمها».

قلت: الوجه الأول أقرب وأنهم طمعوا في أن يقتلوا ولا يعذبون فينكشف كذب الوعد، وأنه كان مثل تحدي قوم نوح له حين قالوا: ﴿فَأَنبَأْنا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

أَمَرْنَا نَجِيئًا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦١﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ

﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ ﴿تَمَتَّعُوا﴾ انتفعوا بحياتكم ومطالبها الموجودة عندهم ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ فلن ينزل العذاب في الثلاثة الأيام، وفائدة هذا أن لا يتوهموا أن العذاب قد تخلف، وأن قوله: ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ تخلف أي لا يسارعوا إلى تكذيبه في هذا الوعد.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ إما الوعد بالنجاة المحدودة في الثلاثة، وإما منطوق الوعد ومفهومه أي أن العذاب ينزل فوراً بعد الثلاث لا يتأخر، وقوله: ﴿غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ لعله من قولك: كذبه الحديث، كما قال الجاحظ:

أترجو أن تكون وأنت شيخ كما قد كنت أيام الشباب
لقد كذبتك نفسك أي ثوب خلع كالجديد من الثياب

وأفضل من ذلك قول الله تعالى: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: ٩٠] قال الراغب: «ويقال: لا مكذوبة: أي لا أكذبك وكذبتك [كذا] حديثاً» انتهى.

فعلى هذا: يكون المعنى: لم أكذبكم الوعد المذكور، فهو نظير: صدقه الحديث، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ...﴾ [آل عمران: ١٥٢] ويحتمل: أنه مصدر، بمعنى غير كذب، والأول أرجح عندي، ومؤادهما واحد.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمَرُنَا نَجِيئًا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ ﴿أَمَرْنَا﴾ أي عذابنا الذي أنزلناه ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ وهي تيسير سبب النجاة كالهجرة من بين قومهم ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ ونجينا صالحا والذين معه من خزي يومئذ أي يوم إذ جاء أمرنا ونزل عذابنا.

فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿١٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۚ أَلَا بَعْدَ لَثَمُودَ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَىٰ

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يَا مُحَمَّد ﴿هُوَ الْقَوِيُّ﴾ فهو يفعل ما يشاء من تعذيب ومن إنجاء من العذاب ومن غير ذلك فإن يشأ ينزل بقومك مثل ما أنزل بقوم صالح وغيرهم وهو ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا ينال فلا يهمل العصاة المفسدين بل لم يمهلهم حتى عصوا وعاندوا إلا لأن الجزاء معد لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَازِلٌ مُّصَادِقٌ﴾ [الفجر: ١٤].

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَثِيمِينَ﴾ ﴿الصَّيْحَةُ﴾ صوت شديد، وفي (سورة الأعراف) ﴿فَلْخَذَتُهُمُ الرُّجْفَةُ﴾ [آية: ٧٨] فيظهر من مجموع ذلك: أنها صيحة شديدة رجفت منها الأرض فهلكوا من الرجفة، ونسب هلاكهم إلى الصيحة؛ لأنها هي ولدت الرجفة. وقوله: ﴿جَثِيمِينَ﴾ قال الراغب: من جثم الطائر إذا قعد ولطى بالأرض. قلت: هو كناية عن هلاكهم الذي أدى إلى جثومهم على الأرض. ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ كأن لم يسكنوا ديارهم أحياء فلا ترى في ديارهم حركة ولا تسمع صوتاً ولا ترى أثراً من آثار الأحياء ولا تسمع صوت دابة ولا تجد شيئاً حياً من توابع القوم كالكلب أو الهر، وقد جمع هذا قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾.

﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ قال الشرفي في (المصاييح): «أي جحدوه» انتهى، وهو موافق لما قدمت في قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ عَلَداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾.

﴿أَلَا بَعْدَ لَثَمُودَ﴾ دعاء عليهم تعبير عن الغضب عليهم وإرادة هلاكهم مثل سحقاً، قال تعالى: ﴿فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١] وهذا هو البعد

قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَءَا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا

ضد القرب مثل: السحق، فأما بمعنى الهلاك فهو البعد - بفتح الباء والعين - كما أفاده في (الصحاح) و أما الراغب فقال: «والبُعد والبَعْد يقال فيه [أي في الهلاك] وفي ضد القرب» انتهى، ولعل الأكثر في ضد القرب البُعد - بالضم والسكون - والأكثر في الهلاك البَعْد والله أعلم، وبعداً مصدر منصوب بإضمار الفعل، أي أبعدهم الله بعداً.

﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ﴿٢٧﴾ هَذَا الْكَلَامُ فِي الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كالتقدمة لقصة هلاك قوم لوط والبشرى لإبراهيم بإسحاق ومن وراء اسحق يعقوب، والرسول هنا ملائكة.

﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ قال الشريفي رحمه الله في (المصاييح): «ومعنى ﴿سَلَامًا﴾ سَلَمْنَا عَلَيْكَ سَلَاماً ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ أي أمري سلام» انتهى، أي سلام عليكم.

﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ﴾ ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ أي أسرع بالعجل ليأكلوا منه، وهذا أعني الإسراع بتزل الضيف من كرم الضيافة، كما قال حاتم: فقلت له أهلاً وسهلاً ومرحباً رَشِدْتَ ولم أقعد إليه أسائله فأطعمته من كبدها وسنامها شواء وخير البر ما هو عاجله

والحنيد: قال الراغب: «قال تعالى: ﴿جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ﴾ أي مشوي بين حجرين» انتهى المراد، وفي (الصحاح): «حنذت الشاة أحندها حنذاً، أي شويتها وجعلت فوقها حجارة عمدة لتنضجها فهي حنيد».

إِلَى قَوْمٍ لُّوطٍ ﴿٧﴾ وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَلَبَسَ رَتَبًا مِمَّنْ يَلْعَلُ يَمْسُكُ بِسُلُوكِهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ
إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٨﴾ قَالَتْ يَتُوبَلَىٰ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا

قلت: هو فعيل، بمعنى مفعول، يقال للمذكر والمؤنث كما أفاده في (الصحيح) و(لسان العرب).

قال الشريفي رحمه الله: «﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيزٍ﴾ أي فما أبطأ ولا أقام حتى جاء بعجل مشوي، والحنيذ هو المشوي، والعرب تقول: حنذا الجراد وحنذا الشواء، وإنما اتاهم بالقرى وهو يظن أنهم أضياف من الآدميين، فبادر إليهم ولم يلبث ولم يبطء بكرامتهم» انتهى.

وعندي: أن تقديره: فما لبث عن أن جاء، أي ما تأخر عن أن جاء وما أبطأ فهو نفي للثب ليدل على الإسراع - والله أعلم - وقد وصف العجل هنا بأنه ﴿حَنِيزٌ﴾ ليدل على الإسراع به، ووصفه في (سورة الذاريات) بأنه ﴿سَمِينٌ﴾ [آية: ٢٦] ليدل على كرمه من ناحية سمن العجل.

﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ﴾ إبراهيم عليه السلام، أيدي الأضياف لا تصل إلى الطعام الذي هو العجل الحنيذ ﴿نَكِرَهُمْ﴾ أنكرهم، وخطر بباله أنهم ليسوا أضيافاً وإذ ليسوا أضيافاً فلماذا أتوا وهو لما يعلم أنهم ملائكة؛ لأنهم تمثلوا له بشراً ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أضمر منهم خوفاً ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ لُّوطٍ﴾ أي لإهلاكهم ليفهم أنهم ملائكة وليعلم ما قضاه الله في قوم لوط.

﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ﴾ إما استعداداً لخدمة الأضياف، وإما لسماع المحاورة بينهم لاهتمامها بتركهم الأكل ﴿فَضَحِكَتْ فَلَبَسَ رَتَبًا مِمَّنْ يَلْعَلُ يَمْسُكُ بِسُلُوكِهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ (ضحكت) لعل الضحك من سرورها بالأضياف

إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ

الكرام حين علمت أنهم ملائكة قد جاءوا إبراهيم عليه السلام زوجها في صورة البشر يقرب لهذا الترتيب بد(الفاء).

وتفسير (الضحك): بالحیض، خلاف الظاهر، وترتبت بشارتها بالولد على أنهم ملائكة بلغوها عن الله تعالى، والبشارة بالولد تغني عن ذكر الحيض؛ لأنه أمانة للولد ضعيفة والبشارة صريحة ﴿فَبَشَّرْنَاهَا﴾ أي بشرها الملائكة عن الله تعالى أو فبشرها الله ﴿بِإِسْحَاقَ﴾ ويعقوب من وراء إسحاق، وما قيل من أنه سمي يعقوب لأنه عقيب إسحاق في الولادة لأنه ابنه محل نظر؛ لأن الأقرب أنه اسم أعجمي ولهذا منع من الصرف.

﴿قَالَتْ يَنْوِلْنِي أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿يَنْوِلْنِي﴾ استغاثة من شدة؛ لأنها تذكرت شدة الولادة من حيث أنها تتقدمها الأوجاع والخوف من الموت وهي عجوز قليلة التحمل لمشقة مقدمات الوضع، فلذلك قالت: ﴿أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ لا يولد مثله فلم تنجني شيخوخته، ويحتمل أنها خافت عيب السفهاء من الشباب عليهما، ويحتمل الأمرين، وأما قولها ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ فترتيب بغير عاطف لأنه أمر آخر ترتب على ولادتهما.

﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ ﴿أَتَعْجَبِينَ﴾ سؤال إنكار لعجبتها من ولادتها وهي عجوز وبعلاها شيخ؛ لأنه ﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ وهو قادر على كل شيء، وهذا لا ينافي العجب والذي ينافي العجب لو تذكرت أنها في محل البركات والرحمة،

فلهذا قالوا لها: ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ فليس عجباً أن ينالكم الخير الخارق للعادة بفضل الله الحميد المستحق للحمد المجيد ذي الكرم والجود والعظمة.

قال الراغب في تفسيره لـ (مفردات القرآن): «المجد: السعة في الكرم والجلال» انتهى، وقال (صاحب الصحاح): «المجد: الكرم، والمجيد: الكريم» انتهى.

قلت: وصفة الكرم تدل على الجود والحلم وغير ذلك، وقد قال القاسم عليه السلام في (تفسير الفاتحة) ما يدل على اتفاق المجد والجود في المعنى، ولعله من حيث اتفاقهما من حيث أن المجد الكرم.

قائدة: قول القاسم عليه السلام: المجد من الجود محمول على اتحادهما في المعنى لا على الاشتقاق الإصطلاحي ولم يقل مشتق منه، فهو كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦] وقول طالوت عليه السلام: ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمَهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [البقرة: ٢٤٩].

قال (صاحب لسان العرب): «ورجل ماجدٌ مفضال: كثير الخير شريف، والمجيد: فعيل منه للمبالغة» انتهى، وهو أوفق لكلام القاسم عليه السلام فهو أرجح؛ لأن القاسم عليه السلام عربي محقق في العربية، وفي تفسير القرآن وغيره، وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ [البروج: ٢١] فوصف القرآن به لكثرة خيره ونفعه وفوائده، فوصف بالجود كما يوصف به البحر والسحاب، ويقويه قول زهير في (معلقاته) إحدى (السبع المعلقة) يمدح هرم بن سنان، والحاتر بن عوف؛ لإصلاحهما بين عبس وذبيان القبيلتين بتحمل الديات، بقوله:

الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ تَجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٧﴾ يَتْلُو آيَاتِهِمْ فَأَعْرَضَ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٨﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ يَوْمٍ وَعَصَاكَ يَوْمَ ذَرْعًا

وقد قلتما إن نذكرك السلم واسعاً
فأصبحتما منها على خير موطن
عظيمين في علياً معدّ هديتما
فجعل الجود والمجد سبباً للعظم.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ تَجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُّنِيبٌ ﴿الروْع﴾ الفزع الذي سبق ذكره في قوله تعالى: ﴿فَلَوْ جَسَّ مِنْهُمْ خِيفَةٌ﴾ [الدَّارِيَات: ٢٨] والبشرى كذلك البشرى بابنه وابن ابنه ﴿تَجْدِلُنَا﴾ يجادل الملائكة ﴿فِي﴾ أمرنا بهلاك ﴿قَوْمِ لُوطٍ﴾ وهو جواب لما جيء به بصيغة المضارع تعجبياً من جداله فيهم.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ لا يعجل على معاقبة المسيء إليه والإنقام من عدوه ﴿أَوَّهٌ﴾ كثير التأوه حزناً إما على ما فاته مما نواه من عمل الخير ولم يدركه؛ لأن المؤمن ينوي كثيراً من الخير ويتلهف على ما فاته كما في الحديث، وإما لفساد عباد الله وطاعة أكثرهم للشيطان، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٠] ﴿مُنِيبٌ﴾ راجع إلى الله في كل أحواله.

﴿يَتْلُو آيَاتِهِمْ فَأَعْرَضَ عَنْ هَٰذَا﴾ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿أَعْرَضَ عَنْ هَٰذَا﴾ أي عن هذا الجدل في قوم لوط أمره الله بتركه سواء أوحاه إليه أو بلغته الملائكة الحاضرون لديه ﴿أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أمره بعذابهم وإنهم بأمر الله ﴿آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ لا يردّه شافع ولا ناصر ولا شيء.

وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُدُ قَوْمُهُدُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْقُومُ هَتُولَاءُ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزُونِ فِي ضَيْفَى أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا

﴿٧٧﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ ﴿رُسُلُنَا﴾ الملائكة المرسلون لتعذيب قوم لوط وهم في صورة البشر كما كانوا عند إبراهيم عليه السلام ﴿سَيِّئًا بِهِمْ﴾ ساءه وجودهم لديه؛ لأنه ظنهم أضيافاً من البشر ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ قل احتمالاً لهذه المصيبة ولم يجد نفسه تطيقها؛ لأنه يتوقع هجوم قومه عليهم وهو لا يستطيع حمايتهم ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ شديد ذو شر تصعب مدافعه.

﴿٧٨﴾ ﴿وَجَاءَهُدُ قَوْمُهُدُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ ﴿وَجَاءَهُدُ قَوْمُهُدُ﴾ جاءوا ليواجهوه بالإساءة ورفض احترامه في أضيافه ﴿يُهْرَعُونَ﴾ يسرعون كأنهم يساقون بعنف أو يسوقهم الشيطان ويهرعهم أي يسوقهم بشدة.

قال في (الصحيح): «وجاءه قومه يهرعون إليه ، قال أبو عبيدة: يستحثون إليه، كأنه يحث بعضهم بعضاً» انتهى.

﴿وَمِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل مجيئهم إلى نبيهم وأضيافه ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ المعاصي القبيحة معتادين لها مستمرين عليها فلا يتبادر إلى ذهن نبيهم حين جاءوا، إلا أنهم أرادوا عمل الفاحشة، وهذه سيئة منهم مع سيئاتهم من حيث ساءوا نبيهم، ومن حيث هموا بالفاحشة فقد بلغت الشدة على نبيهم أقصاها؛ لأنه خير بقومه وعنادهم وخبثهم.

لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقِّي وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٦﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ
ءَاوَىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ

﴿قَالَ يَنْقَوْمُ هَتُولَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ ليس عرضاً لبناته لعمل
الفاحشة بهن حاشاه ولكنه إيهام يكشف لهم عن غاية اهتمامه بدفعهم عن
أضيافه وشدة غمه وآلمه وهمه لعلهم يراعون حاله وقد استعطفهم بقوله:
﴿يَنْقَوْمُ﴾ وبإيهام عرض بناته عليهم وقاية لأضيافه.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾
في ﴿وَلَا تَحْزُونِ﴾ بعمل الفاحشة بأضيافي، فقوله: ﴿فِي ضَيْفِي﴾ أي بذلك
﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ فيعيني وينصحكم لتتركوا ما قد هممتم به.

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ فكيف نرضى بهن
وقاية لأضيافك، وهذا بناء على توهمهم أن قد عرضهن عليهم وهو يعرف
منهم أنهم لا يريدونهن؛ لأنهم يتركون نساءهم من أجل سبقهم على
اللواط لا لأنهم يتخرجون من الحرام، وقولهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ
مِنْ حَقٍّ﴾ إيهام لتورعهم من الحرام ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ إنك لتعلم أنا
نريد أضيافك فلا تغالطنا بعرض بناتك.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوَىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ ﴿قَالَ﴾ نبههم
تنبيهاً لهم على عظم المصيبة في نفسه يستعطفهم ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ ليت
لي بكم طاقة أي ليتني أطيق دفعكم، كقول أصحاب طالوت: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا
الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] أي لا نطيع دفعهم عنا وغلبتهم ﴿أَوْ
ءَاوَىٰ﴾ أي أنظم ﴿إِلَىٰ رُكْنٍ﴾ قوي ﴿شَدِيدٍ﴾ يعيني وينصرني ويكون لي
قوة كالحديث الشريف «سلام الله عليك أبا الريحانين فعن قليل ينهد

فَأَسْرَ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٤٨٧﴾ فَلَمَّا

ركناك» أو كما قال، وأصله من ركن البناء لأنه قوة للبناء فيجعل قوياً ليقوى به البناء ولذلك رشحه في الحديث بقوله ﷺ (...ينهد...).

قال في (الصحيح): «وركن الشيء: جانبه الأقوى، وهو يأوي إلى ركن شديد: أي عزٍّ ومنعة» انتهى.

وفي الآية: ﴿إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أي ركن قوي يصعب عليكم دفعه، فالركن يفيد القوة ووصفه بالقوة يفيد قوة إلى قوة، وهذا يدل على التحسر من ضعف الحال في حال شدة الحاجة إلى القوة، وإذا بلغت النوائب حدّها زالت.

﴿قَالُوا﴾ أي الملائكة المرسلون لتعذيبهم ﴿يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ أي الملائكة الذين أرسلهم ربك وهذا يشعر بأنه متوقع لنزول العذاب بقومه فالرسل بالعذاب أمر معهود في نفسه ﴿لَن يَصْلُوا﴾ أي قومك ﴿إِلَيْكَ﴾ لا بضر ولا بإخزاء ﴿فَأَسْرَ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أمره بما هو من الإعداد لنزول العذاب على قرية قوم لوط ﴿فَأَسْرَ بِأَهْلِكَ﴾ أخرجهم من القرية في الليل ﴿بِقِطْعٍ﴾. قال الراغب: «﴿بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ بقطعة» انتهى، أي بقية من الليل أي بسحر.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ لا ينظر إلى ما ورائه ولا يميناً ولا شمالاً بل كل واحد يقبل بوجهه إلى أمامه سارياً، لعل ذلك ليسرعوا السير ولا يصيب أحدهم نكبه بسبب الالتفاف - والله أعلم.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال القاسم بن إبراهيم عليه السلام: معنى ﴿لَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ لا يتأني ولا يتراخى» انتهى.

جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ
مَّنْضُودٍ ﴿١٣٧﴾ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿١٣٨﴾

﴿إِلَّا أَمْرَاتُكَ﴾ استثناء من المجرور أي لا تسربها دعها نائمة أو عازمة
على ترك الخروج أو موافقة على البقاء ولو كرهاً ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾
نفس العذاب الذي أصابهم أي قومه، فلا بد أن الحاصب أدركها وقتلها
بالأحجار.

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ أي وقت هلاكهم الموعود به ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ
بِقَرِيبٍ﴾ وهذا يناسب ضيق صدره منهم فهو يحب تعجيل عذابهم كلهم،
وتعجيل هلاكهم كلهم فكانه استبطاً الصبح ف قيل له: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ
بِقَرِيبٍ﴾؟!

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا﴾ أي القرية ﴿سَافِلَهَا﴾ والأقرب
عندي أن الرجفة أسقطت أعالي المباني؛ لقوله تعالى: ﴿فَاخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ
مُشْرِقِينَ﴾ * فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿الحجر: ٧٣-
٧٤﴾ ولذلك بقيت آثارها، كما يفيد قول الله تعالى: ﴿وَأَنكُم لَتَمُرُونَ عَلَيْهِمْ
مُّصْبِحِينَ﴾ * وَيَالِ اللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿الصافات: ١٣٧-١٣٨﴾ وهذا يفيد: بقاء آثار
القرية ليعتبروا بهم إذا مروا بها وذكرهم.

وقوله تعالى في (سورة الحجر): ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ..﴾
﴿الحجر: ٧٤﴾ يفيد: أخذهم بالحجارة، مع أخذهم بالصيحة، ولعل معنى الأخذ
بالصيحة: سيطرتها عليهم، وجسهم بشدتها أي بشدة رجفتها؛ لأنها إذا
اشتدت الرجفة أزلت العقل.

ويدل على أخذهم بالحجارة أي قتلهم، قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٢-٣٣] فعذابهم ثلاثة أصناف: طمس الأعين، والصيحة، والحجارة، فما يروى أن جبريل عليه السلام أخذ قراهم، قالوا: وهي سبع بجناحه، وقلبها مشكل فالله أعلم بصحته، والمذكور في القرآن الكريم قرية، ولو كانت سبعاً لكان من شأنها أن تذكر في القرآن لزيادة العبرة فيها، وهي تذكر ليعتبر بها الكافرون.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾ ﴿عَلَيْهَا﴾ لما عم العذاب القرية ولم يخص الأفراد ناسب إسناذه إليها جملة، وقد أسند إليهم في غير هذا الموضع ﴿حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ حجارة أصلها طين مستحجر، والأقرب أن معنى ﴿سِجِّيلٍ﴾ أنها ذات خطوط امتازت بها عن بقية الأحجار.

وقوله: ﴿مَنْضُودٍ﴾ أجزاء الحجر منضودة ليس فيه تخلخل ولا له تجويف بل أجزاء مرصوفة صلب ثقيل الوزن، قال في (لسان العرب): «ونضد الشي: جعل بعضه على بعض متسقاً أو بعضه على بعض» انتهى.

﴿مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ ﴿مُسَوَّمَةٌ﴾ ذات علامات فيها، والسمة العلامة ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ جعل هو تلك السمات لتدل على معناها عند ربك، ولعله جعلها للملائكة الذين أرسلوا بها تدل على أنها جعلت لعذابهم وعلى الملائكة أن يحصبوهم بها بعينها تعبداً لهم، ويحتمل أن كل حجر كتبت لشخص تصيبه وجعل للملائكة ﴿الظَّالِمِينَ﴾ فهم معنى سِمَتِهَا.

﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ وما تلك الحجارة ﴿بِبَعِيدٍ﴾ من الظالمين أي المجرمين الذين كذبوا رسول الله محمداً ﷺ فإنهم ظالمون مستحقون لها بظلمهم فليس إرسالها عليهم ببعيد في قدرة الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۖ قَالَ يَنْقَوْمِرْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٤٨﴾ وَيَنْقَوْمِرْ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ۖ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٤٩﴾ بَقِيَتْ

﴿٤٨﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۖ قَالَ يَنْقَوْمِرْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ ﴿٥٠﴾ أي ولقد أرسلنا إلى مدين، قال الشرفي رحمته في (المصاييح): «اعلم أن مدين اسم ابن إبراهيم صار اسماً للقبيلة، قال في (البرهان): لأنهم بنو مدين بن إبراهيم فقليل: مدين، والمراد: بنو مدين، كما يقال: مضر، والمراد بنو مضر» انتهى دعاهم إلى عبادة الله وحده كما دعا من قبله قومهم.

﴿٥١﴾ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴿٥٢﴾ نهاهم عن الخيانة في الكيل والوزن عند البيع أو نحوه مما ينقص ما هو مستحق على صاحب المكيال والميزان ﴿٥٣﴾ إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ ﴿٥٤﴾ في نعمة ورخاء ﴿٥٥﴾ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٥٦﴾ لكفركم نعمة الله وتعرضكم لنقمته ﴿٥٧﴾ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٥٨﴾ يعمكم بعذابه ولا ينجو منه أحد منكم، والأقرب: أنه يحذرهم عذاباً عاجلاً يؤديهم إلى عذاب الآخرة.

﴿٥٩﴾ وَيَنْقَوْمِرْ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴿٦٠﴾ أَوْفُوا ﴿٦١﴾ تأكيد للنهي عن النقص بحيث لا يكفي عدم تحقق النقص بل لا بد من تحقق الوفاء بالقسط بالعدل والحق.

﴿٦٢﴾ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴿٦٣﴾ وَلَا تَبْخُسُوا ﴿٦٤﴾ ولا تنقصوا ﴿٦٥﴾ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴿٦٦﴾ المستحقة لهم، والنقص يكون نقص العين ونقص الصفة.

اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا
يَشْعِيبُ أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي

ومثال نقص الصفة: تعويض (ألف) من العملة اليمنية كان في ذمته قبل هبوط سعر تلك العملة بـ (ألف) بعد هبوط العملة إلى مستوى متدن جداً، ومن أمثلته: إعطاء الرديء بدلاً عن الجيد في وعاء مختوم أو وجهه من الجيد وأسفله من الرديء، ومن أمثلته ذم سلعة الغير لثلاث تشتري مثلاً أو بنته لثلاث تتزوج، وله أمثلة كثيرة، وقد يخلط الشيء بما يحقه فيكون من نقص العين ونقص الصفة معاً، مثل مزج اللبن بماء ضار فيه سبب البلهارسيا أو نحوه، كأن يودع رجل لبناً خالصاً فيسرق الوديع بعضه ويبدله بالماء المذكور، فيجمع بين معصيتين وخيانتين.

﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ﴾ لا تفسدوا في الأرض أشد الفساد ﴿مُفْسِدِينَ﴾ مسببين لانتشار الفساد أو ثباته، فالفساد الأشد ما يباشرونه كوقوفهم على الطرق لمنع من يريد الإسلام وإيعاده وصددهم عن سبيل الله فهو فساد يفسدون به لمنعهم من انتشار دعوة النبي ﷺ وظهور دينه، فقد أجملت هذه الجملة ما فصله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا يَكُلُّ صِرَاطِ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٦] - والله أعلم.

﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ﴾ إبقاؤه لكم ولنعمتكم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما تأخذون من الحرام بالبخس والنقص في الكيل والوزن؛ لأنكم قد تعرضتكم لسخط الله وأخذه وسلبه لنعمتكم.

أَمْوَالَنَا مَا نَشْتَوُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٤٧﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «وقال الحسين بن القاسم: معناه [كذا] بقية الله خير، أي بقية وسلامته لكم خير من إهلاكه وتدميره عليكم، قال الشاعر:

قال الْبَقِيَّةُ يَا قَيْسًا أَقْلْتُ لَهُ اصْبِرْ حَذِيفُ فَأَنْتَ السَّيِّدُ الصَّمَدُ

أي قال: استبقني بقاء ولا تهلكني» انتهى.

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بما قلت لكم وبرسالي إليكم فإنكم حيثن تعلمون ذلك، ونظيره: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١] أو إن كنتم مؤمنين فبقية الله خير لكم، أي إن بقية الله تكون لكم إن كنتم مؤمنين، فهي في حال الإيمان خير لكم مما تجمعون من الحرام، ومؤدَّى المعنيين واحد؛ لأنه إما أن يكون الإيمان شرطاً في علمهم بأن البقية خير، فإذا آمنوا فقد علموا أو إذا علموا تركوا الحرام وهم مؤمنون، وإما أن يكون الإيمان شرطاً في بقية الله التي هي خير فليؤمنوا لتكون لهم البقية، فمؤدَّى الكلام الدعوة إلى الإيمان على كلا المعنيين؛ لأن الإيمان شرط في البقية، وشرط في العلم بأنها خير.

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ﴾ ليس عليّ حفظكم من سبب هلاككم، ما عليّ إلا الإنذار وهذا يؤكد تفسير البقية بالسلامة من الهلاك.

﴿قَالُوا يَشْعِيبُ أَصَلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَأَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ كفروا برسالة شعيب وبيدنه وتهمكوا بصلاته لله وحده، وزعموا أنه لا داعي لما يأمرهم به من ترك الشرك ونقص المكيال والميزان؛ لأنهم قالوا: ﴿أَصَلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ﴾ فكانهم قالوا: لا موجب لذلك فهل صلواتك تأمرك وهم لا يرون أنها

إِلَى مَا أَنْتَهُكُمْ عَنْهُ إِنَّ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا
بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَقَوْمٍ لَا تَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ

تأمره حقيقة ولا مجازاً إنما أرادوا التهكم بها؛ لأنهم مشركون لا يرون
لصلاته فائدة ولا يرون فيها ارتباطاً بينها وبين أمرهم بالترك للشرك
والنقص في المكيال والميزان بل هم يجحدون ذلك، فلذلك سأله سؤال
إنكار وعيب منهم عليه، فإسناد الأمر إليها تهكم بها وبه مستندين في
ذلك إلى أنهم على دين آبائهم، وإلى أن لهم الحرية في التصرف في أموالهم
يتصرفون فيها كيف شاءوا من تطفيف أو غيره بزعمهم.

فقولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ الراجع فيه أنه تهكم وأنهم
يعنون سفيه غاو، ولو قالوا قد كنت حليماً رشيداً فكيف تأمر بذلك لناسب
حمله على الحقيقة، وكذلك لو قالوا أتأمرنا بذلك وأنت الحليم الرشيد لساغ
ذلك أيضاً فاما على هذا السياق، فإنما قولهم ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾
قرار بنوه على قولهم: ﴿أَصَلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ فهو تهكم مبني على تهكم
وتسفيه له، كما قالت عاد: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦] وقال قوم
نوح: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠] فقد جمعوا بين إنكارهم للحق،
وبين التهكم به، ولكن مهمة الرسول بيان الحق وتبليغ الحجة، وليست
مهمته الرد على التهكم إلا ببيان أنه على الحق.

﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ على
حجة بينة تدل على أنه أرسلني إليكم وعلى صدق ما بلغتكم من إبطال
الشرك والتطفيف وغير ذلك فهل رأيتم إن كنت هكذا وأنتم تجحدون ذلك
وتتهكمون به فما تكون عاقبتكم وقد أمعنتم في الكفر وتمردتم، وهذا لفت
لأنظارهم إلى التفكير فيما جاء به من الآيات والنظر الصحيح، ليتخلصوا
من الخطر الذي ينذرهم.

يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨١﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي

﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي رزقني ربي رزقاً حلالاً قنعت به وكفاني ولم يشغلني عن عبادة ربي، فلا احتاج إلى أن أحتال لأجر منكم على ما جئت به أو أن أسألكم معونة عليه، فأنتم لا تخشون مغرمأ أكلفكم ولا داعي لي إليه؛ لأن رزقي يكفيني فلا أدعوكم إلى طاعتي توصلاً إلى مال.

﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أَحَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ﴾ ما أريد الفساد الذي أنهى عنه، فمن العيب على من ينهى عن الأمر المنكر أن يخالف بارتكاب ما ينهى عنه. ﴿إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ ﴿إِنْ أَرِيدُ﴾ بدعوتي لكم إلى عبادة الله وحده وترك الشرك والتطيف ﴿إِلَّا الْإِصْلَاحَ﴾ إلا إصلاحكم، وإصلاح معاملتكم، وإصلاح مجتمعكم ﴿مَا اسْتَطَعْتُ﴾ ما دمت أستطيع الإصلاح وبقدر ما أستطيع.

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ وما توفيق الله لي إلا بالله، فهو الموفق للصواب وهو مسبب التوفيق بتهيئته للتوفيق، بتحصيل أسبابه، وصرف موانعه، وبهدايتي لأسبابه التي هي من فعلي. قال الشرفي - رحمه الله -: «والمعنى: أنه طلب ربه التوفيق وفي ضمنه تهديد للكفار» انتهى.

قلت: هو يفيد اللجوء إلى الله فيفيد الطلب، وأما التهديد فلعله في قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وحده فأنا أمضي في تبليغي لرسالته والدعوة إليه وإبلاغ حجة لتوكلي عليه فهو تهديد باستمراره على عمله، ولعل هذا مراد الشرفي رحمه الله، حيث قال في ضمنه تهديد للكفار ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي أرجع إليه وحده وأقبل على طاعته وحده.

﴿وَيَنْقُومِ لَا تَجْرَمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ ﴿وَيَنْقُومِ﴾ خطاب يعبر

رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿١٠﴾ قَالُوا يَدْعُبُ مِا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَحَمْتَكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿١١﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ

عن عاطفته عليهم ليحذرهم أن يصيبهم عذاب مثل عذاب إحدى الأمم الماضية قبلهم الذين شاقوا وعادوا رسل الله إليهم فأنزل بهم العذاب، والمراد بقوله ﴿لَا تَجْرِمَنَّكُمْ﴾ لا يحملكم بسبب الجريمة ﴿شِقَاقِي﴾ أي شقاقكم لي ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ﴾ عذاب ﴿مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ أو من بعدهم.

وأصل معنى ﴿لَا تَجْرِمَنَّكُمْ﴾ لا يكسبنكم من جرم بمعنى كسب أي لا يكسب لكم شقاقي عذاباً من الله مثل ما أصاب قوم نوح ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ أي أو قوم لوط، فهم هلكوا في زمن قريب منكم مع أنهم في مكان قريب من قوم شعيب أيضاً مع قرب الزمان المعلوم عندهم قد علمتم ما أصابهم ولم تنسوه فاعتبروا بمن قبلكم لتسلموا من عذاب الله.

﴿١١﴾ ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ أي احذروا شقاقكم لي ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ المالك لكم المستحق لأن تعبدوه وحده ليغفر لكم ما قدمتم من شرك وغيره ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ ثم ارجعوا إليه بالإيمان والطاعة ليرحمكم ويحبكم ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ الذي هو ربكم ﴿رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ أي لمن استغفره وتاب إليه، وقد مر معنى العطف بـ(ثم).

قال بعض المفسرين: «وكان حق الكلام أن يقول في تعليله إن ربكم رحيم ودود لكنه لما كان مع كونه تعليلاً ثناء على الله سبحانه وقد أثبت سابقاً أنه رب القوم أضافه ثانياً ليفيد الكلام بمجموعه معنى إن ربكم ورببي رحيم ودود» انتهى المراد.

قلت: ومن فائدة ذلك تحقيق أنه عني بقوله: ﴿رَبَّكُمْ﴾ الله تعالى الذي هو ربهم لا رب لهم سواه وإن كانوا قد جعلوا غيره شريكاً في الربوبية.

﴿قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ قابلوا عطفه عليهم بالجفاء، وقولهم: ﴿مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ تعبير عن إعراضهم عن كلامه والإستخفاف به، ومعنى ﴿مَا نَفَقَهُ﴾ ما نفهم لغموض معنى كلامك وتركنا لتفهّمه فلا نجيب عما لم نفهم، وقولهم ﴿كَثِيرًا﴾ يدل على أنه قد أطل في الإحتجاج عليهم والإنذار وبيان طريق نجاتهم لو استعملوا عقولهم وتركوا الكبر والتعصب لأبائهم ودين آبائهم.

وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا﴾ أرادوا به أنهم قادرون على رجه، وقولهم: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ أي لولا قرابتك وإن كان الرهط يستعمل في القوم والقبيلة فهو يستعمل في القرابة كما في (لسان العرب) قال: «قال أبو منصور: وإذا قيل: بنو فلان رهط فلان، فهو ذو قرابته الأدنون» انتهى.

وهو واضح في الآية؛ لأن قوم شعيب قالوا له: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ ولا يصح أن يكون معناه: ولولا قومك أو قبيلتك؛ لأنهم قومه وقبيلته فما بقي إلا أن المراد: ولولا قرابتك.

وقولهم: ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾ أي بالحجارة أو نحوها كناية عن قتله ليستريحوا من مطالبته لهم بالرجوع إلى الله، وقولهم: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي لو قتلناك ما اعتبرنا هلاكك خسارة علينا ولا بالينا به؛ لأنك غير كريم علينا، قال في (الصحيح): «وعززت عليه - أيضاً - كرمته عليه» انتهى، ومثله في (لسان العرب).

أَرْهَطِي - أَعِزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَأَتَّخِذْتُموهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢﴾ وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ

﴿قَالَ﴾ أي شعيب ﴿يَقَوْمِ أَرْهَطِي - أَعِزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أنكر عليهم قولهم: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ لأن معناه: أنه لا يمنعنا من رجلك إلا كرم قرابتك علينا، ومعنى هذا أنهم لا يبالون بمعصية الله العظمى التي هي قتل نبي الله من حيث هي معصية لله، ولكن من حيث هي تسوء قرابته فكان معناه: إن قرابته أعز عليهم من الله.

﴿وَأَتَّخِذْتُموهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا﴾ وَاَتَّخِذْتُموهُ واتخذتم الله ﴿وَرَاءَكُمْ﴾ جعلتموه منسياً لا تقبلون إليه ولا تلتفتون إليه بل اتخذتموه متروكاً، وحقق هذا المعنى بقوله: ﴿وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا﴾ وفي قوله: ﴿وَأَتَّخِذْتُموهُ﴾ أنهم جعلوا ذلك طريقة لهم ومذهباً كما عليه كفار العصر الذين يقولون: إن القرآن حجر عثرة في طريق التقدم وجعلوا ذلك أساساً للإعراض عن الإسلام. والحاصل: أنهم جعلوا الإعراض عنه وترك طاعته أصلاً يبنون عليه سلوكهم، فقوله ﴿وَرَاءَكُمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿تَبَذَّ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠١].

وقوله: ﴿ظَهْرِيًّا﴾ نسبة إلى الظهر وكسر الظاء من تغييرات النسب، وفائدة النسبة كفايدة الإتحاذ تفيد لزومه للوراء تعبيراً عن نسيانه، قال في (الصباح): «والظَّهْرِيُّ - أيضاً - الذي تجعله بظهر أي تنساه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَتَّخِذْتُموهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا﴾» انتهى، ومثله قال الراغب الأصفهاني في تفسيره لـ (مفردات القرآن).

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ لم يفت علمه شيء منه ولا يفوته أي فهو يجازيكم عليه.

تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿١٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ شُعَبَاءٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿١٣﴾

﴿١٢﴾ وَيَقَوْمٍ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ ﴿١٤﴾ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿١٥﴾ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴿١٦﴾ قد مر تفسيره في تفسير (سورة الأنعام) ويأتي قريباً في أواخر هذه السورة، وهو جار مجرى التهديد، ولذا رتب عليه قوله: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾.

وقوله: ﴿وَأَرْتَقِبُوا﴾ أي انتظروا، وقوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ قال في (الصحيح): «والرقيب: المنتظر» انتهى، وهو في هذا السياق مستقيم فهو الراجح، والمراد: انتظار عاقبة عمله وعاقبة عملهم.

وقوله: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ منكم أو مني يخزيه أي يهينه ويفضحه، وقوله: ﴿وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾ أي منكم أو مني.

﴿١٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴿١٤﴾ أي عذابنا الذي أمرنا به، إما بأمره تعالى للملائكة، وإما ﴿أَمْرُنَا﴾ كناية عن العذاب لوجوده بأمره تعالى، أي قوله: ﴿كُنْ﴾ وهو تمثيل لسرعة وجوده بدون أي كلفة ﴿نَحْنُ شُعَبَاءٌ﴾ من العذاب ﴿شُعَبَاءٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ برحمة خاصة من الله خصهم بها فنجاهم بها من العذاب، ولعلها السبب الذي جعله الله لنجاتهم كأمرهم بالخروج من البلد كما أمر لوطاً.

﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثِيمِينَ﴾ ﴿الصَّيْحَةُ﴾ إما عبارة عن العذاب النازل المهلك كائناً ما كان، وإما صيحة

كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ أَلَا بُعْدًا لِّمَدَّيْنٍ كَمَا بَعَدَتْ ثُمُودُ ﴿٤٩٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٥٠٠﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ

حقيقية رجفت بها أرضهم رجفة عنيفة سريعة أهلكتهم، وفي (سورة الأعراف) ﴿فَلَاخَذَتْهُمْ الرُّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٧٨] وهو مرجع للمعنى الثاني مع كونه الحقيقة.

قال الشرفي في (المصاييح): «ولما ذكر الصيحة بالالف واللام إشارة إلى المعهود السابق، وهو صيحة جبريل عليه السلام» انتهى. قلت: لعله يعني بالسابق صيحة ثمود؛ لأنه ذكر أن الله عذبهم بمثل عذاب ثمود.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَثِيمِينَ﴾ أي لا يتحركون في الصباح كما كانوا يتحركون لحاجاتهم وأغراضهم بل هم في ذلك الوقت جثث هامدة، قال الشرفي: «الجاثم: اللازم لمكانه الذي لا يبرح ولا يتحول» انتهى، ومثله في (لسان العرب) ولعله خاص بلزوم المكان على الصدر أو الركب، أي المعنى الحقيقي - والله أعلم، وقد حكى نحو هذا عن بعضهم (صاحب لسان العرب) فهو قريب من معنى جثي.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ قال في (الصحيح): «غني بالمكان: أي أقام وغني أي عاش» انتهى، وقال الراغب: وغني في مكان كذا: إذا طال مقامه فيه مستغنياً به عن غيره بغنى، قال: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ وهو قريب من قول (صاحب الصحيح) عاش، وهو تحقيق هلاكهم وهلاك ما كان معهم كما قدمت.

﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدَّيْنٍ كَمَا بَعَدَتْ ثُمُودُ﴾ أصله دعاء بالهلاك، وهو تعبير عن الغضب عليهم، قال الشرفي في (المصاييح): «البعد: بمعنى البعد، وهو الهلاك، كالرشد بمعنى الرشد» انتهى.

فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿١٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿١٨﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ

ثم أفاد: أن البعد بمعنى الهلاك أصله البعد، إلا أن المراد به البعد الحاصل بالهلاك لا بعد المسافة أو الزمان فجعلوا ما كان بمعنى الهلاك في بعد في الماضي ليمتاز عن بعد المسافة.

قلت: ومضارعة يبعد - بفتح العين - ونظير ما في الآية الكريمة قول الشاعر:

يقولون لا تبعد وهم يدفنونني وأين مكان البعد إلا مكانيا

وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَعَدَتْ ثُمُودُ﴾ تحقيق وتأکید للمعنى.

﴿١٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا ۖ وَهِيَ التَّسْعُ الْآيَاتِ ۖ وَسُلْطَنٍ مُّبِينٍ ۖ قُوَّةٌ وَهِيَّةٌ، كما قال تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿مُبِينٍ﴾ أي بين واضح فقد هابهما فرعون حتى بلغا رسالة ربهما وأقاما حجته على فرعون وملائه بتسليط الله لهما بهذا الشأن.

﴿١٧﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۖ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ۖ أي أرسلناه إلى فرعون ﴿وَمَلَئِهِ﴾ وملؤه كبراء قومه المتولون لإعانتته كالوزراء ﴿فَاتَّبَعُوا﴾ أي ملأه ﴿أَمْرُ فِرْعَوْنَ﴾ ولم يلتفتوا إلى ما جاءهم به موسى من الآيات والإبلاغ الكامل وقيام الحجة على فرعون وعليهم ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ نفى مؤكد بـ (ما) و (الباء) وكأنه رد لقوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غانر: ٢٩] فهو كقوله تعالى: ﴿وَأَصْلَ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَمَا هَلَىٰ﴾ [طه: ٧٩] وهو - أيضاً - تمهيد لقوله تعالى:

يَبْسُ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿١١﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ
وَحَصِيدٌ ﴿١٢﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ

﴿١١﴾ ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَبْسُ الرِّفْدُ الْمَوْزُودُ﴾
وقد قام هذا البيان مقام أن يقال: بل أمر فرعون في أقصى الغواية؛ لأنه كان
سبباً في وروده النار وورود أتباعه معه وهو أوردتهم النار بأمره الذي أطاعوه
﴿وَيَبْسُ الرِّفْدُ الْمَوْزُودُ﴾ الذي وردوه ليس فيه ري من ظماً ولا برد من
التهاب إنما هو عذاب النار.

قال الراغب في (تفسيره): «الورود: أصله قصد الماء ثم يستعمل في غيره،
ثم قال: والماء مورد، وقد أوردت الإبل الماء - ثم قال -: والورد الماء
المرشح للورود..» إلخ. ونحوه في (لسان العرب) فالورد في الآية هذه النار،
ويشهد له قوله تعالى: ﴿الْمَوْزُودُ﴾ فدل على: أن الورد هنا بمعنى: اسم
المفعول، فهو النار التي يردونها.

﴿١٢﴾ ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ في هذه الدار التي تتعاقب
فيها الأجيال ﴿لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ يلعنهم من بعدهم في هذه، ويلعنهم الله
ويوم القيامة يلعنون اللعنة الكبرى.

﴿يَبْسُ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ الرغد: العطا والمعونة في الأصل، واستعماله في
اللعنة تهكم بهم، وقوله: ﴿الْمَرْفُودُ﴾ إما بمعنى أن الرغد نفسه مرفود؛ لأنها
لعنة متواصلة يمد بعضها بعضاً، وإما بمعنى بس الرغد الذي رقدناهم
ومرجع المعنين واحد.

﴿١٣﴾ ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ ﴿ذَلِكَ﴾
إشارة إلى ما مر من قصة رسول الله نوح وهلاك قومه وقصة من بعده من رسل
الله وهلاك قومهم، و﴿الْقُرَىٰ﴾ كناية عن أهلها الذين دمرهم الله ﴿نَقُصُّهُ﴾
أي نقص ذلك النبأ، أي نقصه نحن فهو الحق.

﴿إِلَهُهُمْ أَلَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ (١٢) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ

﴿مِنْهَا قَائِمٌ﴾ من القرى قائم أي بقايا بناء المساكن ﴿وَحَصِيدٌ﴾ قد سقط وتهدم شبههم بالزرع الحصيد لما كان هلاكهم جماعياً، وقد عاد الضمير إلى بقايا جدران مساكنهم لما فيها من العبرة لمن مرَّ عليها وراءها وهو يرجح أن القرى كناية عن أهلها، والكناية استعمال الكلمة في معناها الحقيقي لإفادة لازمه، فعاد الضمير إلى المعنى الحقيقي لبقائه.

﴿وَمَا ظَلَمْنَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ (١٤) وهذا من أوضح الأدلة القرآنية الدالة على إبطال قول المجبرة كما قدمت في نظير هذه الآية من (سورة التوبة).

﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلَتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (١٥) ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ﴾ ما دفعت عنهم ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ من عذاب الله لا قليلاً ولا كثيراً، وذهب دعاؤهم لها ضائعاً باطلاً. ﴿لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ لأنه الغالب على أمره، فلا دافع لأمره ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ ومازادهم شركاؤهم ﴿غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ خيبة وخسار؛ لأنهم كانوا سبباً في عذابهم وهو مجاز، كقوله تعالى حاكياً: ﴿أَضَلَّلْنَا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٦) كذلك أي كأخذ قوم نوح، فالأُمم المذكورة بعدهم ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾ لمن يأخذها، وبطشه بمن بطش به في هذه الدنيا، فليحذر الكافرون بك أن يأخذهم ذلك الأخذ ﴿إِنَّ أَخْذَهُ﴾ سبحانه ﴿أَلِيمٌ﴾ مؤلم ﴿شَدِيدٌ﴾ قوي ليس فيه إبقاء ولا رحمة.

يَوْمَ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿٥٢﴾ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿٥٣﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ

﴿٥٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴿٥٣﴾ ﴿ذَلِكَ﴾ أي أخذه في العاجلة آية لمن يظن أن الله لا يجازي الجرمين، وذلك ظن كثير من الذين كفروا، وقوله تعالى: ﴿لِّمَن خَافَ﴾ أي أنهم الذي يتفعون ويعتبرون بعذاب الأمم الخالية؛ لأن الخوف من عذاب الآخرة يبعثهم على النظر الصحيح.

فإن قيل: فما فائدة النظر إذا كانوا قد آمنوا بالآخرة؟ قلنا: إن الخوف يحصل للعاقل سليم الفطرة بمجرد الإنذار بعذاب الآخرة فيبعثه الخوف على النظر في الآيات ويعتبر بالأمم الخالية المعذبة فيعرف أن الله يعاقب الجرمين لم يهملهم ليفعلوا ما شاؤا وهو لا يجزيهم، ولو كان مهملًا لهم لما عذب القرون الخالية.

وفي قوله تعالى: ﴿لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ انتقال من ذكر عذاب الدنيا إلى ذكر الآخرة وما يكون فيها فقال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ ﴿ذَلِكَ﴾ أي الآخرة، وتذكير الإشارة باعتبار المعنى؛ لأنه قابل للتذكير والتأنيث ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ واليوم هنا بمعنى الحادث العظيم كما يقال: يوم الجمل، ويوم صفين، وإن كان وقته أطول من يوم واحد، فهو كناية عن حوادث يوم الحساب وأهواله.

قال في (لسان العرب): «وقال شمر: جاءت الأيام، بمعنى الوقائع والنعم، وقال: إنما خصوا الأيام دون ذكر الليالي في الوقائع لأن حروبهم كانت نهاراً، وإن كانت ليلاً ذكروها، كقوله:

ليلة العرقرب حتى غامرت جعفر يدعى ورهط ابن شكل»

انتهى المراد.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهيقٌ﴾ ﴿١٦﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ

وفي قصيدة عمرو بن كلثوم، وهي إحدى (المعلقات السبع):

وأيام لنا غُرْطُوالٍ عَصِينَا الْمَلِكَ فِيهَا أَنْ نُدِينَا

قال شارحها: «الأيام الوقائع الغر، بمعنى المشاهير، كالخيل الغر لا شتارها فيما بين الخيل» انتهى، وقال في شرحها - أيضاً - «نخبرك بوقائع لنا مشاهير، كالغر من الخيل» انتهى.

ويؤكد هذا المعنى في الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتُ﴾ فهذا اليوم بمعنى الزمان، ولا يظهر أن يكون المعنى يوم يأتي يوم بمعنى الزمان وهو ظاهر إذا كان بمعنى يوم يأتي ذلك الحدث العظيم، ويؤكد - أيضاً - أن الناس يجمعون لما في اليوم من الحساب والجزاء ونحو ذلك.

ومعنى ﴿مَشْهُودٌ﴾ يشهده الناس كلهم والجن والشياطين والملائكة وكل من يمكن منه أن يشهده، أي يشهد ذلك الحدث العظيم والخطب الكبير الذي هو البعث بعد الموت وما يكون معه من الأحوال.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ﴾ ﴿١٧﴾ لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ ﴿١٨﴾ لمدة محدودة لا يتأخر عنها ولا يتقدم قبل انتهاء الأجل، فالأجل هنا بمعنى المهلة التي منها هذه الحياة الدنيا أو هي الحياة الدنيا، والراجح: أن اللام في قوله تعالى: ﴿لِأَجَلٍ﴾ هي (لام) التعليل أي لأجل أجل معدود قد جعلناه أجلاً وسبقت كلمتنا به فلا يأتي مادام ذلك الأجل.

﴿يَوْمَ يَأْتُ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمَنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ ﴿١٩﴾ يَأْتُ اليوم المجموع له الناس ﴿لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ فليس لها في

﴿١٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ ﴿١٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا

الآخرة من الاختيار كما لها في الدنيا فجدالها عن نفسها إنما هو بإذنه، وشفاعة من يشفع إنما هي بإذنه ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ الناس قسمان: شقي، وسعيد، يوم يأتي ذلك اليوم.

﴿١٦﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ شَقُوا﴾ في ذلك اليوم بما قدموا من جرائمهم فلاجلها شقوا في الآخرة، فهم في النار ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ وهو صوت يصحب خروج النَّفْسِ ﴿وَشَهِيقٌ﴾ صوت يصحب جذب النَّفْسِ، أو الزفير عند جذب النَّفْسِ والشهيق الصوت مع إخراج النَّفْسِ اختلف في ذلك، وحاصلة: أن لهم أصواتاً كنهيق الحمير، وقيل: الزفير من أنينهم، والشهيق صوت رفيع جداً، وقيل غير ذلك.

وقد اتفقت الأقوال: أن الزفير والشهيق أصوات أهل النار من ألم العذاب، وقد قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ الآية [فاطر: ٣٧] فدل على أصوات مختلفة، وقال: ﴿وَنَلَذُوا يَلْعَالِكُ لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

﴿١٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ ﴿خَالِدِينَ﴾ باقون فيها لا يموتون كما هو شأن الحياة الدنيا أن تذهب لشدة العذاب، وقوله تعالى: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ تعبير عن طول المدة واستمرارها ودوامها، كقول الشاعر:
لن تزالوا كذلكم ثم لا زل — ست لكم خالداً خلود الجبال

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال القاسم بن إبراهيم عليه السلام: هي سموات الآخرة وأرضها، وليست سموات هذه الدنيا ولا أرضها التي هي زائلة فانية.

وأما ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ فهو إخبار عن قدرة الله على إفنائها إن شاء، وذلك فهو كذلك إذ كان هو الذي خلق وأنشأ؛ لأنه لا يقدر أحد أن يبقي شيئاً بتخليده وإبقائه، إلا من يقدر على أن يفنيه فلم يشأ سبحانه إفناءه ولكن يشاء تخليده وإبقائه، وأخبر بقدرته إن شاء على الإفناء كما قدر على الإبقاء، وأن أهل الجنة بإبقائه لهم فيها باقون خالدون [كذا] فيها أبداً لا يفنون كما لا تفنى أرضهم فيها ولا سماؤهم» انتهى.

قال الشرنبي: «ومثل هذا ذكر المرتضى عليه السلام، قال الفراء، والزجاج: إن هذا الاستثناء هو مثل قولك: أريد أن أفعل، إلا أن أشاء غيره وأنت مقيم على ذلك الفعل، والمعنى لو شاء أن يخرجهم لأخرجهم ولكنه أعلمهم أنهم خالدون فهو لا يخرجهم» انتهى.

قلت: قوله إلا أن أشاء يفيد أنه جعل (ما) مصدرية غير مدية بل بمعنى (أن) المصدرية، وهو محتمل، وإذا كانت مدية فهو يصح الاستثناء من قوله تعالى: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ لأول يوم يأتي فالمدة المستثناة هي مدة خروجهم من القبور وسوقهم إلى موضع الحساب ووقوفهم للسؤال والعرض على الله صفاً وحسابهم.

وقد قال تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤٤] وإذا لم يكن هذا المقدار إلا مقدار خمسين يوماً فهو يستحق الاستثناء ويبين أن أهل النار لم يكونوا فيها من أول يوم يأتي وكذلك أهل الجنة لم يكونوا فيها من أول اليوم، وكان مقتضى السياق لولا الاستثناء أن يكون أهل النار فيها من أول يوم يأتي وأهل الجنة فيها من أول يوم يأتي، واستثناء أول المدة صحيح كما يصح استثناء وسطها وآخرها.

وعلى هذا: فأقل أحوالها أن تكون من المتشابه؛ لإجمال المدة المستثناة، والمجمل لا يعارض المبين، والمتشابه لا يعارض المحكم، وقد قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِي * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ..﴾ [الزمر: ١٧-١٨] وقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٥] وقال في (التوراة): ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥] ولا إشكال أن المحكم والمبين أحسن من المتشابه والمجمل وإن كان القرآن حسناً كله.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ غير مقطوع فهو بخلاف عطاء الدنيا فهو ينقطع، فالعنب والتين ونحوهما تثمر في بعض السنة ثم تنقطع، والشباب ينقطع، والقوة والصحة تنقطع، والحياة تنقطع.

فإن قيل: ما الفارق بين آية الأشقياء وآية السعداء، حيث قال تعالى في آخر الأولى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَلٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ وقال تعالى في آخر آية أهل الجنة ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾؟

فالجواب: أن المشركين يقولون فيمن يعبدونهم: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فرد الله عليهم، ويبين أنه لا يتدخل أحد يومئذ لتحويل حكم الله على أعدائه، فكرر في القرآن ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠] ونحوها، وكرر نفى الشفاعة أو نفى نفعها، وكرر أنه تعالى ﴿فَعَلٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ هنا، وفي (سورة البروج): ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿.. فَعَلٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [آية: ١٢-١٦] وفي (سورة الحج): ﴿وَمَنْ يَهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آية: ١٨] وقال تعالى في (سورة المعارج): ﴿.. يَعَذَابُ وَاقِعٌ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ [آية: ١-٢] وفي (سورة الطور): ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ [آية: ٧-٨] فأما السعادة فليس في أوهام المشركين أن شركاءهم تدفعها أو تشفع لهم في فواتها.

يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ ﴿١١﴾ نَصِيحُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ

وأما قوله تعالى في الجنة: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ﴾ فهو ترغيب فيها ليرجحها العاقل على الدنيا، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥] وقوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الزمر: ٣٢-٣٣] فجاء في كل واحد من السياقين ما يناسبه.

فأما قول بعض المخالفين: إن قوله تعالى: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ﴾ يفهم منه أن العذاب مجذوذ؟

فالجواب: أنه لا وجه لهذه الدعوى وليس هذا محل مفهوم من المفاهيم التي ذكرها أهل الأصول، ويلزمهم في فاكهة السابقين أن يفهموا انقطاعها، لأن الله تعالى قال في فاكهة أصحاب اليمين: ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ﴾ ولم يقل ذلك في فاكهة السابقين.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ﴾ نَصِيحُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١١﴾ فِي مِرْيَةٍ ﴿١٢﴾ فِي شَكٍّ وَتَرَدَّدٍ مِنْ أَصْنَامِ الْمُشْرِكِينَ أَوْ مِنْ شُرَكَاهُمْ أَيْ لَا تَرَدَّدٍ فِي بَطْلَانِهِ، وَتَفْرِيعٌ هَذَا عَلَى مَا مَرَّ فِي السُّورَةِ مِنْ إِسْرَافِ الرُّسُلِ الْمَذْكُورِينَ إِلَى قَوْمِهِمْ وَأَمْرِهِمْ لَهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَتَدْمِيرِهِمْ لِإِصْرَارِهِمْ عَلَى الشُّرْكِ وَتَكْذِيبِهِمْ لِرُسُلِهِمْ، فَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ دِينَ اللَّهِ فِي الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ هُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ وَاجْتِنَابُ الشُّرْكِ وَأَنَّ الشُّرْكَ بَاطِلٌ.

أما قوله تعالى: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ فهو يبين أنه لا برهان لهم يعتمدونه، ولا وحي من الله يتبعونه وإنما هؤلاء المشركون مقلدون لأبائهم في باطلهم.

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَىٰ بِئِنَّهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١﴾
وَإِنْ كَلَّا لَمَا لِيَؤْفِقِيَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٢﴾ فَاسْتَغْنَمَ

وقوله تعالى: ﴿مَنْ قَبْلُ﴾ يناسب ذكر اتباعهم لهم واقتدائهم بهم، ويبين أن قوله: ﴿يَعْبُدُ﴾ المراد به في الماضي وإن كان بلفظ المضارع ولعل سببه أن هؤلاء المشركين يستحضرون عبادة آبائهم لشركائهم في أذهانهم فيتبعونهم فيها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُؤَفُّوهُمْ نَصِيْبُهُمْ﴾ أي إنا سنوفي هؤلاء وآباءهم نصيبهم من العذاب ﴿غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ مما يستحقون بل كامل موفور وفي لفظ النصيب ولفظ منقوص تهكم بهم، مثل: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ الخلاف فيه إما بين أهل الكتاب وغيرهم من أهل الديانات القديمة وإما بين أهل الكتاب أنفسهم في بعض تفاصيله بسبب ما يحدث من بعضهم من كتابة ما ليس منه ودعوى أنه منه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٧٨] أو بسبب الخلاف في أنواع الكلام منه كما اختلف في الأمر مثلاً هل هو للوجوب، وفي ألفاظ العموم، وفي دلالة بعض الكلام على بعض الأحكام توصلاً إلى الخلاف في الدين لأغراض سياسية.

وعلى الأول يكون قوله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ تسلياً لرسول الله ﷺ حيث اختلف الناس في القرآن فمنهم من آمن ومنهم من كفر كما اختلفوا في التوراة من قبل، فأما الثاني فهو خاص بأهل الكتاب وفيه تسلياً عنهم.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ ﴿كَلِمَةٌ﴾ أي الحكيم
 بإمھالهم وإمهال غيرهم لمدة الإختبار إلى أجل، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾
 [الأعراف: ٣٤] وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤]
 ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بين المختلفين.

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ ﴿مُرِيبٍ﴾ مقلق لهم؛ لأنه شك يهّمهم
 لتردده بين أمرين مهمين أو أحدهما مهم، قال الشاعر:

لقد رابني من عامر أن عامراً بعين الرضى يرنوا إلى من جفانيا

قال (صاحب لسان العرب): «ورابني فلان يربيني: إذا رأيت منه ما
 يريبك وتكرهه» انتهى، ومثله في (الصحاح).

وقال في (الكشاف) في تفسير أول (سورة البقرة): «وحقيقة الريبة: قلق
 النفس واضطرابها، ومنه: ما روى الحسن بن علي، قال: سمعت رسول الله
 ﷺ يقول: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الشك ريبة وإن الصدق طمأنينة»
 أي فإن كون الأمر مشكوكاً فيه مما تقلق له النفس ولا تستقر وكونه صحيحاً
 صادقاً مما تطمئن له وتسكن ومنه ريب الزمان وهو ما يقلق النفوس ويشخص
 بالقلوب من نوائبه، ومنه أنه مر بظي حاقف فقال لا يربه أحد بشيء» انتهى.

فظهر: أن الريب: هو القلق الذي يحدث من الشك في الشيء، وأنه أظهر
 من تفسير الريب بالشك نفسه، فأما على تفسير الريب بالشك، فيكون المراد
 بقوله تعالى: ﴿شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ المبالغة في شكهم كما لو قيل: ريب مرِيب،
 وفي صحته نظر؛ لأنه يحتاج إلى تصحيحه في اللغة والمعهود في المبالغة أنها
 تكون مع اتفاق اللفظ في الإشتقاق مثل: ليل أليل، ومثل قول الشاعر:

مروان يا مروان لليوم اليمي

كَمَا أُمِرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٣﴾ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ

فإن قيل: فما المانع أن يكون معنى ﴿شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٌ﴾ شك يحدث شكاً آخر حقيقة لا مجرد مبالغة؟

فاجواب: أن الشك الآخر لم يذكر متعلقه أي لم يذكر فيماذا الشك المتولد من الشك وبذلك تقل فائدة ذكره أو يكون التعبير ضعيفاً والقرآن منزّه عما لا فائدة فيه وعن ضعف التعبير فهذا الوجه ضعيف، نعم والضمير في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَفِيَ شَكٌّ﴾ للمختلفين فيفيد: أن الكافر والمقر بالتوراة كلاهما في شك، وهذا على الوجه الأول في ذكر المختلفين.

أما على الثاني: فيفيد: أن أهل الكتاب أنفسهم في شك منه، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِيَ شَكٌّ مِّنْهُ مُرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٤] فيفيد: أنهم غير مؤمنين به إيماناً صادقاً عن يقين، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتُوبُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنَّ كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣] رداً على قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٩١] ونسبة الشك إليهم بالنظر إلى الجمهور لأن منهم المؤمنين.

﴿وَأَنَّ كُلًّا لِّمَّا لِيُوفِيَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلْتَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ﴿كُلًّا﴾ أي كل المختلفين ﴿لِيُوفِيَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلْتَهُمْ﴾ أي جزاء أعمالهم (واللام) في ﴿لَمَّا﴾ هي الموطئة للقسم إن كانت (إن) هي المخففة من الثقيلة (واللام) في قوله تعالى: ﴿لِيُوفِيَهُمْ﴾ لام جواب قسم مقدر أي أقسم ليوفينهم ربك أعمالهم، وأعمالهم يعم الخلاف وغيره، لذلك قال تعالى: ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي فلا يفوته شيء من أعمالهم ولا من خبرها وباطنها، ولذلك فهو يوفيههم كل أعمالهم بقدر ما تستحق من الجزاء.

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ ﴿فَاسْتَقِمْ﴾ تفريع على الوعد بتوفية الأعمال أو تفريع ما مر في السورة من القصص وغيره مما هو

ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴿١٣﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَى النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴿١٤﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ

باعث على الثبات على الحق، والإستقامة ضد الإعوجاج أي اثبت على الحق حتى لا تميل عنه أدنى ميل ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ كما أمرك الله، فهو يبين لك الإستقامة على الحق؛ لأنها هي العمل بما أوحاه الله إليه من التكليف كلها ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ فليستقيموا كما أمروا ومن تاب هم المؤمنون، وقوله ﴿مَعَكَ﴾ أي مصاحبين لك في التوبة إلى الله ملازمين لك، فهو خاص بهم كما خص رسول الله ﷺ بقوله: ﴿فَاسْتَقِمْ﴾ ولعل فائدته أنهم هم مظنة الثبات وأنهم الذين يفيدهم هذا الحث دون المنافقين ومن لم يؤمن ممن أسلم. ﴿وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا تتجاوزوا حد العبودية بظلم عباد الله أو التكبر عليهم أو نحو ذلك ﴿إِنَّهُ﴾ أي إن الله ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لعلمه به وبمقدار ما يستحق من الجزاء وعلمه بما هو خطأ يستحق العفو ونحو ذلك من أحوال العمل التي توجب اختلاف حكمه.

﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ الركون: الميل اليسير، قال في (الصحيح): «ركن إليه: أي مال إليه وسكن، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾» انتهى باختصار، ومثله في (لسان العرب) وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: ولا تميلوا» انتهى.

وفي كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «الركون إلى الدنيا مع ما تعالين منها جهل» أي الإطمئنان، وفي هذه الآية دلالة على تحريم الركون إلى الذين ظلموا وإن لم يبلغ حد الموالاة، وليس من هذا مجرد المجاملة والمدارة ومكافاة

الإحسان بالإحسان، كما قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ٨] فالميل إليهم رغبة في النفس وحب لمجالسهم أو عاداتهم أو زيهم أو نحو ذلك من لوازم الرغبة في طريقتهم أو في دنياهم والإطمئنان إليهم.

وقوله تعالى: ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ وعيد بالعذاب؛ لأنها إذا مست أحرقت، وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ حال من (تمسكم النار) أي تعذبون في حال أنه مالكم من دون الله من أوليا يتولون رعايتكم ليحولوا بينكم وبين عذاب الله ﴿ثُمَّ لَا تَنْصُرُونَ﴾ من عذاب الله لا ينصركم أحد.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴿وَأَقِمِ﴾ عطف على النهي، أو على ﴿فَاسْتَقِمْ﴾ و﴿طَرَفِي النَّهَارِ﴾ أوله فهو وقت لصلاة الفجر وآخره وقت لصلاة العصر، وللعصر والظهر إذا أخرت الظهر فهو وقت لهما ﴿وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: ساعات منه، واحدها: زلفة» انتهى.

وقال الشريفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): ﴿وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ جمع زلفة، والزلفة المنزلة، فكأنه قال: ومنازل من الليل أي ساعات من الليل وهي ساعات القرية من آخر النهار من أزلفه إذا قرّبه» انتهى.

قلت: لعل الأصل: أو هي ساعاته، بدليل قوله: من أزلفه إذا قرّبه، ففي كلامه ذكر احتمالين: أنه من الزلفة بمعنى المنزلة، وأنه من أزلفه إذا قرّبه، فعلى الأول ساعات من الليل غير مقيد، وعلى الثاني ساعات من الليل قريبة - والله أعلم.

لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْتَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ۚ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ

ولعل الأقرب الأول، وجعلت زلفاً لأنه زُلف لمن أحيها بالقيام، أي درجات يرقى فيها وقرب يتقرب بها أي بقيامها وسهرها إلى الله.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِفَاتِ﴾ يحتمل يحون السيئات، ويحتمل ينهين عن السيئات، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾ [الأحزاب: ٣٣] وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النكبات: ٤٥] وعلى الإحتمال الأول يخص الخطأ ونحوه؛ لأن العمد يخرج صاحبه عن كونه من المتقين فلا تقبل منه حسنة، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] وعلى الإحتمال الثاني يكون المعنى إن الحسنات لطف في ترك السيئات كما روي في صيام أيام البيض إنها تذهب وحر الصدر.

﴿ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ﴾ ﴿ذَلِكَ﴾ الأمر والنهي، ولعل الإشارة إلى ما سبق من قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ﴾ وما بعدها ﴿ذِكْرِي﴾ تذكرة وموعظة ﴿لِلذَّاكِرِينَ﴾ غير الغافلين والذاكر ضد الناسي، فالذاكرون الذي يقبلون الذكرى ويتفعون بها.

﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿وَأَصْبِرْ﴾ على كل التكاليف التي حملتها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فأجرك لا يضيع فانت بأعمالك تعمل لنفسك وتتجر تجارة لن تبور بل ربحها عظيم.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْتَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ (لولا) بمعنى هلا، وحاصله الإنكار عليهم

حيث لم يكن فيهم بعض منهم صالحون ﴿يَنْهَوْنَ﴾ قومهم ﴿عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ حتى لا يهلكوا كلهم بالعذاب العام ثم بعذاب الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿أُولُوا بَقِيَّةٍ﴾ في معناه هنا خلاف بين أهل اللغة والراجح منها الإبقاء على أنفسهم كما قال الشاعر:

قال البقية يا قيساً فقلت له صبراً حذيف فانت السيد الصمد

ومن جهة المعنى أنهم بنهيمهم عن المنكر يبقون على أنفسهم أي ينقذونها من الهلاك، كما قال تعالى: ﴿أُنَجِّيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ [الأعراف: ١٦٥] فالمعنى: ﴿أُولُوا بَقِيَّةٍ﴾ أي إيمان وتقوى وطاعة لله ولذلك ينهون عن الفساد في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أُخِجْنَا مِنْهُمْ﴾ استثناء لأجل النفي المفهوم من قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا﴾ فكأنه قيل فما كان من القرون أولوا بقية، وعمومه ينفي القليل والكثير، فاستثنى القليل لأنهم بنهيمهم نجوا أنفسهم وإن لم ينقذوا قومهم كما لو كانوا كثيراً يستطيعون التغيير.

وقوله تعالى: ﴿مِمَّنْ أُخِجْنَا﴾ يدل على أنهم بعض من أنجاه الله فمن هو البعض الآخر؟

والجواب: أنه من ترك النهي لعذر صحيح.

﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من القرون لم يوجد منهم من ينهاهم عن الفساد بحيث يحول بينهم وبينه، واتبعوا أموالهم التي أترفوا فيها وشهواتهم، فجعلوها هي السعادة واستكبروا في أنفسهم بسبب إحرازها وعظمهم الجاهلون بسببها فاستحقروا الرسل وأتباعهم وأنفوا من الإنقياد لهم.

لِيَهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١٧٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ
النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١٧٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ
وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ
أَجْمَعِينَ ﴿١٧٩﴾ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿مَا أَتَرَفُوا فِيهِ﴾ معناه: ما تكبروا فيه» انتهى، وهو تفسير بحاصل المعنى، وعلى هذا فالمراد بالذين ظلموا كبراء الأمم الماضيين وقادتهم إلى الفساد ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ فانقادوا للكبر وهوى النفوس.

قال الراغب: «الترف: التوسع في النعمة، يقال: أترف فلان فهو مترف» انتهى، وفي (لسان العرب): «الترف: التمتع، والترفة: النعمة» انتهى المراد.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيَهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيَهْلِكَ﴾ نفي مؤكد يفيد: أنه ليس من شأنه تعالى ولا يليق بجلاله أن يهلك ﴿الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ وهو تأكيد للدلالة على أن سبب هلاك القرون الأولى هو الفساد في الأرض فما أخذهم الله إلا بذنوبهم وهذا ليعتبر بهم الباقون بعدهم.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ غير مختلفين في الدين لكنه غني عن عبادتهم، وقضت حكمته التمكين لعباده من الطاعة والمعصية، وتركهم يختارون ما شاؤوا، كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ [الكهف: ٢٩] مع أنه قادر على أن يضطرهم إلى التوحيد على عبادته.

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ لا يزالون في المستقبل ﴿مُخْتَلِفِينَ﴾ لأنه
مكنهم أن يختاروا لأنفسهم ما شاؤوا فمنهم من يتبع هواه، ومنهم من يتبع
عقله.

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ فهم لا يختلفون في الحق، بل يتوحدون على دين
واحد بهداية الله لهم، كما قال تعالى: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ
مِنَ الْحَقِّ يُلَاقِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣] والسياق يرشد إلى أن المراد بالاختلاف ما به
يكون بعضهم مطيعاً مصلحاً وبعضهم عاصياً مفسداً لا مجرد الاختلاف في
فروع المسائل مع تحري كل طرفي الاختلاف للحق ومع اتفاقهم على تقوى
الله والإيمان الذي لا يعذر بتركه أحد، والدليل على هذا قول الله تعالى:
﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ...﴾ [الأحزاب: ٥] وقوله تعالى حاكياً مقررأ:
﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ إن كانت الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ
رَبُّكَ﴾ فالمعنى: وليرحمهم بالهداية والتوفيق خلقهم؛ لأنه خلقهم لعبادته
وهي ملزوم الهداية والرحمة ولازمهما فلا إشكال، وإن كانت الإشارة إلى
قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ فهي من التشابه.

قال الشرفي رحمه الله في (المصاييح): (قال القاسم عليه السلام - هو القاسم بن
إبراهيم - : فلن يزالوا كما قال الله سبحانه مختلفين؛ لأن الاختلاف لا يزال
بين المحقين والمبطلين وهو خبر من الله عما يكون، وأنهم لن يزالوا يختلفون
فيما يستأنفون، فالإختلاف منهم وفيهم، ولذلك نسب الله إليهم.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ يريد من المؤمنين فإنهم في دينهم مؤتلفون
غير مختلفين.

وقوله تعالى: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ يقول سبحانه للمكنة [من] ما يجب به الثواب والعقاب من السيئة والحسنة، ولولا خلقه لذلك على ما فطرهم عليه من ذلك لما اختلفوا في شيء ولما نزل بهم أمر ولا نهى ولا كان فيهم مسيء ولا محسن ولا فيهم كافر ولا مؤمن ولكانوا كالموات الذي لا يسيء ولا يحسن ولا يفجر عند الله ولا يتقي» انتهى.

وقد يقال: كيف صحت الإشارة إلى المكنة وهي غير مذكورة؟

والجواب: قد ذكر لازمها فكأنه قيل: ولكونهم لا يزالون مختلفين خلقهم لأنه أراد أن يخلقهم ليمكنهم من التقوى والفجور وهو يعلم أن ذلك يستلزم أن يختلفوا، فالتعليل بكونهم لا يزالون مختلفين راجع إلى سببه أي لأنه مسبب عن التمكين، وفائدة هذا التعبير الدلالة على أنه تعالى غني لا يمنع كونهم سيختلفون عن خلقهم كما قلت في ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] ولذلك كانت من المتشابهة وقد قضت حكمة الله أن يجعل القرآن منه آيات محكمات وأخر متشابهات، ونظير التعليل بلازم العلة قولك قصرت الصلاة لأني مسافر، فالمراد لأن المسافر شرع له القصر والمراد بالتعليل قصرت لأنه شرع لي القصر.

هذا وقد ذكر الشريفي تفسيراً آخر، فقال: «وما أحسن قول الهادي عليه السلام حيث قال: والذي أراه أنا في ذلك أنه سبحانه أراد أنه خلق المؤمنين لمخالفة الكافرين؛ لأن مخالفة الكافرين في كفرهم أعظم الطاعة لرب العالمين، وقد قال الله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فأخبر أنه لم يخلق الخلق إلا لعبادته، فمن خالف عبادته وطاعته فمخالفته في ذلك فرض من الله على من يخالفه ولا مخالفة لأعداء الله ولا مفارقة أكبر من

وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾

ضرب وجوههم بالسيف وسفك دمائهم ومجاهدتهم على مخالفتهم الحق، وهذا فهو أكبر فرائض الله على خلقه وأعظم ما افترض الله على عباده؛ ولهذا خلق الخلق لأنه أفضل عبادته، فإذا صح المخالفة للفاستقين على المؤمنين والجهاد لهم فقد صح أن لتلك المخالفة التي افترضها عليهم خلقهم وإليها دعاهم وبها [في الأم من تفسير الشريفي: وبما وهو غلط واضح تمت منه] في أعدائه أمرهم» انتهى.

وقال في (البرهان): «﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ من أهل الحق فلم يختلفوا ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي للرحمة خلقهم» انتهى، قال الشريفي: «وهذا قول ابن عباس وهو اختيار جمهور المعتزلة» انتهى، وقد بسط الشريفي في تقوية هذا التفسير الأخير.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿تَمَّتْ﴾

من التمام ضد النقصان وهو التمام المعنوي، ومعناه: أنها حققت، أي أنها حق وصواب، وقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ تفسير لكلمته التي حكم لها بالتمام، وكل كلماته تعالى حق وصواب فكلها تامة.

﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ ﴿وَكُلًّا﴾ حذف المضاف إليه وعوض بتنوين العوض، وفسره قوله تعالى ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ أي وكل ذلك القصص المذكور، فحذف لأنه كفى عنه قوله تعالى: ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ أي أخبارهم، أي الإخبار عنهم ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ﴾ أي نقص ما ثبت به ﴿فُؤَادَكَ﴾ أي ثبت نظمنا قلبك على ما

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

أوحى إليك وما كلفته حتى لا يكون قلقاً مضطرباً مع كثرة المخالفين لك وقوة الخلاف بينك وبينهم المؤدي إلى القتال.

﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ﴾ السورة ﴿الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿الْحَقُّ﴾ فكل ما في هذه السورة من القصص وغيرها هو الحق، وإن خالف في بعضها الكافرون وجاءك فيها موعظة كذكر اليوم المجمع له الناس وما يكون فيه، والأمر بالإستقامة، والتحذير من الطغيان ومن الركون إلى الظالمين، والوعيد المذكور في السورة كله، وقوله تعالى ﴿وَذِكْرٌ﴾ أي تذكير للمؤمنين الذين تنفعهم الذكرى.

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ * وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بما جئت به من القرآن، أو من هذه السورة ﴿أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ إما على تمكنكم أي على ما أنتم عليه من التمكن والقوة، وإما على اثباتكم غير معجلين، أي نترككم وشأنكم ونحيلكم إلى حكم الله فيكم ﴿إِنَّا عَمِلُونَ﴾ على ما نحن عليه.

﴿وَانْتَظِرُوا﴾ الجزاء من ربكم ﴿إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ جزائه لكم العاجل، أو منتظرون جزائه لنا على عملنا وستعلمون من يأتيه عذاب يخزيه.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو العليم بما غاب عنا فيهما ومنههما ومن شأنهما، ويعلم موعد الجزاء لعباده، ويعلم الأعمال ظاهرة وباطنة لا تخفى عليه خافية.

﴿وَالِيَهُ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ لأنه القادر على كل شيء والعليم بكل شيء
فارجع أمرك وأمر قومك إليه وإلى تدبيره لشأنك وشأنهم وإلى جزائه
وحكمه بينكم.

﴿فَاعْبُدْهُ﴾ فيما بقي من عمرك كما عبدته فيما مضى ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾
في عبادتك له وطاعتك لتكاليفه من تبليغ الرسالة وغيره، أي كل أمرك إليه
فامض على ما أمرت به اعتماداً على حفظه وعونه لك وتدبيره لشأنك.

﴿وَمَا رُبُّكَ يَغْفِلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أنت ومن معك ومن عاداك وكذبك
فاكتف بذلك في ثباتك على طاعته وعنايتك بتقواه ومراقبتك له وصبرك
على ما كُلفت من تبليغ الرسالة، والمجاهدة لأعداء الدين وغير ذلك.

والحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه
وصلّى الله على محمد وآله وسلم.



التفسير في التفسير



سورة يوسف





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا

ابتداء تفسیر (سورة يوسف)

قال الشرفي رحمه الله في (المصاييح): «سورة يوسف عليه السلام مائة وإحدى عشر آية، قال الإمام الناصر - أبو الفتح الديلمي - عليه السلام: (سورة يوسف) مكية كلها» انتهى.

﴿١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الرَّ قد مرّ في تفسير أول (سورة الأعراف) بحث في هذه الحروف ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ﴿تِلْكَ﴾ إشارة والراجع أن المشار إليه هذه الحروف المذكورة في أوائل عدة من السور، وفي ذلك فائدتان:

الأولى: أن هذا الكتاب المعجز هو في أصله مؤلف من الحروف التي تنطق بها العرب فما عجزهم عن الإتيان بمثله مع أنه من جنس الحروف التي ينطقون بها إلا من أجل حكمته وإحكامه.

الثانية: الدلالة على أن الكتاب هو مؤلف من الحروف أوحاه الله لا الكلام النفسي ولا مجرد المعاني بدون ألفاظ فهو تحقيق لوحيه بحروفه وكلماته إلى رسول الله ﷺ.

وقوله: ﴿الْمُبِينِ﴾ أي الذي يبين المعاني فلا يحتاج العرب إلى ترجمته، ولا في دلالة غموض كمسائل المعاياة بل معناه بيّن، ولا ينافي ذلك أن المعنى البين يوصل من أحرزه إلى فهم معنى كان غامضاً؛ لأنه قد حصل بيان ما يبين الغامض.

الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ
يَتَأْتِبِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ

ويدل هذا على بطلان قول من يدعي من الإمامية: أنه لا يفهمه إلا الإمام، وقول بعض الصوفية: أنه لا يفهمه إلا الشيخ، وقول بعض متحلي السنة: أنه يحتاج إلى البيان بالسنة، وبنوا على ذلك قولهم: «إن السنة حاكمة على القرآن» وقد رددت عليهم في (تحرير الأفكار).

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿إِنَّا﴾ أي إن الله ذو العظمة والجلال ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي أنزلنا الكتاب ﴿قُرْآنًا﴾ يقرؤه الناس ليتفهموا به ﴿عَرَبِيًّا﴾ بلسان العرب ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تعقلون المراد به الذي هو معناه وفوائده؛ لأنه بلسانكم فتفهموه وتحفظوه.

﴿تَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ لأنه صدق لم يختلط بكذب، وصواب ليس فيه خطأ، ومفيد للعبر النافعة، ليس كالأقاصيص التي يضيع بها الوقت ولا تفيد فائدة نافعة، فالله جل جلاله عالم الغيب وأصدق القائلين هو الذي قصه عليك يا رسول الله قصه عليك ﴿بِمَا﴾ أوحى ﴿إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ أي بوحى هذا القرآن، الجامع لبيان ما يحتاج إليه في الدين من أصول المسائل وكثير من فروعها وهذا القصص وغيره ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ قبل هذا القرآن ﴿لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ عما فيه من العلوم لا تدري بفرائضه وحلاله وحرامه وكثير مما يحتاج البشر إلى علمه، ولا ينافي ذلك علمه ﷺ بالله الذي يحصل للعقلاء بالنظر في المخلوقات؛ لأن ذلك لا يكفي عما يحتاج الإنسان إلى علمه فهو غافل بالنظر إلى غير العقليات القريبة.

﴿قَالَ يَبْنِي لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ وَكَذَلِكَ سَجَّيْنَاكَ رُؤْيَاكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنَ

ويحتمل عود الضمير في ﴿قَبْلَهُ﴾ إلى ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ فيكون المعنى: وإن كنت من قبله لمن الغافلين عن معناه، فالأولى تمنن على رسول الله وتذكير له بنعمة الله، ويصلح دليلاً على نبوته من حيث أنه تنبيه على علمه بما لا يعلمه إلا بوحي من الله، والثاني أظهر في هذا المعنى الأخير ويشير إلى ذكر نعمة الله عليه.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ ﴿رَأَيْتُ﴾ من الرؤيا في المنام ﴿سَاجِدِينَ﴾ اعلم أن السجود تذلل وتعظيم وإجلال، فإن كان على معنى الإعراف بالعبودية فهو عبادة؛ لأن اسم العبادة تابع للعبودية، قال الله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَيَسْتَكْبِرْ﴾ الآية [النساء: ١٧٢] فأقام قوله: ﴿عَنْ عِبَادَتِي﴾ مقام عن: ﴿أَنْ يَكُونَ عَبْدًا﴾ فدل على: أنهما كالشئ الواحد، وأن العبادة لازم العبودية، وإن كان السجود مجرد التعظيم والتذلل، لا على معنى الإعراف بالعبودية فليس عبادة.

فالسجود على المعنى الأول لا يقع من نبي الله يعقوب، ولا يرضى به نبي الله يوسف، فلا بد أن معناه السجود من أجله لله وهو سجد الشكر لله، فاللام في قوله: ﴿لِي سَاجِدِينَ﴾ لام التعليل، وهذا تأويل لتعذر الحقيقة وإن كان السجود مجرد التعظيم فهو بعيد أن يكون من أب لابنه؛ لأن الإبن وإن كان نبياً يستحق التعظيم، فالأب هنا نبي والحق للأب على ابنه فجعل السجود ليوسف حقيقة مشكل على كلا المعنيين.

والجواب: أنه في الرؤيا غير مشكل؛ لأن تأويلها خلاف ظاهرها فيصح هذا المعنى أي السجود لمجرد التعظيم له في الرؤيا؛ لأنه ليس على ظاهره، وتأويله تعظيم يوسف بسجود الشكر لله على نعمة الوصول إليه وعلى هذا فلا مانع أن يكون في الرؤيا على المعنى الحقيقي سجود ليوسف لمجرد التعظيم والإجلال، ولذلك تعجب منه مع صغر سنه وأخبر به أباه.

وأما في قوله تعالى: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ فهو إما السجود لله شكراً أو السجود له لمجرد التعظيم تواضعاً من الأب، ويأتي مزيد تفسير عند ذكر قول الله تعالى: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾.

قال الشرفي - رحمه الله - في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: المعنى في ذلك: أن الكواكب هي الأشراف من الرجال وهم إخوة يوسف، والشمس هي أمه، والقمر أبوه، وذلك أنهم سجدوا لله من أجله حين من الله عليهم بوصوله وجمع شملهم به بعد حين من الزمان».

قال الشرفي: «ومثل هذا ذكره الهادي عليه السلام في معنى السجود مع احتمال أن يراد به التواضع كما في قوله: ترى الأكم فيها سُجَّدًا للحوافر»

قال: إلا أن الأصل في الكلام حمله على الحقيقة» انتهى.

أقول: الراجح في قوله: إلا أن الأصل.. إلخ، أنه من كلام الشرفي - والله أعلم - ولا يبعد أن السجود للتواضع كان معتاداً من الناس للملك كما يفعل الركوع أو قريب منه في هذا الزمان للتعظيم، فرجح ذلك استعمال يعقوب وأولاده لما هو معتاد مألوف تواضعاً من يعقوب وأم يوسف وإنصافاً من إخوة يوسف، وهذا وإن كان بعيداً في عرفنا لا يبعد إذا كان عرف ذلك الزمان؛ ولذلك جوزاه الإمام الهادي عليه السلام كما هو ظاهر حكاية الشرفي.

أما قول الشرفي: إلا أن الأصل في الكلام حمله على الحقيقة، ففيه نظر لاحتمال أنها حقيقة عرفية حادثة بين المسلمين، والقرآن لا يجب حمله على الحقيقة الحادثة من بعده.

قال في (لسان العرب): «ابن سيدة: سجد، يسجد، سجدوا: وضع جبهته بالأرض، وقوم سجّد وسجدوا، وقوله عز وجل: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا﴾ هذا سجود إعظام لا سجود عبادة - ثم قال صاحب لسان العرب - : قال الزجاج: إنه كان من سنة التعظيم في ذلك الوقت أن يُسجّد للمعظم.

قال: وقيل: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا﴾ أي خروا لله سجداً من أجله، قال الأزهري: هذا قول الحسن، والأشبه بظاهر الكتاب أنهم سجدوا ليوسف دلّ عليه رؤياه الأولى التي رآها حين قال: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ فظاهر التلاوة: أنهم سجدوا ليوسف تعظيماً له، من غير أن أشركوا بالله شيئاً، وكأنهم لم يكونوا نهوا عن السجود لغير الله» انتهى المراد من (لسان العرب).

وقد فسّر غيره السجود بالتذلل وبالخضوع وهو صالح للتذلل بدون عبادة، قال تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤].

﴿قَالَ يَبْنَىٰ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿لَا تَقْصُصْ﴾ هذه الرؤيا أي لا تخبر بها إخوتك ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ فيدبروا لك بحيلة سوءاً أي تدبير لما يقع في أنفسهم من الغيرة التي تبعثهم على أن يكيدوا لك لئلا يقع لك تأويل هذه الرؤيا.

تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي

قال الشريفي في (المصابيح): «وكان يعقوب عليه السلام شديد الحب ليوسف وأخيه فحسده إخوته لهذا السبب، وظهر ذلك المعنى ليعقوب عليه السلام بالأمارات الكثيرة [قلت: أو بالوحي من الله قال:] فلما ذكر يوسف عليه السلام لأبيه هذا الرؤيا وكان تأويلها أن إخوته وأبويه يخضعون له قال: ﴿يَبْنِي لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ أي لا تخبرهم برؤياك فإنهم يعرفون تأويلها ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ أي فيحتالوا لك حيلة في هلاكك» انتهى المراد. وقوله: في هلاكك، غير متعين عندي.

وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ يريد ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ﴾ يوسوس لإخوة يوسف بما يحرك الغيرة، ويقوي رغبتهم في الكيد لك، ويزينه لهم عداوة منه لك وإخوتك؛ لأنه ﴿لِلْإِنْسَنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي بين العداوة، فينبغي للإنسان أن يحذره.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿نَجْتَبِيكَ﴾ الإجتباء: التأهيل بتزويده بالعلم والحكمة وغير ذلك مما تتطلبه المهمة المنوطة به، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: يختار» انتهى.

وفي (الصحيح): «واجتباه: أي اصطفاه» انتهى، وفي (لسان العرب): «واجتباه: أي اصطفاه، وفي الحديث أنه اجتباه لنفسه أي اختاره واصطفاه» انتهى المراد.

وقوله تعالى حاكياً: ﴿وَكَذَلِكَ تَجَنَّبُكَ﴾ أي كما رأيت في الرؤيا سجد الكواكب المذكورة والشمس والقمر لك يخترارك ﴿رَبُّكَ﴾ ويصطفيك لشرف عظيم ورئاسة، وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ كما هو شأن من اصطفاه الله أن يرزقه علماً وحكماً، لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ومن العلم علم تأويل الأحاديث، أو علم بعضه.

و﴿تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ يعم علم تأويل قصص الرؤيا وتأويل بعض الحديث كما في التفاضل ببعض الكلام، فهو أعم من تأويل الرؤيا، ومن هذا معرفة مخبر الإنسان بكلامه، وفي كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «المرء مخبوء تحت لسانه، فإذا تكلم ظهر» أو كما قال، ويدخل في ذلك علم تأويل كتب الله التي نزلت على إبراهيم ووحى إليه وإلى إسحاق ويعقوب وغير ذلك، وتأويل الرؤيا: ما تؤول إليه، كأنها عبّرت عنه فكان عاقبتها ومآلها.

وقوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ آل يعقوب أولاده أو هو عام ليعقوب نفسه بالتغليب، كما قدمت في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣] وهو الراجح عندي، ولعله أراد بإتمام النعمة على يوسف تمكين دينه له وإتمام النعمة لهم تمكين دينهم وجمعهم عليه بتوبة إخوة يوسف.

وقوله: ﴿كَمَا أَتَمَّمَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ﴾ أي كما أتم نعمته على أبويك من قبل أي في عهدهما بإظهار دينهما على دين المشركين ونصرهما على المشركين، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ دون (إن ربنا) أو (إن ربي) لأن ما ذكر من إتمام النعمة على آل يعقوب تابع لاجتماع يوسف، فمن حكمة الله تعالى يسر تمام نعمته على آل يعقوب على يدي يوسف.

يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَتُ لِلْسَّالِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أُبَيِّنَا مِمَّا وَخَنُ عَصْبَةً إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨﴾ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ كالتعليل لما ذكر في تأويل هذه الرؤيا، وهو كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤] فالله تعالى بحكمته وعلمه اجتنب يوسف وعلمه من تأويل الأحاديث وأتم عليه نعمته وعلى آل يعقوب.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَتٌ لِلْسَّالِينَ﴾ فالآيات في يوسف مثل: تأدية صبره على البلاوي التي تتابعت عليه منذ صغره وفي شبابه إلى شرف الدنيا والآخرة، وتأدية حلمه عن إخوته إلى صلاحهم وسجودهم له، وتأدية علمه إلى خروجه من السجن، ووضوح براءته من امرأة العزيز، وتأدية علمه وعفافه، وطهارته وصدقه وأمانته إلى ما صار فيه من المنزلة الرفيعة والولاية على خزائن الأرض.

وأما الآيات في إخوة يوسف فمثل ما أدتهم إليه الغيرة والحسد من التعدي على يوسف، وعقوق أبيهم وإيقاعه في الحزن الطويل الأمد الذي لأجله أبيضت عيناه بالفراق ليوسف، ثم ما وقعوا فيه من رميه بالسرقة ومن قولهم لأبيهم: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ قَدِيمٍ﴾ وقولهم: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾.

ثم ما وقعوا فيه من العناء لطلب الميرة، وما صاروا إليه من نقص المنزلة، واعترافهم ليوسف: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ وقولهم لأبيهم: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ وكل ذلك نتائج الاتباع لهوى النفوس الذي قادت إليه الغيرة والحسد، ففيهم عبرة كما في يوسف صلى الله عليه.

﴿١٠﴾ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُهُ أَبْيَكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقُوَّةُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهَا

وتقديم هذه الآية على تفصيل قصتهم يشير إلى أن المقصود بالقصة ما فيها من الآيات والعبر مع ما فيها من العبرة لأولي الألباب المشار إليها في آخر السورة وهي الدلالة على أن هذا القرآن وحي من الله وأن محمداً رسول الله ﷺ.

وقوله: ﴿ءَايَتٌ لِلْسَّالِفِينَ﴾ أي للسائلين عن قصصهم الذين يريدون معرفته؛ لأنهم هم الذين يصغون لها دون الكفار المعرضين عن سماع القرآن.

﴿١١﴾ ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿لِيُوسُفُ﴾ فيه تأكيد باللام؛ لأنه عندهم أمر مستبعد يحتاج مثبتة إلى تأكيده، وقولهم: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ قال الراغب: «والعصبة: جماعة متعصبة متعاضدة» انتهى، وقال في (الصحيح): «والعصبة من الرجال: ما بين العشرة إلى الأربعين» انتهى، ومثله في (لسان العرب).

قال في (الكشاف): «يعني: أنه يفضلهما في المحبة علينا وهما اثنان صغيران لا كفاية فيهما ولا منفعة، ونحن جماعة عشرة رجال كفاة نقوم بمرافقته، فنحن أحق بزيادة المحبة منهما لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما» انتهى، وهو صحيح.

وقولهم: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أرادوا أنه غالط مخالف للصواب كمن يمشي غاوياً عن الطريق، ومعنى ﴿لَفِي ضَلَالٍ﴾ في غي، أي غواية، ومعنى ﴿مُبِينٍ﴾ أي غي بَيِّن واضح لا يخفى.

﴿١٢﴾ ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُهُ أَبْيَكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ ذهبت عاطفة الأخوة بسبب الغيرة والحسد،

بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١﴾ قَالُوا يَتَّابَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنْصَحُونَ ﴿٢﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَب وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ

وذهبت عاطفة البتة كذلك، وغلب الحسد فدبروا الحلّ ليستريحوا مما في نفوسهم من الغيرة والحسد، ولا يهتمهم تضييع أخيهم وحزن أبيهم عليه.

وقولهم: ﴿أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أرادوا أرضاً يضيع فيها ولا يهتدي لعودة إلى أبيه أو تقتله السباع، وقولهم: ﴿يَحْلُلْ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ﴾ أي لا يبقى فيه التفات ولا توجه إلى غيركم بل هو فارغ الالتفات إليكم والتوجه إليكم، وقولهم: ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ أرادوا من بعد يوسف أو من بعد قتله أو طرحه أرضاً ترغيب في المعصية بتمني التوبة بعدها، وكأنه لا يهتمهم انكشاف أمرهم بعد تضييع يوسف فأبوهم نبي ومن البعيد أن لا يفصحهم الوحي؛ لأنهم بزعمهم سيكونون قوماً صالحين، فلا بد أن يقبل توبتهم إذا تابوا.

﴿١﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَاتِ الرَّجَبِ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٢﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «والغيابة: ما غاب عنك، والجب: البئر الذي لم يطم» انتهى كذا، ولعل الأصل: لم يَطْوُ، أي لأنه إذا لم يَطْوُ يكون فيه غيابات من أثر الأمطار.

وقد ذكر الشرفي قولين في تفسير الجب: أحدهما: أنه البئر البعيدة، والثاني: ما لا طيَّ له من الآبار، وفي تفسير الراغب لـ (مفردات القرآن): «فِي غَيْبَتِ الرَّجَبِ»: أي بئر لم يَطْوُ انتهى، ومثله في (الصحيح).

والمراد بـ ﴿السَّيَّارَةِ﴾ المسافرين الذين يسرون في الأرض ولو ركبانا، فصاحب هذا الرأي أراد الجمع بين غرضهم وبين ترك قتل يوسف، وذلك بتضييعه في غير مهلكة.

﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَعِلِينَ﴾ حث على العمل بهذا الرأي، مثل: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾.

﴿١٢﴾ قَالُوا يَتَّبَعْنَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنْصِحُونَ﴾ بدأوا مكرهم بقولهم: ﴿يَتَّبَعْنَا﴾ كأنهم يرون له حق الأبوة، وقولهم: ﴿مَا لَكَ﴾؟ سؤال عن سبب عدم أمنهم على يوسف كأنهم لا يعلمون سبباً ومن البعيد أن لا يأمنهم لغير سبب.

وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَنْصِحُونَ﴾ تغليب له في عدم أمنهم على يوسف وهي مقدمة لطلب إرساله معهم، وكأنه عليه السلام مال إلى الرفق بهم وترك المصارحة لهم بأنه يخاف أن يكيدوا ليوسف؛ بسبب الغيرة منه، أو لم يكن يظن أن قد بلغت بهم الغيرة إلى أن يكيدوا ليوسف؛ لأن إقباله إلى يوسف وأخيه في حال صغرهما يبرره صغر سنهما وكون العطف على الصغير طبيعياً، وقد عطف على كل واحد منهم في صغره، والعطف على الصغير لا يغار منه الكبير في العادة فلذلك رجّح أن لا يردّ عليهم هذا القول.

﴿١٣﴾ أَرْسَلَهُ مَعًا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ﴿يَرْتَعُ﴾ يأكل من شجر البرية وسمّوه رتاعاً لمشابهته رتاع الأنعام في أكله من الشجر التي تأكل منها وهذا على قراءة ﴿يَرْتَعُ﴾ - بسكون العين - فأما على قراءة ﴿يَرْتَعُ﴾ - بكسر العين - فأصله يرتعي: أي يرعى، وكلمة يرعى تصلح لأكل المرعى، وللراعي الذي يرعى الأنعام.

﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ

قال الشرفي في (المصاييح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معنى ﴿يَرْتَعُ﴾ أي يفتعل في وزن الكلمة ومقدارها وهو يرعى الماشية» انتهى.

وهو مبنى على قراءة ﴿يَرْتَعُ﴾ - بكسر العين - وقولهم: ﴿يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ﴾ تغطية على غرضهم بدعوى أن غرضهم راجع لمصلحة يوسف، وكذا قولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أي نحفظه من الضياع ومن السباع ونحو ذلك. ﴿١٦﴾ قَالَ إِنِّي لِيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴿إِنِّي لِيَحْزُنُنِي﴾ يشير إلى أنه يخاف إخوة يوسف عليه؛ لأنه علق الإحزان على ذهابهم به ولم يعلقه على مجرد ذهابه أو غيابه من عنده ولكنهم فيما اعتقد تغافلوا عن هذا فلم يجيبوا عنه جواباً مستقلاً، وقد أمعنوا في الإحتيال، وكانهم استحقوا أن يوليهم الله ما تَوَلَّوا لجرأتهم على عقوق أبيهم فلم يحذر أباهم بوحى.

﴿١٨﴾ قَالُوا لَيْنَ أَكُلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿١٩﴾ فهذا جواب غير مطابق لقوله: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ لأنه لم يقل: وأخاف أن يغلبكم الذئب، إنما قال: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾.

وقولهم: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ لا يفيد أنهم لن يغفلوا عنه وخصوصاً مع ضعف العاطفة لو كانت عندهم بقية من عاطفة، فإن من الجائز عليهم أن ينشغلوا عنه فيغفلوا عنه لاشتغالهم بأغراضهم.

وقولهم: ﴿إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَا﴾ لعلمهم أرادوا به خسران الجنة ليوهموا أباهم حرصهم على دينهم ويوهموا أنه لا يأكله الذئب إلا لتفريط منهم وهم يشاهدونه يأكله فلا يستنقذونه منه وهم يستطيعون إنقاذه؛ لأنهم عصبه فيكونوا قد أثموا واستحقوا عذاب الآخرة وذلك هو الخسران المبين.

وعلى هذا فالجواب عن قوله: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ﴾ قد ضمنوه ما يُذهب خوف أبيهم منهم إذا ذهبوا به وحزنه لذلك، وهي طريقة دهاء وعمق احتيال؛ لأنها تفيد في سياق الجواب عن قوله: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّئْبُ﴾ أعني تظاهرهم بالخوف من الخسران، ولو قالوها رداً على قوله: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ وأظهروا أنهم قد فهموا أنه يخافهم على يوسف لكان ردهم بأننا نخاف خسران الآخرة، مجرد دفاع عن أنفسهم والفاجر لا يعجز عن مثل ذلك الدفاع في سبيل توصله إلى غرضه، فكان تأثير ذلك لهم بعيداً بخلاف ما إذا تغافلوا عن قوله: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ وكانهم لم يفهموا أنه يخافهم فإن تظاهرهم بالدين والخوف من خسران الآخرة ليس في صورة الدفع لخوفهم على يوسف وحزن أبيهم لذهابهم به فكان تأثيره في أبيهم أقرب.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَاتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ أي بيوسف وهذا يفيد: أن أباهم وافقهم على إرساله معهم، فذهبوا وأجمع رأيهم أن لا يقتلوه، بل يجعلوه في الجب أي البئر ليلتقطه بعض السيارة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ أي إلى يوسف ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ﴾ وهو يفيد تقوية رجائه للسلامة وصلاح حاله في المستقبل كما أفادته الرؤيا.

﴿قَالُوا يَتَابَنَّا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ
الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ (٧) وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي بوحينا، والراجع أنه وحي إخبار من
الله له، ولذلك قال: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لأنه كلام لم يسمعه، ولو كان مجرد
إلهام لكان من شأنه أن لا يشعروا به، وكان قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لا
موجب له، فلما قال: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ كان قرينة أن الوحي هذا كلام،
ولا يلزم منه نبوءة يوسف عليه السلام في ذلك الوقت؛ لأنه ليس وحيًا بشرية،
والإشارة بقوله تعالى: ﴿هَذَا﴾ إلى ما فعلوا بيوسف من جعله في غيابات
الجب ومقدماته، وقد أغنى قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ..﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ﴾ أغنى عن ذكر جواب (لَمَّا) مع قوله: ﴿وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي
غِيَابَاتِ الْجُبِّ﴾ فلم يبق موجب؛ لأن يقول فعلوا ذلك.

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ (٨) ﴿عِشَاءً﴾ في ظلمة الليل
﴿يَبْكُونَ﴾ تغطية لجرمتهم وتوصلاً إلى قبوله لعذرهم وظنه صدقهم ﴿قَالُوا
يَتَابَنَّا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ
بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ (٩) ﴿ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي ذهبنا متسابقين أي ذهبنا
من عند متاعنا ومن عند يوسف وقد أغنى عن هذا قولهم وتركنا يوسف عند
متاعنا أي عند أدواتنا مثل بعض الملابس الذي يطرح عند السباق.

وقولهم: ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ أي بحيث هلك ولم يبق منه رأس ولا يد ولا
رجل ولا شيء؛ وهذا لأنهم لو أدركوا منه شيئاً على فرض أنهم صادقون لكان
ينبغي أن يأتوا به معهم إلى أبيهم ليدفنوه وليطلعوا أباه عليه إن شك في صدقهم.

بِدْمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۚ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ

وقولهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ﴾ أي بمصدق تصديق إذعان وقبول لكلامنا أي وذلك من سبب بكائنا، وقولهم: ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ أي ما أنت بمؤمن لنا في حال من الأحوال وفي حال لو كنا صادقين، ولعل قولهم: ﴿وَلَوْ﴾ بدل أن يقولوا: «وإن كنا صادقين» يقرب من الإقرار أنهم غير صادقين.

﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۚ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَاءُوا ۚ أَي إِخْوَةُ يُوسُفَ جَاءُوا ۚ ﴿بِدْمٍ﴾ عَلَى قَمِيصِ يُوسُفَ وَهُوَ دَمٌ ﴿كَذِبٍ﴾ لِأَنَّهُمْ جَعَلُوهُ شَاهِدًا عَلَى أَن يُوسُفَ قَدْ أَكَلَهُ الذَّنْبُ وَهُوَ لَمْ يَأْكُلْهُ، فَكَانَ الدَّمُ كَذِبًا تَعْبِيرًا عَنْ أَكْلِ الذَّنْبِ لِيُوسُفَ وَهُوَ غَيْرُ مُطَابِقٍ لِلْوَاقِعِ ﴿قَالَ﴾ أَبُوهُمْ: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أَي مَا أَكَلَهُ الذَّنْبُ، بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ وَسَهَلَتْ وَهَوَّنَتْ، أَوْ زَيَّنَتْ أَمْرًا.

قال في (الصحيح): «سولت له نفسه أمراً: أي زَيَّنَتْه له» انتهى، وقال الراغب في تفسيره لـ (مفردات القرآن): «والتسويل: تزيين النفس لما تحرص عليه، وتصوير القبيح منه بصورة الحسن» انتهى المراد، ومثله في (لسان العرب).

وقوله: ﴿أَمْرًا﴾ لعله أن يغيبوا يوسف عن أبيه ليخلو لهم وجه أبيهم أو هو جعله في غيابات الجب ليلتقطه بعض السيَّارة فيصير مجهول المكان، والمعنى متقارب ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال الخليل: الذي أفعله صبر جميل» انتهى المراد.

دَلَّوْهُ قَالَ يَبْشُرِي هَذَا غُلَمٌ وَأَسْرُوهُ بِضْعَةَ ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ۚ
وَشَرَّوهُ بِثَمَنٍ خَسِيسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿١١﴾

وقوله: ﴿جَمِيلٌ﴾ إما لأنه صبر على ما لا سبيل إلى دفعه؛ وإما لأنه يصبر على الحزن ولا يكثر التوجع والتظلم، وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَلْمُسْتَعَانُ﴾ أي أستعين الله ﴿عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ لأنه كلام موجع لعلمه أنه كذب منهم وفساد وهم أبناؤه كان حريصاً على أن يكونوا صالحين فيؤسفه تعمدهم للكذب لتغطية ظلمهم ليوسف وعقوقهم لأبيهم وكذلك يضجر من كلامهم؛ لأنه يعلم أنه كذب يريدون به تغطية الجريمة الموجعة المتحققة.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلَّوْهُ﴾ قَالَ يَا بُشْرَايَ هَذَا غُلَمٌ وَأَسْرُوهُ بِضْعَةَ ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿وَجَاءَتْ﴾ الجب الذي فيه يوسف ﴿سَيَّارَةٌ﴾ مسافرون ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ الذي يرد الماء أرسلوه ليحيي لهم بماء ﴿فَأَدْلَى﴾ في الجب ﴿دَلَّوْهُ﴾ ليأخذ فيه ماء، والدلو: وعاء ينزع فيه الماء من البئر بجبل يربط به ويرسل في البئر ﴿قَالَ﴾ الوارد ﴿يَا بُشْرَايَ هَذَا غُلَمٌ﴾ أي وجد يوسف في الجب فقال ﴿يَا بُشْرَايَ﴾ تعبير عن سروره بيوسف، وإعلان لاستبشاره به ليأخذه فيبيعه ويستفيد ثمنه ﴿هَذَا غُلَمٌ﴾ لعله خاطب بهذا مرافقيه الذين أرسلوه للماء، وأفاد الراغب: أن الغلام الذي طر شاربه أي ابتداء نبات شاربه، ولعل هذا أول ما يسمى غلاماً.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوهُ بِضْعَةَ﴾ أي أخفوه حرصاً عليه لئلا يكون له أهل حول الجب يتبهون له ﴿بِضْعَةَ﴾ أي مجلوباً للبيع ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ حين أخذوا يوسف وأسروه بضاعة وبكل ما يعملون من أعمالهم ولو شاء لخلصه من أيديهم قبل أن يبيعه أولم يطلع عليه الوارد.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَا مَرْأَتِي أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

﴿وَشَرَّوهُ بِثَمَنٍ خَسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ ﴿وَشَرَّوهُ﴾ أي وباعوه ﴿بِثَمَنٍ خَسٍ﴾ ناقص ﴿دَرَاهِمَ﴾ من الفضة ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ لقلتها ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ لأنهم لا يريدون اقتناؤه، ولعلمهم كانوا معجلين على بيعه قبل أن يرجعوا من سفرهم، وقبل أن يطلع عليه أهله، والزهد: ضد الرغبة.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَا مَرْأَتِي أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿مَثْوَاهُ﴾ مسكنه ومقره الذي يقيم فيه، وهذا الكلام يفيد أنه قد أراد اقتناؤه وترغيبه بإكرامه الذي كنى عنه بإكرام مثواه أو هو حقيقة والمراد أن تجعل مقامه كريماً نزيهاً طيباً حسن التهوية مرغوباً فيه مرضياً، وقوله: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ يريد نقنتيه ونرغبه فيقرب أن ينفعنا بأعماله التي نحتاجها ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ نسرّ بحضوره ومجالسته وكانت هذه كبداية تخليصه من الرّق وتمكينه في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي وكذلك التمكين مكنا ليوسف في الأرض بما جعلنا له في القلوب من الإحترام والإجلال والمحبة فكما جعلنا له المكانة في قلب الذي اشتراه من مصر مكنا له في الأرض من بعد ذلك كما يأتي في السورة ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ﴾ عطف على تعليل مقدر كأنه قيل لحكمة في تمكينه هذا ولنعلمه.

﴿وَرَوَدَتْهُ آلَتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَقَتْ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْت لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ

وقد مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ الآية بعض فوائد تمكينه في الأرض، ومر تفسير ﴿تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ فقوله تعالى ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ يفيد: أنه مكن له في مثواه عند الذي اشتراه ليعلمه من تأويل الأحاديث، وذلك أنه يعيش في بلوى رغد العيش وتكامل الفتوة، وبلوى الحاجة إلى النكاح، ومع ذلك يصبر ويشكر النعمة ويتقي ربه، فيكون من المحسنين، ويكون أهلاً لأن يؤتيه الله حكماً وعِلْماً، ومن ذلك علم ﴿تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ يشير إلى نجاته من شر إخوته وأن حسدهم لم يدفع ما كتب الله ليوسف من رفع الدرجات ومن كرامة المشوى وغير ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لجهلهم بالله وغفلتهم عنه، فهم لا يعلمون أنه غالب على أمره، ولذلك قد يحاولون ما هو كالمغالبة لله تعالى فيُغلبون.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ يوسف ﴿أَشُدَّهُ﴾ أي قوة بدنه وعقله ومعانيه حين شب وكبر، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: انتهاء سنّه وشبابه وقوّته من قبل أن يأخذ في النقصان» انتهى.

وقوله: ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ أي علمناه الحكم وهو أعم من حكمه نفسه وحكمه بين الناس فهو يدل على إيتائه الحكمة وفصل الخطاب، وقوله تعالى: ﴿وَعِلْمًا﴾ يشمل علم النبوة وما يهدي إليه ويتفرع عنه.

الظَّالِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ^ط وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ^ج كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ

وأما العقليات، فلعله قد أوتىها من قبل، ولذلك كان ﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ثم أوتي الحكم والعلم جزاء على إحسانه، وفي هذه دلالة على أن الإحسان الذي هو الإيمان والتقوى، وحسن الخلق هو من أسباب العلم، فينبغي لطالب العلم أن يتوصل إليه بالصبر والتقوى والثبات على ذلك في كل أحواله والله المستعان.

﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ^ط وَعَلَّقَتِ الْأُبُوبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿وَرَوَدَتْهُ﴾ قالت: وعملت ما هو كالمطالبة بجماعها، وكأنها مأخوذة ومشتقة من الرود، قال الراغب: «الرود: التردد في طلب الشيء برفق» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ ولم يقل هنا: (امرأة العزيز) وفيه فائدة الدلالة على عظم البلوى؛ لأنها راودته ومطلوبها متيسر له، من حيث أنه في بيتها، والصبر متعسر من حيث استمرار الخلوة بها وطول مدة البلوى، ولعل فيه إشارة إلى أنها هي فتنت به لكونه في بيتها.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّقَتِ الْأُبُوبَ﴾ كذلك فيه دلالة على شدة البلوى؛ لأن الشهوة تقوى مع الثقة بخفاء مطلوبها والأمن من اطلاع زوجها، وقوله: ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ كذلك دلالة على شدة البلوى بها حيث طلبته ولم تبق شكاً في مطلوبها.

قال الشرفي في (المصابيح): «ثم دعت إلى نفسها ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي هلم وأقبل إلى ما لا يحسن ذكره - قال - : وهيت في اللغة العربية: هلم وأقبل، قال الشاعر:

أبلغ أمير المؤمنين — أخا العراق إذا أتيت
أن العراق وأهله عنق إليك فهيت هيتا

أي فهلم هلم» انتهى.

وفي (الصحاح): «وقولهم: هيت لك، أي هلم لك، قال الشاعر في علي بن أبي طالب عليه السلام»:

أبلغ أمير المؤمنين — أخا العراق إذا أتيت
أن العراق وأهله سلم إليك فهيت هيتا

أي هلم وتعال ، يستوي فيه الواحد والجمع، إلا أن العدد فيما بعده، تقول هيت لكما وهيت لكن» انتهى، ونحوه في (لسان العرب).

واللام في ﴿لَكَ﴾ إما للدلالة على أنه المخاطب - بفتح الطاء - وإما للدلالة أنها تريد العمل لأجله ليلتد به كما يقال: كل لك، واشرب لك. وقول يوسف: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ يعني أعوذ بالله معاذاً، ومعنى أعوذ بالله: ألتجأ إلى الله ليعصمني ويعينني على نفسي.

وقوله: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ أي إن الله ربي مألقي ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ أنعم عليّ بتيسير هذا المثلوى الذي أنا فيه الذي سخر له العزيز وحببه إليه، حتى قال: ﴿أَكْرَمِي مَثْوَاهُ﴾ وخلّصني به من تبادل أيدي التجار، وفيه وجهان: إما أنه يريد أرجوه أن يعصمني كما أنعم عليّ بإحسان مثواي، وإما أنه يريد أنه أنعم عليّ بإحسان مثواي فلا أكفر نعمته بمعصيته، وفيه إفادة أن الحق لله عليّ أعظم من حق غيره ليدفع توهمها أنه فتاها عليه أن يطيعها.

وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ تعبير عن حذره سوء عاقبة المعصية لله؛ لأنها ظلم عاقبته وخيمة، والفلاح: الظفر بالخير والنجاة من الشر، وفيه قول الشاعر:

﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

لو أن حيّاً مدرك الفلاح أدركه ملاعب الرماح

يريد الخلود والنجاة من الموت.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معنى ﴿هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ أي أرادته وأرادها وكانت إرادته - صلى الله عليه - إرادته [كذا] منازعة الطباع ولم يُزْمَعْ كما أزمعت هي على الجماع، وإنما خطر على باله الشهوة والهوى ولم يطع هواه إلى الدنو منها» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ أي رأى يوسف حجة ربه عليه القاطعة لعذره لو ارتكب الفاحشة ولكنه رأى برهان ربه فانصرف عما هم به وهرب، وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ لعل الإشارة إلى مدلول قوله: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ وهذا برهان صرفه عنها فرأى برهان ربه ثانياً كذلك، والراجع: أنها آية حدثت له ورآها.

وقوله تعالى: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ أي أريناه البرهان لنصرف عنه السوء والفحشاء، والسوء الشر وهو نوعان:

سوء المعصية وما فيها من وجوه القبح من حيث هي زنا، ومن حيث هي خيانة للعزیز في أهله وكفر لإحسانه إليه في تربيته.

النوع الثاني: تبعّة المعصية واستحقاق فاعلها للعقاب العاجل والآجل.

﴿وَالْفَحْشَاءُ﴾ هي البالغة في القبح مبلغاً شنيعاً وهي الزنا، وصدق عليه السوء من حيث هو شر على فاعله يسقطُ به قدره وشرفه ويستحق به الإهانة والعقاب، وصدق عليه الفحشاء لشدة قبحه، وأيضاً الراجح: أن المراد لنصرف عنه السوء كله مدى الحياة أي المعاصي المتعمدة كلها والفحشاء كذلك، فالسوء يُصرف عنه ولولم يكن فحشاء.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ تعليل لعصمته من السوء والفحشاء كما يزيد الله من اهتدى هدى، والمخلصين الذين جعلوا خالصين من عيوب المعاصي وإخلاصهم منها بتوفيق الله وهدايته؛ ولأنهم استعملوا عقولهم وأكثروا ذكر الآخرة، ولعله معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذُكِّرَى الدَّارِ﴾ [ص:٤٦].

﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ حاول كل منهما أن يسبق الباب الذي هو باب الدار، فيوسف يريد أن يسبقه ليخرج، وهي تريد أن تسبقه لئلا تتركه يفتحه ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ﴾ لترده في حال فراره فقدته يجذبه إليها ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ وجدا سيدها عند الباب.

﴿قَالَتْ﴾ لسيدها ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ تعني أنه أراد بها الزنا ﴿إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عقوبة له على إرادته ﴿بِأَهْلِكَ﴾ فهي هنا تثبت حرمة أهله لكونها أهله، وبهذا تحاول صرف التهمة عنها، وكذلك بإيجاب جزائه بالسجن، أو العذاب الأليم، على هذه الإرادة بامرأة العزيز، أي لمكانة زوجها ووجوب احترام ساحته.

قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي ۖ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ
 قَدْ مِّنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ
 دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ قَالَ
 إِنَّهُ مِّنْ كَيْدِكُنَّ ۚ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ۖ
 وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ ۖ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ * وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي

﴿قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي ۖ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ * وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿هِيَ رَاوَدْتَنِي﴾ لا أنا راودتها ففي العبارة قصر قلب، وقوله: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ﴾ أي قميص يوسف قَدْ مِّنْ قبله ﴿فَصَدَقَتْ﴾ لأن ذلك قرينة أنه يريد رفعه وجذبه إلى أسفل لئلا يكشف عن ذكره ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ لدلالة ذلك أنه هرب منها، وأنها جذبت ثوبه من خلفه فقدته.

﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِّنْ كَيْدِكُنَّ ۚ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَى﴾ يحتمل سيدها ويحتمل الشاهد، والأرجح سيدها ﴿قَالَ﴾ سيدها ﴿إِنَّهُ مِّنْ كَيْدِكُنَّ﴾ أي من احتيالكن الضار، والضمير في ﴿إِنَّهُ﴾ إما للقد، وإما للحادث المتنازع عليه فكله مستقيم، وفي إضافته إليها وإلى عامة النساء رفق بها في الحكم عليها وتقوية للحكم بأنها مظته من حيث هي امرأة، وقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ دلالة على أنها مظته وإن عظم.

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ۖ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ ۖ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ يا يوسف أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴿فلا تطالب بجزائها واكتمه﴾ ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾ يقول لامراته: استغفري لذنبك ﴿إِنَّكَ كُنتِ مِنَ

الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْنَهَا عَنْ نَفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرْنَهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَنًا ۖ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٦١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ

الْخَاطِئِينَ ﴿٦٠﴾ فهذا زجره لها، وقد كان ينبغي له أن ينقل يوسف من ساعته إلى محل لا تصل إليه امرأته لكنه قليل الغيرة وأنه قد وثق باعتصام يوسف، وأنه لا يطاوعها أبداً ولم يهمه ما يلحق يوسف من مشقة الاستعصام، والخطأ فاعل الخطء - بكسر الخاء، وسكون الطاء - وهو الذنب المتعمد.

﴿٦٠﴾ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْنَهَا عَنْ نَفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرْنَهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ إنكار منهن على امرأة العزيز يعين أنها تنازلت عن درجتها في الشرف بمراودتها لعبدها، والفتى: الحدث الشاب، و﴿شَغَفَهَا﴾ أصاب شِغاف قلبها أي حجاب قلبها، وكان هذا منهن احتيال ليرين يوسف؛ لأنه يبلغها كلامهن فيها فتطلبهن لتعاتبن على هذا الكلام وتعتذر مما وقع منها.

﴿٦١﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَنًا ۖ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٦١﴾ امرأة العزيز ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي أخبرت به ومكرهنَّ كلامهن الذي هو حيلة للتوصل إليها ورؤية يوسف ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ ليأتينها ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ﴾ أي وأعدت لهن ﴿مُتَكَنًا﴾ فراشاً يتكنن عليه عندها ﴿وَوَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ﴾

سَكِينًا ﴿ لِيَقْطَعَ الْفَاكِهِةَ مِنْ تَفَاحٍ أَوْ نَحْوِهِ أَوْ أَرَادَتْ أَنْ تُوْهِمَهُنَّ أَنَّهَا تَأْتِي بِالْفَاكِهَةِ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ.

﴿وَقَالَتْ﴾ لِيُوسُفَ ﴿أَخْرِجْ عَلَيْنِ﴾ يفيد هذا أنه كان في مكان داخل إما داخل في منزلها، وإما أن متكأهن كان في حجرة المنزل فخرج بإذن الله له؛ لأنه نبي ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ عظم في نفوسهن وكبر لجماله وكماله ونور النبوة والفضل في الدين ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ بالسكاكين غلطاً وذلك لما وقع في أنفسهن عند رؤيته.

قال الشرفي في (المصاييح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: فروي أنهم قطعن أيديهن، وذلك معروف في طباع الأدميين إذا اشتغلت قلوبهم وضلت من الهموم عقولهن [كذا] عبثت حينئذ وتحركت جوارحهم وقلقت أيديهم عند قلق نفوسهم فمنهن [كذا] من يخط في الأرض ومنهم من يعبث بيده ولحمه لما داخله من همه وزوال عقله.

ثم قال: ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ أي معاذ الله وهي كلمة تنزيه الله من صفات العجز وتعجيباً من خلق مثله حتى قلن: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ أي من جملة البشر؛ لما شاهدن من حسنه البارِع، وجماله البديع، ودلائل الخير، وأمارات الصدق، وعلامات النبوة، وآثار الصفوة» انتهى.

قلت: الأقرب أنهم كُنَّ يحاولن قطع الفاكهة مع اشتغال أبصارهن وقلوبهن بالنظر إلى يوسف فقطعن أيديهن، فقد بلغن مرادهن برؤية يوسف، ولم يستفدن إلا الهوى فيه، والرغبة في مثل ما رَغِبَتْ فيه امرأة العزيز، والله عاصم له.

فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامَرُهُ لَيُسْجَنَ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾
 قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ
 أَصَبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ

﴿٣٢﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ
 وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامَرُهُ لَيُسْجَنَ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾ فَذَلِكُنَّ أَيُّ
 يوسف ﴿الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ﴾ بقولكن: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿وَلَقَدْ
 رَاودَتْهُ﴾ كما قال: ﴿عَن نَّفْسِهِ﴾ فهو صادق ولا أزال في محاولة أن يفعل.

وقولها: ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾ أي توصل إلى ما يعصمه أي ينجيه امتناعاً وقراراً
 بما أريد ﴿وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ﴾ وأيسر من أن يطيعني فيما أمره ﴿لَيُسْجَنَ﴾
 تهدده بالسجن ظناً منها أنه يكبر عليه بعد عيشه في المشوى الكريم ورغد
 العيش ﴿وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ لما عرفت أن من شأنه طلب العلا ظنت أن
 تهديده بالصغار يؤثر فيه والصغار الذلة.

﴿٣٣﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي
 كَيْدَهُنَّ أَصَبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ لحبي لطاعتك وبغضي
 لمعصيتك، وقوله: ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ يفيد: أن النسوة المذكورات عاون
 امرأة العزيز وطلبن منه أن يطيعها.

وقوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي﴾ أصله (إن) الشرطية و(لا) النافية أدغمت
 النون في اللام فصار (إلا) والقياس أن تكتب (وإن لا) وقوله: ﴿أَصَبُ﴾
 من الصبوة حذفت واوه للجزم، قال في (الصحيح): «والصبا - أيضاً - من
 الشوق، يقال منه: تصابى وصبا يصبو صبوة وصبوا، أي مال إلى الجهل
 والفتوة وأصبته الجارية» انتهى.

كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٤﴾ ثُمَّ بَدَأَ هُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَجُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴿٢٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجَنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ

فالمعنى: إن لا تصرف عني أمل إليهن وأطاعهن، وهذا لجوء إلى الله ليعصمه، ومعناه: الدعاء أن يصرف الله عنه كيدهن واحتياهن عليه ليفتن.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

وهذا مما يرغب في الدعاء لحفظ الدين والسلامة من مضلات الفتن وإن كان لا بد من ابتلاء الله لعبده ليتبين ويظهر صبره فيكون أهلاً للطف والوقاية من مضلات الفتن.

﴿ثُمَّ بَدَأَ هُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَجُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ ﴿بَدَأَ هُمْ﴾ تجدد لهم رأي لم يكن من قبل وفسر هذا الرأي قوله ﴿لَيْسَجُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ أو بدا لهم هذا القول ولعلمهم أرادوا بسجنه أن يغيبوه عن امرأة العزيز للتخفيف عنها حيث اشتدت رغبتها فيه، وظهر افتتانها به مع ضغط الظروف عليها وشدة امتناع يوسف؛ لأن حضوره لديها ومشاهدتها لجمالها وفتوته يزيد من محتتها، فأما تفسير سجنه بأنهم أرادوا المغالطة وإيهام الناس أنه هو الذي راودها فبعيد عندي بعد اشتهاار الأمر الواقع.

وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ﴾ أي الآيات الدالة على براءة يوسف من راودتها وهو يدل على أن قد كانت له من الآيات غير قد القميص مادل على براءته، وقوله: ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ أي غير دائم، وإنما هو أمد حصول الغرض من سجنه.

الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ۖ إِنَّا نَرْنٰكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيَهٗ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ۖ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٧﴾

﴿٥٦﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجَنَ فَتَيَّانٌ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرْنِي آعَصِرُ خَمْراً ۖ وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرْنِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ۖ إِنَّا نَرْنٰكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجَنَ فَتَيَّانٌ ﴿٥٨﴾ دَخَلَ مَعَهُ مَسْجُونَيْنِ مِثْلِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿أَرْنِي﴾ هُوَ مِنَ الرُّؤْيَا، وَقَوْلُهُمَا: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ أَيِ أَخْبِرْنَا بِتَأْوِيلِ مَا رَأَيْنَاهُ.

﴿٥٧﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيَهٗ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ۖ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٨﴾ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيَهٗ ۖ وَأَنْتُمَا عِنْدِي ﴿٥٩﴾ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا ۖ بِتَأْوِيلِ ذَٰلِكَ الطَّعَامِ، وَتَأْوِيلُهُ إِمَّا مَا يُوْدِي إِلَيْهِ، وَإِمَّا مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ، فَالطَّعَامُ يَرْزُقَانِهِ مِنْ جِهَةٍ مِّنْ حِسْمِهِمَا وَكَيْفِيَّتِهِ يَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى نِيَّةِ الْحَاسِبِ لَهَا وَإِرَادَتِهِ فِيهِمَا مِنْ عَفْوٍ أَوْ عِقَابٍ أَوْ رِضَى أَوْ سَخَطٍ أَوْ تَطْوِيلٍ حَسْبِ أَوْ تَقْصِيرِهِ أَوْ تَشْدِيدِهِ أَوْ تَيْسِيرِهِ، وَلَكِنْ هَذِهِ الدَّلَالَةُ يَخْتَصُّ بِهَا يُوسُفُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ أَيِ عِلْمِ تَأْوِيلِ الطَّعَامِ، وَقَوْلُهُ ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ﴾ تَعْلِيلُ أَيِ عِلْمِي رَبِّي بِسَبَبِ أَنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ.. إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ، وَهَذَا التَّرْغِيبُ فِي عِلْمِهِ تَقْدِيمٌ لِدَعْوَتِهِمَا إِلَى التَّوْحِيدِ لِيَصْغِيَا إِلَيْهِ وَلِذَلِكَ آخِرُ الْجَوَابِ عَنْ سُؤْلِهِمَا عَنْ تَأْوِيلِ رُؤْيَاهُمَا وَذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي الدَّعْوَةِ.

فَقَوْلُهُ: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ يَبِينُ لَهَا أَنَّهُمْ أَيِ الْقَوْمِ عَلَى مِلَّةٍ بَاطِلَةٍ لَا يَرْضَاهَا رَبُّهُ وَعَدَمِ إِيمَانِهِمْ بِاللَّهِ لَشُرْكَهُمْ أَوْ لِانْكَارِ الْبَعْثِ اسْتِعْدَاداً لِلْقُدْرَةِ عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى.

وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ
بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَصْلَحِي السَّجْنَ ۚ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ
اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿وَاتَّبَعْتُ﴾ عطف على قوله: ﴿تَرَكْتُ﴾ أي علمني ربي بسبب ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ﴾ واني ﴿آتَّبَعْتُ﴾ وهذا موافق لقول الله تعالى: ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿مَا كَان لَنَا أَنْ نُنْشِرَكَ﴾ نفي مؤكد، كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبْدِلَهُ﴾ [يونس: ١٥] وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَا﴾ [النساء: ٩٢] أي لا يليق ذلك بجالنا، وقد مرَّ نظيره في قوله تعالى حاكياً: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ٨٩].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ أي تحريرنا من عبادة المخلوق وأمرنا بإخلاص العبادة لله هو نعمة من الله وفضل علينا وعلى الناس ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فليس لكما أن تقتديا بالمشركين الذين أهملوا عقولهم فتركوا شكر ربهم.

﴿يَصْصِحِّي السَّجْنَ﴾ أي صاحبي بسبب السجن الذي جمعنا ﴿ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ﴾ كما يزعم المشركون ﴿خَيْرٌ أَمِ اللَّهِ﴾ خير لا شك أن أربابهم المتفرقين ضعفاء لا يقدرّون على نفع ولا ضرر، ولذلك كانوا متفرقين تبعاً لفرق العابدين لهم، وكون ربوبيتهم المزعومة تابعة لجعل عابديهم لهم أرباباً، ولذلك قال بعد هذا الإحتجاج:

وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾
يَصْحَجِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ

﴿٤٠﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ ﴿٤١﴾ أَيُّ مَنْ دُونَ اللَّهِ ﴿٤٢﴾ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ ﴿٤٣﴾ وليست كما تسمونها فهي مجرد أسماء منكم بلا مسمى؛ لأن المسميات ما زالت كما كانت قبل أن تسموها أحجاراً أو تماثيل من أي جنس من نحاس أو غيره ولم يحصل لها إلا مجرد الأسماء بدون معنى الأسماء، وهذه التسمية لا صحة لها بل هي باطلة؛ لأن الحكم لله ليس لكم أن تحكموا بأنها أرباب.

﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وذلك لأن عباده مملوكون ليس لهم أن يحكموا في ملكه بما شاؤوا بل الحكم لله المالك لهم وللسموات والأرض فالحكم له في حال أنه ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ فهو الحكم من المالك لعباده على عباده فهو الحق.

﴿ذَلِكَ الدِّينُ﴾ الذي يُدِين به العباد ربهم ﴿الْقَيِّمُ﴾ الذي لا عوج فيه؛ لأنه الحق الذي لا يشوبه باطل ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحق بل خيم عليهم الجهل وتصرفوا بلا علم فضلوا فلا تقتدوا بهم، وبهذا تمت دعوته لصاحبي السجن إلى التوحيد وترك الشرك واجتنابه كله بحجة واضحة قريبة لفهمها ثم أول رؤياهما فقال:

فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ۚ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿١١﴾ وَقَالَ
لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ

﴿يَصْنَعِي السَّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا الْآخَرُ
فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ۚ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾
﴿رَبُّهُ﴾ أي سيده، وقوله: ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ﴾ قال الراغب: «والصلب
الذي هو تعليق الإنسان للقتل» انتهى، والأظهر: أنه شد الإنسان مربوطاً إلى
خشبة أو نحوها، وقد مر تفصيل القول فيه في تفسير (سورة المائدة).

وقوله: ﴿فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ يظهر منه: أنه يترك مقتولاً مصلوباً
حتى تأكل الطير من رأسه؛ لأنه ليس من عادة الطير أن تأكل من الإنسان
قبل موته، ويظهر: أن هذا تأويل رؤيا الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً
تأكل الطير منه.

وقوله: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي تطلبان الفتوى فيه، وهو
تأويل رؤياهما طلباً أن يفتيهما فيه ما هو، وفائدة قوله: ﴿فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾
تعريفهما أن هذا هو تأويل رؤياهما؛ لأنه لو قال: قضى ذلك لما تعين أنه
أراد أنه تأويل رؤياهما لطول الفصل بينه وبين قصصهما للرؤيا وطلبهما أن
ينبأهما بتأويل ما رآياه.

وفيما حكاه الشرفي: عن الحسين بن القاسم، أنه قال في تفسير قوله
﴿قُضِيَ الْأَمْرُ﴾: «أي قضى الملك الأمر الذي عنه تسألان، وهو هلاك
أحدهما ونجاة الآخر» انتهى، وقوله: ونجاة الآخر أي حتى يسقي ربه خمرأ؛
لأن تأويل رؤياه أنه يسقي ربه خمرأ لا أنه ينجو على الإطلاق.

رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿١٦﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَأْتِيهَا

﴿١٦﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَنَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا ﴿١٨﴾ وهو الذي أفاد أنه يسقي ربه خمرًا، وسبب ظنه لنجاته ظهور رضى الملك عنه، وسبب عدم القطع بنجاته احتمال أن يقتله الملك عقيب سقيه، إما لسكره، وإما لتجدد غضبه، واحتمال أن يُقتل بغير أمر الملك ولو تعدياً، فلا إشكال فيه بعد قوله: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ﴾.

وقوله: ﴿اَذْكُرْنِي﴾ أي قال يوسف: اذكرنى ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي عند سيدك، ولعله كان عبداً للملك فقال عند ربك كما يقال: رب الدار، وقوله تعالى: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ أي تذكير ربه في شأن يوسف؛ لأنه كان السجن على أنه لمدة محدودة ريثما يحصل الغرض به وقد حصل الغرض فلو ذكر الملك لأخرجه من السجن لكنه نسي، فالمعنى: فأنساه الشيطان هذا الغرض الذي هو تذكير ربه فلم يُذكره، ويحتمل: فأنساه الشيطان ذكر يوسف لربه كما أمره، فأضيف الذكر إلى ربه اختصاراً لوضوح المعنى من السياق، والأول أقرب عندي؛ لأنه غرض الشيطان حين أنساه ليبقى يوسف في السجن عداوة له.

وقوله: ﴿بِضْعَ سِنِينَ﴾ قالوا في تفسير البضع كما ذكره الشرفي: «من ثلاث إلى سبع، وقيل: من ثلاث إلى تسع، وقيل: من ثلاث إلى اثني عشر» انتهى، ورجح الراغب ما بين الثلاث إلى العشر، قال: «وقيل: بل هو فوق الخمس ودون العشرة» انتهى، ولم يذكر غير ذلك.

الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿١٢﴾ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمٌ
وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعَلَمِينَ ﴿١٣﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ

فأما (صاحب الصحاح) فلم يذكر إلا (ما بين الثلاث إلى التسع) وليس على
المفسر تعيين هذه المدة، فإن صح أنها سبع سنين بدليل صحيح ترجح ذلك وإلا
فالوقف أولى، وكفي إثبات البضع وقد اشتهر في تفسيره فوق الثلاث وهي مدة
طويلة، ومع أن ما فوقه يسمى كل عدد بضعاً إلى السبع أو إلى التسع أو إلى
العشر، فلا يفيدنا ذلك زيادة في تحديد المدة، فلا موجب للإشتغال بتحديد أكثر
البضع؛ لأن ما دونه يسمى بضعاً بلا إشكال فالتردد باق.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ
وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنْتُمْ
لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ ﴿سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ أي سبع بقرات عجاف، قال في
(الصحاح): «العَجَفُ بالتحريك: الهزال، والأعجف: المهزول» انتهى المراد.

و(السنبلات): جمع سنبلة وهي ما يبدو في الزرعة ويكون فيه الحب
﴿وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ أي وسنبال أخر يابسات قابل بين الخضر واليابسات؛ لأن
لون السنبلة من البر والشعير الخضرة حتى تيبس فإذا يبست تغير لونها.
وقوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُ﴾ لعله يعني وزرائه، وقوله: ﴿إِن كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا
تَعْبُرُونَ﴾ لم يكلفهم ما لا يعلمون وعبر الرؤيا أي فسرهما بما يناسب
ظاهرها أي إن كانت عادتكم أن تعبروا الرؤيا.

﴿قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعَلَمِينَ﴾ ﴿أَضْغَتْ﴾
جمع ضَغَتْ، قال الراغب: «الضغَتْ: قبضة ريمان أو حشيش أو قضبان»
انتهى أرادوا لفيف أحلام لا يستحق أن يُطلب له تأويل، ثم اعترفوا بعدم
العلم بتأويل الأحلام.

أُمَّةٌ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٥٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ تَزَرَّعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا

﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٥٦﴾ مِنْهُمَا﴾ من صاحبي السجن ﴿وَادَّكَرَ﴾ تذكر يوسف وتذكر قوله: ﴿ادْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ وعلمه بتأويل الرؤيا، فقال: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ﴾ أي آتيكم نبأ تأويله ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ إلى يوسف فعنده علم تأويل الرؤيا، وقوله: ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي بعد مدة.

﴿٥٦﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿يُوسُفُ﴾ أي يا يوسف ﴿أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ أي يا أيها الصديق أي كثير الصدق أو البليغ في الصدق وهذا الرسول قد عرف صدق يوسف بما جرب منه مما قال له في السجن، وفي الكلام إيجاز والمعنى فأرسلوه فقال ليوسف.

وقوله: ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ..﴾ إلى قوله: ﴿..يَابِسَاتٍ﴾ أي رؤيت في المنام أي أخبرنا بتأويلها، وقوله: ﴿وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ يفيد وجودها لا غير فالملك رآها موجودة أو حاضرة حوله وليس فيه أكثر من ذلك.

وقوله: ﴿لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ترغيب ليوسف في تأويل الرؤيا ليعلمها الناس لما في ذلك من مصلحة الناس؛ لأن العلم خير من الجهل وبالعلم يطلب الخير ويتقى الشر أو يستعد له.

فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي

﴿٤٧﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٨﴾ قوله: ﴿دَأْبًا﴾ أي دائبين على أن تزرعوا في السنين لا ينقطع زرعكم لجذب أو نحوه بل يستمر في أوقاته طوال السبع السنين، وقد قيل: إنه أمرهم بترك الحب في سنبله لئلا يأكله السوس، وهذا عندي غير صحيح؛ لأن ذلك لا يمنع من السوس، وهذا معلوم من خلال التجربة والملاحظة.

وقوله: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ﴾ فما قطعتم من الثمر ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ فاتركوه في سنبله لا تخرجوا الحب من السنبلات ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ في السبع وحوها، وفائدة ذلك أن يدخر بسنبله؛ إما لأن الشدة والجوع يحوجهم إلى أكل بعض السنبل وذلك معروف في سنبل الذرة؛ وإما لأنهم متى استخرجوا الحب من السنبل في وقت الشدة حافظوا على الحب من التبذير أكثر من محافظتهم عليه في وقت الخير وسعة الرزق وتساهلهم بما يتساقط منه.

﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٩﴾ سَبْعٌ شِدَادٌ أي سبع سنين شداد لا زرع فيها ولا مطر يرفع الشدة ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي تأكلون فيهن ما أحصتكم وحفظتم لهن في السنين السبع الأولى ونسب الأكل إليهن فلعل فيهن جوعاً هو من معنى شدتهن، وذلك أن غلاء الحب قد يكون معه جوع غالب زائد على المعتاد، وقد يكون الغلاء مع السلامة من الجوع وهو أهون.

مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿١٦﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلُهُ مَا بَالُ النَّسِوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاودْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ ائْتِنَا حَصْحَصَ الْحَقِّ أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْخَائِبِينَ ﴿١٩﴾

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ ﴿يُغَاثُ النَّاسُ﴾ يرزقون وتكشف عنهم الشدة ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ لكثرة الفواكه التي يعصرون منها مثل العنب، أو لكثرة العنب إن كانوا لا يعصرون غيره، والمراد التنبيه على رجوع الخصب وتوفر الثمر في ذلك العام، وإثبات أنهم يعصرون زائد على تأويل الرؤيا فلا بد أنه بوحى من الله.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ﴾ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلُهُ مَا بَالُ النَّسِوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿أَتُتُونِي بِهِ﴾ أي بيوسف، ولعله أراد أن يبقيه لديه لتأويل الأحلام ﴿قَالَ أَرْجِعْ﴾ قال يوسف للرسول ﴿أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ إلى سيدك ﴿فَسْأَلُهُ مَا بَالُ النَّسِوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي ما بالهن قطعن أيديهن، أو ما بالهن دعون يوسف إلى الفاحشة ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ ليوسف ﴿وَكَيْدِهِنَّ دَعَوْتُهُنَّ لَهُ إِلَى الْفَاحِشَةِ﴾.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاودْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ ائْتِنَا حَصْحَصَ الْحَقِّ أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ﴾ قال الملك

وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٦﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِسُ بِيَهٍ أَتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ

للنسوة: ﴿مَا خَطْبُكَ﴾ أي ما هو الباعث الكبير على مراودة يوسف عن نفسه ﴿قُلْ﴾ للملك ﴿حَسَّ لِلَّهِ﴾ تنزيهاً لله الذي عصم يوسف ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ فليس سبب المراودة سوءاً علمناه منه كأن الغالب على المراود أن لا يراود إلا من قد سبق منه فعل الفاحشة معه أو مع غيره فيتجرأ بذلك على مراودته فلذلك فهمن من سؤال الملك ما خطبكن هل قد علمتن منه سوءاً؟

﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ ائْتِنِي﴾ حال الحضور عند الملك وسؤاله وغيب يوسف ﴿حَصَّحَصَ الْحَقُّ﴾ أي وضح الحق؛ لأنني الآن أعترف بالحقيقة ﴿أَنَا رَاودَتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ لا أنه راودني عن نفسي ﴿وَأِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في قوله هي راودتني.

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ﴾ ﴿ذَلِكَ﴾ الإقرار بالحقيقة ﴿لِيَعْلَمَ﴾ يوسف ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ وهو غائب عني وأنا غائبة عنه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ أي ولأن الله لا يهدي ﴿كَيْدَ الْخَائِبِينَ﴾ فلا يجعل الله لهم بكيدهم خيراً خالصاً، بل يكون عاقبة كيدهم ضراً عليهم أي لا يجعل الله كيد الخائنين طريقاً إلى الخير ووسيلة له.

﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾ عطف على قولها: ﴿أَنَا رَاودَتُهُ﴾ تأكيد لإقرارها، ورجوع عن تبرئة نفسها فيما سلف، حين قالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ﴾.

قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٦٢﴾ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٦٣﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ

وقولها ﴿لَأَمَّارَةٌ﴾ أي كثيرة الأمر بالسوء، بسبب ما تهواه ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ من الأنفس فعصمها عن الأمر بالسوء أو إلا مدة رحمة ربي للنفس ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فبمغفرته ورحمته يعصم النفس ويلطف بها، والمغفرة هنا إما لما قد تاب منه العبد فيعصمه بعد التوبة؛ لأنه قد قبلها وغفر الذنب، وإما للصغير الذي لا يؤدي إلى استحقاق الخذلان والحرمان من اللطف، ونعني بالعصمة هنا اللطف، وكلامها على النفس التي هي الجنس العام للنفوس تجميل لا اعترافها بأن غالب البشر هكذا؛ لأن النفس أمارة بالسوء.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٦٤﴾ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴿٥٦٥﴾ فأبقيه لمعاونتي على أمري خالصاً لا يشاركني فيه أحد، وفي هذا أنه لا يرجع لخدمة امرأة العزيز، ولا يعمل لأحد غير الملك، وفيه إخراجه من السجن وإيصاله عند الملك ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ يوسف حين أتى قال له الملك ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ مكين: لك عندنا مكانة ومنزلة قريبة رفيعة، أمين لما مرّ عليك من التجارب التي أثبتت أمانتك.

قال الشريفي في (المصاييح): «وتقدير [وتقرير/ ظن] الكلام أن الملك عَظَّمَ اعتقاده في يوسف لوجوه:

أحدها: أنه عظم اعتقاده في علمه وذلك لأنه لما عجز القوم عن الجواب الموافق الذي يشهد العقل بصحته مَالَ الطبع إليه.

وثانيهما: أنه عَظُمَ اعتقاده في صبره وثباته؛ وذلك لأنه بعد أن بقي في السجن بضع سنين لما أذن له في الخروج لم يسارع إلى الخروج بل صبر وتوقف وطلب أولاً ما يدل على براءة حاله من جميع التهم.

وثالثهما: أنه عَظُمَ اعتقاده في حسن أدبه؛ لأنه اقتصر على قوله: ﴿مَا بَلُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ وكان غرضه ذكر امرأة العزيز فستر ذكرها وتعرض لأمر سائر النسوة، مع أنه وصل إليه من جهتها أنواعٌ عظيمة من البلايا، وهذا من الأدب العجيب.

ورابعها: براءة حاله من جميع التهم فإن الخصم أقر له بالطهارة والنزاهة والبراءة عن الجرم.

وخامسها: أن الساقى وصف له جدّه في الطاعات واجتهاده في الإحسان إلى الذين كانوا في السجن.

وسادسها: أنه بقي في السجن بضع سنين مع أنه لم يكتب إلى الملك ولم يلتمس منه تخليصه من السجن.

فهذه الأمور كل واحدة منها توجب حسنَ الاعتقاد في الإنسان فكيف مجموعها، فلهذا السبب حسنُ اعتقاد الملك فيه، وإذا أراد الله شيئاً جمَعَ أسبابه» انتهى.

قلت: أما الثالث، فالراجع: أنه من جودة الرأي والتدبير.

﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿قَالَ﴾ يوسف للملك ﴿أَجْعَلْنِي﴾ والياً ﴿عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ الأموال المخزونة العامة، والمراد بالأرض ما تحت دولة الملك منها.

وقوله: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ بيان لكفاءته لهذه الولاية فهو يحفظ ما تحت يده، وهو عليم كيف يتصرف في المال لمصلحة الشعب، وعليم بما يحتاج

نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا جُرْ أَلَاخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ

من الحساب، وعليم بالكتابة وغير ذلك، ولا إشكال أنها كانت له ولاية شرعية صح لأجلها أن يأخذ الولاية من الملك وصح لأجلها أن يعمل في مصلحة الشعب توصلاً إلى إصلاحه أو تمكين الدين فيه، ولعل ذلك كان بوحى من الله تعالى، يبين له تحقق المصلحة العظيمة الدينية بسبب ولايته وعمله في مصلحة الشعب، ويرخص له في مباشرة العمل لمصلحتهم، توصلاً إلى إصلاحهم أو إصلاح جمهورهم، ولو من جهة التوحيد وترك الشرك، وعزة الدين وخمول الباطل، وترك المجاهرة بالمنكرات - والله أعلم.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿وَكَذَلِكَ﴾ التمكين الذي هو جعل يوسف على خزائن الأرض ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ بعد هذا التمكين ﴿يَتَّبِعُوا مِنْهَا﴾ يتخذ مباءة مقراً ومسكناً ﴿حَيْثُ يَشَاءُ﴾ لتمكنه رحمة له.

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ ولا استطاع دفعها؛ لأن الله غالب على أمره، ولا يستفيد حاسده أو عدوه إلا الغم ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ولذلك ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ولا تنقص عليه رحمتنا له بالتمكين في الأرض لا تضيع عليه شيئاً من أجره.

﴿وَلَا جُرْ أَلَاخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ أجر الآخرة: الثواب في الآخرة خير من أجر الحياة الأولى للذين استحقوه بالإيمان والتقوى المتكررة في الحياة الدنيا التي ختم لهم بها، وهذا في غير المعصوم لعموم الآية.

فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنْتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَّمْ

فأما المعصوم فتكرر التقوى منه بتكرر الابتلاء والاختبار؛ لأنهم كانوا ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الاعراف: ٢٠١] أو كلما أذنوا تابوا ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾

عرفهم أنهم إخوته وعرف كل واحد منهم، ولعل ذلك بزيادة ذكائه وحفظه، وكونه فارقههم وهم شباب ﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ لا يخطر ببالهم أن يتأملوا فيه ويتعرفوا لمكان ملكه وتمكينه في الأرض وهم فارقه صغيراً.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنْتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ ﴿جَهَّزَهُمْ﴾ يوسف للسفر بعد أن وفر لهم الطعام الذي جاءوا له أو أن توفير الطعام من جملة الجهاز لترتب سفرهم عليه، وقوله: ﴿بِجَهَّازِهِمْ﴾ أي الذي قد أعطاهم أو الذي يليق بجاههم ويحتاجون إليه.

﴿قَالَ أَتُنْتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ لأعطيه مثل ما أعطيت الواحد منكم من الطعام وأنزله مثل إنزالي لكل واحد منكم، وفي تنكيره دلالة على أنه لم يسبق فيه كلام بينه وبينهم، خلاف ما تظن بعض المفسرين؛ لأنه لو سبق بينه وبينهم ذكره ووصف حاله كما زعموا لقال يوسف: «بأخيكم».

وقوله: ﴿أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ ترغيب لهم في العودة للميرة وفي الإتيان بأخيهم ليزدادوا حِمْلَ بغير من الحب، ويحتمل أنه اكتفى بقوله: ﴿أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ ليوهمهم أنه

تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ ﴿١﴾ قَالُوا سُرَّوْدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٢﴾ وَقَالَ لِفَتَيَيْنِهِ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا أُنْقَلِبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٣﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا

طلب أخاهم لهذا الغرض إيهاماً ومراده خلافه أي تخليصه من بين إخوته بإذن الله، وهذا هو الراجح، والتُّزَلُّ: ما يُهَيَّأ للضيف من الطعام وغيره، والمنزلون المضيفون.

﴿١﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ ﴿٢﴾ بِهِ﴾ بهذا الأخ المطلوب ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾ لا أكيل لكم طعاماً ﴿وَلَا تَقْرُبُونِ﴾ فلا حق لكم في الضيافة بعد هذا.

﴿٣﴾ قَالُوا سُرَّوْدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٤﴾ سُرَّوْدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ نحاول منه إرساله معنا كما راودناه عن يوسف ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ لنا نيك به كما أمرت فقد جربناه لا يمنعنا أو إذا منعنا سرقناه فجئنا به لضرورة إطعام أهلنا.

﴿٥﴾ وَقَالَ لِفَتَيَيْنِهِ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا أُنْقَلِبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦﴾ وَقَالَ لِفَتَيَيْنِهِ﴾ وقال يوسف لخدمته الشباب أو عبيده الشباب ﴿اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ﴾ التي جاءوا بها اجعلوها ﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾ ليردوها معهم، و(الرحال): أقتاب الإبل وما عليه من أوعيتهم ونحوها، والراجح: أن البضاعة كانت خفيفة لا يضر الإبل حملها مع الحب، وذلك يُقَرِّب إلى معرفة أنها كانت من الجلود الخفيفة.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾ أي فيعرفوا أنها ردت إليهم، وفي هذا ترغيب في العودة إن كان معهم أخوهم؛ لأنه يشير إلى سماحة عظيمة؛ لأنها كانت عوض الحب الذي معهم فقد أخذوه مجاناً، ويفيد: أنه يعطيهم بها الحب متى رجعوا،

يَتَأَبَّانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾
 قَالَ هَلِ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ
 حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ

وفيه ترهيب من أنه لا يقبلهم إن رجعوا وليس أخوهم معهم؛ لأن إرجاع
 بضاعتهم يقطع أملهم؛ لأنه يدل على أنه لا رغبة في بضاعتهم.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لأنه احتياط لرجوعهم إليه؛ لأنهم إذا لم
 يكن بقي عندهم ما يمتارون به فقد يتركون لذلك الرجوع لعدم البضاعة
 وليس عندهم ثمن غيرها فإرجاع بضاعتهم احتياط لئلا يعجزوا عن العودة
 التي رغبهم فيها بالميرة.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَتَأَبَّانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا
 آخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ﴿إِلَى أَبِيهِمْ﴾ كان اتجاههم إلى أبيهم
 ليرادوه عن ابنه، فهو مهمتهم مع أنهم راجعون إلى أهلهم وبلدهم ﴿قَالُوا
 يَتَأَبَّانَا﴾ مستعطفين له بقولهم: ﴿يَتَأَبَّانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ بدأوا بالحجة التي
 لأجلها يطلبون إرسال ابنه ﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ ونحن لا بد لنا من الطعام
 الضروري للحياة ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا﴾ هكذا أخانا إظهاراً للعطف عليه؛
 لأنه أخوهم لئلا يخافهم أبوه على ابنه بعدما قد فرطوا في يوسف ليكتالوا
 وقالوا: ﴿إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فضلاً عن أن نعتدي عليه نحفظه من الضياع
 ومن عدوان غيرنا.

﴿قَالَ هَلِ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ
 خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿هَلِ ءَامَنُكُمْ﴾ لا آمنكم ﴿عَلَيْهِ إِلَّا
 كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ﴾ يوسف ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ فإني لم آمنكم على أخيه

رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَتَّابَانَا مَا نَبَغِي هَذِهِ بَضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٦﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنِنِي بِهِ إِلَّا أَنْ تُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا

لقولكم: ﴿إِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ﴾ ﴿وَأِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ إنما أمنتكم لثقتي بالله أنه يحفظه ويحبيبه فأرسلته معكم؛ لأنني ﴿أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حِفْظًا﴾ ليوسف ولأخيه ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ لهما ولي ولمن أراد رحمته، وحاصل هذا الجواب أني لا أمنتكم عليه لوعدكم بحفظه، بل إن أرسلته معكم فلرجائي أن يحفظه الله؛ لأنني ﴿أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَتَّابَانَا مَا نَبَغِي هَذِهِ بَضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ ﴿مَتَاعَهُمْ﴾ أوعيتهم التي فيها بضاعتهم المردودة عليهم ﴿وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ فازداد جدُّهم في طلب أبيهم لإرسال أخيهم ليكتالوا بالبضاعة التي ردت إليهم ﴿قَالُوا يَتَّابَانَا مَا نَبَغِي﴾ ما نطلب إذا لم نرجع إلى مصر إلى عزيز مصر أنطلب القوت من غيره فلن نجده أم نختار أكل الأنعام وترك الحب أم نجد سبباً غير ذلك نطلبه.

﴿هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ فلا نتكلف للعودة بضاعة أخرى ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ نشترى لهم الحب ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ فالذي نطلبه خير خالص لا شرٌّ فيه ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ لأخينا أي نكتال زيادة حمل بعير أي كيل حمل بعير من الحب ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ سهل؛ لأن البضاعة نكتال بها على عدد إبلنا أحمال حب فإذا زادت الإبل زاد الحب من دون زيادة البضاعة.

ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ

﴿٢٦﴾ قَالَ لَنِ أَرْسِلُهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِنِي بِهِ - إِلَّا أَن تُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ ﴿٢٨﴾ يَعْقُوبُ لَبْنِيه ﴿٢٩﴾ لَنِ أَرْسِلُهُ أَي لَنِ أَرْسِلُ أَخَاكُمْ ﴿٣٠﴾ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ ﴿٣١﴾ مَا يُوَثِّقُ بِهِ وَيَعْتَمِدُ عَلَيْهِ فِي حُكْمِ اللَّهِ وَتَشْرِيعِهِ وَهُوَ الْعَهْدُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ مَوْثِقًا بَيْنَ عِبَادِهِ ﴿٣٢﴾ لَتَأْتُنِنِي ﴿٣٣﴾ بِأَخِيكُمْ هَذَا ﴿٣٤﴾ إِلَّا أَن تُحَاطَ بِكُمْ ﴿٣٥﴾ أَي إِلَّا تُغْلَبُوا وَتَقْهَرُوا فَتَعْجِزُوا عَنِ إِيْتَانِي بِهِ، وَلَعَلَّ أَصْلَ اسْتِعْمَالِ الْإِحَاطَةِ فِي الْأَمْرِ الْغَالِبِ إِحَاطَةُ الْعَدُوِّ بِالْإِنْسَانِ بِمِثْلِ يَعْجِزُ عَنِ التَّخْلُصِ مِنْهُمْ ثُمَّ اسْتَعْمَلَ فِي الْأَمْرِ الْغَالِبِ الْمَهْلِكِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَطَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس: ٢٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيبَتُهُ﴾ [البقرة: ٨١].

قال في (لسان العرب): «وَأَحِيطَ بِفُلَانٍ: إِذَا دَنَا هَلَكَهُ فَهُوَ مُحَاطٌ بِهِ، قَالَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبَحَ يَقْلَبُ كَفِيهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٤٢] أَي أَصَابَهُ مَا أَهْلَكَهُ وَأَفْسَدَهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَن تُحَاطَ بِكُمْ﴾ أَي تَوْخِذُوا مِنْ جَوَانِبِكُمْ» انتهى المراد، وقال الشُّرْفِيُّ فِي (المصَابِيح): «أَي تَغْلَبُوا عَلَى أَمْرِكُمْ أَوْ تَمُوتُوا» انتهى.

وفائدة أخذ العهد عليهم: أَن يَأْتُوا بِهِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَرِيدُ مَجْرَدَ حِفْظِهِ وَإِنِ بَقِيَ غَائِبًا عَنْهُ كِيُوسُفَ فَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ يُوسُفَ مُحْفُوظٌ وَلَكِنَّهُ يَحْزَنُهُ غِيَابُهُ، وَيَخَافُ أَنَّ يَغِيبَ عَنْهُ أَخُوهُ وَإِنِ بَقِيَ فِي حِفْظِ اللَّهِ، كَمَا أَنَّ فَائِدَةَ الْعَهْدِ: إِلْزَامُهُمُ الدِّفَاعَ عَنْهُ إِنْ عَرِضَ عَدَوَانٌ عَلَيْهِ وَإِنِ أَذَى الدِّفَاعِ إِلَى قَتْلِهِمْ أَوْ أَسْرِهِمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا الدِّفَاعَ، وَهَذَا فَائِدَةُ قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا أَن تُحَاطَ بِكُمْ﴾.

شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٢٧﴾
 وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ
 شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ
 وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ لم يقل موثقاً أو الموثق وأضافه إليهم؛
 لأنه غرضهم للتوصل إلى إرسال أخيهم معهم، وقوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا
 نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي قال أبوهم الله على ما نقول وكيل أي على عهدكم وما قلت
 لكم فأكل إليه أمركم في رعاية العهد وأمرى في أخذه عليكم.

﴿وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا
 أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
 الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ لا تدخلوا القرية من باب واحد
 وادخلوها ﴿مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ إن
 عصيت أمرى فدخلتم من باب واحد؛ لأن هذا حكم الله عليكم حيث أمركم
 بطاعتي، فاتقوه وراقبوه ولا تتهاونوا بأمرى، وليس لكم الخيار في حكم الله، أو
 أن تحكموا برأيكم وتعطلوا عن حكمه، فهذا تأكيد لنهيهم عن الدخول من
 باب واحد، ودلالة على أنهم إن خالفوه عصوا الله وتعرضوا لعقابه.

وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي في إرسالى إياكم وإرسالى ابني معكم وفي كل
 أموري ﴿وَعَلَيْهِ﴾ وحده ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ لأنه الذي لا يغفل عما
 وكل إليه ولا يعجز عن رعايته وهو على كل شيء وكيل.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ
 اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ
 وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ﴾ امثلوا أمره

فدخلوا من أبواب متفرقة في حال أن أباهم ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وإن دخلوا من حيث أمرهم أبوه فطاعته في هذا لا تكفيهم ولا بد لهم من تقواه في كل أمرهم، فلم يأمرهم من أجل أن يغني عنهم إن امتثلوا أمره من الله شيئاً لكن أمرهم لحاجة في نفسه قضاها بهذا الأمر، وقد أبهمها البارئ، فليس لنا أن نتطفل فنبينها ما هي.

وقد قيل: إنها سلامتهم من العدوان عليهم والعدوان لا يختص بحال الدخول وهم مجتمعون في سفرهم وبعد دخولهم، وإذا كان في الظن إرضاء للقارئ فأظن أن حاجته أن لا يفوتهم يوسف لو دخلوا من باب واحد وخرج من الباب الآخر؛ لأن أباهم كان يعلم أن يوسف ما زال موجوداً وسيأتي أمره لهم بأن يتحسسوا من يوسف وأخيه.

وأما قوله تعالى: ﴿قَضَيْتُهَا﴾ فيحتمل أن المعنى قضاها الله، وقد مر ذكر الجلالة قريباً وهذا يناسب إذا كان المراد قضى الله حاجته بسلامتهم من العين أو غيرها، ويناسبه قوله: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حِفْظًا﴾ ويناسب إذا كان المراد قضى الله حاجته بوجدان يوسف ثم بالجمع بينهما.

ويحتمل: أن الضمير ليعقوب عليه السلام أي قضى يعقوب الحاجة التي في نفسه بنهيهم عن دخولهم من باب واحد، وأمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة، فالمعنى: أنه كان محتاجاً إلى نهيهم المذكور وأمرهم المذكور فقضى بالنهي والأمر حاجته، وهذا يوافق في المعنى تفسير من قال: إنه خاف عليهم العين، أي أنه احتاج إلى استعمال السبب ليحفظهم الله، ويوافق تفسير الحاجة بتحصيل يوسف، أي أنه كان محتاجاً إلى أمرهم ونهيهم لقوة رغبته في أن يتفقوا بيوسف عند دخولهم أو في القرية.

نعم.. والمشهور بين المفسرين: أنه خاف عليهم العين، وأن الحاجة سلامتهم منها، قال الشرفي في (المصابيح): «وفي هذه الآية يقول الهادي عليه السلام: هذا أمر يعقوب - صلى الله عليه - لجماعة بنيه حين خرجوا عنه مسافرين فخاف عليهم من النفس، وعيون الناظرين، فأمرهم عند دخول القرية بأن لا يدخلوا جملة واحدة لما كانوا عليه من كمالهم وكثرتهم وجمالهم، وكانوا أحد عشر رجلاً لم ير مثلهم جمالاً ولا كمالاً، فخاف عليهم وأشفق - صلوات الله عليه - من أن يراهم أهل تلك البلدة مجتمعين جماعة واحدة على ما هم عليه من كمالهم وحسنهم وجمالهم، فأمرهم أن يتفرقوا، وأن يدخلوا من أبواب متفرقة؛ شفقة عليهم من العين والنفس، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضْنَهَا﴾ يخبر سبحانه أن الحذر للنفس والعيون لا ينفع إلا بدفاع الله وتوفيقه ولطفه وحفظه» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ أي وإن يعقوب صلى الله عليه لما علمه الله، ولذلك كان يعلم أنه لا يغني عنهم من الله شيئاً وأن الله هو الذي يحتاج عباده أن يتوكلوا عليه فينفعهم التوكل عليه، وكان عنده من علم النبوة ما علمه الله و(اللام) في قوله تعالى ﴿لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ تحتمل لام التعليل و(ما) مصدرية، وتحتمل لام التقوية لإيصال ﴿عِلْمٍ﴾ إلى معموله - والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فأكثرهم جاهل بأن الله غالب على أمره لا ينظر إلا إلى الأسباب الظاهرة، وهو غافل عن الله، وكذلك لا يعلم وجوب التوكل على الله ونفعه للمتوكلين عليه.

إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذْنُ مُؤَدِّنُ أَيُّهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسْرِقُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا نَفَقْدُ

﴿٦٦﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا ﴿٦٨﴾ أَي إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴿٦٩﴾ عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴿٧٠﴾ جَعَلَ مَأْوَاهُ وَمَقَرَّهُ إِلَيْهِ فِي مَسْكَنِ يُوسُفَ، قَالَ لِأَخِيهِ مِنْ أُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَيُقَالُ: اسْمُهُ بَنِيَامِينَ ﴿٧١﴾ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ ﴿٧٢﴾ أَي يُوسُفَ فَخَصَّهُ مِنْ بَيْنِهِمْ بِإِيْوَائِهِ إِلَيْهِ وَبِتَعْرِيفِهِ أَنَّهُ أَخُوهُ يُوسُفَ، لِيُطْمَئِنَّ قَلْبُهُ عَلَى أَخِيهِ يُوسُفَ، وَتُسَرُّهُ سَلَامَتُهُ وَنِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَيَذْهَبُ عَنْهُ ابْتِئَاسُهُ، أَي تَأَثُّرُهُ وَغَمُهُ وَضَعْفُهُ بِسَبَبِ مَا كَانَ إِخْوَتُهُمَا يَعْمَلُونَ.

وقوله: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ نهي عن ابتئاسه في المستقبل؛ لأنه قد زال السبب وصارا في عز ونعمة وتحرراً من إخوتهم ولعلهم قد ظلموهما فأراد ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إساءتهم إليهما إلى يوسف من قبل وإلى أخيه من بعد فيما مضى.

قال في (الصحاح): «ولا تبتئس: أي لا تحزن، ولا تشتك، والمبتئس: الكاره والحزين، قال حسان بن ثابت:

ما يقسم الله أقبل غير مبتئس منه واقعد كريماً ناعماً بال»

﴿٧٣﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذْنُ مُؤَدِّنُ أَيُّهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسْرِقُونَ ﴿٧٤﴾ جَهَّزَهُمْ ﴿٧٥﴾ أَي لِلْعَوْدَةِ إِلَى آبِيهِمْ ﴿٧٦﴾ بِجَهَّازِهِمْ ﴿٧٧﴾ الَّذِي هُوَ الْحَبُّ وَمَا يَحْتَاجُونَ فِي اسْتِعْدَادِهِم لِلسَّفَرِ وَفِي السَّفَرِ ﴿٧٨﴾ جَعَلَ السَّقَايَةَ ﴿٧٩﴾ إِنَاءٌ يُشْرَبُ بِهِ وَيُسْتَعْمَلُ لِلْكَيْلِ، وَفِي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «وهي مكيال يكال به ويشرب فيه» انتهى.

صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ

وهذا واضح من تسميته (صواعاً) وتسميته (سقاية) ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ في أداة السفر التي مع القتب، فهو الوعاء الذي فيه الحب ﴿ثُمَّ أَذَّنَ﴾ دعا بصوت رفيع ﴿مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ﴾ أي يا أهل العير أي الإبل الذاهبة ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ وهذا كلام يوجعهم ويحرك همهم للتحللص من التهمة.

﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ﴾ ﴿قَالُوا﴾ أي إخوة يوسف ﴿وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ﴾ على المؤذن ومن معه ﴿مَاذَا تَفْقَدُونَ﴾ ما الذي غاب عنكم ولم تجدوه فزعمتم أنا سرقناه.

﴿قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ ﴿وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ جعالة كالأجر لجيئه بالصواع أي حمل بعير من الحب، والبعير يستعمل للواحد من الإبل ذكراً كان أم أنثى، وقوله: ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ أي وأنا به كفيل.

والجمع في ﴿قَالُوا﴾ والإفراد في ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ لأن المؤذن قال عن نفسه وعن حوله فشاركوه بالرضى فنسب القول الأول إليهم جملة، وأفرد في قوله ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ لأنه قاله عن نفسه خاصة، تأكيداً لالتزامه به وليرضي إخوة يوسف بوحدة غريمهم الملتزم بحمل بعير.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ أن مجيئنا للميرة لا ﴿لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ بأخذ المكيال ولعله كان يحافظ عليه الملك؛ لأنه معيار للمكاييل في البلد، فإذا ضاع لم يعرف الناقص من المكاييل وكان ذلك سبباً لبخس الناس أشياءهم فهو فساد عام، وقولهم: ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ تنزيهه لأنفسهم عما نسب إليهم.

إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ۚ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ ۚ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ ۚ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ

﴿٧٤﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٥﴾ ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ أي جزاء الصواع أي جزاء أخذه، أو فما جزاء سارقه ؟ ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ بانكشاف الصدق حين نبحت عنه في متاعكم ونعرف أنه مع أحدكم.

﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ۚ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ ﴿قَالُوا﴾ أي إخوة يوسف ﴿جَزَاؤُهُ﴾ أي الصواع أو أخذه ﴿مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ﴾ تأخذونه عبداً لكم عقوبة له ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ فقولهم: ﴿جَزَاؤُهُ﴾ مبتدأ خبره محتمل أنه الموصول أي ﴿مَنْ﴾ وقولهم: ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ أي الجزاء الذي يستحقه، ويحتمل: أن ﴿مَنْ﴾ اسم شرط وهي وفعلها وجوابها خبر المبتدأ، أي جزاء السرقة من وجدت في رحله فهو جزاؤها، والأول أظهر. وقولهم: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي نشدد في عقوبة الظالمين أي عادتنا التشديد عليهم؛ لأننا ننكر الظلم ونحاربه.

﴿٧٦﴾ ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ ۚ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ ۚ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿فَبَدَأَ﴾ يوسف بأوعية إخوته لأبيه ففتحها يومهم أنه يبحث عن السقاية ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا﴾ أي السقاية ﴿مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ﴾ لأبيه وأمه فتمت الحيلة لأخذ أخيه وإبقائه عنده.

والذي أعتقد أن يوسف عليه السلام عرف أن أخاه كان مظلوماً بسبب غيرة إخوته وجراتهم على أذية أبيهم، وأنهم كانوا يضربون بنيامين مثلاً ويتعللون بتأديبه أو نحو ذلك.

وكان يشق على أبيهم ظلمه جداً ولا يدري كيف يصنع؛ لأنه إن شدد عليهم في النكير ازداد حنقهم على بنيامين وخاف أن يدبروا حيلة لقتله فكان أبوهم يضطر إلى مصانعتهم فكان تخلص بنيامين من إخوته مطابق لغرض أبيهم، وكانوا يستحقون ما لحقهم من الغم بسبب التدبير من يوسف لأخذه والحيلة التي غمتهم أمدأ يسيراً حتى تبين أن السقاية في رحل أخيه، أما أخوهم فقد عرف يوسف وأحب إيواؤه له، فالحيلة لا تحزنه بل هي مطابقة لغرضه.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي كدنا ليوسف مثل هذا الكيد ليخلص أخاه ويبعده عن ظلم أخوته، فهذا كيد ظاهر وحيلة ضد إخوته، الذين قالوا سابقاً: ﴿لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا﴾ فكادوا ليوسف، وكان كيدهم ذلك كيداً ليوسف لا عليه؛ لأن تخلصه من ظلمهم وكيدهم أصلح له، ولو بقي عندهم لكان ظلمهم له مستمراً، أو لدبروا لقتله فكان غمه عند ظلم إخوته له وإنزاله في الحب وما تبعه أقل مما يناله لو بقي عندهم؛ فلذلك كان كيدهم ذلك كيداً له لا عليه.

وكذلك كيد العزيز وامراته حين بدا لهم ليسجنه كان له لا عليه؛ لأنه قد اختار السجن ليتخلص من كيد النساء وبقاؤه في السجن لا يهمه مع سلامة دينه، وكونه سجيناً خالياً عن التعذيب، ولم يفوت عليه العمل بطاعة الله والدعوة إلى الله، وسلم من محنة مراودة امرأة العزيز مع شبابه، وكمال قوته.

فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَتَّبِعُهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُدَّ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا

فقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ دبرنا له تلك الحيلة التي بها أخذ أخاه، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ تعليل للحيلة التي تمكن بها من أخذ أخيه أي لم يأخذه بغير حيلة ولا بحيلة يعرفها الملك؛ لأنه ما كان ذلك ممكناً؛ لأن الدولة تمنع من ذلك فاحتاج إلى الحيلة وقد هانت على إخوته؛ لأنها انتهت ببراءتهم من السرقة ولا يبالون بنسبتها إلى أخيه، وأخوهم لا يبالى لمعرفة المراد بها، هذا في الإحتيال يجعل السقاية في رحل أخيه، فأما رميهم بالسرقة فهو قول المؤذن، ولعله بدون أمر يوسف، إنما أمر بالسؤال عن السقاية والبحث عنها إن كانت معهم، فظن المؤذن أنهم سرقوها، فلم يصدر الكذب من يوسف، والمؤذن مخطئ غير متعمد، وكذا قوله: ﴿نَفَقْدُ صَوَاعِ الْمَلِكِ﴾ مع أنه صدق في حق المؤذن ومن معه، ولعل يوسف لم يكن حاضراً في تلك الحال، إنما خرج إلى إخوته حين رجعوا وبلغه رجوعهم.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ استثناء لحالة تقتضي الرخصة ليوسف في أخذ أخيه بحق.

وقوله تعالى: ﴿تَرْفَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ نَّشَأٍ﴾ فهو إشارة إلى رفع درجة يوسف وأخيه لأبيه وأمه، وقوله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ فقد كان يوسف - صلى الله عليه - يعلم من الوجه والحجة لأخذ أخيه ما لا يعلم الملك، ويعلم من الله بالوحي ما لا يعلم الملك ولا إخوته.

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِن قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ ﴿قَالُوا﴾

أي إخوة يوسف لأبيه ﴿إِنْ يَسْرِقْ﴾ أي أخوه لأبيه وأمه ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ لأبيه وأمه أي نحن لا نسرق وليس من شأننا ولا يليق بنا؛ وإنما سرق هذا؛ لأنه على أم وحده غير آمن، وقد ﴿سَرَقَ أَخٌ لَّهُ﴾ من أبيه وأمه ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي لأنه كذلك ليس منا وإن شاركنا في الأب، كأنهم يعللون السرقة بانفرادهما بأم، لأن الإخوة قد يختلفون في الصلاح تبعاً لاختلاف أمهاتهم كما يشاهد في بعض الناس.

وقد كان يكفيهم ظهور براءتهم من سرقة السقاية، ولم يكونوا محتاجين إلى هذا؛ لأنها لا تزر وازرة وزر أخرى ولكنهم ما زالوا ظالمين ليوسف وأخيه، وهذا يؤكد استحقاقهم لما لحقهم من الغم لأجل الحيلة لأخذ أخيه.

وقوله تعالى: ﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفُ﴾ أي أسر كلمتهم هذه ﴿فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ من بعد حلمه وكرمه بل سكت عنها ولم يعاتبهم عليها مع أنها كذب على يوسف وبدون ضرورة.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا﴾ أي قال يوسف ردّاً لكلام إخوته وإظهاراً لعدم تصديقهم فيما نسبوا إليه وإلى أخيه ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا﴾ أي أن حالتكم وما أنتم عليه من الفقر والعناء ومتابعة الأسفار لطلب القوت قد تحمل صاحبها على السرقة، أما أخوكم هذا فلم يشارككم في السفر إلا هذه المرة وكان في رعاية أبيه، فهو أبعد عن الحاجة إلى السرقة، وكذا أخوه لم يشارككم في حالتكم المذكورة، ولم تظهر منه الحاجة إلى أن يسرق، فأنتم شر منهما مكاناً ومنزلة وحالة ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ وتدعون لأنفسكم وضد أخويكم أنتم فيه صادقون أم كاذبون.

مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعْنَا عَنْدَهُۥٓ إِنَّا إِذَا لَطَلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَتَّابَانَا

﴿٧٨﴾ قَالُوا يَتَّابَانَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴿٨٠﴾ هذا يفيد أن بنيامين كان صغيراً بحيث يكون أبوه شقيقاً عليه ويصعب عليه فراقه لصغره، فكان قولهم: ﴿إِنَّ لَهُ أَبًا﴾ كافياً في استعطاف العزيز؛ لأنه يرى أخاهم ولا يحتاج إلى أن يصفوه بالصغر وهذا يدل على أن المدة لم تطل في غياب يوسف عن أبيه كما قيل إنها كانت أربعين سنة؛ ولعلها لا تزيد على أربع عشرة سنة على أقل تقدير؛ لأن بنيامين كان موجوداً قبل غياب يوسف فلو كان غياب يوسف أربعين سنة لكان بنيامين قد صار كهلاً.

﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعْنَا عَنْدَهُۥٓ إِنَّا إِذَا لَطَلِمُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ ﴿يُوسُفَ، فالراجح: أنهم أرادوه وهو على خزائن الأرض بقولهم: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ ولو أرادوا الملك لقالوا يا أيها الملك ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أي نعوذ بالله من ﴿أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعْنَا عَنْدَهُۥٓ﴾ أي السقاية ﴿إِنَّا إِذَا﴾ لو أخذنا غيره ﴿لَطَلِمُونَ﴾ لمن أخذناه لأنه بريء ويأتي ما يدل على أنهم يقولون ليوسف: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ لأنهم لما يعرفوه.

﴿٨٠﴾ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ

إِنَّ أَبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَأَلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ

الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٢﴾ أَسْتَيْسُوا ۖ
من العزيز الذي هو في الواقع يوسف أيسوا منه أن يرسل بنيامين معهم؛
لأنه لم يقبل منهم استعطافاً لأبيهم ولا فدية بواحد منهم ولعل فائدة زيادة
[السين، والتاء المثناة من فوق] ولم يقل: فلما أيسوا، الدلالة على أنهم
غلبهم اليأس واستسلموا له بعد مدافعته.

وقوله تعالى: ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ خلصوا من بين الناس وانفردوا ﴿نَجِيًّا﴾
متناجين أي متسارين يخفون ما يقولون عن العزيز وغيره ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾
لإخوته ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ وهو قوله:
﴿حَتَّى تُؤْثِقُوا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُونِي بِهِ﴾ وقال كبيرهم لهم: ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا
فَرَطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ أي وتفريطكم في يوسف من قبل، فكيف يصدقكم
أبوكم ولا يهتمكم بالتفريط في بنيامين كما فرطتم في يوسف.

وقوله: ﴿فَلَنْ أَتْرَحَ الْأَرْضَ﴾ أي لن أفارق قرار الأرض أي أبقى ولا
أعود إلى أبي على هذه الحالة، وقوله: ﴿فَلَنْ أَتْرَحَ الْأَرْضَ﴾ تعبير عن عدم
العودة، من حيث هو تعبير عن ترك ركوب البعير، فكأنه قال: لا أركب إلى
أبي ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ بالعودة ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ بوحى إلى أبي أن أرجع
﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فهو يعلم براءتي في هذه المرة.

﴿أَرْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَتَّابَانَا إِنَّ أَبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا
بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ ﴿أَرْجِعُوا﴾ أي قال كبيرهم لإخوته
﴿أَرْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَتَّابَانَا إِنَّ أَبْنَكَ سَرَقَ﴾ صواع الملك فغلبنا

﴿٥٨١﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٥٨٢﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنَاسْفَىٰ عَلَىٰ

عليه ﴿وَمَا شَهِدْنَا﴾ أنه سرق ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ ولم يكونوا عالمين أنه سرق؛ لاحتمال أن الصواع وضعه في رحل أخيهم غيره، أو أنهم كالوا الحب به ونسوه بين الحب، أو جعله الكيال فيه غلطاً أو غير ذلك، فهم لم يعلموا إلا أنه كان في رحل أخيه وأنهم هم الذين حكموا بأخذ من وجد في رحله ولم يقولوا: من سرقه؟

وقولهم: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ أي أن سرقة للصواع خفيت علينا وغابت ولم نعلم بها إلا حين أخذه العزيز من متاع بنيامين فكيف نحفظ ما هو غيب ونحن لا نعلم الغيب، فلا إثم علينا بسبب العهد ولا بأخذ العزيز لبنيامين.

﴿٥٨٢﴾ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿٥٨٣﴾ أَي قُولُوا لِأَبِيكُم: ﴿وَسَلِّ﴾ أهل ﴿الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ فهم يعلمون أن ابنك سرق، وأهل العير ﴿الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي أهل الإبل الذين صاحبناهم في العودة إليك ﴿وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ لم نكذب في قولنا: إنه سرق.

﴿٥٨٤﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٥٨٥﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ أَي قَالَ أبوهما حين رجعا إليه وقالوا له من القول ما أمرهم أخوهم الذي تخلف قال لهم أبوهما: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أي ليس الواقع ما قلتم فابني لم يسرق بل سولت لكم أنفسكم أمراً سهلته وزيته لكم.

يُوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُوْا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُوْنَ حَرَضًا أَوْ تَكُوْنَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾

وهذا صحيح فإنهم غلطوا في حكمهم ﴿مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ ثم اتبعوه التسليم بأن بنيامين سرق الصواع استمراراً في الغلط وكان هذا مطابقاً لهوى أنفسهم في بنيامين الذي ما زالوا يحسدونه على حب أبيهم، ولولا هوى نفوسهم لكان ينبغي لهم أن يحيلوا حكم من سرقه إلى العزيز، فيقولوا: جزاؤه ما حكم به العزيز عليه، ولا يحكموا بعبودية أحدهم وأخذ العزيز له، وهم يعلمون أن تخلف أحدهم لا يرضي أباهم، ولكن سولت لهم أنفسهم التظاهر بكراهة الظلم وبحب العدالة والرغبة في زجر الظالم ادعاءً منهم لأنفسهم مالا يحتاجون إليه في الإنصاف في مسألة الصواع، فقد صدق أبوهم في قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾.

وقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي فشائي أو فالذي يكون مني في هذه الحالة وعند هذه المصيبة صبر جميل، وقوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ أرجوا الله أن يأتيني بالثلاثة قريباً ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين غير مفترقين وهم يوسف وبنيامين وكبيرهم ﴿إِنَّهُ﴾ أي الله ﴿هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ فهو العليم بأحوالنا كلنا وبما أنا فيه من الحزن وهو الحكيم في تركنا مفترقين وابتلائنا بذلك، والحكيم في جمعنا بعد التفرق وانتهاء البلوى.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَأسَفُ عَلَى يوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ﴿وَتَوَلَّى﴾ أبوهم ﴿عَنْهُمْ﴾ لانتهاء الكلام بينه وبينهم في هذا الموضوع، وقال ﴿يَتَأسَفُ﴾ أسفاً - بالالف - بدلاً من - الياء - في (أسفي).

قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾
يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ

في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «والأسف: أشد الحزن» انتهى،
وقوله: ﴿يَتَأَنَّ﴾ مثل قولك: (وا) في قولك: (وارأساه) ومنه قول الشاعر:
حُمِلَتْ أَمْرًا عَظِيمًا فَاصْطَبَرْتُ لَهُ وَقَمْتُ فِيهِ بِأَمْرِ اللَّهِ يَا عُمَرَا

وفائدة قوله: ﴿يَتَأَسَّفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ حين تولى عنهم وهم يسمعون: أن
يعلموا مدى جرميتهم وأنه لم ينس يوسف بسبب فراق بنيامين وكبيرهم، بل
لا زال الأسف عليه باقياً في شدته أشد من بنيامين.

وقوله تعالى: ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾ أي ذهب سوادهما وبصرهما من حزنه
﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء بالحزن، ولا حاجة إلى أن نقول: ابيضت عيناه من
البكاء؛ لأن الحزن نفسه يضر البصر كما أن السرور يقويه.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ
الْهَالِكِينَ﴾ ﴿قَالُوا﴾ أي أبناؤه الحاضرون عنده يتظاهرون بأنهم يريدون من
أبيهم أن يثقي على نفسه ويحافظ على حياته وقوته ﴿تَاللَّهِ﴾ قسم مثل بالله،
وفيه معنى التعجب من أبيهم واستمراره على ذكر يوسف أي تذكره ﴿تَفْتَوْا﴾
أي لا تفتؤ أي لا تزال تذكر يوسف ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي حتى
تضعف وتبلى وتشفي على الهلاك أو تهلك حقيقة كسائر الهالكين.

وفي (تفسير الإمام زيد عليه السلام): «فالحرص: هو البالي الفاني، ويقال:
الحرص الذي أذابه الحزن والشوق، والهالكون: الميتون» انتهى.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾
﴿قَالَ﴾ أبوهم جواباً عنهم: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي﴾ قال في (الصحاح): «البت:
الحال والحزن» انتهى المراد، وقال فيه: «بَثَّ الخبر وأبْثه، بمعنى أي نشره» انتهى.

لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَتَأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الْظُرَّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّجَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ

وقال الراغب: وقوله - عز وجل - : ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي﴾ أي غمي الذي يبثه [كذا] عن كتمان انتهى، وقال في (الكشاف): «والبث أصعب الهم الذي لا يصبر عليه صاحبه فيبثه إلى الناس» انتهى، وفي (لسان العرب): «والبث: الحزن والغم الذي تُفضي به إلى صاحبك» انتهى المراد.

فقد اتفق كلام (صاحب لسان العرب) والراغب، ولم يعارض كلام صاحب (الصحيح) لأن الغم حال فهو أقوى في التفسير لهذه الآية، وكان يعقوب عليه السلام مظنة الغم لشدة شوقه إلى يوسف؛ لأنه يعلم أنه ما زال حياً، والشوق يؤدي إلى الغم من الحال الذي فيه المشتاق، أي من فقد ما هو إليه مشتاق، فاجتمع الغم والحزن.

وحاصل جواب أبيهم: إنما أشكو غمي أو حالي وحزني الذي أبثه بقولي ﴿يَأْسَفَى عَلَى يَوْسَفَ﴾ إلى الله لا إليكم، وليس كلامي موجهاً إليكم حتى تحببوه ﴿وَأَعْلَمَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فلذلك أشكو إلى الله ليفرج عني ما أنا فيه من الحال، وأنتم بجهلكم تنكرون علي؛ وذلك لأنه بسبب علمه ببقاء يوسف، وقد طال غيابه اشتد حزنه عليه لشدة حبه له.

﴿يَبْنِي أَدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يَوْسَفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ يقول نبي الله يعقوب ﴿يَبْنِي أَدْهَبُوا﴾ أي إلى مصر ﴿فَتَحَسَّسُوا﴾ في (تفسير الإمام زيد عليه السلام): «معناه: تخبروا» انتهى، أي اطلبوا خبراً عنهما.

وقال الشرفي في (المصابيح): «والتحسس: طلب الشيء بالحاسة، وهو شبه التسمع والتبصر، والمعنى: تعرفوا وابحثوا عنهما» انتهى.

وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ تَجَزَّى الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ
بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَأَنْتَ لَأَنْتَ يُوسُفَ قَالَ أَنَا

وقوله: ﴿وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ أي لا تزالوا راجين لروح الله وفرجه،
وقال الراغب: أي من فرجه ورحمته - وهو صحيح - وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ
مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ لأنهم أساءوا الظن بالله ونسوا كرمه وفضله؛
لأنهم كفروا نعمته التي ستكون وجحدوها بناء على سوء ظنهم بربهم.

وقد مر قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَيْتُوسٌ
كَفُورٌ﴾ [هود: ٩] وقال تعالى: ﴿وَأِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَا قَلَعْتَ أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ
كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨] ويحتمل: أن كفره هو كفر النعمة الماضية؛ لأنه نسيها
وصيرها كأن لم تكن؛ لأنه لو اعترف بها في نفسه، وذكر أنها نعمة من الله لما
نفى أن يكون مثلها في المستقبل برحمة الله وكرمه.

ولعل هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ ثم قال: ﴿ثُمَّ
نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَيْتُوسٌ كَفُورٌ﴾ فيظهر: أن ذلك كفره لما أذاقه ربه من رحمته،
فنبى الله يعقوب ينهى بنيه عن اليأس من روح الله لكونه كفراً، مع أن اليأس
يثبط عن طلب الشيء المأبوس منه، كما أن رجاء تحصيله يقوي إرادة طلبه.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَتَإَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ
مُزْجَلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ تَجَزَّى الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أرسلهم
أبوهم للبحث عن يوسف وأخيه فذهبوا للميرة وكلاهما مراد لأبيهم أما هم
فكانه قد غلب عليهم اليأس مع قلة رغبتهم في وجدان يوسف أو عدم الرغبة؛
لأنهم قد أساءوا إليه في الماضي؛ ولأنهم يغارون منه، وفي كلامهم هذا
الإعتراف بضعف الحال، والتذلل بطلب الصدقة.

يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا

وقولهم: ﴿وَجَعَلْنَا بِيضَ عَصَا مُزَجَّلَةٍ﴾ هي البضاعة التي أرجعها يوسف، وكانهم ظنوا أنه أرجعها احتقاراً لها، والمزجاة المدفوعة التي يدفعها الذي تعرض عليه لعدم رغبته فيها.

وقولهم: ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ أي لا تنقص الحب لحقارة البضاعة، والمراد بالكيل هنا الحب، أرادوا أن يوفي أحمال الإبل وإن كانت البضاعة لا تساويه، قالوا: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ أي بما زاد على ما تساويه البضاعة، وليس المراد أن لا يغشهم في كيل الحب، وقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ ترغيب له في أن يتصدق عليهم ولا يقتصر على ما تساويه البضاعة.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ﴾ ذنبكم هذا وعِظَمَ ﴿مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ﴾ فالسؤال عن علمهم بما فعلوا من حيث أنه جريمة عظيمة؛ لأنهم قد علموا ما فعلوا لكنه يسألهم هل علموا حقيقة ما فعلوا ومعناه من حيث هو ظلم ليوسف وأخيه وعقوق لأبيهم، وليس المعنى هل تذكرون؛ لأن ﴿عَلِمْتُمْ﴾ فعل ماض ولأن من يقدر أنه قد نسي يقال له: هل تذكر.

ومثل هذا قول كبيرهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ﴾ يريد تذكيرهم بحكم العهد وقبح النكث، وأن أباهم يحملهم عليه؛ لأنهم قد فرطوا في يوسف من قبل، وليس يريد مجرد تذكيرهم بالعهد، وأما قول يوسف: ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ فهو يعني: وأنتم يوم فعلتم ذلك في سن الجهالة لم تبلغوا رجاحة العقل، وهو بهذا يؤمنهم ليأملوا منه أنه لا يعاقبهم.

يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿١٢﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٣﴾ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا

﴿١١﴾ قَالُوا أَيْنَكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴿١٣﴾ قد أنعم علينا بخير الدنيا والآخرة أي بخير الدنيا والدين ﴿إِنَّهُ﴾ أي الشأن ﴿مَن يَتَّقِ﴾ الله ﴿وَيَصْبِرْ﴾ على تقواه وعلى ما ابتلاه به ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي فإن الله لا يضيع أجره؛ لأنه محسن، وكان هذا تنبيه لهم أنهم لو اتقوا الله وصبروا ما نالهم من سوء الحال والذلة ما نالهم.

﴿١١﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿١٢﴾ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ ﴿١٣﴾ لقد خصك بما لم يجعل لنا من النعمة والشرف والعز، وقولهم: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ اعتراف بالجرime فهو جواب جملي عن قوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ﴾.

﴿١٢﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ ﴿١٤﴾ يوسف - صلى الله عليه - لإخوته ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ قال (في تفسير الإمام زيد عليه السلام): «أي لا لوم عليكم».

وقوله: ﴿الْيَوْمَ﴾ لعله يعني: أنه لا حاجة اليوم إلى اللوم لكم فلا ألومكم؛ لأنه قد كفاهم ما شهدوا في أنفسهم من سوء الحال وما شهدوا في يوسف من العز والشرف مع أنهم في الأصل يحسدونه فلم يستفيدوا من الحسد إلا سوء الحال والذنوب، ولم يستطيعوا رد فضل الله على يوسف،

وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴿١٤﴾ قَالُوا تَأَلَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ

فحق لهم أن يلوموا أنفسهم، مع أن الحلم عنهم والإحسان إليهم أقرب لهم إلى التوبة والصلاح، وهذا غرض نبى الله يوسف، ولا غرض له في التشفي منهم؛ لِحِلْمِهِ وَكَرَمِهِ، ورغبته في ثواب العفو.

وقوله: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ دعاء لهم بالمغفرة وتنبية لهم على حق الله عليهم وأنه لا يكفيهم عفو يوسف بل هم محتاجون إلى مغفرة الله، فعليهم أن يتوبوا إن لم يكونوا في تلك الحال قد تابوا، ولا بأس بالدعاء بالمغفرة للحي الذي يرجى صلاحه وتوبته على معنى الدعاء بالتوفيق والهداية للتوبة لا على معنى طلب المغفرة بدون توبة.

وقوله: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ترغيب لهم في رحمة الله العظمى التي هي قبول التوبة وصرف عذاب جهنم وإدخال التائب الجنة خالداً فيها أبداً فهي رحمة لا تعادلها رحمة ولا تُدانيها.

﴿١٣﴾ ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال يوسف لإخوته ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ قوله: ﴿هَذَا﴾ يشير إلى قميص معين؛ لأن له غيره، ولعله اختار الذي هو حديث عهد بلبسه وقد لبسه كثيراً ففيه ريح يوسف.

وقوله: ﴿فَالْقُوهُ﴾ أي القميص ﴿عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ﴾ إلى مصر إلي في حال كونه ﴿بَصِيرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لتسكنوا هنا في مصر حيث تتوفر لكم أسباب المعيشة، وتتخلصون من الضر الذي شكتموه، وقوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ لتأكيد العموم، ولعله لئلا يتوهموا أنه أراد إخوته وأولادهم لأجل الرحامة دون نسايتهم الأجنبية.

الْقَدِيمِ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَتَّبِعُنَا أَنْتَ وَآبَاؤُنَا أَتُغْفِرُ لَنَا

﴿١٧﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴿١٨﴾ فَصَلَّتِ الْعِيرُ خَرَجَتْ مِنَ الْقَرْيَةِ وَانْفَصَلَتْ عَنْهَا وَهِيَ فِي أَوَّلِ سَفَرِهَا إِلَى أَبِيهِمْ ﴿١٩﴾ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَأَجِدُ رَائِحَةَ يُوسُفَ ﴿٢٠﴾ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴿٢١﴾ لَوْلَا أَنْ تُخْطِئُونَ.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معنى ﴿وَلَمَّا فَصَلَّتِ الْعِيرُ﴾ أي قطعت القرية وانفصلت منها وخرجت الإبل من المدينة وبانت عنها أهب الله الرياح برائحة يوسف إلى أبيه، ونقلت أجزاء [في نسخة (المصابيح) أخزاء، ولعل الأصل أجزاء] من قميص ولده إليه فقال حينئذ - صليوات الله عليه - لمن حضره ومن كان معه من بنيهِ ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ أي لولا أن تُخْطِئُونَ [في الأم من (المصابيح) تحيطون وهو غلط واضح] في ذلك وتجهلون، والفند: هو الخطأ والجهل، قال الشاعر:
إلا سليمان إذ قال للمليك له قم في البرية فاحدها عن الفند»

انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد عليه السلام): «وجدها من مسيرة عشرة أيام» انتهى.

﴿٢٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ قَالَ الْمَوْجُودُونَ مِنْ بَنِيهِ: ﴿تَاللَّهِ﴾ قَسَمًا فِيهِ مَعْنَى التَّعَجُّبِ مِنْ أَبِيهِمْ وَاسْتِمْرَارِهِ عَلَى تَذْكَرِ يُوسُفَ كَمَا أَنْكَرُوا عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾.

ومعنى ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي ضعف الإدراك الناتج عن كبر السن كقولهم: ﴿إِنْ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وقولهم: ﴿الْقَدِيمُ﴾ لعلهم يريدون تذكره منذ فارقه حين ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه ﴿فِي غِيَابَاتِ الْجُبِّ﴾.

ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ

﴿١٧﴾ ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ بيوسف وقرب لقائه ﴿أَلْقَاهُ﴾ أي ألقى القميص على وجهه يعقوب - صلى الله عليه - ﴿فَارْتَدَّ﴾ بعد العمى ﴿بَصِيرًا﴾ ﴿قَالَ﴾ يعقوب عليه السلام، لبيته الحاضرين ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ﴾ سابقاً ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فقد كنت أعلم أن يوسف ما زال حياً وذلك بإعلام الله لي.

﴿١٧﴾ ﴿قَالُوا يَتَابْنَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ عند انكشاف الحقيقة لهم بوجود يوسف وإيثار الله له، وقوله: ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بان كذبهم في قولهم: ﴿فَاكُلْهُ الدَّثْبُ﴾ وبان أنهم كادوه وعقوا أباهم فيه، لم يبق لهم مجال إلا أن يتوبوا ويتركوا الحسد والكيد، فقالوا توصلوا إلى التوبة الصادقة النصوح: ﴿يَتَابْنَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا..﴾ الخ.

وعلى هذا: فمعنى استغفار أبيهم لهم: طلب هداية قلوبهم حتى تساعد على التوبة النصوح بصدق الندم لأجل قبح المعصية وحق الله عليهم، وبصدق الإقلاع عن الحسد وتوابعه، والعزم على تقوى الله في كل شيء، أو توصلوا إلى قبولها ﴿يَتَابْنَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي اطلب المغفرة لنا إنا كنا مذنبين، فنحن محتاجون إلى مغفرة ذنوبنا.

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿قَالَ﴾ أبوهم: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾ لعله يعني وقت السحر وبظهر الغيب عناية منه لقبول استغفاره لهم ورحلوا إلى يوسف.

إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿١١﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٢﴾ رَبِّ

﴿١١﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿١٢﴾ تَلَقَّاهُم يُوْسُفُ خَارِجَ مِصْرَ وَنَزَلَ خِيْمَةً أَوْ مَنْزِلًا أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ لِاسْتِقْبَالِ أَبَوَيْهِ ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا﴾ أَيُّ أَبَوَاهُ وَإِخْوَتِهِ عَلَيْهِ ﴿عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ﴾ أَيُّ ضَمٍّ إِلَيْهِ ﴿أَبَوَيْهِ﴾ فَهُمَا عِنْدَهُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِهِمَا.

وما يقال: إن أبويه هما أبوه وزوجة أبيه وليست أم يوسف غير مسلم؛ لأنه خلاف ظاهر القرآن ولا وجه للعدول عن الظاهر بلا دليل، مع أنها الصغيرة فيما نعتقد؛ لأن ابنيها هما الصغيران فهي مظنة أنها الباقية إلى ذلك الحين دون أم إخوة يوسف ﴿وَقَالَ﴾ يوسف لأبويه وإخوته: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ وهذا يشير إلى أنهم كانوا قبل ذلك مكروهين عند دولة مصر بسبب اختلاف الدين سابقاً، لكنها قد تبدلت الحال بنصر الله ليوسف وحسن سياسته، فصاروا غير معادين ليعقوب وبنيه لأجل مكانة يوسف، وقال: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ لأنه مستقبل، ولو شاء الله لجعل سبباً لخوفهم.

﴿١١﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٢﴾ يُوْسُفُ ﴿أَبَوَيْهِ﴾ أَبَاهُ وَأُمَّهُ ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ عَلَى السَّرِيرِ وَلَعَلَّهُ رَفَعَهُمَا عِنْدَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾.

﴿وَحَرُّوْا لَهُ سُجْدًا﴾ ﴿حَرُّوْا﴾ هَوَوْا إِلَى الْأَرْضِ ﴿سُجْدًا﴾ لَهُ، إِمَّا بِمَعْنَى مَنْ أَجَلَهُ، أَيْ شَكَرَ اللَّهُ عَلَى أَنْ أَوْصَلَهُمْ إِلَيْهِ بَعْدَ طَوِيلِ غِيَابِهِ وَهَذَا هُوَ الَّذِي رَجَحَهُ الشَّرْفِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ، وَالْمَشْكَلُ هُوَ سَجُودُ أَبِيهِ، فَأَمَّا سَجُودُ إِخْوَتِهِ لَا عَلَى مَعْنَى الْعِبَادَةِ فَغَيْرُ بَعِيدٍ، وَقَدْ مَرَّ الْكَلَامُ فِيهِ، وَإِمَّا بِمَعْنَى: تَشْرِيفِ يُوسُفَ، وَإِقْرَارِ رِئَاسَتِهِ جَرِيًّا عَلَى عَرَفِ الْبَلَدِ، وَاتِّقَاءِ لِإِنْكَارِ النَّاسِ عَلَيْهِمْ لَوْ خَالَفُوا الْعَرَفَ لَا بِمَعْنَى الْعِبَادَةِ، وَوُقُوعِهِ مِنْ أَبِيهِ لِمُضْرُورَةِ الْحَالِ مَعَ اخْتِيَارِهِ لِلتَّوَاضُعِ، مَعَ كَوْنِهِ أَعْلَمَ مِنْ غَيْرِهِ بِفَضْلِ ابْنِهِ وَاسْتِحْقَاقِهِ لِلتَّعْظِيمِ.

وَمَنْ الْجَائِزُ أَنْ اللَّهُ أَمَرَهُ بِالسَّجُودِ لِتَوَاضُعٍ وَعَلَى هَذَا لَا يَنْكُرُ سَجُودَهُ لِابْنِهِ ﴿وَقَالَ﴾ أَيْ يُوسُفَ ﴿يَتَأْتَبِتْ هَذَا﴾ أَيْ السَّجُودَ ﴿تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ يَقْرَبُ إِلَى أَنْ سَجُودَهُمْ لَهُ كَانَ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾ إِمَّا أَحْسَنَ إِلَيَّ وَإِمَّا مُضْمَنُ أَحْسَنَ لَطْفٍ.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ يَقَالُ: أَحْسَنَ بِهِ كَمَا يَقَالُ: أَحْسَنَ إِلَيْهِ فِي اللُّغَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ لَعَلَّهُ يَعْنِي إِنْعَامَ اللَّهِ عَلَيْهِ حِينَ أَخْرَجَهُ مِنَ السِّجْنِ مُشْرِفًا مَبْرَأً مِنَ الْعَيْبِ لَا مُجْرَدَ إِخْرَاجِهِ مِنَ السِّجْنِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ جَعَلَهُ مِنْ إِحْسَانِ اللَّهِ بِهِ، وَالْبَدْوُ: سُكَّانُ الْبَادِيَةِ أَهْلُ الْأَنْعَامِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِهَا مَوَاضِعَ الْمَرْعَى وَالْمَاءِ وَهُمْ خِلَافُ أَهْلِ الْقُرَى وَالْمَدَنِ وَلَعَلَّهُ أَرَادَ نِعْمَةً صَلَاحَ مَصْرِ لِسُكْنَاهُمْ فِيهَا وَسُقُوطَ وَجُوبِ الْهَجْرَةِ عَنْهَا بِمَصِيرِهَا دَارَ إِسْلَامٍ فَلَمْ يَبْقَ مُوجِبَ لِبَقَائِهِمْ فِي الْبَدْوِ.

قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّـَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ

وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أي جمع الله بيننا هنا ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ﴾ أي تفرقنا بسبب أن نزغ الشيطان ﴿بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أي من بعد كيد إخواني الذي سبب الفراق الطويل وخفاء مكاني على أبي، وقال: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ فراراً من الشرب عليهم.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ أي بصير به ولو بتسبيب خفي غامض ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ فلا يخفى عليه تسبيب الأسباب ﴿الْحَكِيمُ﴾ فهو يهيء ما تقتضيه حكمته وأفعاله كلها محكمة.

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّـَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ شكراً للنعمة وتقدمة للدعاء، وقوله: ﴿مِنَ الْمُلْكِ﴾ لأن ملك مصر شركه في الملك يجعله على خزائن الأرض.

وقوله: ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ شكر على تعليم نفعه في السجن وسبب لإخراجه من السجن ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي يا فاطر السموات والأرض الذي خلقها ابتداء ﴿أَنْتَ﴾ يا الله ﴿وَلِيِّـَ﴾ ولي أموري ومصالحي ورعايتي أو مالكي المدبر لأُموري ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا ﴿بريئاً من الشرك مسلماً لك وجهي ونفسي﴾ ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ في درجات الآخرة.

وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٨﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي

ولعله عليه السلام بدأ بذكر نعمة الملك وتأويل الأحاديث لئلا يكون الكلام في صورة التضجر من حالته التي هو فيها والاحتقار لنعمة الله عليه بما آتاه من الملك وعلمه من تأويل الأحاديث، ولو كان السياق لذكر نعم الله عليه لكان ذكر نعمة الهداية والعصمة أهم من غيره.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ ﴿ذَلِكَ﴾ القصص بالحق ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ فهو دليل على أنك نبي يوحى إليك وأن هذا القرآن من الله ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ لدى إخوة يوسف ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ سراً بينهم ودبروا مكيدتهم أو عزموا عليها ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ يكيدون ليوسف وأبيه فما علمت هذا القصص الكامل المفصل المشتمل على خفي الحوادث المكتومة ما علمته وأنت لم تكن تقرأ كتاباً ولا تحطه بيمينك، إنما نشأت بين الأميين ما علمت ذلك القصص إلا بوحى الله إليك.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ قال الشرفي في تفسيره: «أي أحكموه» وقال الراغب: «وأجمعت كذا، أكثر ما يقال فيما يكون جمعاً يتوصل إليه بالفكرة نحو: ﴿فَلْجَمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ [يونس: ٧١] قال الشاعر:

هل أغزون يوماً وأمرى مُجْمَع

وقال تعالى: ﴿فَلْجَمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ [طه: ٦٤] انتهى.

وقال في (الصحيح): «ويقال: أجمع أمرك ولا تدعه متشراً، قال الشاعر:

تَهْلُ وتَسْعَى بالمصاييح وسَطْهَا لها أمر حزم لا يَفَرِّقُ مُجْمَع

الْسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمْرُوتَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ

وقال آخر:

ياليت شعري والمنى لا تنفع هل أغدول يوماً وأمرى مُجْمَعُ

انتهى المراد، وفي (الصحيح): «قال الكسائي: يقال: أجمعت الأمر، وعلى الأمر: إذا عزمت عليه» انتهى.

وفي الرواية عن النبي ﷺ: «لا صيام لمن لم يجمع الصيام من الليل» والراوي عربي اللسان، والمعنيان متقاربان، ولعل جعله بمعنى العزم خاص بالفرد من الناس، كما في تعبير الكسائي ولفظ الرواية، أما إذا نسب إلى الجمع، فالظاهر: ما ذكره الشرفي بمعنى ما ذكره الراغب و(صاحب الصحيح).

فحاصل المعنى: وما كنت يا محمد لدى إخوة يوسف إذ أبرموا كيدهم عند تشاورهم، وأجمع رأيهم على إنزال يوسف ﴿فِي غِيَابَاتِ الْجُبِّ﴾ وكان ذلك سراً فيما بينهم، فما علمته يا محمد إلا بوحي الله إليك.

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي أن آيات الله قد دلت على رسالتك وأكثر الناس لا يؤمنون، وإن تبين أنك رسول الله ولو حرصت على إيمانهم فلا تتعب نفسك بالحرص على إيمانهم.

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ فهذه زيادة حجة عليهم أنهم لا يخافون من اتباعك مغرمات يثقلهم ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما هو ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ تذكير ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ ليتنبهوا من غفلتهم ويتفكروا فيؤمنوا.

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمْرُوتَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ ءَايَةٍ﴾ وكم من آية ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾

اللَّهُ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «هم قوم شبهوا الله بخلقه فأشركوا من حيث لا يعلمون» انتهى.

ومعنى هذا: أنهم يعبدون صورة يتوهمون أنها هي الله، وإيمان المؤمنين بالله حجة عليهم، وقد تكرر في القرآن الكريم الاحتجاج عليهم [انظر الآيات في سورة المؤمنين من آية ٤٧ إلى غاية آية ٨٨] وفي (سورة الزخرف): ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [آية ٩:] وإيمانهم قد دلت الآية على أنه قاصر عن الإيمان الذي يبعث صاحبه على العمل بما يدعو إليه فهو مجازي، بمعنى التصديق والإقرار بالله بقلوبهم وألسنتهم.

﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿أَفَأَمِنُوا﴾ أي المشركون مع إيمانهم بالله أن تأتيهم غاشية تغشاهم وتعمهم، وهي عذاب من عذاب الله العاجل في الدنيا ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ﴾ القيامة ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة فلا تقبل منهم توبة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بقربها لم يشعروا إلا بمفاجأتها.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ التي أسلكها وأمضي عليها لا انحرف عنها ﴿أَدْعُو﴾ عباد الله ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ ليؤمنوا به وينزهوه عن الشريك ويعبدوه وحده لا شريك له ويتقوه ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ عما يصف المشركون ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بل أنا بريء منهم.

الْقُرَى ۖ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾ حَتَّىٰ إِذَا

وقوله تعالى: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ أي اتبعني في ديني الذي أدعو إليه فهم يدعون إلى الله، وقوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي على علم يقين بأنني على الحق؛ لأنني على بينة من ربي وكذلك من اتبعني في ديني الذي هو دين الله فهو على بصيرة من ربه؛ لأنه على بينة من ربه وهي هذا القرآن، فهم في دعوتهم إلى الله على بصيرة، وهي مستمرة بعد وفاة الرسول ﷺ من اتبعه، وعملوا بقوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنكُم أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا يُوحَىٰ﴾ إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى ۚ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا﴾ لم نرسل إلى الأمم ملائكة كما يقترح الكفار ﴿يُوحَىٰ﴾ إِلَيْهِمْ لا يعلمون الغيب بل صحت رسالتهم وأمكن بالوحي ﴿مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ ليكونوا معروفين بين أهل القرى، أما البدو فقد يكونون مجهولين لا يعرفهم إلا القليل من الناس.

وأما نبي الله يعقوب إن كان رسولاً فلعله كان من أهل القرية، ثم هاجر عنها لما لم يؤمنوا به كما هاجر إبراهيم عليه السلام وكذلك يوسف عليه السلام أرسل إلى أهل مصر بعد أن صار منهم، وأما إخوته فلم يثبت أنهم من الرسل، وإن صح أنهم صاروا أنبياء بعد توبتهم فلم يصح أنهم رسل، والله أصدق القائلين، قد أخبر بأنه لم يرسل إلا من أهل القرى.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾

أفلم يسر المكذبون بك يا رسول الله في الأرض فيروا آثار الذين من قبلهم حيث كانوا ساكنين فينظروا كيف كان عاقبتهم بسبب تكذيبهم لرسولهم ففيهم

أَسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ
وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ

عبرة لهم لو اعتبروا بهم لأنقذوا أنفسهم من عذاب الله ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ وهي
الجنة ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأنها ماواهم فهي خير من الدنيا وأغراضها وما
شغل به المكذبون من متاعها ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ حيث لم تطلبوا ما هو خير لكم
وتتقوا سبب عذابكم، بل أنهم يعقلون ولكنهم أهملوا عقولهم، وقوله تعالى:
﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ تبيكت لهم واحتجاج عليهم بالعقول.

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا
فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ قال الشرفي رحمه الله في
(المصابيح): «﴿حَتَّىٰ﴾ متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام، كأنه قيل: وما أرسلنا
من قبلك إلا رجالاً فتراخى نصرهم حتى إذا استيأس الرسل» انتهى المراد.
قلت: الأولى أنها كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا
كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤] فالمعنى: وما أرسلنا قبلك إلا
رجالاً تحملوا الرسالة وصبروا عليها حتى إذا استيأسوا وظنوا أنهم قد
كذبوا جاءهم نصرنا.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ أي أيسوا، وكان زيادة الصيغة
بصيغة استفعلوا للدلالة على أنه لم يكن من شأنهم اليأس، وإنما أوقعه بهم
سبب موجب لليأس فاستسلموا له، وذلك مثل نزول الوحي على الرسول
منهم ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ فلعله ظنهم أن قومهم قد
صرحوا برميهم بالكذب على الله؛ لأنهم كانوا من قبل يستحيون من الجزم

بكذبهم، ويكتفون بمثل قولهم: ﴿مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧] ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣] ﴿وَأَنْ نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٦] ونحو هذا فلما طالت المدة تجرؤوا على الجزم بكذب رسلهم.

ألا ترى إلى قوله تعالى في رسوله نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُون﴾ [المؤمنون: ٢٦] ﴿فَأَفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَالْحِجَابُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُون * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ﴾ وقوله تعالى في رسوله هود عليه السلام: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَمْلَكْنَاهُمْ﴾ [الشعراء: ١٣٩] وفي رسوله شعيب: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩] وغير هذه الآيات.

وقوله تعالى: ﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ يؤخذ منه أنه يجيء نصرهم عند ذلك؛ لأن قومهم قد كذبوهم وإن لم يسمعهوا إلا من بعضهم أو وإن لم يسمعهوا أصلاً وقد سمعه الله.

فإن قيل: فكيف بقوله تعالى حاكياً عن نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُون..﴾ [الشعراء: ١١٧] إلى آخر الآيات؟

قلت: يحمل على أنهم كذبوه قبل أن يسمع منهم التكذيب وجاءته عند ذلك مبادئ النصر وأوائله، وأن دعاءه عليهم كان بعد ذلك حين سمع التكذيب - والله أعلم.

وقال الشريفي في (المصابيح): «ومن رواية القاسم بن إبراهيم عليه السلام عن ابن عباس عليه السلام في قوله - عز وجل - : ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ﴾ قال: فهو استيناسهم من إيمان قومهم، وظنهم فهو ظنهم لمن أعطاهم الرضى في العلانية أنه قد كذبهم في السر وذلك لطول البلاء عليهم ولم يستيئس الرسل من نصر الله، ولم يظنوا أن الله قد أخلفهم ما وعدهم» انتهى.

لِأُولَى الْأَلْبَابِ ۖ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصَدِّيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

وقوله تعالى: ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ أي جاء الرسل نصرنا بتعذيب المكذبين لهم، وقوله تعالى: ﴿فَنُنَجِّيْ مَنْ نَّشَاءُ﴾ أي من نشاء أن ننجيه، ولعله هنا بمعنى الرسل ومن آمن بهم أنجاهم؛ لأنه قادر على إنجائهم في حال إهلاك قومهم فأنجاهم بمشيئته بأي وسيلة شاء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي ولم ينجِ المجرمون من العذاب عند نزوله عليهم لا بقولهم: ﴿أَمْنَا﴾ حين رأوه ولا بأي وسيلة؛ لأنه ﴿لَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ۚ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصَدِّيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي﴾ قصص الرسل المذكور في القرآن عبرة لأولي الأبواب أي لأهل العقول نافعة لمن استعمل عقله فاعتبر بها ﴿مَا كَانَ﴾ أي ما كان القصص ذلك ﴿حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ بل هو الحق ففيه العبرة.

ولكن ذلك القصص ﴿تَصَدِّيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتاب الذي هو التوراة أو التوراة والإنجيل؛ لأن فيه ما يصدق قصصاً فيها فذلك دليل على أنه من الله أنزله على رسوله محمد ﷺ لأنه لم يكن يتلو من قبل القرآن كتاباً ولا يخطه بيمينه، وهو نشأ أمياً في أمة أميين، فلا يُعقل أن يعلم قصص القرآن إلا بوحي من الله.

والأقرب: أن قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ بمعنى ما كان القرآن الذي فيه القصص حديثاً يُفترى، بدليل بقية الآية قوله تعالى:

﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي وتفصيل بيان كل شيء أي جعله مفصلاً لتفهم بتفاصيله دلالاته.

وقوله تعالى: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ كقوله تعالى في (التوراة): ﴿وَكُتُبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥] وقوله تعالى في مَلِكَة سَبَأ: ﴿وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] وهي عبارة تُستعمل للدلالة على الكثرة وكثرة الأنواع، والمراد تفصيل كل شيء من علوم الدين التي تحتاج الأمة إلى جعلها في القرآن مفصلة.

وقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] وقوله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان: ٣] فهم الذين يهتدون ويرحمون بالقرآن؛ لأنه ينقذهم من النار، والحمد لله رب العالمين.

تم تفسير (سورة يوسف) بعون الله

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله وسلم



فهرس تقريبي لأهم المسائل والمواضيع التي تضمنها هذا المجلد

م	الموضوع	اسم السورة	رقم الآية
١	لاذكر لموازنة بين الحسنات والسيئات في القرآن الكريم	الأعراف	٩
٢	اسم الملك صفة وليس اسم جنس مخصوص	الأعراف	١٢
٣	فصل في معنى العرش	الأعراف	٥٤
٤	معنى [تجلى ربه للجبل]	الأعراف	١٤٣
٥	لفتة في تفسير [وألقي الألواح]	الأعراف	١٥٠
٦	لماذا وقف هارون مع عبده العجل؟ وما العبرة في ذلك؟	الأعراف	١٥٠
٧	الذلة في الدنيا عقوبة عامة للمفترين في كل زمان	الأعراف	١٥٢
٨	في تفسير [يبيعثن عليهم إلى يوم القيامة]	الأعراف	١٦٧
٩	معنى إقامة الصلاة	الأنفال	٣
١٠	[يجعل لكم فرقانا، ما هو الفرقان؟]	الأنفال	٢٩
١١	مراحل المواجهة مع الكفار	الأنفال	٣٨
١٢	ستة أمور يجب مراعاتها في الحروب	الأنفال	٤٧
١٣	رد على المجبره ونحوهم	التوبة	٧٠
١٤	تحديد النفاق	التوبة	٩٧
١٥	تخريج حديث: [إن الله أمرني بحب أربعة]	التوبة	١٠٠
١٦	معنى قوله تعالى: [كونوا مع الصادقين]	التوبة	١١٩
١٧	تفسير [ولا نضر] وكونها غير ناسخة لوجوب الجهاد إلا على الكفاية	التوبة	١٢٢
١٨	حوار في مسألة الخلود في النار	يونس	٢٧
١٩	في تفسير [المجيد]	هود	٧٣
٢٠	في تفسير [ولا تركنوا إلى الذين ظلموا]	هود	١١٣

م	الموضوع	اسم السورة	رقم الآية
٢١	في تحقيق معنى «ولا يزالون مختلفين»	هود	١١٨-١١٩
٢٢	الفرق بين سجود العبودية والتعظيم	يوسف	٤
٢٣	بماذا نتوصل إلى العلم والمعرفة؟	يوسف	٢٢
٢٤	لماذا عظم اعتقاد الملك في يوسف (ع)؟	يوسف	٥٤
٢٥	تصور لمدى غياب يوسف عن أبيه	يوسف	٧٨
٢٦	لا نسلم موت أم يوسف قبل لقائه بمصر	يوسف	٩٩
٢٧	توضيح آخر لمسألة السجود ليوسف	يوسف	١٠٠

محتويات الجزء الثالث			
رقم السورة	السورة المفسرة	الصفحات	
		من	إلى
٧	سورة الأعراف	٥	١٥٤
٨	سورة الأنفال	١٥٥	٢٢٠
٩	سورة التوبة	٢٢١	٢٤٨
١٠	سورة يونس	٢٤٩	٤٢٢
١١	سورة هود	٤٢٣	٥٢٢
١٢	سورة يوسف	٥٢٣	٦٠٢
	فهرس بأهم المواضيع والمسائل	٦٠٣	٦٠٤
	فهرس المحتويات		٦٠٤